منشورات اتحاد



القاهـــرة

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

مع نخب النساء في حجهن إلي بيت الله الحرام في العصرين الأموي والعباسي مواكبهن ومثرهن

د. إلهام بنت أحمد عبد العزيز البابطين
أستاذ مشارك بكلية الآداب جامعة الملك سعود

الملخص:

نبعت فكرة البحث مما لاحظته – في حدود علمي – من أن كل من كتب عن الحج إلى مكة المكرمة وزيارة دار المصطفى ﷺ لم يخص حج النساء ببحث أو بدراسة مستقلة، على الرغم من أن ذكرهن في هذا الشأن يرد على نحو متناثر في بعض المصادر التي وصلت إلى يديَّ؛ ذلك أنه منذ أن فُرض الحج على المسلمين أدى هذه الفريضة مئات الألوف من النساء عبر القرون. ولكن التاريخ لم يحفظ منهن إلا القليل من أكابرهن ومشاهيرهن ممن كان لحجهن شهرة، وممن تركن بصمات وذكريات ومآثر خلدها لهن التاريخ؛ وسيركز البحث بصورة خاصة على المواكب النسائية وما فيها من فراهة وأبهة، وكذلك ما لتلك الفئة من النساء من مآثر في مكة المكرمة وفي الطريق إليها. وسيتضمن جداول بأسماء من حج من مشاهير النساء وتواريخ حجهن وعدد حجاتهن ونفقاتهن في الحج.

توطئة:

الحج من أقدم العبادات السماوية التي عرفتها البشرية، وكان العرب في مختلف العصور يقومون بتأدية تلك العبادة على صورة تناسب فطرتهم، وتتمشى مع جاهليتهم. وكانوا على دينين حِلّة وحُمْس؛ فالحمس قريش وكل من وَلَدت من العرب، فكانت قريش إذا أنكحوا عربيا امرأة منهم اشترطوا عليه أن كل من ولدت له فهو أحمسي على دينهم[i]. ومن طقوسهم في الحج يطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم[ii]. أما تقاليد نساء الحلة – وهم

قبائل من العرب – في أول حجة لهن يطفن ليلا عراة بينما يطوف الرجال نهارا عراة أيضا ويقولون نطوف كما ولدتنا أمهاتنا[iii] وقيل كانوا يفعلون ذلك ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب[iv]. ويقال كانت الحُمْس يحتسبون على الناس، يعطي الرجلُ الرجلَ الثيابَ يطوف فيها، وتعطي المرأةُ المرأةَ الثيابَ تطوف فيها، فمَن لم يعطه الحُمْس طاف بالبيت عريانًا. وقد تطوف المرأة في ثيابها فإن طافت بها لا يحل لها أن تلبسها أبدا، ولا يُنتفع بها، وتطرحها بباب المسجد فلا يمسها أحد من خلق الله حتى تبليها الشمس والأمطار والرياح ووطء الأقدام، وتسمى اللقى[v].

وكان بعض نسائهم تتخذ سيورا فتعلقها في حقويها، وتستتر بها، وفي ذلك قالت ضباعة العامرية[vi]:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلا أُحِلُّهُ

هذا بالنسبة لحج النساء في العهد السابق للإسلام وليس لدينا معلومات تفصيلية عن مواكبهن ولا مآثرهن.

ثم جاء الإسلام فهدم ذلك كله، وجعل الحج صورة للمساواة بين الناس، فعندما حج أبي بكر بالناس سنة ٩هـ/٦٣١م أعلن تحريم الحج عرايا قائلا: "ولا يطوف بالبيت عريان"[vii]؛ بل مُنِعَ الناس أيضًا من الحج في ثيابهم المعتادة، وفُرِضَ عليهم أن يلبسوا ملابس واحدة متشابهة، وهي ثياب الإحرام وأما النساء؛ فيلبسن ما اعتدْنَه من الملابس.

وفرض الإسلام شعيرة الحج على معتنقيه رجالاً ونساءًا، ولكن على كل من استطاع إليه سبيلا، فشدت الرحال إلى مكة، وقطعت لذلك المسافات الشاسعة تيمنا بسنن الأنبياء، واستجداء لمثوبة الله وغفرانه. وكما تقاطر الرجال حجاجا إلى بيت الله الحرام ، كانت النسوة أشد حرصًا على تأدية تلك الفريضة لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[viii] . وتباينت تكاليف حجهن بحسب قدراتهن المادية والمعنوية، وهو محور بحثنا هذا حيث إن العينة النسائية التي يتعامل معها البحث هن ممن كانت تكاليف حجهن مرتفعة ومتفاوتة. فسوف نرافق في بحثنا هذا

نخبة من النسوة في طريق حجهن إلى مكة المكرمة وزيارتهن لمدينة الرسول ابتداءً من عصر صدر الإسلام وحتى نهاية العصر العباسي (٦٥٦هـ/٩٧٤م) حسبما ورد في المصادر المتاحة من روايات :

المواكب النسائية في الحج :

كانت نساء المسلمين يخرجن للحج ضمن ركب قافلة الحجيج في مواكب خاصة بهن تحملهن الهوادج، ولكن مواكبهن تباينت في مظاهرها من عصر لآخر وأيضاً من امرأة لأخرى، وفقاً للمكانة الاجتماعية لهن، ولعل أسباب الخروج في مواكب لها شأنها يعود لإظهار هيبة وعظمة الدولة والبيت الحاكم، وأيضاً الرفع من شأن المرأة، كما أنه يعطي دلالة على الحالة الاقتصادية للدولة.

وفيما يلي سنستعرض أهم رحلات الحج التي ورد ذكرها في المصادر، وعلى ضوئها سنستنتج سمات مواكب كل عصر، وسنلحظ الفوارق بين العصور فمواكب النساء في العصرين النبوي والراشدي تتميز بالبساطة عن مواكب النساء في العصرين الأموي والعباسي ذات البهرجة الكبيرة والمظاهر المُترفة، ففي حجة الوداع سنة ١٠هـ/٦٣٢م حج ﷺ بنسائه جميعا في الهوادج، وكان متاع أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر(ت٥٧هـ/ ٦٧٧م) رضي الله عنهما خفيفا، وكان على جمل سريع، بينما كان متاع صفية بنت حيي(ت٥٢هـ/٦٧٢م) فيه ثِقَلٌ، وكان على جمل ثَقَالٍ بطئ السير، فقال عليه الصلاة والسلام: حولوا متاع عائشة على جمل صفية، وحولوا متاع صفية على جمل عائشة حتى يمضي الركب[ix]. إذن فقافلة الحج في العصر النبوي كانت بسيطة ليس فيها تكلّف بل بقدر ما تقتضيه حاجة المرأة.

ولا تتوفر لدينا أية معلومات عن مواكب الحج في العصر الراشدي فيما عدا ما ذكر عن حج بعض أزواج النبي ﷺ في آخر سنة من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه(٢٣هـ/ ٦٤٤م) عندما حج عمر بن الخطاب حجته الأخيرة فأرسلن إليه وهن عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر(ت٤٥هـ/٦٦٥م) وأم سلمة هند بنت أبي

أمية(ت٥٩هـ/٦٧٨م) وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان(ت٤٤هـ/٦٦٤م) وجويرية بنت الحارث(ت ٥٠هـ/٦٧٠م) وصفية بنت حُييّ وميمونة بنت الحارث(ت٦١هـ/٦٨٠م) يستأذنّه في الخروج فأذن لهنّ وأمر بجهازهنّ فحُملن في الهوادج على الإبل، وعلى هوادجهن الطيالسة الخضر وبعث معهن عبدالرحمن بن عوف(ت٣٢هـ/٦٥٢م) وعثمان بن عفان(٣٥هـ/٦٥٦م) رضي الله عنهما فكان عثمان يسير على راحلته أمامهن فلا يدع أحدا يدنو منهن، وكان عبدالرحمن يسير على راحلته من ورائهن فلا يدع أحدا يدنو منهن، وينزلن مع عمر كل منزل[x]. وفي خلافة عثمان بن عفان(٢٣-٣٥هـ/٦٤٤-٦٥٦م) اجتمعت أمهات المؤمنين عائشة وأم سلمة وميمونة وأم حبيبة فأرسلن إليه يستأذنه في الحج فقال: أنا أحج بكنّ كما فعل عمر فحج بهن عثمان جميعا[xi]. وبذلك يمكن القول أن مواكب الحج في العصر الراشدي لم تكن تختلف عن حالها في عهد رسول الله ﷺ، خصوصاً في فترة خلافتي أبو بكر وعمر إذ اتبعوا سياسة الرسول ونهجه غير المتكلّف في الحياة، أيضاً موارد الدولة الاقتصادية كانت تصرف على الجهاد ومعارك الفتوح فضلا عن رعاية شؤون المسلمين، وتوفير احتياجاتهم الأخرى. وغني عن الذكر ما مرت به دولة الإسلام من فتن وانشقاقات منذ مقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ٢٣هـ/٦٤٤م وبعده عثمان بن عفان وأخيرا علي بن أبي طالب ٤٠هـ/٦٦١م رضي الله عنهم جميعا.

ولكن الحال تغير في فترة مبكرة من العصر الأموي حيث تغير نمط الحياة وتسللت إلى أساليب العيش مظاهر الترف، فظهر ما يسمى بمواكب الحج النسائية وفيها تباشر المرأة إعداد موكبها بنفسها لحرصهن على الظهور بأبهى المناظر وأزهى المظاهر بل كن يتنافسن ويتباهين في مواكبهن حتى ليتبارى الشعراء في وصفها؛ فمثلا شهد حج سنة (٧٥هـ/٦٩٤م) عدة مواكب نسائية، منها موكب عاتكة بنت يزيد بن معاوية(ت١٢٦هـ/ ٧٤٣م) زوج الخليفة عبدالملك بن مروان(٦٥-٨٦هـ/٦٨٥-٧٠٥م) الذي قال لها عندما استأذنته في الحج: ارفعي حوائجك واستظهري فإن عائشة بنت طلحة (ت١٠١هـ/٧٢٠م) تحج، فرفعت حوائجها وتهيأت فجاءت بهيئة جهدت فيها[xii]. فلما سارت إلى مكة نافسَها

عدة مواكب لعائشة بنت طلحة فالموكب الأول لخازنتها، يليه موكب لا يقل عظمة عن الموكب السابق لما شطتها، وموكب ثالث مماثل أمامها، ثم موكبها الذي فاق المواكب جميعا ويضم ثلاثمائة راحلة عليها القباب والهوادج، بحيث فاق المواكب جميعها حتى قالت عاتكة زوج الخليفة عبدالملك بن مروان: ماعند الله خير وأبقى[xiii].

وغالباً ما كانت المرأة تصطحب معها حادياً يقود قافلتها، وينشد لها طوال فترة السفر[xiv]. ففي سنة ٩٥هـ/٧١٤م عزمت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله التيمية على الحج مرة أخرى، ويبدو أن عائشة كانت تحرص كل الحرص على الإعداد لحجها بأجمل ما يكون عليه الحج من المظاهر؛ فدخلت على الخليفة الوليد بن عبدالملك(٨٦-٩٦هـ/٦٨٥-٧١٥م) وقالت: يا أمير المؤمنين مُرْ لي بأعوان يكونون معي، فضم إليها جماعة يكونون معها فحجت في موكب من ستين بغلا من بغال الملوك عليها الهوادج والرحال فقال حاديها:

عائِشَ ياذاتَ البِغَالِ السِّتِّين   لاَ زِلْتِ مَا عِشْتِ كَذَا تَحِجِّيْن

وفي نفس السنة حجت سُكَيْنَة بنت الحسين(ت ١١٧هـ/ ٧٣٥م) فكانت عائشة أحسن منها آلة وثقلا فقال حادي سكينة:

عَائِشَ هذه ضَرَّةٌ تَشْكُوكِ   لولا أبُوها ما اهتدى أبوكِ

فأمرت عائشة حاديها أن يكفَّ، فكفَّ احتراما لسُكينة[xv].

وهذا يوضح التنافس بين نُخب نساء العصر الأموي في تجهيز مواكب الحج، وأنه قد يُراد بها إبراز وجاهة اجتماعية.

وكانت مواكب الحج النسائية في العصر الأموي مزينة بأفخر الزينة تصل إلى مكة بمرافقة الجواري والخدم التي تسمح لهم صاحبة الموكب بذلك لتأدية فريضة الحج طلباً للأجر والثواب، فهذه عاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان حجت مصطحبة معها الجواري[xvi]،وكذلك لما حجت عاتكة بنت يزيد بن معاوية(ت١٢٦هـ/٧٤٣م) كان معها جواريها[xvii] إضافة لما سبق ذكره للتو عن حج عائشة بنت طلحة وسكينة بنت

الحسين[xviii] ، وكذلك فقد اصطحبت فاطمة بنت عبدالملك بن مروان معها الجواري والخدم[xix]، أما أم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان فلما استأذنت زوجها الخليفة الوليد بن عبدالملك في الحج، وأذن لها حجت سنة ٩١هـ/٧١٠م ومعها من الجواري ما لم ير مثله حسنا على رأسهن جاريتها الشهيرة غاضرة وكتب الوليد يتوعد الشعراء جميعا أن يذكرها أحد منهم أو يذكر أحدا ممن معها[xx].

وقد عكست المبالغة بزيادة مظاهر مواكب الحج بين النساء التنافس الشديد بينهن، لاسيما القرشيات، سواء كن من المقيمات في الحجاز، أو ممن يقمن في دار الخلافة في بلاد الشام.

وكانت هناك مواكب تنافس مواكب نساء الخلفاء وعلية القوم منها موكب المغنية الشهيرة جميلة السُلمية(ت١٢٥هـ/٧٤٣م)، ويشتمل على الهوادج والقباب المزينة على الإبل التي تميزت بالفخامة والتجمل، وخرج معها عدد من الرجال والنساء مشيعين ومشيعات لها، ومعظمات لقدرها، وخرج معها ثلاثون رجلا وتخايروا في اتخاذ اللباس العجيب الظريف، وكذلك في الهوادج والقباب، كما خرج معها عدد من المغنيات، ولحقها خمسون قينة وجه بهن مواليهن معها، فأعطوهن النفقات، وحملوهن على الإبل في الهوادج والقباب ولكنها أبت إلا أن تنفق هي عليهن من مالها الخاص حتى قال من شاهد الموكب من الناس أنهم ما رأوا مثل ذلك الجمع سفراً طيباً وحَسَناً وملاحة[xxi]. ولمّا اقتربت من مكة استقبلها عدد من مشاهير المغنين أمثال سعيد بن مسجح، وابن سريج، والغريض، وابن محرز، فدخلت جميلة مكة وما بالحجاز مغنٍ حاذق ولا مغنية إلا وكانوا معها، وخرج أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيئتها[xxii]. وربما كانت الأغاني في تلك المناسبة تظهر الزهد والورع والموعظة والتذكرة التي تناسب فريضة الحج، وهو ما يعرف بالغناء الديني.

وبذلك فإن شهيرات النساء في العصر الأموي لم يكن حجهن حدثاً عابراً كما هو الحال مع الألوف المؤلفة من النساء اللاتي حججن إلى مكة عبر السنين، وإنما هو حدث

يتناقل الناس أخباره قبل وصوله، ومما له دلالته أن المغنية جميلة السُلمية خرجت لها الجموع من أهل مكة مستقبلة لها، ونحو ذلك فعل لها أهل المدينة عند خروجها منها حينما خرجت الجموع لتوديعها، وذلك لشهرتها في مجال الغناء، حيث كانت ذات حظوة في مجتمعها.

أما في العصر العباسي فقد كانت معظم أمهات الخلفاء يحججن بتجمل وزينة وسعة في العطاء وفي مكارم الأخلاق التي يضرب بها المثل حتى إنه ليتكرر في المصادر ذكر عبارة: "حجت كما تحج أمهات الخلفاء من التجمل والزينة، وسعة العطاء ومكارم الأخلاق"[xxiii]. حدث ذلك لما حجت الخيزران(ت١٧٣هـ/٧٨٩م) زوجة الخليفة العباسي المهدي(١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٥-٧٨٥م)وأم ولديه الهادي(١٦٩-١٧٠هـ/٧٨٥-٧٨٦م) والرشيد (١٧٠- ١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م) التي كان حجها في غاية التجمل[xxiv] .

ولما حجت السيدة زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور (ت٢١٦هـ/ ٨٣١م) وزوج الخليفة الرشيد (١٧٠- ١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م) وأم الأمين (١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٨-٨١٣م) أنفقت في حجتها (ستين يوما) أربعة وخمسين ألف ألف درهم[xxv] (أكثر من خمسين مليون درهم بحسابنا اليوم). ويصف المقريزي حجتها في كتابه الذهب المسبوك بأنها "كانت حجة عظيمة"[xxvi]، لكنه لم يوضح تفاصيلها عدا ما ذكر أنها حجت ماشية إلى مكة المكرمة[xxvii]. والجدير بالملاحظة أن المصادر الأخرى حينما تأتي إلى ذكر حجتها تستفيض في الحديث عن الخدمات والإصلاحات التي قدمتها للحجاج من غير ذكر لصفة الموكب أو القافلة التي خرجت معها على الرغم من تعدد حجاتها. ونقدر أن موكبها عظيماً وفارها، ولكن حسناتها وما قدمته للحجاج من خدمات وإصلاحات غطت على كل المظاهر الخاصة.

ولما حجت شجاع(ت ٢٤٨هـ) أم الخليفة المتوكل على الله(٢٣٢- ٢٤٧هـ/٨٤٧-٨٦١م) في عام ٢٣٦هـ/٨٥١م مع ولد ولدها المنتصر بالله محمد بن المتوكل(٢٤٧-٢٤٨هـ/٨٦١-٨٦٢م) وصف تجهيز حجتها في تجمل زائد[xxviii] .

وتجدر الملاحظة أنه في العصر العباسي الثاني (٢٣٢-٣٣٤هـ/ ٨٤٧-٩٤٦م) لا نجد إشارات واضحة إلى قوافل الحج، ولعل مرجع ذلك يعود إلى الضعف الذي حل ببلاط الخلافة وسيطرة الأتراك وتسلطهم وظهور بعض الحركات الخارجة عنها، مثل القرامطة الذين استفحل أمرهم في شرق الجزيرة العربية، وأقلقوا قوافل الحج المارة بالأراضي التي يسيطرون عليها خلال الفترة وسطوا على البيت الحرام وقلعوا باب البيت والحجر الأسود وطرحوا القتلى في بئر زمزم عام ٣١٧هـ/ ٩٢٩م ودام الحجر الأسود عندهم حتى عام ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م[xxix].

أما بعد ذلك وخلال العصر العباسي الثالث أو عصر النفوذ البويهي (٣٣٤-٤٤٧هـ/ ٩٤٦- ١٠٥٦م) فتفيض المصادر في ذكر مواكب الحج الفاخرة ومنه في سنة ٣٦٦هـ/٩٧٧م موكب جميلة ابنة ناصر الدولة الحسن بن عبدالله ابن حمدان (ت٣٧١هـ/٩٨١م) صاحب الدولة الحمدانية في الشام والموصل (٣١٧-٣٩٤هـ/ ٩٢٩-١٠٠٤م) في حجتها التي ضُرب بها المثل في التجمل وأفعال الخير، فكان معها أربع مئة محمل أو كجاوة[xxx] لم يدر في أيها كانت لتساويها في الحسن والزينة، واستصحبت البقول المزروعة في المراكن الخزف على الجمال التي قدرت بعشرة آلاف جمل، وأفردت للرجالة والمنقطعين ثلاث مئة جمل، وقيل خمس مئة، ونثرت على الكعبة حين شاهدتها وقيل لما دخلتها عشرة آلاف دينار من ضرب أبيها، ولم تستصبح عندها وفيها إلا بشموع العنبر. وكان معها ألف عجوز، واعتقت ثلاث مئة عبد، وثلاث مئة أمة، وسقت جميع أهل الموسم السَّوِيقُ بالطَّبَرْزَد[xxxi] والثلج، وأعطت المجاورين عشرة آلاف دينار، وخلعت على طبقات الناس خمسين ألف ثوب، حتى ليقال أنفقت من الأموال الجزيلة ما لا يوصف بعضه عن زبيدة ولا غيرها من بنات الخلفاء ونساء الملوك[xxxii].

وفي سنة ٤٥٥هـ/١٠٦٣م حجت أسماء بنت شهاب السيدة الحرة الصليحية زوجة علي بن محمد بن علي الصليحي ملك اليمن ومكة في موكب فيه مائتي جارية مزينات

بالحلي والجوهر وبين يديها الجَنَائب[xxxiii] بمراكب الذهب المرصعة وفيها يقول الشاعر[xxxiv]:

قلت إذ عظَموا لبلقيس عرشاً: دُست أسماء من عرش بلقيس أسمى

وحجت أرجوان(ت٥١٢هـ/١١١٨م) أم الخليفة المقتدي بأمر الله (٤٦٧- ٤٨٧هـ/ ١٠٧٥-١٠٩٥م) ثلاث حجج كما تحج أمهات الخلفاء[xxxv].

وشهدت سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٤م أي خلال العصر العباسي الرابع أو عصر نفوذ السلاجقة (٤٤٧-٦٥٦هـ/١٠٥٦- ١٢٥٨م) عدة مواكب نسائية منها موكب زمرد خاتون(ت ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م) والدة الخليفة العباسي الناصر لدين الله(٥٧٥ -٦٢٢هـ/ ١١٨٠- ١٢٢٥م) وخاتون ابنة الأمير مسعود السلجوقي، وحجت معها الخاتون أم معز الدين صاحب الموصل زوج بابك أخي نور الدين صاحب الشام، والخاتون الثالثة ابنة الدقوسي صاحب أصبهان[xxxvi]. ووصف ابن جبير الوضع في الموصل واستعداد الخاتونتين أم معز الدين صاحب الموصل وبنت الأمير مسعود للحج فيقول: "ومن أحفل المشاهد الدنيوية المرئية بروز شاهدناه يوم الأربعاء ثاني يوم وصولنا الموصل للخاتونين: أم معز الدين صاحب الموصل وبنت الأمير مسعود فخرج الناس عن بكرة أبيهم ركبانا ومشاة وخرج النساء كذلك وأكثرهن راكبات وقد اجتمع منهن عسكر جرار وخرج أمير البلد للقاء والدته مع زعماء دولته فدخل الحاج المواصلة صحبة خاتونهم على احتفال وأبهة قد جللوا أعناق إبلهم بالحرير الملون وقلدوها القلائد المزوقة. ودخلت خاتون المسعودية تقود عسكر جواريها وأمامها عسكر رجالها يطوفون بها وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أهِلّة ودنانير سعة الأكف وسلاسل وتماثيل بديعة الصفات، فلا تكاد تبين من القبة موضعا، ومطيتاها تزحفان بها زحفا، وصخب ذلك الحلي يسد المسامع، ومطاياها مجللة الأعناق بالذهب، ومراكب جواريها كذلك؛ مجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره. وكان مشهدا أبهت الأبصار، وأحدث الاعتبار، وكل ملك يفنى إلا ملك الواحد

القهار، لا شريك له"[xxxvii]. ويذكر ابن فهد أن مواكبهن جمع لم يصل قط مثلهُ من أمراء العجم الخراسانيين[xxxviii].

وفي عام ٥٨٥هـ/٩٠٦م حجت زمرد خاتون مرة أخرى وتميز موكبها بتجمل هائل، وسار في خدمتها صندل الخادم وطاشتكين وطغريل صاحب البصرة وكان معها في موكبها ألفي جمل، وأنفقت في حجتها ما يقرب من ثلاثمائة ألف دينار[xxxix]حتى ليقال: "لم تحج والدة خليفة في حياته إلا هي وأرجوان أم المقتدي وزبيدة أم الأمين"[xl]. ويعلق الجزيري على هذه المقولة قائلا:" لعل القائل لم يطلع على حجة الخيزران أم هارون الرشيد ولا على حجة والدة المستعصم[xli]. وفي كل هذه المقولات مايفيد بتباري نساء البيت العباسي خاصة أمهات الخلفاء في الصرف على مواكبهن في الحج .

ولم تقتصر المواكب النسائية على وجهتهن إلى مكة بل كان لهن مواكب مماثلة عند توجههن إلى مدينة الرسول ﷺ وإن كان المعلومات المتيسرة عنها أقل بكثير مما هي في مكة. فمن ذلك موكب خاتون ابنة الأمير مسعود بعدما فرغت من حَجّها متوجهة في السادس من محرم سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م إلى المدينة المنورة لزيارة مسجد رسول الله، وقد رحلت إليه في موكب مهيب، وهي راكبة في قبتها، وحولها قباب كرائمها وخدمها، والقُرّاء أمامها، والفتيان والصقالب بأيديهم مقامع الحديد يطوفون حولها ويدفعون الناس أمامها إلى أن وصلت إلى باب المسجد المكرم، فنزلت تحت ملحفة مبسوطة عليها، ومشت إلى أن سلمت على النبي ﷺ، والخَوَل أمامها، والخدام يرفعون أصواتهم بالدعاء لها، إشادة بذكرها، ثم وصلت إلى الروضة الصغيرة التي بين القبر الكريم والمنبر فصلت فيها تحت الملحفة، والناس يتزاحمون عليها، والمقامع تدفعهم عنها. ثم صلت في الحوض بإزاء المنبر، ثم مشت إلى الصفحة الغربية من الروضة المكرمة فقعدت في الموضع الذي يقال: إنه كان مهبط جبريل عليه السلام، وأرخي الستر عليها، وأقام فتيانها وصقالبها وحجابها على رأسها خلف الستر تأمرهم بأمرها، واستجلبت معها إلى المسجد حملين من المتاع للصدقة. فما زالت في موضعها إلى الليل[xlii].

ويصف ابن جبير موكب عودتها إلى بلادها بأنها استقلت هودجاً عليه جِلال مذهبة، وأمامها رعيل من فتيانها وجندها، وعن يمينها جنائب المطايا والهماليج العتاق، ووراءها ركب من جواريها قد ركبن المطايا والهماليج على السروج المذهبة وعصبن رؤوسهن بالعصائب الذهبيات، ولها الرايات والطبول والأبواق تُضرب عند ركوبها ونزولها[xliii]. وقد يعود سبب خروجها في موكب بهذا القدر من الأبهة والإجلال إلى مكانة والدها الحاكم، وأن دولته قد بلغت شأناً كبيرا من التقدم والتوسع والرفاه الاقتصادي.

أما هودج الشريفة جمانة بنت فليتة عمة الأمير مكثر[xliv] فوصفه ابن جبير بأغرب ماشاهد من الهوادج فأذيال ستره كانت تنسحب على الأرض انسحاباً؛ وكذلك كان هوادج حرم الأمير وحرم قواده، وهوادج لم يستطع ابن جبير تقييد عدتها عجزاً عن الإحصاء. فكانت تلوح على ظهور الإبل كالقباب المضروبة، فيخيل للناظر إليها أنها محلة قد ضربت أبنيتها من كل لون رائق[xlv].

كذلك من ضمن المواكب موكب ربيعة خاتون بنت أيوب أخت الملك العادل في عام ٦٠٨هـ/ ١٢١٢م حيث تذكر المصادر أن الخليفة احتفل بها، وجهزها بما يليق بها[xlvi].

ولما حجت والدة الخليفة العباسي المستعصم بالله(٦٤٠-٦٥٦هـ/ ١٢٤٢-١٢٥٨م) في سنة ٦٤١هـ/١٢٤٤م كان قوام موكبها ألف وسبعمائة وثلاثون جملاً. ويذكر ابن فهد؛ أن الخليفة المستعصم بالله جهز الحجاج مع والدته، وجهز لهم السلطان نور الدين ابن رسول هدية عظيمة وأمر متولي مكة الشلاح[xlvii] بخدمتهم، وإقامة حرمتهم وتوجه في خدمتها الأمير مجاهد بن آيبك الدواداري وسيف الدين قيران أمير الركب وخلع على من كان بخدمتها وأنعم على مجاهد الدين الدوادار بخمسة عشر ألف دينار عينا وحلة وفرسا[xlviii].

أما آخر موكب حج نسائي عثرنا عليه خلال فترة البحث هو موكب ملكة مصر شجرة الدر الصالحية زوجة السلطان الأيوبي الملك الصالح نجم الدين أيوب(ت٦٥٥هـ) عندما خرجت حاجة من مصر في سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٨م فى موكب رسمى يليق بمكانتها تحيط

به مظاهر الاحتفال والأبهة والزينة، وقد أعد لها زوجها محملاً فخماً من قافلة كبيرة فيها الخدم والجنود حرس خشية عليها من أخطار الطريق واللصوص، وعمل لها احتفالاً كبيرًا بهذه المناسبة. وقيل إنها أول من ابتدأ تقليد خروج المحامل مع قافلة الحج، ثم صار خروج المحمل على تلك الصورة عادة يقوم بها ملوك مصر كل سنة، ويبالغون فى الاحتفاء به(xlix).

ولعل من المفيد قبل ختام فقرة المواكب النسائية أن نورد تصنيف الرحالة ابن جبير(ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م) لهوادج النساء في الحج وفقا للمنزلة الاجتماعية لهن؛ فذكر: الكجاوات أو القشاوات ووصفها قباب بديعة المنظر عجيبة الشكل توضع على محامل فوق الإبل، وهذا النوع من المراكب كان مخصص لعلية القوم أصحاب الأموال والمناصب الرفيعة(l). ومنها الهوادج المكسوة بأنواع الحرير و ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة أحوال أربابها ووفرهم، كل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته والإبل قد زينت تحتها بأنواع التزيين، وأشعرت بغير هدي بقلائد رائقة المنظر من الحرير وغيره، وربما فاضت الأستار التي على الهوادج حتى تسحب أذيالها على الأرض. وذكر الهوادج الفخمة، وهي عبارة عن صناديق كبيرة تحمل فوق جملين(li).

ومنها: الشقاديف؛ جمع شقدف، وهي أشباه المحامل أحسن أنواعها اليمانية مريحة، عليها ظلائل تقي حرّ الشمس هي من مراكب الأغنياء، وهي أقل من الكجاوات في الفخامة والراحة. ومنها: المحارات وهي محامل صغيرة ويذكر ابن جبير: "الشقادف أبسط وأوسع والمحارات أضم وأضيق"(lii).

ومنها العجلة أو العربة؛ وهي التي تجرها الإبل، ويكون عليها قبة(liii).

أما عن مدة رحلة الحج فهي بلا شك تخضع للترتيب المتبع من قبل منظمي الرحلة، وفي العصر العباسي يذكر أن خروج الحاج من بغداد كان في سابع عشر من شوال، وقد تستمر رحلة الحج ثلاثة شهور وثمانية عشر يوما كما حدث في رحلة حج

والدة الخليفة المستعصم بالله ٦٤١هـ/ ١٢٤٤م حيث كان تاريخ عودتها ووصولها إلى بغداد في خامس صفر سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م [liv].

وقد تخرج إلى مكة وتقضي فيها شهر رمضان وتقيم فيها حتى وقت الحج فتحج كما فعلت الخيزران في سنة ١٧١هـ[lv].

وعادة ما يصحب المرأة واحد أو أكثر من محارمها فشجاع أم الخليفة المتوكل حجت مع ولد ولدها محمد المنتصر بالله وشيعها المتوكل إلى النجف عام ٢٣٦هـ/ ٨٥١م[lvi].

وحجت جميلة بنت الملك ناصر الدولة الحمداني صاحب الموصل سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٨م بمعية أخيها إبراهيم[lvii].

أما عن رحلة وداع واستقبال النساء عند خروجهن للحج وبعد عودتهن من الحج فهي أيضا تتفاوت من امرأة لأخرى؛ ويبدو أن الأمر راجع إلى شهرتهن ومكانتهن في المجتمع؛ فيروى أن معظم قيان وقينات الحجاز استقبلن المغنية الشهيرة جميلة عند قدومها لتأدية فريضة الحج وفي رواية خرج أبناء مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيئتها ولما قدمت المدينة تلقاها أهلها وأشرافهم من الرجال والنساء وخرج الرجال والنساء من بيوتهم فوقفوا على أبواب دورهم ينظرون إلى جمعها وإلى القادمين معها[lviii].

ولما حجت أم الخليفة المستعصم بالله ركب ولدها الخليفة المستعصم بالله لوداعها[lix] ولما عادت الخيزران من الحج خرج شريك قاضي الكوفة يتلقاها وحمل معه خبزا فقال الشاعر[lx]:

فما لك حين تخرج كل يوم	تلقى من يحج من النساء
وسودت القميص فصرت فيه	تطوف ياشريك مع الإماء

وخرج مؤيد الدين محمد بن العلقمي وسائر أرباب المناصب لتلقي والدة الخليفة المستعصم عند عودتها في ثالث صفر سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م[lxi] .

من خلال ما سبق يتبين مدى الترف والبذخ والمباهاة التي كانت عليها مواكب الحج النسائية، وما يصحبها من النفقات والأمتعة، وقد اقتصرت هذه المواكب على علية القوم، وأصحاب المناصب الرفيعة في الدولة. وقد بدأت في العصر الأموي وكثرت في العصر العباسي الأول، وعظم شأنها في العصور العباسية التالية . حيث أظهرن من التجمل ما يتجاوز حدود الاستطاعة إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، فقد رأينا أن المرأة الحاجة تُظهر من الأبهة والمبالغة في الصرف على حجها والمفاخرة في المواكب، واصطحاب الخدم والحشم والأعوان مايفوق التصور، ويدعو إلى التوقف عنده، ومناقشة ماقد يظهر فيه للقارىء أنه من قبيل المبالغات، على أن الباحثة تجد صعوبة في التشكيك في حجم تلك التكاليف ومدى دقتها؛ لأن معظم المصادر التي أوردت تلك الأرقام معظمها معاصر للأحداث أو قريب للمعاصرة؛ وليس لدى الباحثة من الأدلة ما يدحضها. ومن ناحية أخرى فإن بعض تلك المبالغ تصرف على إصلاحات في مكة أو صدقات على ضعفائها والمجاورين بها- كما سيرد- مما يبرر الزيادة الكبيرة في مقاديرها يضاف إلى ذلك أن معظم هذه الأرقام مدعومة من خلفاء ذلك الزمان وسلاطينهم أي أنها من أموال الدول.

تجدر الإشارة إلى أن المصادر التاريخية لم تسعفنا بذكر أي من نساء الخلفاء الفاطميين وبناتهم وبنات أكابر رجال دولتهم من حيث تأديتهن للحج طوال سني حكمهم في مصر وقبل ذلك في أفريقيا. ولا غرابة في ذلك فالخلفاء الفاطميون أنفسهم لم يؤثر عنهم أنهم أدوا فريضة الحج والعمرة إلى مكة المكرمة، وزيارة مدينة الرسول ﷺ، وقد عرض أحد الباحثين لموضوع عدم حج الفاطميين وناقشه بإفاضة مبديا بعض الأسباب والتبريرات الداعية إلى ذلك[lxii] مما لا نرى مناسبة للتفصيل فيها في هذا البحث المتخصص.

الأعمال الخيرية والعطايا لنُخب النساء في الحج:

كان لنُخب النساء مساهمات فعالة في أفعال الخير منذ خروجهن للحج ومغادرتهن منازلهن؛ فمن ذلك إغداق العطاء في طريق الحج، أو في مكة، أو في منطقة المشاعر المقدسة؛ فقد وزعن أمهات المؤمنين العطايا والصلات في حجهن سنة ٢٣هـ وفي رواية أعطت كل واحدة منهن أم معبد بنت خالد بن خليف خمسين دينارا وصلة[lxiii].

وفي العصر الأموي أجزلن نساء البيت الأموي العطاء والكساوي والألطاف عند حجهن مثل عاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان[lxiv]. وعاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان[lxv].

وأما أم عمر بنت مروان بن الحكم فقد قالت لأشعب بن جبير المدني لما حجت: أنت أعرف الناس بأهل المدينة فأذن لهم على مراتبهم[lxvi].

وأنفقت أم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان بسخاء كبير على أهل الحرمين وورد عنها القول: "جعل لكل قوم نهمة في شيء وجعلت نهمتي في البذل والعطاء والله للصلة والمواساة أحب إلي من الطعام الطيب على الجوع ومن الشراب البارد على الظمأ". فكانت تبعث إلى نسائها فتجمعهن وتكسوهن الثياب الحسنة وتعطيهن الدنانير وتقول: "وهل ينال الخير إلا باصطناعه" و: " ما حسدت أحدا قط على شيء إلا أن يكون ذا معروف فإني كنت أحب أن أشركه في ذلك"[lxvii]. وكانت فاطمة بنت عبدالملك توزع الأموال في موسم الحج[lxviii].

ومن نساء العصر الأموي الموسرات عائشة بنت طلحة التي كانت تعد لمن يجيء إليها مُسَلِّما أو سائلا سواء من أهالي مكة أو من الوافدين إليها كسوة وألطاف؛ فجاءتها الثريا بنت علي بن عبدالله بن الحارث بن أمية وإخوتها، ونساء أهل مكة القرشيات وغيرهن، فجعلت تخرج كل واحدة ومعها جاريتها ومعها ما أمرت لها به عائشة من الخلع والألطاف[lxix]، وأعطت المغني الغريض خمسة آلاف درهم وثيابا عدنية وألطاف[lxx]. وقدمت

سكينة بنت الحسين الأعطيات والهبات في موسم الحج وقد أمرت مرة بتوزيع جمل قوي يحمل أثقالاً ومائة دينار[lxxi].

وتبارين نساء الخلافة العباسية في الإصلاحات التي باتت شواهد على جودهنّ وحُسن صنيعهنّ على مر السنين، وقد كلفهن ذلك نفقات طائلة؛ فلما حجت الخيزران زوجة المهدي في سنة ١٧١هـ/٧٨٨م أنفقت أموالا كثيرة في الصدقات وأبواب الخير؛ فقد اشترت الدار المعروفة بدار الخيزران عند الصفا، وجعلت الموضع الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم مسجدا يصلى به، وأمرت ببناء القصور والحصون والعديد من المرافق في طريق الحج، وعمّرت الاستراحات في منى وعرفات[lxxii]. وقسمت بالمدينة المنورة أمولا وأجازت بجوائز عظيمة وزوجت أيتاما وقسمت في النساء آنية من ذهب وفضة مملوءة من أنواع الطيب ، وكست كسوة كثيرة ووضعت لكل قبيلة مالا يعطونه[lxxiii].

أما السيدة زبيدة زوجة الرشيد فقد قامت بالكثير من المآثر الجليلة التي خلها التاريخ فقد أنفقت في إحدى حجاتها أربعة وخمسين ألف ألف[lxxiv]، وفي رواية أخرى أنفقت في مكة ألف ألف وسبعمائة ألف دينار[lxxv]؛ فعندما حجت ورأت حجاج بيت الله الحرام يقاسون الأمرين من قلة المياه وصعوبة الحصول عليها فأمّنت لهم المياه العذبة كما سقت أهل مكة بعد أن كانت الراوية عندهم بدينار، وإنها أسالت الماء عشرة أميال بحط الجبال ونحوت الصخر حتى غلغلته من الحل إلى الحرم فقال لها وكيلها : يلزمك نفقة كثيرة فقالت: أعملها ولو كانت ضربة فأس بدينار، فبلغت النفقة ألف ألف وسبعمائة ألف دينار[lxxvi]. وحفرت لهم الآبار والعيون منها: عين مشاش[lxxvii] التي حفرتها ومهدت الطريق لمائها من كل خفض ورفع وسهل وجبل ووعر حتى أخرجتها من مسافة اثني عشر ميلا إلى مكة كما عملت على إجراء عين وادي نعمان[lxxviii] إلى عرفات، وأمرت بعمل أحواض الوضوء في الحرم المكي، وزودت الطريق من عرفات إلى مكة بآبار محفورة، وأوقفت عليها من مالها الخاص ما يقارب ثلاثين ألف دينار سنوياً، ولها آثار كثيرة في طريق مكة والمدينة من مصانع وبرك أحدثتها، وقيل إنها بنت حائطاً من بغداد إلى مكة،

وحفرت الآبار في كل مرحلة[lxxix]، كما أمرت السيدة زبيدة بحفر البرك والمصانع على طريق الحجاج ليستفيدوا منها[lxxx]. وكانت تحتسب الأجر في كل ذلك فقد ورد عنها القول:" غفر لي الله بأول معول ضُرب في طريق مكة "[lxxxi]. وفي حجتها عام ٢١١هـ/ ٨٢٧م أنفقت في بناء المساجد منها مسجد في طريق مكة بين العقيق والعذيب[lxxxii] .

ولما حجت شجاع التركية – أم الخليفة المتوكل على الله – في سنة ٢٣٦هـ/ ٨٥١م أنفقت أموالاً جزيلة وأمرت لكل رجل من الطالبيين والعباسيين ألف درهم ولأبناء المهاجرين بخمسمائة درهم ولكل امرأة من الهاشميات بخمسمائة درهم، وأمرت في حجة أخرى لها في سنة ٢٤٦هـ/ ٨٦١م بإجراء الماء من عرفات إلى مكة وكلفها مائة ألف دينار [lxxxiii].

وكان للسيدة شغب والدة الخليفة العباسي المقتدر بالله اهتمامات كبيرة بالأماكن المقدسة في مكة، فقد كانت تواظب على مصالح الحجاج وتبعث معهم في كل موسم خزانة الشراب والأطباء. وكانت تأمر بإصلاح الحياض في مكة المكرمة؛ فعمرت عدة منشآت مائية منها: في عام ٣٠٢هـ/ ٩١٥م حيث قامت بعمارة البئر المعروف بسبيل الجوخي والآبار التي وراءه[lxxxiv]. وأمرت في سنة ٣١٠هـ/٩٢٣م غلامها لؤلؤ بإلباس الاسطوانة التي تلي باب الكعبة صفائح الذهب من أسفلها إلى أعلاها وكان بعضها قبل ذلك ملبسا بصفائح الذهب، والبعض الآخر كان مموها[lxxxv]. وفي عام ٣١٥هـ/٩٢٨م عمرت خمس برك بأرض عرفة وذلك لسقيا الناس في مواسم الحج[lxxxvi].

أما السيدة جميلة بنت الملك ناصر الدولة بن حمدان فقد قدمت كثيرا من أفعال الخير والبر بمكة عندما حجت سنة ٣٦٦هـ/٩٧٧م فمنها: وزعت عند رؤيتها الكعبة عشرة آلاف دينار للفقراء، وسقت أهل الموسم السويق بالسكر والثلج، كذلك أعتقت ثلاثمائة عبد ومائتي جارية وكان من ضمن نفقاتها أيضا أن قامت بتوزيع المال على المجاورين بمكة حتى أغنتهم وقامت بخلع خمسين ألف ثوب على كبار الناس[lxxxvii].

وقد قدّمت الملكة أسماء بنت شهاب الصليحية زوجة علي بن محمد الصليحي صدقات كثيرة لأهل مكة حين حجت سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م[lxxxviii].

وأوقفت قهرمانة المقتدي عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م الرباط المعروف بالفُقّاعية عند الباب المنفرد في زيادة دار الندوة على المنقطعات الأرامل[lxxxix].

وكذلك كانت أرجوان بنت عبدالله قرة العين أم الخليفة المقتدي امرأة صالحة البر والمعروف، بنت بمكة رباطاً وآثاراً حسنة[xc].

أما الملكة الحرة عَلَم أم فاتك آخر ملوك دولة آل نجاح باليمن فقد كانت موفقة للخير، تحج بأهل اليمن برا وبحرا فيأمنون بخفارتها من الأخطار والمكوس[xci].

وكان للخواتين ابنة الأمير مسعود أم معز الدين صاحب الموصل وابنة الدقوسي صاحب أصبهان أعمال بر في طريق الحج ونفقات على الناس في حجهن[(xcii)] ومنها ما خصصته الخاتون ابنة الأمير مسعود من ثلاثين من الإبل لسقي ماء السبيل وثلاثين مثلها للزاد بالإضافة إلى مائة من الإبل التي كان فيها كسوة للناس[(xciii)] وفي ذلك يذكر ابن جبير: " أخبرنا غير واحد من الثقات ممن يعرف حال خاتون هذه أنها موصوفة بالعبادة والخير مؤثرة لأفعال البر فمنها أنها أنفقت في طريقها هذا إلى الحجاز في صدقات ونفقات في السبيل مالا عظيما وهي تحب الصالحين والصالحات وتزورهم متنكرة رغبة في دعائهم وشأنها عجيب كله على شبابها وانغماسها في نعيم الملك والله يهدي من يشاء من عباده"[(xciv)].

وكانت السيدة زمرد خاتون – أم الخليفة الناصر لدين الله العباسي– كثيرة البر والصدقات على أهل الحرمين، ويقال أنها أنْفَقَت ثلاثمائة ألف دينار في حجتها عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٤م، وأمرت بحفر الآبار في كل من مكة والمدينة، وأصلحت البِرَك والمصانع[xcv]. وأوقفت في ذلك العام رباطا في الجانب الشمالي من المسجد الحرام يعرف برباط أم الخليفة على الفقراء والصوفية ذوي التقى والعبادة والعفاف والزهادة والصلاح والرشاد[xcvi].

وكان لخاتون ابنة الأمير مسعود أعمال بر في طريق الحج عندما حجت سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م حيث خصصت ثلاثين من الإبل لسقي ماء السبيل، وثلاثين مثلها للزاد، بالإضافة إلى مائة من الإبل التي كان عليها كسوة للناس[xcvii].

وأوقفت طاب الزمان الحبشية عتيقة المستضئ العباسي في عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٥م مدرسة استقطعت من دار زبيدة على عدة من فقهاء الشافعية[xcviii].

وقامت زوجة تقي الدين بن صلاح الدين يوسف الأيوبي في عام ٥٨٩هـ/١١٩٣م بعمارة بئر برباط الدمشقية في أسفل مكة[xcix].

وقد أوقفت الأختان أم خليل خديجة وأم عيسى مريم ابنتا القائد أبي ثامر مبارك بن عبدالله القاسمي رباط ابن السوداء لسكناه به ويقال له أيضا رباط الهزيش قرب موضع الذي يقال له الدريبة في عام ٥٩٠هـ/١١٩٤م على الصوفيات المتدينات الخاليات من الأزواج الشافعيات المذهب[c].

أما ربيعة خاتون بنت أيوب أخت الملك العادل فقد اتفق حجها في عام ٦٠٨هـ/ ١٢١٢م مع حدوث فتنة بمنى وبمكة وغارات على الحجاج حتى جاء أمير الحاج العراقي محمد بن ياقوت فدخل خيمة ربيعة خاتون مستجيرا بها ومعه خاتون أم جلال الدين فبعثت ربيعة خاتون إلى أمير مكة قتادة بن إدريس الحسني (٥٢٧-٦١٧هـ/١١٣٢-١٢١٩م) تقول له: ما ذنب الناس قد قتلت القاتل وجعلت هذه وسيلة إلى نهب المسلمين واستحللت الدماء والأموال في الشهر الحرام والله لئن لم تنته لأفعلن ولأفعلن، فكف عنهم وطلب مئة ألف دينار وأقام الناس ثلاثة أيام حول خيمة ربيعة خاتون مابين قتيل وجريح ومسلوب وجائع وعريان[ci].

وكانت والدة الخليفة المستعصم بالله سيدة كثيرة الصدقات والخلع على الأمراء وأهل الدولة المقيمين في مكة. وكانت سنة ٦٤١هـ/١٢٤٤م لم يُر أكثر منها خيرا حتى اشترى أهل مكة الأملاك، وعمروا القصور، وحلّوا نساءهم بالذهب والفضة، وتظاهروا بالنعم[cii] .

ولما حجت زوجة الملك المنصور عمر بن علي بن رسول في عام ٦٤٤هـ/ ١٢٤٧م قامت بتعمير مسجد الهليلجة بالتنعيم المعروف باسم أم المؤمنين عائشة وحفرت بقربه بئراً عذبه[ciii]. كما عمرَت في عام ٦٤٥هـ/١٢٤٨م بئراً آخر بمنى يقال له بئر أم الحمام بقرب أم النخلة[civ].

وقد ورث نساء البيت العباسي هذا النهج من الحرص على الحج وتقديم الصدقات والأعمال الخيرية إلى ما بعد فترة البحث فالسيدة زاهدة بنت محمد بن مبارك بن الخليفة المستعصم بالله(ت٧٢٦هـ/ت ١٣٢٥م) كانت تحج سنويا وتأخذ معها عدداً من الفقراء والخدم[cv].

تلك القُربات والنفقات السخية وأمثالها توقفنا على الثراء والرفاه الاقتصادي الذي كانت تتمتع به النُخب النسائية في فترة البحث، وحرصهن على يلحقن حجهن بالمزيد من العطايا والأعمال الخيرية التي خلدها لهن التاريخ.

ويظهر من خلال الملحق الموضح لمن حج من نُخب النساء في العصرين الأموي والعباسي أن نسبة الحاجّات وتجملهن في الحج في العصر العباسي تفوق العصور الأخرى؛ وربما يعود ذلك لطول فترة الخلافة العباسية، وكثرة الأموال في خزائن الدولة. كما أن معظم صاحبات المواكب كُنّ من خارج شبة الجزيرة العربية من ذوات المكانة الاجتماعية مثل أمهات الخلفاء وبنات الملوك والأمراء والتجار.

ولوحظ أن أكثر النساء يحرصن على الحج مرة أو مرتين إلا أن بعضهن حجّجن عدة مرات مثل عائشة بنت طلحة ولعل مرجع ذلك إلى الحديث الذي روته عن خالتها أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَغْزُو وَنُجَاهِدُ مَعَكُمْ؟ فَقَالَ: "لَكِنَّ أَحْسَنَ الجِهَادِ وَأَجْمَلَهُ الحَجُّ، حَجٌّ مَبْرُورٌ" فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَلا أَدَعُ الحَجَّ بَعْدَ إِذْ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[cvi]. وقد تصل أحيانا عدد حجاتهن إلى ثلاثين حجة مثل نفيسة بنت الحسن بن زيد بن علي بن أبي طالب(ت بعد ٢٠٨هـ/ ٨٢٤م)[cvii] وحجت أم سالم بنت مالك الراسبية البصرية سبعة عشر حجة[cviii].ويقال أن أرجوان قرة

العين أم الخليفة المقتدي حجت مرارا[cix]، وعُرفت الملكة اليمانية عَلَم أم فاتك بن منصور بكثرة حجها[cx] .

تعددت أوجه الخدمات التي قدمتها النساء عند حجهن لاسيما سيدات البلاط العباسي وصدقات وأعطيات نساء اليمن والعراق والشام؛ وقد حظيت مكة بقدر كبير من هذه الانجازات فبالإضافة إلى الأعطيات التي وزعنها منذ خروجهن للحج وحتى عودتهن إلى بلادهن فقد ساهمن في الكثير من الأعمال الخيرية لاسيما حفر الآبار وبناء البرك وإجراء العيون مما ساهم في سقاية الحجيج وتيسير وجود الماء بعد أن كان الحجاج يلاقون من المشقة والتعب في الحصول على الماء. وحرصن على عتق الرقيق وتوزيع الكساوي على الفقراء والمجاورين في موسم الحج. ووقف الدور على الفقراء، والأربطة على طلبة العلم، وعمران المساجد.



ملحق : من حج من نخب النساء في العصرين الأموي والعباسي

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذى تنتمى إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
امنة بنت محمد(ابو البركات بن الران) بن الحسن بن طاهر أم محمد القرشية	العباسي	٥٥٥هـ	ثلاث حجج	أوقفت رباطا لسكنى الفقراء من النساء	ابن عساكر: تراجم النساء، ص٤٩، ٥٠.
أرجوان بنت عبد الله قرة العين جارية الذخيرة أم ولد أرمنية أم الخليفة المقتدي(ت ٥١٢هـ)	العباسي	لم يحدد	ثلاث حجج ولدى الصفدي حجت مراراً	امرأة صالحة كثيرة البر والمعروف، بنت بمكة رباطاً ولها فيها آثاراً حسنة.	ابن الجوزي، ج١٦ص١٦٥؛ الصفدي، ج ٢٤ ص١٧٤ ابن كثير، ج١٢ ص١٨٣؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٦-٤٨٧؛ كحاله، ج٤ ص ١٩٢.
أسماء بنت شهاب الصليحية السيدة الحرة الكاملة زوجة علي بن محمد بن علي الصليحي صاحب اليمن ومكة ووالدة ابنه الملك المكرم أحمد بن علي يخطب لها على المنابر(ت ٤٨٠هـ)	العباسي	٤٥٥هـ واما ٤٥٨ أو ٤٥٩هـ	لم يحدد	لقبت بكافلة المؤمنين كان لها صدقات كثيرة وكرم فائض وعدل وافر.	ابن الجوزي، ج٨ص٢٣٢؛ ابن الأثير، ج١٠ص١١؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج٢ ص١٩٥- ١٩٦، ٢٢٧؛ العقد، ج٦ ص٢٣٩، ٢٤٤؛ ابن كثير، ج ١٢ص٨٩، ٩٠؛ ابن تغري بردي، ج٥ ص٧٢؛ ابن فهد، ج٢ص٤٦٨؛ الرشيدي،ص١١٣-١١٤؛ الحضراوي، حسن الصفا، ص١٥٢؛ الزركلي، ج١ص٣٠٥-٣٠٦.

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذى تنتمى إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
أسماء بنت محمد(أبو البركات بن الران) بن الحسن بن طاهر القرشية(ت٥٩٥هـ)	العباسي	٥٥٥هـ	لم يحدد	لم يحدد	ابن عساكر، ص٣١، ٤٩.
أمة العزيز بنت محمد بن الحسن الديلمية	العباسي	٤٢١هـ	لم يحدد .	لم يحدد	ابن عساكر، ٥٠.
أم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان زوج الوليد بن عبدالملك	الأموي	٩١هـ	لم يحدد	حجت بجواريها ومنهن الشهيرة غاضرة	البلاذري: أنساب الأشراف، ج٨ص ٨٩؛ أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، جـ٦ص٣٥؛ ابن عبدربه، ج ٦ ص١٤١؛ ابن عساكر، ص ٤٨٠؛ الكتبي، فوات الوفيات، جـ٢ ، ص٧٣.
تاج النساء – الناس- بنت رستم بن أبي الرجا الأصبهانية (ت٦١٠هـ)	العباسي	لم يحدد	لم يحدد	لها رباط معروف برباط بنت التاج في أجياد .	الفاسي: العقد الثمين، ج٨ ص١٩١ ح ١ ص١٢٢ ؛ وفي شفا الغرام، ج ١ص٣٣٥.
جمانة بنت فليتة عمة الأمير مكثر(٥٨٧-٥٩٧هـ)	العباسي	لم يحدد	لم يحدد	لم يحدد	ابن جبير ، ص١٠٧

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذي تنتمي إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
جميلة السلمية(ت ١٢٥هـ) كانت زوج أحد موالي بني الحارث من الخزرج فقيل مولاة الأنصار وقيل مولاة الحجاج بن علاط السلمي فنسبت إلى بني سليم	الأموي	لم يحدد	لم يحدد	خرج معها ثلاثون رجلا وخمسون قينة أنفقت عليهم من مالها الخاص.	أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، جـ٧ص١٢٨؛ النويري، جـ٤ص٤٧؛ كحالة، ج١ص ٢١٢-٢١٣.
جميلة بنت الملك ناصر الدولة الحسن بن حمدان (ت ٣٧١هـ)	العباسي	٣٦٣هـ ٣٦٦هـ ٣٦٨هـ	لم يحدد	لها نفقات بالطريق. سقت أهل الموسم السويق بالطبرزد والثلج. أعتقت ثلاث مئة عبد وثلاث مئة أمة. كست المجاورين. خلعت على طبقات الناس خمسين ألف ثوب	ابن الجوزي،ج١٤ ص٢٤٨؛ الفاسي:شفاء،ج٢ ص٣٥٣؛ الفاسي:العقد ج١ ص١٨٦؛ ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٤١٤- ٤١٥؛ الذهبي:ج١ ص٢٢٦؛ اليافعي: ج٢ ص٣٨٥؛ ابن العماد، ج٣ ص٥٥؛ ابن تغري بردي، ج٤ص١٢٦؛العمري، ص٣٧٠ ؛ كحالة، ج١ ص٢١٤-٢١٥
أم الحسين بن شهاب الدين الطبري	لم يحدد	لم يحدد	لم يحدد	سبيل بالمسعى قرب المسيل	كحاله،ج١ ص٢٦٢.

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذي تنتمي إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
خاتون بنت الأمير مسعود ملك الدروب والأرمن	العباسي	٥٧٩هـ	مرة واحدة	لها موكب ونفقات وسقيا للسبيل والحجاج.	ابن جبير،ص١٦١؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢ ص٥٥٠؛ كحالة، ج١ص٣١١.
أم خليل خديجة ابنة القائد أبي شامر مبارك بن عبدالله القاسمي.	العباسي	٥٩٠هـ	لم يحدد	أوقفت الرباط المعروف بابن السوداء عام ٥٩٠هـ	الفاسي:شفاء، ج١ ص٥٣٧؛ ابن فهد إتحاف الورى، ج٢ ص٥٦١.
الخيزران بنت عطاء جارية المهدي يمانية جرشية الأصل اشتراها المهدي وأعتقها وتزوجها وانجبت له الخليفتين الهادي والرشيد (ت١٧٣هـ)	العباسي	١٧١هـ	لم يحدد	أوقفت الدار المعروفة بها عند الصفا أنفقت أموالا كثيرة في الصدقات.	الأزرقي، ج١ص ٦٣٢؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٨ ص٢٣٥؛ الخطيب البغدادي، ج١٤ ص٤٣٠؛المسعود، ج٣ص٣١٣،٣٢٤؛ الجزيري،ج٢ص٤٨٢ ؛ ابن فهد إتحاف الورى، ج٢ ص٢٢٥؛ الفاسي: شفاء الغرام،ج١ ص٣٦٢؛الجزيري،ج ٢ص٤٧٠؛الزركلي، ج٢ص٣٢٨، ج ١ ص٣٩٨؛ كحالة، ج١ ص٣٩٥.

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذى تنتمى إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
ابنة الدقوسي صاحب أصبهان	العباسي	٥٧٩هـ	لم يحدد	كان لها موكب عام ٥٧٩هـ	ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢ ص٥٥٠؛ الجزيري: ج٢ ص٥٧٣.
ربيعة خاتون (ت٦٤٣هـ) أخت الملك العادل صلاح الدين الأيوبي	العباسي	٦٠٨هـ		أنفقت أثناء حجها عام ٦٠٨هـ	الفاسي:شفاء، ج٢ ص٣٧١؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج٣ص١٠؛الجزيري، ج٢ ص٤٨٦؛
زاهدة بنت محمد بن مبارك بن الخليفة المستعصم بالله (ت٧٢٦هـ)	العباسي	لم يحدد	تحج سنويا	يحج بصحبتها سنويا عدد من الفقراء والخدم.	ابن بطوطة، ص١١٥؛ كحاله ، ج٢ص٤.
زبيدة أمة العزيز أم الأمين بنت جعفر بن الخليفة أبي جعفر المنصور زوجة الرشيد وأم الأمين (ت٢١٦هـ)	العباسي	١٦٨هـ ٢٠٨هـ ٢١١هـ	غير مرة هكذا ذكر ابن خلكان و الفاسي	أنفقت في بناء البرك والآبار والمساجد في مكة والمدينة. وكان لها نفقات بالطريق في أثناء الحج . وأجرت عيونا من الحل، إلى الحرم من المشاش، واتخذت لها بركا تكون فيها السيول، وأجرت بها عيونا من حنين واشترت حائط حنين فصرفت عينه إلى البركة، وجعلت حائطها سد تجتمع فيه السيل .	الفاكهي،ج٢ ص٣٣ ؛الخطيب البغدادي، ج١٤ص٤٣٣؛ ابن جبير،ص١٥٢؛ ابن خلكان، ج٢ص٣١٤ ؛ الفاسي:العقد، ج٥ص٢٨، ج٨ص٢٣٦-٢٣٧؛ شفاء، ج١ ص٥٥٣؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢ص٢٤٨ ،٢٨٥؛الجزيري،ج٢ ص٤٨٢ ،٤٨٤.

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذى تنتمى إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
زوجة الملك المنصور صاحب اليمن	العباسي	٦٤٤هـ	لم يحدد	عمرت مسجد الهليلجة- مسجد عائشة:التنعيم- وعمرت بقربه بئرا عذبة	الفاسي: شفاء، ج١ص ٥٥٠؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٧.
زمرد خاتون صفوة الملوك بنت الأمير جاولي بن عبدالله الدمشقيةت٥٥٧هـ أخت الملك دقاق تاج الدولةصاحب دمشق لأمه وزوجة تاج الملوك بوري وأم ولديه إسماعيل شمس الملوك محمود	العباسي	لم يحدد	أكثر من مرة	محبة للخير مكرمة لأهل العلم	ابن عساكر، ص١١٢؛ الزركلي، ج٣ص٤٩.
زمرد خاتون والدة الخليفة الناصر لدين الله العباسي (ت٥٩٩هـ)	العباسي	٥٧٧هـ ٥٧٩هـ ٥٨٥هـ	لم يحدد	كثيرة البر والصدقات على أهل الحرمين. حفرت الآبار في كل من مكة والمدينة. أصلحت البرك والمصانع. عمرت التربة عند قبر معروف الكَرْخِي والمدرسة إلى جانبها وأوقفت رباطا في الجانب الشمالي من المسجد الحرام رباط أم الخليفة	الصفدي، ج١٤ ص٢١٣؛ الفاسي:شفاء،ج١ ص٥٢٨؛ الفاسي:العقد الثمين، ج٨ ص٢٣٨؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٢ ص٥٥٢ ؛ ابن تغري بردي، ج٦ص١٦٣،٥٩٩؛ كحاله، ٢ص٣٩.

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذي تنتمي إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
أم سالم بنت مالك الراسبية البصرية تابعية من الثانية	الأموي	لم يحدد	سبع عشرة مرة	لم يحدد	ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج١٢ ص٤٧٠؛ كحالة ج٢ص١٤٣.
ست العشيرة بنت عبدالله بن الحسن بن أبي الحديد السلمية	العباسي	٥٥٦هـ	مرتان	لم يحدد	ابن عساكر، ص١٢٨.
سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب (ت ١١٧هـ/ ٧٣٥م)	الأموي	٩٥هـ	لم يحدد	لم يحدد	ابن عبدربه، ج٦ص٣٠؛ أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج١٠ص٥٦-٥٧؛ ابن واصل الحموي، ج١ ص٣٨٣،٤٣؛ كحاله ج٢ ص٢٠٩، ٢١٠.
شجاع التركية (ت٢٤٨هـ) أم المتوكل على الله وقيل جدة المتوكل	العباسي	٢٣٦هـ ٢٤٦هـ	مرتان	حجت في تجمل زائد أمرت بإجراء الماء من عرفات إلى مكة	الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٩ ص١٨٥؛ ابن الأثير، ج٧ص٥٦؛ ابن تغري بردي، ج٢ ٢٨٦؛ الجزيري، ج٢ص٤٩٠.
شجرة الدر الصالحية أم خليل (ت٦٥٥هـ) زوج الملك الصالح أيوب	العباسي	٦٤٥هـ	لم يحدد	لم يحدد	البتنوني، ص ١٤٠؛ سيد بكر: ص٧٦.
شغب (ت ٣٢١هـ) أم المقتدر بالله	العباسي	٣٠٢هـ ٣١٠هـ ٣١٥هـ		توفير الأشربة والأزواد للحجاج. تسهيل الطرقات. عمرت السبيل المعروف بالجوخي	ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢ ص٣٦٣؛ كحالة، ج٥ص٦٧؛ لصفدي، ج ١٦ ص١٦٧.

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذى تنتمى إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
طاب الزمان الحبشية عتيقة الخليفة المستضئ العباسي	العباسي	لم يحدد	لم يحدد	اوقفت الرباط المعروف بدار زبيدةعام ٥٨٠هـ	الفاسي: العقد، ج٨ ص٣٦١؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ ص٥٥٣.
عائشه بنت طلحه بن عبيدالله التيمية (ت١٠١هـ)	الاموي	٧٥هـ ٩٥هـ	لم يحدد	حجت بجماعه ومعها ستون بغلاً عليها الهوادج والرحال وبصحبتها حادي يباري بمظهرها شعرا.	ابو الفرج الأصبهاني: الأغاني، جـ١٠ ص٥٦-٥٧؛ ابن عساكر، ص ٢٠٨؛ ابن واصل الحموي، جـ١، ٦،٧٧، ٢٨٣؛ الجزيري: الدرر،جـ١ص ٢٧٠، جـ٢ ٤٨٢؛ كحالـه، ج٣ ص١٣٧-١٥٤
عاتكه بنت معاويه بن أبي سفيان	الاموي	لم يحدد	لم يحدد	حجت مصطحبه جواريها ووزعت الكسوة والالطاف والمال	البلاذري: انساب الأشراف، ج٥ ص٢٩٧؛ أبو الفرج الاصبهاني: الأغاني، ج٧ص١٣٦، ٢٣٧، ؛ابن عبدربه، ج٤ص٣٦٣؛ كحاله، ج٣ص٢١١.
عاتكه بنت يزيد بن معاوية زوجة عبدالملك بن مروان وأم ولده يزيد(ت بعد ١٢٦هـ)	الاموي	٧٥هـ	لم يحدد	حجت ومعها الجواري وأنفقت مالها على الفقراء	البلاذري: انساب الأشراف، ج٥ ص٣٧٧؛ أبو الفرج الاصبهاني: الأغاني، جـ١٠ص٥٧؛ ابن عبدربه، ج٤ ص٤٠٧، ج٦ ٢٦٩ ؛ ابن عساكر، ص٢٠٥، ٢٠٦ ؛ ابن واصل الحموي، جـ١، ص١٢٨٤؛ النويري، نهاية، جـ٤، ص٢٥٨؛ كحالـه، ج٣ ص ٢١٨.

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذي تنتمي إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
علم أم فاتك بن منصور بن فاتك بن جياش بن نجاح الملكة اليمانية الحرة (ت ٥٤٥هـ)	العباسي	٥٢٩هـ	كثيرة الحج		عمارة اليمني، ص١٦٨؛ الديبع، ص ٣٥٢؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢ ص٤٦٨؛ الزركلي، ج٣ص٢٤٨؛الحالة، ج ٣ ص ٣٣٠.
فاطمة بنت الأمير أبي ليلى محمد بن أنو شروان الحسني (ت ٥٧٧هـ).	العباسي	لم يحدد	لم يحدد	أوقفت رباط الخاتون على باب السلام خارج المسجد الحرام المعروف في عصر ابن فهد ببيت محمود الصوفية الرجال الصالحين من العرب والعجم.	الفاسي:شفاء،ج١ ص٥٢٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٢ ص٥٤٤ .
فاطمة بنت عبدالملك بن مروان زوجة عمر بن عبدالعزيز	الأموي	لم يحدد	لم يحدد	اصطحبت معها الجواري والخدم ووزعت الأموال والهدايا.	أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، جـ١ص٧٦، ج ٢ص٣٥١؛ ابن عبد ربه، ج٦ص١٠٠؛ كحاله، ج٤ص٧٥. العاملي، ص٢٠٤، ٢٠٥.
قهرمانة الخليفة المقتدي العباسي ٤٦٧ -٤٨٧هـ	العباسي	٤٩٢هـ	لم يحدد	أوقفت رباط الفقاعية على المنقطعات والأرامل.	الفاسي:شفاء،ج١ ص٥٢٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٢ ص٤٨٩ .

المرأة: اسمها، نسبها، شهرتها وتاريخ وفاتها	العصر الذى تنتمى إليه	سنوات الحج	عدد حجاتها	أعمالها في الحج	المصادر والمراجع
مريم أم عيسى ابنة القائد أبي تامر مبارك بن عبدالله القاسمي	العباسي	٥٩٠هـ	لم يحدد	أوقفت الرباط المعروف بابن السوداء.	الفاسي: شفاء، ج١ص٥٣٧؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢ ص٥٦١.
أم المستعصم العباسي ٦٤٠-٦٥٦هـ	العباسي	٦٤١هـ	لم يحدد	حجت مع دواداره، وجهز لهم السلطان نور الدين عمر بن علي بن رسول هدية عظيمة. وأكثرت من الصدقات والخلع على الأمراء وأهل الدولة المقيمين بمكة.ولها صدقات جزيلة أغنت بها كثيرا من الفقراء.	ابن فهد: إتحاف الورى، ج٣ ص٦٠ – ٦١؛ الجزيري، ج٢ص٤٨٦.
أم مسلمة بنت هشام بن عبدالملك زوج عبدالعزيز بن الحجاج بن عبدالملك	الأموي	١٢٤هـ	لم يحدد	لم يحدد	الجزيري، ج١ ص٤٥٥.
أم معز الدين صاحب الموصل زوج بابك أخ نور الدين زنكي صاحب الشام	العباسي	٥٧٩هـ	لم يحدد	كان لها موكب عام ٥٧٩هـ	ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢ ص٥٥٠؛الجزيري، ج٣ ص٥٧٣؛ كحاله، ج٥ ص٦٤.
لبابة بنت عبدالله بن عباس زوجة الوليد بن عبدالملك والوليد بن عتبة بن أبي سفيان	الأموي	لم يحدد	لم يحدد	كانت من أحسن خلق الله	أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج٨ص١٩٥؛ ابن عبدربه، ج٦ ص١٠٤.
نفيسة بنت الحسن بن زيد بن علي بن أبي طالب	العباسي	٢٠٨هـ	٣٠ حجة	لم يحدد	العاملي، ص٥٢١؛ كحاله، ج٥ص١٨٧.

الهوامـــش

i) الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله(ت ٢٥٠هـ): أخبار مكة وماجاء فيها من الآثار ، تحقيق عبدلملك بن دهيش(مكتبة الأسدي : مكة المكرمة ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م) ج١ص ٢٧٠.
ii) الأزرقي: ج١ص ٢٧١.
iii) الأزرقي: ج١ص ٢٧٢-٢٧٣؛ الطبري، محمد بن جعفر(ت ٣١٠هـ): جامع البيان في تفسير القرآن(دار الحديث: القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ج٨ص ١١٤.
iv) نظام الدين القمي، الحسن بن محمد بن الحسين(ت بعد ٨٥٠هـ) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان (دار الحديث: القاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) طبع بهامش كتاب جامع البيان للطبري، ج٨ص ٨٤-٨٥.
v) الأزرقي: ج١ص ٢٧٣، نظام الدين القمي، ج٨ص ٨٤-٨٥.
vi) الأزرقي: ج١ص ٢٧٣؛ مسلم ، أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم القشيري(ت٢٦١هـ): صحيح مسلم، موسوعة الحديث الشريف ، إشراف ومراجعة صالح آل الشيخ(دار السلام: الرياض ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م) ص ١٢٠١؛ الطبري: جامع البيان، ج٨ص ١١٤؛ الواحدي، علي بن أحمد النيسابوري(ت ٤٦٨هـ): أسباب النزول، تحقيق عصام الحميدان(دار الإصلاح: الدمام ١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، ص٢٢٥؛ وعن ضباعة العامرية انظر: ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري(ت ٢٣٠هـ) الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبدالقادر عطا (دار الكتب العلمية: بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م) ج٨ص ١٢١.
vii) البخاري، محمد بن إسماعيل(ت ٢٥٦هـ): صحيح البخاري : موسوعة الحديث الشريف، بإشراف ومراجعة صالح آل الشيخ(دار السلام للنشر والتوزيع: الرياض ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م) حديث رقم ١٦٢٢ ص ١٢٨. وانظر أيضا حديث رقم ٣٦٩ص ٣٢؛ ابن حجر، أحمد بن علي(ت ٨٥٢هـ): فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق قصي الخطيب وآخرين(دار الريان: القاهرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م) ج٣ص٥٦٥.
viii) سورة الحج : الآية ٢٧. وانظر : الطبري: جامع البيان ، ج٩ص١٠٦-١٠٧.
ix) الواقدي، محمد بن عمر بن واقد(ت ٢٠٧هـ): المغازي، تحقيق مارسدن جونس(عالم الكتب: بيروت) ج٣ص١٠٩٠؛ ابن سعد ، ج٨ص ١٠٠؛ ابن حنبل(ت ٢٤١هـ): مسند أحمد بن حنبل (بيت الأفكار الدولية: الرياض ١٤١٩هـ/١٩٩٨م) ص ١٩٩٧؛ أبو يعلى الموصلي، أحمد بن علي التميمي(ت٣٠٧هـ): مسند أبي يعلى، تحقيق : حسين سليم أسد(دار المأمون للتراث : دمشق ١٤٠٤ / ١٩٨٤) ج٨ص١٢٩؛ ابن أبي حاتم، عبدالرحمن بن علي الرازي (ت٣٢٧ه): الجرح والتعديل، تحقيق: عبدالرحمن المعلمي (مطبعة دائرة المعارف العثمانية: حيدرآباد الدكن ١٣٧١هـ/١٩٥٢م)ج٨ص٣٩٣ ؛ أبو الشيخ الأصبهاني، عبدالله بن محمد بن جعفر بن حيان(ت ٣٦٩ هـ): أمثال الحديث ، تحقيق: عبد العلى عبدالحميد حامد (الدار السلفية : بومباي-الهند ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م) ج١ص٩٦ ؛ الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر(ت ٨٠٧هـ): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد(دار المعارف: بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ج٤ص٣٢٢ ؛ البوصيري، أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل(ت ٨٤٠هـ): إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، دار المشكاة للبحث العلمي (دار الوطن: الرياض ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ج٣ص١٥٥؛ عمر

رضا كحاله: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام (مؤسسة الرسالة : بيروت ١٩٧٧م) ج٣ ص١٩.

x) ابن سعد، ج٨ص ١٦٨- ١٧٠؛ البخاري، ص١٤٥- ١٤٦رقم ١٨٦١؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم(دار المعارف: القاهرة ١٩٧٩م) ج٤ص١٩٠؛ ابن حجر: فتح الباري، ج٤ص٨٨،٨٧. والطيالسة جمع طيلسان وهو كساء أخضر لا تفصيل له ولا خياطة أشبه بالشال أو الوشاح يوضع على الكتف. ابن منظور، محمد بن مكرم(ت ٧١١هـ): لسان العرب المحيط ، تحقيق يوسف خياط(دار لسان العرب: بيروت)ج٢ص٦٠٤.

xi) ابن سعد ، ج٨ص ١٦٩؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٤ص ٣٩٧؛ ابن حجر: فتح الباري،٨٨. ولم توافينا المصادر التاريخية بالسنة التي حجَّ فيها الخليفة الراشد عثمان بن عفان أمهات المؤمنين ويصعب علينا تحديد تلك السنة لأنه من الثابت أن عثمان حج طيلة سنوات خلافته عدا السنة التي قتل فيها ٣٥هـ/٦٥٦م.

xii) أبو الفرج الأصبهاني، علي بن الحسين(ت ٣٥٦هـ): الأغاني، (دار الفكر : بيروت)جـ١٠، ص٥٧؛ ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت٥٧١هـ): تاريخ مدينة دمشق : تراجم النساء، تحقيق سكينة الشهابي (دمشق:١٤٠٣هـ/١٩٨٢م) ص٢٠٥، ٢٠٦؛ ابن واصل الحموي، جمال الدين محمد (ت٦٩٧هـ) : تجريد الأغاني ، تحقيق : طه حسين وإبراهيم الأبياري(منشورات دار الكتاب العربي: القاهرة ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م) جـ١، ص١٢٨٤؛ النويري، أحمد بن عبدالوهاب(ت٧٣٣هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب(المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر: القاهرة) جـ٤، ص٢٥٨.

xiii) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، جـ١٠ص٥٧؛ ابن عساكر، ص٢٠٥، ٢٠٦ ؛ ابن واصل الحموي، جـ١ ص١٢٨٤؛ النويري، جـ٤ ص٢٥٨ ؛ كحاله، ج٣ص ١٥٠.

xiv) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، جـ١١، ص١٩٣؛ ابن عساكر، ص٢٠٨؛ المالقي، علي بن محمد المعافري(ت٦٠٥هـ): الحدائق الغناء في أخبار النساء، تحقيق عايدة الطيبي(الدار العربيـة للكتـاب: ليبيـا / تـونس ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ص٥٥؛ ابـن واصـل الحمـوي ، جـ١،ص١٢٨٤، ١٢٨٥ ؛ الجزيري، عبدالقادر بن محمد(ت ٩٧٧هـ): الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق حمد الجاسر (دار اليمامة : الرياض ١٤٠٣هـ/ ١٩٣م) ج٢ص٤٨١.

xv) أبـو الفـرج الأصبهاني: الأغـاني ، جـ١٠ص٥٦-٥٧؛ ابـن عسـاكر، ص٢٠٨؛ المـالقي، ص٥٥، ابن واصل الحموي ، جـ١ ص١٢٨٤، ١٢٨٥؛ ابن فهد، النجم عمر(٨٨٥هـ): إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم شلتوت(مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي: مكة المكرمة ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م)ج٢ص١٢٨؛ الجزيري، جـ٢ ص٤٨١ - ٤٨٢.

xvi) أبـو الفـرج الأصـبهاني: الأغـاني ، ج٦ص١٣٥، ج٧ص١٣٦، ١٣٧؛ كحالـه، ج٣ص٢١١.

xvii) ابن عبدربه، أحمد بن محمد الأندلسي(ت٣٢٨هـ): العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين وإبراهيم الأبياري(دار الكتاب العربي: بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ج٤ص٤٠٧، ج٥ص٣٢٣؛ أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، ج١٠ص٥٧؛ كحاله، ج٣ص٢١٨.

xviii) انظر الهوامش: ١١ و ١٢ و١٣ و ١٤ من هذا البحث .

xix) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، جـ١ص٧٦؛ ج٢ص٣٥١؛ العاملي، ص٢٠٤، ٢٠٥.

xx) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، ج٢ص٣٥١،جـ٦ص٣٥ ؛ الكتبي، محمد شاكر(ت ٧٦٤هـ): فوات الوفيات والذيل عليها ، تحقيق إحسان عباس(دار صادر: بيروت) جـ٢ ، ص٧٣؛ العاملي، ص٢٠٤، ٢٠٥.

xxi) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، جـ٧ص١٢٨؛ ابن عساكر، ص٢١١ ؛ النويري ، جـ٤ ص٤٧؛ كحاله، ج١ص ٣١٢- ٣١٣.

xxii) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، ج٧ص١٢٨؛ القيان، تحقيق جليل العطية(مطابع رياض الريس: لندن) ص٦٦؛ المالقي، الحدائق، ص١٣٧؛ النويري ، نهاية ، جـ٤ ، ص٤٧؛ كحالة، ج١ص ٣١٢.

xxiii) الجزيري،ج٢ ص٤٨٣.

xxiv) الأزرقي ، ج١ص ٦٣٢؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٨ص٢٣٥؛ الفاسي، محمد بن أحمد(ت ٨٣٢هـ): شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، تحقيق عمر تدمري(دار الكتاب العربي: بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)ج١ ص٣٦٢؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج٢ص٢٢٥؛الجزيري،ج٢ ص٤٨٣؛ خير الدين الزركلي: الأعلام (دار العلم للملايين: بيروت ٢٠٠٢م)،ج٢ص٣٢٨،ج١ص٣٩٨؛ كحاله،ج١ ص٣٩٥.

xxv) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي(ت ٤٦٣هـ): تاريخ بغداد(دار الكتاب العربي: بيروت) ج١٤ص ٤٣٣؛ ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (دار الثقافة: بيروت ١٩٦٩م) ٢ص٣١٤، الجزيري: ج٢ ص٤٨٣.

xxvi) المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي(ت ٨٤٥هـ): الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال (مكتبة الثقافة الدينية: بورسعيد١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م) ص ٨١.

xxvii) المقريزي، ص ٨١.

xxviii) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٩ص١٨٥؛ ابن الأثير، علي بن محمد(ت٦٣٠هـ): الكامل في التاريخ (دار صادر: بيروت١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ج٧ص٥٦؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٥.

xxix) الفاسي: شفاء، ص ٣٤٦- ٣٤٩؛ المقريزي، ص ١٢.

xxx) الكجاوة مثل الهودج يجلس فيها مبطنة بالديباج وقد وردت في الروايات بمسميات عدة فبينما استعمل ابن الجوزي وابن كثير والفاسي لفظ المحمل ذكر الذهبي واليافعي لفظ كجاوة وذكر ابن تغري بردي لفظ العمارية.

ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي(ت ٥٩٧هـ): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عطا و مصطفى عطا مراجعة نعيم زوزور(دار الكتب العلمية: بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)ج٧ص٨٤؛ الذهبي الحافظ شمس الدين (ت٧٤٨هـ) : كتاب دول الإسلام (الهيئة المصرية العامة للكتاب : مصر ١٩٧٤م)ج١ص٢٢٧؛ اليافعي، عبدالله بن أسعد (ت ٧٦٨ه) : مرآة الجنان وعبرة اليقظان(دار الكتب العلمية : بيروت١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م) ج٢ص٢٨٩؛ ابن كثير، إسماعيل بن عمر(ت ٧٧٤هـ): البداية والنهاية في التاريخ(دار الفكر العربي: القاهرة

١٣٨٧هـ) ج١١ص٢٨٧؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج٢ص٣٥٣؛ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف(ت٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (دار الكتب العلمية : بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م)ج٤ص١٢٦.

xxxi) السَّوِيقُ طعام يعمل من الحبوب بعد تحميصها ، ويمكن تحضيره بأشكال متنوعة ؛ منه الحلو ومنه الحامض، وذلك يعتمد على مايضاف إليه من عسل أو سكر أو خل أو غير ذلك وعادة ما يُحتفظ به لوقت الحاجة كأفضل أنواع الزاد و المُونة حيث يمكن اختزانه لفترات طويلة، ولسهولة حمله في الأسفار. وأما الطَّبَرْزَد فهو السكر الأبيض الصلب يطحن قبل استعماله . الأزرقي، ج٢ص٢٤٩؛ ابن بكار، الزبير(ت ٢٥٦هـ): الأخبار الموفقيات، تحقيق سامي العاني(مطبعة العاني: بغداد ١٩٧٢م) ص ٦٠؛ جمهرة نسب قريش وأخبارها، تحقيق محمود شاكر(مطبعة المدني: القاهرة ١٣٨١هـ) ج١ص ٤٨-٤٩؛ المقدسي، محمد بن أحمد(ت٣٨٨هـ): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دي غويه (مطبعة بريل: ليدن ١٨٨٩م) ص٧٢؛ أدي شير، السيد: الألفاظ الفارسية المعربة(المطبعة الكاثوليكية: بيروت ١٩٠٨م) ص ١١١.

xxxii) الثعالبي، عبدالملك بن محمد النيسابوري(ت ٤٢٩هـ): لطائف المعارف ، تحقيق محمد سليم(دار الطلائع للنشر والتوزيع ، ص ٨٢؛ ابن الجوزي، ج١٤ص٢٤٨ ؛ اليافعي، ج٢ ص٢٧٩ ؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج٢ص٣٥٣؛ ابن تغري بردي، ج٤ ص١٢٦؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٥؛ الزركلي، ج٣ص١٣٩؛ كحاله، ج١ ص ٢١٤ -٢١٥.

xxxiii) الجَنَائب الخيول المسرجة الملجمة المطهمة التي تسير في الموكب السلطاني أو الأميري، زينة وتفاخرًا، دون أن يركبها أحد. ابن منظور، ج١ص٥٠٧-٥٠٨؛ عمارة، محمد : قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية (دار الشروق: بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٣م) ص١٥٥.

xxxiv) ابن الجوزي، ج٨ص٢٣٢؛ الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد (مؤسسة الرسالة : ط٢ بيروت:١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)ج٦ص٢٤٠؛ ابن فهد، ج٢ ص٤٦٨؛ الزركلي، ج١ص٣٠٦. ؛ الرشيدي،ص١١٣-١١٤؛ الحضراوي، ص١٥٢.

xxxv) ابن الجوزي، ج ١٦ص١٦٥ ؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٦.

xxxvi) ابن جبير، محمد بن أحمد (ت ٦١٤هـ): رحلة ابن جبير(دار صادر: بيروت ١٤٠٠/١٩٨٠م) ص١٣٦؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ص٥٥٠ ؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٦؛ كحاله ، ج٥ ص٦٤.

xxxvii) ابن جبير، ص ٢١٢ - ٢١٣.

xxxviii) ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ص٥٥٠.

xxxix) الأزرقي،ج٢ ص١٠٨؛ الفاسي:شفاء،ج١ص٥٢٨؛ العقد الثمين، ج٨ ص٢٣٨ ؛ ابن تغري بردي، ج٦ص١٦٣، ٥٩٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٢ ص٥٥٨ ؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٦؛ كحالة، ٢ص٣٩.

xl) الفاسي: العقد، ج٨ص٢٣٨؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٢ ص٥٥٨ .

xli) الجزيري، ج٢ ص٤٨٦.

xlii) ابن جبير، ص ١٧٧؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٦.

xliii) ابن جبير، ص ٢٠٦.
xliv) مكثر بن عيسى بن فُليتة بن القاسم بن أبي هاشم محمد بن جعفر بن أبي هاشم الأصغر محمد بن عبدالله بن أبي هاشم الأكبر محمد الأمير، أمير مكة. تولى إمرة مكة بعد منازعة مع أخيه داود سنة ٥٧١هـ وظل هو وأخوه داود يتقاتلان على إمرة مكة حتى صفيت له سنة ٥٨٧هـ واستمر في ولاية مكة حتى سنة ٥٩٧هـ. الفاسي: العقد الثمين، ج٧ص٢٧٤، ج٤ص٣٥٦، ج٦ص٢٩؛ ابن فهد، عز الدين عبدالعزيز بن عمر بن محمد (ت٩٢٢هـ):غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق فهيم شلتوت(مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، دار المدني: جدة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ج١ص٥٣٨-٥٤٤.
xlv) ابن جبير، ص ١٠٧.
xlvi) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢ ص ٣٧٠ ؛ ابن تغري بردي، ج٦ ص٢٠٣؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٣ ص١٠ ؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٦.
xlvii) الشلاح هو الأمير فخر الدين مملوك المنصور عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن تولى مكة نيابة عنه. الفاسي: العقد الثمين، ج٨ص ١٧٥؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٣ص ٦٠ – ٦١
xlviii) ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٣ص ٦٠ – ٦١ ؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٦.
xlix) البتنوني، محمد لبيب: الرحلة الحجازية (المطبعة الجمالية: مصر ١٣٢٩هـ) ص١٤٠؛ سيد عبدالمجيد بكر: الملامح الجغرافية لدروب الحج(مؤسسة تهامة: جدة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م) ص ٧٦.
l) ابن جبير، ص١٥٤، ١٥٥.
li) ابن جبير، ص١٥٥.
lii) ابن جبير، ص٤٢، ١٥٥.
liii) ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ص٣٢٣ .
liv) ابن فهد: إتحاف الورى ، ج ٣ص ٦٠-٦١؛ الجزيري ، ج٢ ص ٤٨٦.
lv) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٨ص٢٣٥.
lvi) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٩ص١٨٥؛ الجزيري، ج٢ص٤٨٥.
lvii) ابن الجوزي،ج١٤ ص٢٤٨؛ الفاسي:شفاء،ج٢ص٣٥٣؛ الفاسي:العقد ج١ ص١٨٦؛ ابن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٤١٤- ٤١٥؛ الذهبي:ج١ ص٢٢٦؛ اليافعي:ج٢ ص٣٨٥؛ ابن العماد، ج٣ ص٥٥؛ ابن تغري بردي، ج٤ ص١٢٦؛ الجزيري، ج٢ص٤٨٥؛ كحالة، ج١ص٢١٤-٢١٥.
lviii) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، جـ٨ص٢١٨،٢١٧؛ القيان، ص ٦٦ ؛ المالقي، ص١٣٧؛ النويري، جـ٤ ص٤٧؛ كحالة، ج١ص ٣١٢.
lix) الجزيري، ج٢ص٤٨٦؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٣ ص٦٠ - ٦١.
lx) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٨ص٢٣٥؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٣ .
lxi) ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٣ ص٦٠ – ٦١؛ الجزيري، ج٢ص٤٨٦.

lxii) أحمد بن عمر الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية(عمادة شؤون المكتبات: جامعة الملك سعود، الرياض ١٤١١هـ/ ١٩٨١م) ص ١٣٤-١٣٦.

lxiii) ابن سعد ، ج٨ص ١٦٩.

lxiv) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ،ج٧ص١٣٦، ١٣٧؛ كحالة، ج٣ص٢١٨.

lxv) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ،ج ٣ص٣١٩؛ كحاله، ج٣ص٢١٨.

lxvi) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، ج ١٩ص١٨١؛ كحاله، ج٣ص٣٤٣، ٣٤٤.

lxvii) البلاذري، أحمد بن يحيى(ت٢٧٩هـ): جُمل من أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي(دار الفكر: بيروت ١٤١٧هـ/١٩٩٦م)ج٨ص٨٩؛ أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني، جـ٦ص٣٥؛ ابن عبدربه، ج٦ص١٤١؛ ابن عساكر، ص ٤٨٠-٤٨١؛ الكتبي، جـ٢ ، ص٧٣؛ كحاله، ج١ ص ١٥٣.

lxviii) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، ج٢ص ٣٥١.

lxix) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ،ج١ص٣٦٦،ج٢ص ٣٧٢، ج٣ص٣١٦-٣٢١؛ ابن واصل الحموي ، ج١ص٢٨٣؛ كحاله، ج٣ ص ١٥٣.

lxx) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، ج٣ص ٣١٨-٣٢٠؛ النويري، ج٤ ص ٢٥٠، ٢٥٢.

lxxi) أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني ، ج١٦ص١٦٨.

lxxii) الفاكهي، محمد بن إسحاق(ت هـ): أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبدالملك بن دهيش(دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م)ج٤ص٥؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٦ص٣٨٦، ج٨ص٢١٤؛ الجزيري، ج٢ ص ٤٧٠؛ سعد عبدالعزيز الراشد: درب زبيدة طريق الحج من الكوفة إلى مكة(دار الوطن: الرياض١٩٩٣م) ص ٦٥، ٦٧.

lxxiii) مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق(ليدن: مطبعة بريل ١٩٧١م) ج٣ص٢٩١ .

lxxiv) الخطيب البغدادي، ج١٤ص ٤٣٣؛ ابن خلكان، ج٢ص٣١٤ ؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٨ص٢٣٧؛ كحاله،ج١ص٣١١.

lxxv)الأزرقي، ج٢ص٣٣؛ ابن خلكان، ج٢ص٣١٤؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٨ص٢٣٧؛ الجزيري، ج٢ص٤٨٤.

lxxvi) ابن خلكان، ج٢ص٣١٤.

lxxvii) يتصل بجبال عرفات جبال الطائف ومنها مياه كثيرة أوشال وعظائم قني منها المشاش وهو الذي يجري بعرفات ويتصل إلى مكة. ياقوت، شهاب الدين الحموي(ت ٦٢٦هـ): معجم البلدان (دار صادر: بيروت ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م) ج٥ص١٣١.

lxxviii) وادي نَعْمَان : واد فحل من أودية الحجاز التهامية بين الطائف ومكة تمر بهذا الوادي عدة عيون أشهرها عين زبيدة المشهورة حتى تصل مكة. ياقوت، ج٥ص٢٩٣؛ البلادي، عاتق بن غيث: معجم معالم الحجاز(دار مكة: مكة المكرمة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)ج٩ص ٦٩،٧٠.

lxxix) الخطيب البغدادي، ج١٤ص ٤٣٣؛ ابن خلكان، ج٢ص٣١٤؛ العمري،ياسين الخطيب(ت بعد ١٢٣٢هـ): الروضة الفيحاء في تواريخ النساء (الدار العالمية: بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م) ص ٣٥٤.

lxxx) البلاذري، فتوح البلدان(مطبعة الموسوعات: القاهرة ١٩٠١م) ص ٣٠؛ المسعودي، علي بن الحسين(ت ٣٤٦هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق يوسف داغر(دار الأندلس: بيروت ١٩٧٨م)، ج٤ص٤٤٤؛ الخطيب لبغدادي، ج١٤ص٤٣٣؛ ابن جبير، ص ١٥٢ ؛ ابن خلكان، ج٢ص٣١٤؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٨ص٢٣٧؛ العاملي، ص ٣٥٤؛ الراشد، ص ٦٥-٦٧.

lxxxi) الخطيب البغدادي، ج١٤ص ٤٣٤؛ ابن خلكان، ج٢ص٣١٤.

lxxxii) ابن خلكان، ج٢ص٣١٤؛ ابن جبير، ص١٥٢؛ العاملي، ص٣٥٤.

lxxxiii) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٩ص١٨٥؛ ابن الأثير، ج٧ص٥٦؛ ابن تغري بردي، ج٢ ص ٢٨٦ ؛ الجزيري، ج٢ص٤٩٠ ؛ الرشيدي، أحمد(ت ١١٧٨هـ) حُسن الصفا والابتهاج في ذكر من ولّى إمارة الحاج، تحقيق ليلى عبداللطيف أحمد(مكتبة الخانجي : القاهرة ١٩٨٠م) ص ١٠٣؛ الحضراوي، أحمد محمد (ت ١٣٢٧ه): مختصر حُسن الصفا والابتهاج في ذكر من ولّى إمارة الحاج، تحقيق محمد الخزيم ومحمد التمساحي(زهراء الشرق ودار القاهرة: القاهرة ٢٠٠٧م)ص ١٣٥؛ كحاله، ج٢ص ٢٨٦.

lxxxiv) ابن الجوزي، ج٦ص٢٥٣؛ الصفدي، خليل بن أيبك(ت ٧٦٤هـ): الوافي بالوفيات(دار إحياء التراث العربي: بيروت ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م) ج١٦ص ١٦٧؛ الفاسي: شفاء، ج١ص١١٥؛ العقد الثمين، ج٣ص٤١٦؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٢ص٣٦٣ ؛ كحاله،ج٥ ص٦٧. ويفيد الفاسي(شفاء الغرام، ج١ص٥٤١) أن سبيل الجوخي الآن معطل لخرابه ويقول أيضا: ورأيت فيه حجرا ملقى مكتوب فيه : أن المقتدر العباسي ووالدته أمرا بعمارة هذه السقاية والآبار التي وراءها وتصدقا بها سنة اثنتين وثلاثمائة.

lxxxv) الفاسي: شفاء، ج١ص١٨٨؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٢ص٣٦٨ .

lxxxvi) الفاسي: شفاء، ج١ص٥٥١؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٢ص٣٧٣.

lxxxvii) الذهبي، ج١ص٢٢٦؛ اليافعي، ج٢ص٣٨٥؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج٢ص ٣٥٣؛ ابن تغري بردي، ج٤ ص١٢٦- ١٢٧؛ كحاله، ج١ ص ٢١٣-٢١٥.

lxxxviii) ابن الجوزي، ج٨ص٢٣٢؛ ابن الأثير، ج١٠ص١١؛ الفاسي: العقد الثمين، ج٦ص ٢٣٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ص٤٦٨؛ الرشيدي، ص١١٤؛ الحضراوي، ص ١٥٢ .

lxxxix) الفاسي: شفاء الغرام ، ج١ص٥٢٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ص٤٨٩.

xc) ابن الجوزي، ج١٦ص١٦٥؛ الصفدي،ج٢٤ص١٧٤؛ ابن كثير، ج١٢ص١٨٣؛ الجزيري، ج٢ص٤٨٦- ٤٨٧؛ كحاله، ج٤ ص ١٩٢.

xci) عمارة اليمني، نجم الدين بن علي(ت ٥٦٩هـ): تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، تحقيق محمد بن علي الأكوع (المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع: صنعاء ١٩٨٥م) ص ١٦٨؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ ص٤٦٨؛ الديبع، أبو الضياء عبدالرحمن بن علي الشيباني(ت ٩٤٣هـ): قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكوع(المطبعة السلفية ومكتبتها : القاهرة) ص ٣٥٢؛ الزركلي، ج٣ص٢٤٨؛ كحاله، ج ٣ص٣٣٠.

xcii) ابن جبير، ص١٣٦؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ص٥٥٠؛ كحالة، ج٥ص٦٤.

xciii) ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ ص٥٥٠ ؛ الجزيري، ج٢ص ٤٨٧؛ كحالة، ج١ ص٣١١.
xciv) ابن جبير، ص٢١٣.
xcv) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١٤ص٢١٣؛ الفاسي:شفاء،ج١ص٥٢٨؛ الفاسي:العقد الثمين، ج٨ ص٢٣٨؛ ابن تغري بردي، ج٦ص١٦٣، ٥٩٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج٢ ص٥٥٢ ؛ كحالة، ٢ص٣٩.
xcvi) الفاسي: شفاء الغرام ، ج١ص٥٢٨، العقد الثمين، ج١ص١١٨، ج٨ص٢٣٨؛ ابن فهد، ج٢ص٥٥٢. ويذكر الفاسي(شفاء الغرام، ج١ص٥٢٨؛ العقد،ج٨ص٢٣٨) ورباط أم الخليفة الناصر العباسي يعرف برباط العُطيفية لأن الشريف عُطيفة صاحب مكة كان يسكنه.
xcvii) ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ ص٥٥٠ ؛ كحاله، ج١ ص٣١١.
xcviii) الفاسي: العقد الثمين ، ج٨ص٢٦١؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ص٥٥٣. ويذكر ابن فهد أن هذه المدرسة تعرف اليوم بدار زبيدة.
xcix) الفاسي: شفاء الغرام ، ج١ص٥٤٥.
c) الفاسي: شفاء الغرام ، ج١ص٥٣٧؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ص٥٦١.
ci) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢ ص٣٧٠ ؛ ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٣ ص١٠ ؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٦.
cii) ابن فهد، ج٣ص ٦٠؛ الجزيري:ج٢ ص٤٨٦
ciii) الفاسي: شفاء الغرام، ج١ص٥٥٠؛ الجزيري، ج٢ ص٤٨٧.
civ) ابن جبير، ص ١٦٢-١٦٤؛ الفاسي: شفاء الغرام، ج١ص٥٥٠؛ الجزيري، ج٢ص ٤٨٧.
cv) ابن بطوطة، محمد بن عبدالله(ت ٧٧٧هـ): رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار(دار الكتاب اللبناني: بيروت) ص ١١٥؛ كحاله، ج٢ص٤.
cvi) البخاري، الحديث رقم ١٨٦١ ص ١٤٥-١٤٦. وانظر: الحديث رقم: ١٥٢٠ ص ١٢٠ والحديث رقم : ٢٧٨٤ص ٢٢٤ والحديث رقم: ٢٨٧٥ص ٢٣١ والحديث رقم: ٢٨٧٦ص ٢٣١؛ ابن حجر: فتح الباري، ج٤ص٨٦- ٨٨.
cvii) العاملي، زينب بنت يوسف فواز(ت١٣٣٢هـ): الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ، تحقيق منى الخراط(دار المعرفة: بيروت: ٢٠٠٠م) ص٥٢١ ؛ كحاله، ج٥ص١٨٧.
cviii) ابن حجر: تهذيب التهذيب (مطبعة دائرة المعارف النظامية : ط١، الهند ١٣٢٦هـ) ج١٢ص٤٧٠؛ كحالة ، ج٢ص١٤٣.
cix) الصفدي، ج٢٤ص١٧٤.
cx) ابن فهد: إتحاف الورى ، ج٢ ص٤٦٨؛ كحاله، ج ٣ص٣٣٠.



الحياة الثقافية لنصاري الحبشة في العصور الوسطي

د. محمد أحمد محمد علي بهنساوي
باحث حاصل علي درجة الدكتوراه

تتناول هذه الدراسة موضوع الحياة الثقافية عند نصاري الحبشة في العصور الوسطي، ولقد رؤى أن يتم عرضه في أربعة أقسام رئيسية بحيث يتناول القسم الأول اللغة في الحبشة متناولاً كل من اللغة الجعزية، اللغة الأمهرية، اللغة العربية، في حين يتناول القسم الثاني التعليم الديني، أما القسم الثالث فيتناول موضوع الكتابة والأدب في الحبشة متناولاً الكتابة الدينية، الشعر، التدوين التاريخي، الأدب الشعبي، أما القسم الرابع والأخير فيستعرض حركة الترجمة في هذه الفترة التاريخية . وسوف نتناول هذه العناصر السابقة بشيء من التفصيل.

أولاً : اللغة في الحبشة :-

تعددت اللغات واللهجات في الحبشة فقد أحصاها القلقشندى و قال بأنها تزيد علي خمسين لساناً[١]، وذلك نتيجة تنوع الأجناس والسلالات مما أدي بدوره إلي تعدد اللغات واللهجات في أقاليمها المختلفة، فكان لكل منطقة لغة خاصة بها، وقد قام الباحثون بتقسيم هذه اللغات إلى ثلاث مجموعات كبيرة هي: اللغات الكوشية (كوشية غربية-كوشية شرقية) واللغات النيلية واللغات السامية[٢]، فأما أولها فأهمها الصومالية وهي السائدة في

١-القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الأنشا، الهيئة العامة لقصور الثقافة،١٤ جزء، القاهرة، ٢٠٠٤م، جـ٤، ص ٣٠٣ .

٢- السامية تسمية حديثة العهد اقترحها عالم اللاهوت الألماني شلوتزر **Scholzer** عام ١٧٨١ للميلاد، لتكون علماً على عدد من الشعوب التي أنشأت في غرب آسيا حضارات ترتبط لغوياً وتاريخياً، كما ترتبط من حيث الأنساب، وزعم أنها انحدرت من صلب سام بن نوح، بناء على ما جاء في التوراة في صحيفة الأنساب الواردة في الإصحاح العاشر من سفر التكوين. وقد

أوغادين، وهي لغة القبائل المعروفة بهذا الاسم (وتسمى أيضا الغالية Galenna نسبة إلى الغالا)، وأما الثانية فتضم مجموعة من لغات القبائل الصغرى في شرق الحبشة ومنطقة الحدود مع السودان وهي محدودة الانتشار، وأما المجموعة السامية فهي أقلها تفرعًا ولكنها أكرمها عند الأحباش وأكثرها انتشارًا بينهم ومن أهم لغاتها: -

١- اللغة الجعزية (لغة الجعزGe'ez): تعرف اللغة الحبشية القديمة باللغة الجعزية أو الجئزية – قلبت العين همزة في اللغات الحبشية الحديثة– ويرجع أصلها إلي اللهجة "الهشبأية" وهى إحدى لهجات الحميرية (العربية الجنوبية) التي جاءت إلى شمال الحبشة فى نهاية القرن الثالث الميلادي على أيدي الغزاة من قبيلة الأجاعز (الأجعازيان)[٣] وهي

شاعت هذه التسمية وأصبحت علماً لهذه المجموعة من الشعوب عند عدد كبير من العلماء في الغرب ومن سايرهم من "العرب" على الرغم من أن هذه التسمية لا تستند إلى واقع تاريخي، أو إلى أسس علمية عرقية صحيحة. وهذه الشعوب هي في حقيقة الأمر قبائل عربية هاجرت بفعل العوامل الطبيعية من جزيرة العرب بحثاً عن الماء والكلأ، ومنها تفرعت الأقوام الأخرى، يؤكد هذا القول ما ذهب إليه كثير من العلماء الباحثين في أصل الأجناس والسلالات من أن العرب هم أصل العرق السامي، ومن أرومتهم تفرعت الأقوام الأخرى وتشعبت قبائلها، ولهذا الفريق شواهد تاريخية وعرقية ولغوية يدعم بها حجته ويثبت آراءه. لذلك تنقسم اللغات السامية إلى ثلاثة فروع هي(١) اللغات السامية الشرقية و(٢) اللغات السامية الشمالية الغربية(٣) اللغات السامية الجنوبية الغربية (أو الجنوبية) وهذه الأخيرة تحتوي علي بعض اللغات الأخري وهي (١) العربية الجنوبية و(٢) العربية الشمالية و(٣) اللغات الحبشية. وهذه اللغة تشبه لغات جنوب الجزيرة العربية أكثر مما تشبه العربية الشمالية. وأقدم تلك اللغات هي الجعزية. ويعتقد بعض علماء الساميات أنها تفرعت من لغة جنوب الجزيرة العربية في بداية العهد المسيحي لتبلغ أوج اتساعها في القرن الرابع الميلادي . وكان قد تكلم بها في ذلك الوقت سكان مملكة أكسوم الواقعة على الحدود الحالية بين أثيوبيا وأريتريا . للمزيد انظر :

- **Budge: A History Of Ethiopia , Nubia & Abyssinia, London,1928, p.576.**

3- Richard Pankhurst: The Ethiopians , Blackwell, Cambridge, London , 1998, p. 57 .

إحدى القبائل العربية التي هاجرت من اليمن إلي الحبشة[٤] واستوطنوها وأسسوا فيها مملكة أكسوم، وقد تأثرت هذه اللهجة باللغات الحبشية لأبناء المكان كما تأثرت باللغات اليونانية والسريانية فى القرن الرابع الميلادي التي دخلت الحبشة بعد اعتناق المسيحية، ومن الجعزية تفرعت عدة لهجات مثل التقرنيا والتقرى والأمهرا وبقية اللهجات الحبشية، وتعد الجعزية اللغة الكلاسيكية للحبشة شأنها شأن اللغة العربية المكتوبة، وعلي ذلك فإن اللغة الجعزية تعد أقدم وأهم لغات الحبشة لأنها لغة النقوش الأكسومية ولغة التراث الحبشي حتى عهد قريب، وخطها متطور عن الخط العربي الجنوبي «المُسند» الذي أضيفت إلى حروفه رموز للحركات فخلصته من اللبس وعدم الوضوح، وقد كتب بها الكتاب المقدس الحبشي – مترجمًا عن اليونانية منذ القرن الخامس الميلادي[٥].

ولم تستخدم اللغة الجعزية حروف العلة قبل القرن الرابع الميلادي، ولكن تم استخدامها عندما دخلت الديانة المسيحية البلاد، وذلك لزيادة الرغبة في جعل نصوص الكتاب المقدس واضحة القراءة والكتابة لمعظم الناس، وهكذا أصبحت الجعزية لغة غنية بالمفردات، فتم ترجمة الكتاب المقدس إلى الجعزية من اليونانية وذلك عن طريق الرهبان التسعة[٦] فضلاً عن العهدين القديم والجديد حيث تظهر فيها الصلات من اللغة

---

٤ – محمد محمد أمين: تطور العلاقات العربية الأفريقية في العصور الوسطي، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، د . ت، ص ٣٣، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، القاهرة، الجزء الثالث، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م، ص ٣٧٠، عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م، ص ٣٦، انظر أيضاً

- A.H.M. Jones and Elizabeth Monroe : A history of Ethiopia, oxford university, at the clarendon press,1974 , p . 34.

5 - Trimingham J S : Islam In Ethiopia , oxford, 1952,p . v .

٦ – جاء هؤلاء الرهبان هرباً من قرارات مجمع خلقدونية عام٤٥١م وجاءوا إلي مصر والنوبة ومنها إلي مناطق النيل الأزرق والحبشة لأنهم سمعوا عن الحرية الدينية في هذه البلاد وبعدها عن الجدل اللاهوتي، وقد قاموا بتأسيس العديد من الأديرة في الحبشة خاصة منطقة تيجري، وهم ١– أرجاوي ولقبه زا ميكائيل (ويعني باللغة الأمهرية الشيخ الروحاني) Zamika, el Aregwi وهو مؤسس دير دبر دامو في تيجري كما يعد من أشهر القديسين التسعة بل أطلق عليه بعض المؤرخين لقب "باخوم الحبشة" لأنه أول من أنشأ ديراً للراهبات وآخر للرهبان، ٢– القديس

السريانية[7]. ومنذ ذلك انتشرت اللغة الجعزية انتشارًا واسعًا في أوائل القرن الرابع الميلادي، كما استخدمت في قراءة العهد القديم عند يهود الحبشة (الفلاشا)[8]، وفى

بانتليون Pantilon مؤسس دير دبر أسبو في أكسوم، ٣- القديس جيرما Girma مؤسس دير دبر مادارا وهؤلاء القديسين الثلاثة جاءوا من الإمبراطورية الرومانية (ويعتقد من سوريا)، ٤- القديس أفسي Afse مؤسس دير في مقاطعة يحا (Yaha) بالقرب من عدوة وقد جاء هذا القديس من آسيا الصغرى، ٥- القديس جوبا Goba الذي جاء من صقلية وقد اشترك مع القديس جيرما في تأسيس دير دبر مادارا، ٦- القديس أليف Alif الذي جاء من قيصرية وهو مؤسس دير بحزا، ٧- القديس صيحما أو سيام Siam من أنطاكية وهو مؤسس دير سديبا Sedenya، ٨- القديس ياماتا Yam,ata الذي جاء من Coasit وهو مؤسس دير جرعالتا، ٩- القديس ليقانوس Liqianas الذي جاء من القسطنطينية وقد اشترك مع القديس بانتليون في تأسيس دير كوناسل، ومن المعتقد أن جميع هذه الأديرة كانت في الأصل معابد وثنية وتم تحويلها إلي أديرة وكنائس، كما يلاحظ أن اثنين من هؤلاء القديسين حملوا أسماء يونانية وهم ليقانوس وبانتليون، أما الباقون فقد حملوا أسماء تبدو أسماء أرامية أو سريانية، وقد قام هؤلاء الرهبان التسعة بتأسيس العديد من الأديرة الحبشية الأخرى، كما أن هناك مئات من الأديرة التي انتعشت في تاريخ الكنيسة الحبشية كانت قد تأسست بواسطة رهبان آخرين ينتسبون إلى أولئك الأقطاب التسعة المشار إليهم، إذ صاحبهم العديد من القساوسة الذين قاموا بمساعدتهم في حمل الكتب الدينية المختلفة كما قاموا بترجمة بعضها بعد ذلك إلي اللغة الجعزية. للمزيد انظر مراد كامل:الرهبنة الحبشية، رسالة مارمينا عن الرهبنة القبطية، الأسكندرية، ١٩٤٨، الرسالة الثالثة، ص ص٢٩-٣٠، ٤٤، رءوف حبيب، تاريخ الرهبنة والديرية، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٢٦.

7 - Paul B . Henze : Layers Of Time A history Of Ethiopia , Hurst , Company, London , 2000, p . 37.

٨ - يهود الفلاشا(Falashas) : كلمة أمهرية تعنى المنفيين أو الغرباء، وأصل الكلمة يعود إلى اللغة الجعزية، ويعنى المهاجرين أي السكان غير الأصلين للبلاد، ويستخدم الأحباش الكلمة للإشارة إلى جماعة إثنية أفريقية تدين باليهودية، ويطلق عليهم أحيانا اسم اليهود الزنوج Negro Jews، أما الفلاشا فيشيرون إلى أنفسهم بوصفهم "بيت إسرائيلBeta Israel" وهناك جماعات أخري من اليهود الذين دخلوا في الديانة النصرانية على يد المبشرين المسيحيين ويطلق عليهم الفلاشا مورا Mura Falasha وهي جماعة قبلية في الحبشة يقال لها أيضاً «فلاس موارا»، وكلمة «مورا» تعني «الأغيار» أي غير اليهود، لذلك يعد الفلاشا أنفسهم أن الفلاشا موراً (أياً كان نوعهم) غير اليهود الأسرائيليين، ولذا فإن أحدهم إذا أراد العودة إلى الدين اليهودي، تطبق عليه الشعائر الخاصة بمن يريد التهود، فيحلق شعر رأسه وجسمه، وهى شعائر لا تطبق إلا على غير اليهود، للمزيد انظر محمد جلاء إدريس، يهود الفلاشا أصولهم ومعتقداتهم وعلاقاتهم بإسرائيل، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ص ١٩-٣٢ أيضاً

قداس الكنائس الحبشية كانت تؤدي بها الصلاة والشعائر الدينية الأخري- ولا تزال- مثلها في ذلك مثل اللغة اللاتنية في أوروبا، واللغة القبطية في بعض الكنائس المصرية[٩].

وقد تعرضت اللغة الجعزية لتغيرات ضخمة في الفترة الزمنية الواقعة بين نهاية عصر الزغاويين وبداية عصر الأسرة السليمانية عام ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م، ذلك أن قدوم العديد من رجال الدين المسيحيين من بلاد مختلفة أدي إلي إدخال ألفاظ جديدة من أصل يوناني وعربي وسرياني، كما أدي إلي استحداث كلمات جديدة وابتكار تعبيرات لم تكن معروفة من قبل لتلائم الآراء والمعتقدات والطقوس الدينية التي جاء بها هؤلاء الرهبان، وقد نجم عن هذا التطور تغيير أصاب اللغات الموجودة العديدة الموجودة في الحبشة نتيجة لتطرق كثير من الألفاظ الدارجة إلي هذه اللغات من جهة ولاستحداث كثير من التعبيرات والكلمات الجديدة من جهة أخري[١٠].

علي أنه لا يمكن بقاء لغة من اللغات في قالب واحد وعلي صورة واحدة مع استخدامها في مثل ذلك المحيط الواسع من المدن المتباعدة، وفي مثل تلك الأغراض المتنوعة المتباينة، لذلك نجد اللغة الجعزية في تلك الفترة تختلف اختلافًا بينا تبعًا لاختلاف الزمان والمكان والغرض الذي استخدمت فيه[١١]، لذلك استسلمت هذه اللغة أمام ضغط اللغات الأخري التي اشتدت عليها خاصة أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس

- Richard Pankhurst : The Falashas, or Judaic Ethiopians, in Their Christian Ethiopian Setting, Addis Ababa, 1992. p. 567. see also Taddesse Tamrat : op, cit , P.197.

٩ - سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطي، جزآن، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩١م، ج٢، ص ٢١٩

10 - Richard Pankhurst: An Introduction to the Economic History of Ethiopia from Early time to 1800, Sidgwick and Jackson LTD., First Edition, London, England , 1961 ,p. 25.

11 - David Appleyard,: Colloquial Amharic , first published , Rutledge - New York, 1995,p.2.

عشر الميلادي[١٢]، مما جعل طلاب المدارس يكتفون بمعرفة قسط محدود من أصول هذه اللغة لمعرفة قراءة الكتب الدينية[١٣].

وعلي أية حال فقد ظلت هذه اللغة هي لغة التفاهم والاتصال بين رجال الدين في الكنيسة الحبشية في سائر أرجاء الحبشة، كما استعملها الناس في الصلاة والتراتيل، كذلك كانت اللغة الجعزية لغة العلم والتعليم في ذلك العصر، فالطلاب يلقنون اللغة الجعزية في المدارس ويتلقون بها علومهم، كما أن كتبهم المدرسية دونت بها، مما جعل هذه اللغة هي لغة الطبقة المتعلمة المثقفة في المجتمع الحبشي[١٤].

٢- اللغة الأمهرية Amharic : وموطنها الأساسي إقليم أمهرة في وسط المملكة الحبشية، و تعد من أهم وأندر وأقدم اللغات الإنسانية وتندرج ضمن لغات سامية جنوبية شرقية أو أي من أسرة اللغات الأفروآسيوية، وهي تلتقي مع اللغة التيجرية في كثير من مفرداتها، ومعظم كلماتها من الكوشية وخاصة لغة الأجاو ولغات هرر، ونتج عن ذلك التأثر لغة مفرداتها وقواعدها سامية بشكل واضح بينما نجد أن تركيبها النحوي كوشي بشكل كبير، ويؤكد بعض الباحثين أنها اللغة التي كان يتحدث بها سكان جنوب أكسوم وأضيفت إليها عدة لهجات مختلفة، والخلافات بينهما ليست جوهرية [١٥] . غير أن هناك اتفاق عام على أنه في المنطقة المتسعة التي تغطيها اللغة الأمهرية توجد اختلافات

12 - Lionel Bender et al. : Language in Ethiopia, Oxford Univeristy press, 1976, p.53.
13- Gelb, I . J & Edward Ullendorff : The Semitic Languages of Ethiopia : A Comparative Study, In Journal of Near Eastern Studies 20/2 ,pp. 134-136.
14 - Lionel Bender et al. : op . cit , p.71.
15 - Edward Ullendorff : The Ethiopians an introduction to country and people, London, oxford university ,Press Newyork.toronto,1965 , p.124

لهجية طفيفة وملحوظة مثل الاختلافات الموجودة بشكل خاص بين صيغ الحديث المتداول في إقليمي شوا وجوجام[١٦] .

وقد أخذت اللغة الأمهرية في الانتشار خارج هذا الإقليم شمالاً وجنوبًا لأسباب متعددة، حتى أصبحت من أكثر اللغات انتشاراً في الحبشة، وقد تم استخدامها كلغة إدارية في البلاط الإمبراطوري منذ بداية حكم يكونو أملاك Yekuno Amlak ٦٦٩-٦٨٤هـ/١٢٧٠-١٢٨٥م[١٧]. كما انتشرت في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي في جميع أنحاء البلاد حتي أصبحت اللغة الأكثر انتشارًا علي نطاق واسع في جميع أنحاء الحبشة، وذلك لتأثرها بالبيئة الحبشية وباللغات الحبشية غير السامية، إذ كان من الصعب أن يستعمل جميع أفراد الشعب اللغة الجعزية في حياتهم الخاصة والعامة، لذلك شاع في ذلك العصر استخدام الأمهرية في قالبها العامي، فأصبحت الأمهرية هي اللغة الشائعة في معظم أنحاء الحبشة في تلك الفترة و تكلم بها الملوك وكتب بها المؤرخون[١٨]، وقد بدأت الكتابة باللغة الأمهرية منذ عهد (زرع يعقوبZara_Yaqob ٨٣٨ - ٨٧٣هـ/١٤٣٤ - ١٤٦٨م)، واستمر الأمر كذلك لدرجة أن كتب البرتغاليون بعض منشوراتهم والمنشورات الدينية الأخري باللغة الأمهرية بل استخدموها للتدريس فيما بعد في العصور الحديثة[١٩].

٣- اللغة العربية: وهي أكثر اللغات انتشارًا في شرق أفريقيا، وفي المدن التجارية و خاصة في المناطق التي يقطنها المسلمون فاستعملت كلغة للتعامل فيما بين التجار المسلمين، فقد كانت لغة التفاهم في الأسواق والمراكز التجارية في الداخل[٢٠] خاصة في

16 - Gelb, I . J & Edward Ullendorff : op, cit, p. 135.
17 - Paul B . Henze: op . cit ,pp77-78
18- Budge: op. cit, Vol. 2, p.548.
19- Edward Ullendorf،: op. cit,pp.130-131.

٢٠ - الجدير بالذكر أن هذه المدن الساحلية كانت تعد أسواقًا ضخمة يقصدها أبناء البلاد الأصليون لبيع حاصلاتهم، وشراء ما يحتاجونه وكانت تتم المعاملات التجارية في مثل هذه الأسواق في الغالب باللغة العربية أو بالعربية المختلطة بلغات البلاد المحلية مما أتاح لهؤلاء

هرر وعلي الساحل إذ يفضل الغالبية العظمى من السكان استخدام اللغة العربية لارتباطها بالدين الإسلامي[٢١].

وقد عرفت اللغة العربية طريقها إلى الحبشة منذ فترة بعيدة، فالجوار الجغرافي بين شبه الجزيرة العربية والحبشة أدى إلى قيام علاقات متعددة بين الجانبين، فقامت علاقات تجارية وسياسية وهجرات متبادلة مما أحدث نوعًا من التأثير والتأثر[٢٢]، فقد هاجرت بعض القبائل العربية إلى الحبشة وأثرت فيها خاصة بعد ظهور الإسلام، إذ كان هؤلاء المهاجرون أكثر تقدمًا ورقيًا من أهل البلاد الأصليين[٢٣]، وأسسوا لهم مراكز استقرار بالتدريج على الساحل الحبشي أدت لإنشاء عدة ممالك اشتهرت وذاع صيتها وعُرفت باسم ممالك الطراز الإسلامي[٢٤] وقد اتسم تكوين هذه الممالك بصفة عامة بالطابع التجاري، إذ امتلك المسلمون ناصية التجارة الداخلية والخارجية، و امتزج المسلمون العرب بالوطنيين وصاهروهم فأخذ الإسلام واللغة العربية ينتشران تدريجيًا [٢٥].

الأفراد أن يعرفوا قدرًا من اللغة العربية من خلال هذه المعاملات مما كان له أثر ما في نشر اللغة العربية بين السكان الأصليين للمزيد انظر تاديسي تامرات : القرن الأفريقي "السليمانيون" في أثيوبيا ودول القرن الأفريقي، في كتاب تاريخ أفريقيا العام، المجلد الرابع، موسوعة اليونسكو، بيروت، ١٩٩٧، ص ٤٣٥، غيثان بن علي بن جريس، الإسلام واللغة العربية في دول الطراز الإسلامي خلال العصور الوسطي، مجلة المؤرخ العربي، العدد الخامس، المجلد الأول، مارس ١٩٩٧م، ص ١٦٧-١٨٣.

21 - Paul B . Henze : op . cit , pp. 50 – 51 .

٢٢- محمد بن ناصر العبودي : في أفريقية الخضراء، دار الثقافة-القاهرة، بدون تاريخ،ص ١٥٨.

٢٣- الحيمي : سيرة الحبشة، تحقيق مراد كامل، مطبعة دار العالم العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م، ص ١٨

٢٤- واشتهرت في هذا الطراز إمارات سبع هي : اوفات، دارداو، أرابيني، هدية، شرخا، بالي، دارة للمزيد انظر القلقشندي، المصدر السابق، ص٣٢٤

25 - Bender, M.L : « Language in Ethiopia « , Oxford University Press, London, 1976,p.6.

كما شهدت اللغة العربية مرحلة أخرى من الازدهار في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي حيث شهدت حركة انتشار الإسلام مع ظهور الإمام أحمد بن إبراهيم عام٩٣٣هـ/١٥٢٦م الذي استولي على العديد الأقاليم الحبشية حتي دخلت أغلب أقاليم الحبشة في طاعته وتحت سيطرته عدا أجزاء محدودة منها، واستمر جهاد الإمام أحمد حوالي خمسة عشر عامًا قبل أن يتدخل البرتغاليون في ساحة الصراع والأحداث التي انتهت بمقتل الإمام، وكان لهذه الفترة من التوسع أثر كبير في توطيد قواعد الإسلام ونشر اللغة العربية في أنحاء الحبشة، فامتد الإسلام ووصل إلى مناطق وأراضي لم يكن قد وطأها من قبل[٢٦].

وقد انتشرت اللغة العربية في هذه الممالك بشكل كبير فكان أهالي البلاد يتكلمون اللغة العربية إلى جانب لغاتهم المحلية، خاصة أهل أوفات الذين كانوا يتحدثون العربية إلى جانب لغاتهم الحبشية[٢٧]، ولم يتوقف انتشار اللغة العربية على الساحل الشرقي للحبشة فقط بل امتد إلى داخل الحبشة نفسها، فقد حملها إلى الداخل التجار العرب والدعاة والمعلمون وحملتها القبائل العربية المهاجرة والطرق الصوفية إلى أعماق الهضبة الحبشية[٢٨].

ثانيًا : التعليـــم :

لم ينال موضوع التعليم عامة اهتمام الباحثين والرحالة وذلك نظراً لأسباب عديدة أهمها عدم اهتمام الأحباش أنفسهم بالأقبال علي التعليم باستثناء فئة قليلة من رجال

---

26 - Ferguson, C.A.: The Role of Arabic in Ethiopia: A sociolinguistic perspective.» In: J.B. Pride and Janet Holmes (Eds.) Sociolinguistics selected readings .penguin Books Ltd, England. 1972,pp.112- 124.

٢٧- إبراهيم علي طرخان : الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطي، بحث بالمجلة التاريخية المصرية، القاهرة، المجلد الثامن،١٩٥٩، ص ٣٩

٢٨- حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، الجزء الأول، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٣، ص ص ٤٣١-٤٣٢

الدين وأبناء طبقة النبلاء أما باقي فئات المجتمع فلم تعطي لهذا الموضوع أهمية تذكر نظراً لارتفاع تكاليفه(٢٩).

ولقد اقتصر التعليم في الحبشة علي المدارس الملحقة بالكنائس والأديرة حيث لم توجد مدارس غير مرتبطة بالكنيسة نهائياً، إذ كانت بمثابة المصدر الوحيد للتعليم وهو ما يعني أن معظم أولاد رجال الدين يصبحون كهنة وقساوسة في مستقبلهم حيث يقوم هؤلاء بتعليم أولادهم مبادئ الدين والقراءة والكتابة، وذلك بهدف أعدادهم للخدمة في السلك الديني بالكنائس المختلفة(٣٠).والي جانب القراءة والكتابة يتعلمون التراتيل علي طريقة اليهود ويحفظون المزامير والمدائح الدينية للعذراء وبعض الصلوات وذلك باللغة الجعزية القديمة(٣١)، وكانت فصول التعليم في هذا النوع من المدارس تقام في الهواء الطلق أو تحت ظل جميزة كثيفة ! أما المعلم في الدير فكان يجلس علي كرسي ويراقب التلاميذ، وقد قامت هذه المدارس بتخريج أعداد كبيرة من الكهنة والشماسين، لكنهم كانوا قليلي العدد لتلبية احتياجات المملكة الواسعة خاصة مع عدم أتقان معظمهم اللغة الجعزية(٣٢).

أما أولاد النبلاء والطبقة الأرستقراطية فلم يلتحقوا بمدارس الكنيسة مع أبناء رجال الدين وبعض أبناء الطبقة الوسطي، بل جرت العادة على أن تتفق جماعة منهم فيكلفون أحد القساوسة للحضور إلي منزل أحد الأغنياء(٣٣) فيعلمهم القراءة والكتابة خاصة قراءة المزامير وبعض مبادئ الدين والحساب مقابل أجر يدفعونه له، وقد اشترطوا علي هؤلاء

---

29 - C.H. Walker, O.B.E : The Abyssinian at Home, London,1933, p.241.
30 - Sylivia Pankhurst: The Ethiopia A cultural History, London, 1956,p. 216.
31 - Taddesse Tamrat : Church and State in Ethiopia (1270-1527), Oxford, Clarendon press, 1972,p . 294.
32 - Edward Ullendorff : op, cit, pp52-53.
٣٣ - هناك فئة من الأغنياء اتفقت فيما بينها علي إنشاء كوخ صغير يتعلم فيها أولادهم بجوار الكنيسة حتي لا يدخل أحد من القساوسة إلى منازلهم. انظر
- C.H. Walker, O.B.E : op, cit, pp.174-175.

القساوسة ألا يدفعوا هذا الأجر إلا بعد إتقان التلميذ لهذه الأشياء، بل لابد وأن يقوم بتعليم أحد التلاميذ القادمين من بعده هذه المبادئ منفردًا[٣٤]. الجدير بالذكر أن هذا الأجر تمثل عادة في منح المعلم بقرة وحصانًا أو عجلاً وخروفًا عن كل تلميذ، أما عن مدة تعليمه فكان يقضي حوالي ستة أشهر في حفظ المزامير ومثلها في تعلم مبادئ القراءة والكتابة[٣٥]، وكان خريجو هذه المدارس يتفوقون علي أمثالهم من مدارس الكنائس العادية، فكان لديهم قدرة عالية علي أداء الطقوس الكنسية باللغة الجعزية، وكان غالبية هؤلاء من رجال الدين المدنيين الذين كانوا يمثلون الكنيسة في المقاطعات البعيدة الوثنية[٣٦]. وبصفة عامة عند انتهاء دراسة هؤلاء الطلاب إما ينخرطون في سلك الرهبنة فى الدير الذى ينتمون إليه، وإما يعملون في السلك الكنسي لأداء بعض الوظائف الكنسية[٣٧].

---

٣٤ – غسان علي محمد الرمال: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، دار العلم للطباعة، جدة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م، ص١٥٥، مراد كامل، الرهبنة الحبشية، رسالة مارمينا عن الرهبنة القبطية، الرسالة الثالثة، مطبوعات جمعية مارمينا العجايبي، الأسكندرية، مايو ١٩٤٨م ص ٣٢، تاديسى تامرت، السليمانيون، ص ٤٤١؛ جون بوخهلتسر، أرض الوجوه السمراء، ترجمة رمزي يسن، مراجعة محمد محمود الصياد، سلسلة الألف كتاب، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ٦٠.

٣٥ – من أهم المشاكل التي تواجه التلميذ أثناء تعليمه هو أن مبادئ الدين والمزامير الذي يقوم بحفظها كانت مكتوبة باللغة الجعزية التي لا يفهما إلا رجال الدين الأحباش فقط، بينما كان الناس يتحدثون فيما بينهم اللغة الأمهرية التي كانت منتشرة علي نطاق واسع بين الشعب الحبشي انظر ممتاز العارف، الأحباش بين مأرب وأكسوم، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٧٥م، ص ٣٢٥.

36- Taddesse Tamrat: op. cit, pp . 232-٢٣3.

٣٧ – ساويرس بن المقفع، تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة، تحقيق عبد العزيز جمال، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولي، ٢٠٠٦م، ج١، ص٩٨٢، عبد الحفيظ محمد على، الحركة الديرية في مصر وأثرها علي بلدان البحر المتوسط في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، ندوة مصر وعالم البحر الأحمر المتوسط، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولي، ١٩٨٦م، ص ص ١١٢، ١١٣

وقد احتل هؤلاء الكهنة والشمامسة بعض المناصب الدينية خاصة في الكنائس التي فتحت في المجتمعات البعيدة علي حدود المملكة الحبشية حيث كان أغلبية سكانها من الوثنين، فقد عملوا بالوظائف الخاصة بأداء طقوس الأحتفالات الدينية والحفاظ علي تقاليد الكنيسة الطقسية، إلا أنهم كانوا غير قادرين علي نقل روح التعاليم المسيحية لهذه المجتمعات، حيث أقتصرت طرق تعليمهم علي قراءة كتب الخدمة العادية[٣٨]. وعلي الرغم من ذلك فقد حرص هؤلاء علي القيام بالعديد من الأعمال التي كان من أهمها نسخ الكتب والمخطوطات حتى ظهر عدد من الرهبان الأحباش الذين تخصصوا فى نسخ الكتب والمخطوطات وترجمتها[٣٩]، وحرصوا علي أن يحافظوا علي مخطوطاتهم في مكان أمين خفي، أما الأديرة الكبيرة مثل دير دبر برهان أو دبر ليبانوس فكان فيها حجرة مخصصة للمكتبة بها خزائن لحفظها ومكان لنسخ الكتب، الجدير بالذكر أنه تم نقل السنكسار المصرى فى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى وهو جامع حياة القديسين والشهداء النصارى منذ عصر مبكر من انتشار المسيحية وحتى نهاية عصر الشهداء من اللغة العربية إلى اللغة الجعزية، وقد طبقها الأحباش فى كنائسهم وأديرتهم[٤٠].

٣٨ – نظرت الشعوب الوثنية إلي مراسيم الكنيسة كطائفة دينية غريبة، وعندما دخل بعضهم في الديانة النصرانية بدا لهؤلاء السكان أن طقوسهم لا تختلف كثيراً عن وثنيتهم التي يمارسونها في ديانتهم الخاصة، وعلي الرغم من ذلك فقد مارسها البعض دون التخلي عن كل مظاهر معتقداتهم الأصلية. ويري ترمنجهام أن الأجبار علي اعتناق المسيحية في الحبشة لم يأت بنتائج إيجابية فقد تم تحويل قبائل الأجاو إلي المسيحية بطريقتين الأولي بالقوة والثانية عن طريق نشاط بعض الرهبان، إلا أن هؤلاء تحولوا إلي المسيحية بالأسم فقط، حيث أحتفظوا بولائهم لألهتهم القديمة .أنظر القلقشندي، المصدر السابق، ص ٣٢٥ أيضاً

-Trimingham: op. cit, p. 76.

٣٩- عزيز سوريال عطية: تاريخ المسيحية الشرقية، ترجمة اسحاق عبيد، المجلس الاعلي للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص١٩٨.

40- Budge: History of Ethiopia, Vol. 2, p.571.

انظر أيضا: ساويرس بن المقفع: مصدر سابق، ج١، ص٩١٩، عزيز سوريال عطية: تاريخ المسيحية الشرقية، ص١٩٩.

وهناك ميدان حضاري آخر أسهمت فيه الحركة الديرية بسهم وافر في الحبشة، ذلك أن مهمة نشر الديانة النصرانية وتعليم الناس مبادئ القراءة والكتابة لم يقم بها الأباطرة وحدهم، بل كانت بعثات الديريين وجهودهم تساند جيوش الغزاة وتسير في ركابها لتنشر الديانة النصرانية بين الشعوب الوثنية، فقد عمل الرهبان علي محاولة اقتلاع جذور الوثنية من الحبشة، التي استمر تاريخها لقرون طويلة في البلاد واقتلاع الخرافات وأعمال السحر من عقول أبناء الحبشة، فقد كانت الأديرة مثل المصابيح المضيئة في وسط عالم يموج بالغموض والظلام، وتؤكد النصوص الحبشية علي الدور الكبير الذي قام به الإمبراطور والقديس (زرء يعقوب) في هذا المضمار فلم يدخر جهداً في نشر التعاليم المسيحية خاصة في المناطق النائية(٤١). إذ أعطي تعليماته لرجال الدين الرهبان والمدنيين بأن الجزء الرئيس من أعمالهم هو توجيه وتعليم الناس مبادئ الدين خاصة أيام السبت والأحد فضلاً عن معرفة قراءة الكتاب المقدس باللغة الجعزية، وعلي جميع الناس أن يذهبوا إلي الكنائس ليهتم الكهنة بتعليم الناس عبادة الله واحترام السبوت، بل وصل الأمر إلي أنه أمر بعض الكهنة بالذهاب إلي المنازل البعيدة عن الكنائس يوم الجمعة لتعليمهم، وكان الناس يقدمون لهم الغذاء المناسب، وكان يجب على كل مسيحي أن يأخذ القس للاعتراف له بذنوبه(٤٢).

كما تدلنا مصادر دير ليبانوس، علي أنه قام بأختيار- على سبيل المثال- اثنا عشر راهبًا وقسم بينهم منطقتى شـوا وداموت وأعطى لكل منهم لقب رسول، ثم حدد لكل واحد المنطقة التى يبشر فيها، ولكن واحدًا منهم ويدعى (فيلبس) كان الرئيس بينهم وبالتالى

41- Mordechai Abir: Ethiopia and The Red Sea The Rise and Decline Of The Solomonic Dynasty and Muslim – European Rivalry in the Region, Gainsborough House, London, E11.Rs, England, 1980, p.32

42 - Herbert Weld Blundell& Reginald Koettlitz : A Journey through Abyssinia to the Nile, The Geographical Journal , Vol.15, No. 3, (Mar, 1900) .pp.99-101.

كان له الحق في التبشير في أى مكان من تلك المنطقة[٤٣]. هذا عدا جهود ذلك الجيش الضخم من رهبان الأديرة والمدنيين الذين كافحوا في سبيل نشر المسيحية وما يرتبط بها من تعاليم بين الشعوب الوثنية علي حدود أرجاء المملكة الحبشية، وقد استغرقت هذه العملية فترة طويلة نجحت بعدها الكنيسة في فرض تعاليمها علي هذه الشعوب في بدايات العصور الحديثة[٤٤] .

وهكذا أثرت هذه الأديرة في تطوير الطقوس الدينية الكنسية وإثراء ترانيم الكنيسة الحبشية، كما امتد أثرها إلي الأدب الكنسي، كما فعل القديس يارد[٤٥] الذى أدخل الترانيم

---

43 - Richard Pankhurst: An Introduction to the Economic ,pp .222

44- Christine Chaillot : The Ethiopian Orthodox Tewahedo Church Tradition,a brief introduction to its life and spirituality Published Paris , 2002, p 63.

٤٥ – القديس يارد : أحد تلاميذ القديسين التسعة، ولد وعاش في الحبشة في النصف الأول من القرن السادس الميلادي، أرسلته والدته إلي أحد القديسين (الأب جدعون Gede,wen) ليتعلم علي يديه في كنيسة صهيون في =أكسيوم، حيث كان يتلقي دروسه بجد واجتهاد حتي أصبح قساً، ثم سافر إلي أورشليم القدس حيث تعلم هناك، وعاد ليعمل معلماً في كنيسة أكسوم، الجدير بالذكر أن القديس يارد لـه بصمات عظيمة التأثير علي الكنيسة الحبشية، فقد وضع ألحان الموسيقي الدينية الحبشية الوحيدة في البلاد، ويقال أنـه استقي أصولها من الموسيقي السريانية، إلا أنه أدخل عليها التراتيل المصاحبة بالآلات الموسيقية والطبل والرقص المقدس الهادي، كما ينسب إليه أنه أدخل الصوت العالي إلي الكنيسة الحبشية و قد استقي ذلك من أورشليم القدس بعد أن استمع هناك إلي ترانيم التسبيح والشكر بالصوت العالي الجهوري، للمزيد انظر

- George A. Lipsky : Ethiopia, its people, its Society, its Culture, New Haven, Hraf press,1962.p.214., Sergew Hable Selassie : Ancient and Medieval Ethiopian History to 1270, Addis Ababa, 1972, p.158.

المصاحبة بالآلات الموسيقية وصيغ الألحان، وينسب إليه أيضًا إدخال الصوت العالي في إنشاد الترانيم و تمكنوا من تأسيس نوع من الليتورجيا[٤٦] الكنسية في البلاد[٤٧].

وهكذا كان التعليم في هذه الأديرة دينيًا يتناول الصلوات والطقوس والإنجيل وكتابات آباء الكنيسة، فقد كان الهدف الأساسي من هذه المدارس إعداد رجال الدين لمباشرة مهامهم في الوعظ والإرشاد ونشر المسيحية، ولكن هذا الهدف كان لا يمكن أن يتحقق دون أن يحصل رجل الدين نفسه علي قسط وافر من إتقان اللغة الجعزية، لأن الجعزية كانت لغة الكنيسة، وذلك بخلاف اللغة الأمهرية التي يتفاهم بها غالبية أهالي المملكة الحبشية، مما صعب علي هؤلاء القيام بالجمع بين اللغتين الأمهرية والجعزية[٤٨].

وهكذا نستطيع أن نؤكد حقيقة هامة، وهي أن الأديرة في الحبشة كانت هى المراكز الأساسية للثقافة والفنون، وصار الديريون يكونون ركنًا كبيرًا في المجتمع الحبشي، حتي غدت تعاليمهم وأعمالهم تمثل جزءً أساسيًا من حياة المجتمع كله، وحسب الديريين أنهم شاركوا مشاركة فعالة في عملية البناء والإنتاج التي حفظت النهضة الأدبية في المجتمع، كما بذلوا جهدًا كبيرًا في صيانة هذه الحضارة وسط الكوارث التي ألمت بالمملكة الحبشية في منتصف القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي[٤٩]، كما كانت هذه الأديرة مركز النشاط الديني وترجمة الكتب الدينية المختلفة، فقد غدت هذه الأديرة مركز العلم والدراسة، مما جعل ثقافة ذلك العصر ديرية بكل معاني الكلمة[٥٠].

---

٤٦ – الليتروجيا : هي الطقس الديني الخاص بالكنيسة الحبشية، وهي عبارة عن ترجمة لنسخة القديس مارك التي استخدمتها الكنيسة القبطية وترجمت إلي اللغة الجعزية . انظر

- Hyatt H.M :: The Church of Abyssinia, London,1928,p.83.

47 - Wolf Leslau : : Falasha Anthology , Schocken, New York, 1951, p.107.

48 - Bender, M.L : op. cit, p. 57.

٤٩ – تاديسى تامرت: السليمانيون، ص ٤٤١؛ جون بوخهلتسر: مرجع سابق، ص ٦٠.

٥٠ – مراد كامل : صلة الأدب الحبشي بالأدب القبطي، رسالة مارمينا في عيد النيروز، سبتمبر، ١٩٤٧، ص ٣٦.

ولقد شبه بعض المؤرخين هذه الأديرة بأنها كانت في هذه الفترة بمثابة جزر مضيئة يشع منها بريق المعرفة وسط بحر واسع من الظلمات يعمه الجهل والفوضي. وبذلك أنقذت الأديرة تراث الحبشة الفكري من الضياع في وقت لم توجد قوة أخري تعمل علي تحقيق هذه الغاية. حقيقة أن الأديرة تأثرت بالنزعة المحلية التي سادت في القري المحيطة بها، لكن ذلك لم يمنع من وجود نوع من الأتصال فيما بينها وبين بعض، وذلك بفضل الرحلات التي قام بها الرهبان-خاصة رهبان أتباع أوسطاتيوس(٥١)- وبفضل جهود

---

٥١ - أوسطاتيوس: المعروف عنه غير واضح تماماً ولكن يقال أنه ابن شقيق الأنبا دانيال جبرلتا Abba Daniel of Gar,Ita وتتلمذ علي يده وقد استطاع أن يؤسس لنفسه ديرًا في سيريا Sara'e وجمع حوله العديد من الطلاب، غادر الحبشة نتيجة تعرضه لبعض محاولات الاغتيال، فذهب لزيارة القاهرة حيث التقي مع البطريرك بنيامين (٧٢٨-٧٤٠هـ/١٣٢٧-١٣٣٩م) واتهم هناك أيضاً ببعض الاتهامات الدينية مثل عدم تقديسه ليوم السبت ودافع عن نفسه هناك من خلال اللجوء إلي الوصايا العشرة والشرائع الرسولية، وقد طلب البطريرك بنيامين التصالح مع أبناء بلاده في الحبشة فرد عليه قائلاً "جئت إلي بلادك لكي أموت من أجل كلمة الله إلا أنني لم أجد الراحة في هذا العالم" فرحل إلي العديد من البلدان مثل القدس وقبرص وأرمينيا وتوفي هناك، فعاد بعض طلابه ممن كانوا بصحبته إلي الحبشة بعد أن قاموا بالإطلاع ونسخ العديد من المؤلفات المسيحية العديدة من البلاد التي قاموا بزيارتها مما أدي إلي تطور نظام أدب الرهبنة في الحبشة في تلك الفترة إذ شكلت هذه الكتب معلماً حاسماً في النهضة الحضارية التي شاهدتها الكنيسة الحبشية فيما بعد، وقد قام هؤلاء الأتباع بنشر تعاليمه بقوة في المجتمع الحبشي وكان مركزهم دير دبر ماريام، إلا أن هناك العديد من أتباعه وطلابه ممن خالفوه في آرائه وانشقوا عنه. والملاحظ أن أتباع أوسطاتيوس كانت هي الفئة الوحيدة في الحبشة التي قامت بمعارضة كنيسة الأسكندرية فيما يتعلق بالعديد من المعتقدات الدينية، وذلك في مقابل أن الغالبية العظمي من الأديرة الحبشية خاصة الموجودة في أمهرا وشوا كانت تتوافق مع تعاليم بطاركة كنيسة الأسكندرية، و كان ذلك من منطلق الخوف من الطرد والحرمان لكل من يرفض تعاليم الكنيسة، وتأتي أكثر القضايا التي عارضها أتباع أسطاتيوس قضية يوم السبت فعلي الرغم من أن تقديس يوم السبت لا يوجد إلا في العهد القديم، فإن ذلك كان له تأثير كبير علي تفكير العديد من الأحباش في إعادة بعض التقاليد الخاصة المتعلقة بالممارسات الدينية، خاصة في غياب أدبيات الديانة النصرانية في القرون الأولي لها فيما عدا الكتاب المقدس، و يعد أشهر أتباع أوسطاتيوس القديس فليبس الذي قام بتأسيس دير دبرا بازان وهو الدير الذى أصبح أحد المراكز القيادية التعليمية والدينية الهامة في الحبشة حتى اليوم. انظر

زرع يعقوب في محاولة تطبيق المركزية وحرصه الدائم علي الأشراف علي المؤسسات الدينية، هذا كله بالأضافة إلي أثر الاصلاحات الكنيسية التي استهدفت تهذيب الحياة الديرية عن طريق الربط بين الأديرة واخضاعها لأشراف مركزي دقيق، مما جعل الأفكار والكتب تنتقل من دير إلي أخر في سرعة أثرت الدهشة(٥٢) . وهكذا نستطيع أن نؤكد حقيقة قاطعة، وهي أن الأديرة في الحبشة كانت المراكز الأساسية للثقافة والدراسات المتنوعة فضلاً عن الفنون فيما بين أوائل القرن الخامس عشر ونهاية القرن السادس عشر الميلادي(٥٣).

ثالثاً : الكتابة والأدب في الحبشة :

١- الكتابة الدينية:

منذ دخول المسيحية في المملكة الحبشية كانت اللغة الجعزية القديمة وسيلة للتعبير الأدبي في الحبشة، وتدور الآداب المكتوبة بالجعزية حول المواضيع الدينية وأغلبها مترجم عن القبطية والسريانية واليونانية والعربية، إذ تمت ترجمة الكتاب

Knud Tage Andersen: The Queen of the Habasha in Ethiopian History,Tradition and Chronology, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 63, No. 1. (2000), p.142 see also Taddesse Tamrat : Church and State in Ethiopia, pp. 206-208.

٥٢ - ساويرس بن المقفع، مصدر سابق، ج١، ص٩٨٢، لبيب حبشى: المخطوطات القبطية: رسالة مارمينا في عيد النيروز توت ١٦٦٤، مطبوعات جمعية مارمينا العجايبى، كنيسة السيدة العذراء، الإسكندرية، ١٩٤٧، ص ٢٦؛ عبد الحفيظ محمد على: المرجع السابق، ص ١١٢، ١١٣؛ انظر أيضا:

- Donald Crummey: Land and Society in the Christian Kingdom of Ethiopia from the Thirteenth to the Twentieth Century, University Illinois Press, 2000,pp.45-49;

53 -Stuart Munro,: Aksum an African Civilisation of Late Antiquity, first published, Alan Light, British Library,1991, p.13-15.

المقدس(٥٤) وعدد من الكتب الدينية الأخرى .إلى هذه اللغة، إلي جانب القداسات القبطية لكل من الآباء جريجوري(غرغريوس) وباسيليوس(باسيل) وكيرلس، وكذا بعض القداسات الأخري التي إختفت من الكنيسة القبطية، في حين أن بعض القداسات الأخري الحبشية خالصة، ورغم ما يتردد عن أن الكتاب المقدس المكتوب بالجعزية من وضع فرومنتيوس، إلا أن معظم الدلائل التاريخية تضعه في عصر القديسين التسعة أي مع نهايات القرن الخامس(٥٥). ومع انتشار الإسلام في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا والأقاليم الساحلية الحبشية تعرضت المسيحية التي تعايشت مع غيرها من الأديان في الأقاليم الداخلية إلى الذوبان وكنتيجة لذلك فإنه منذ بداية القرن الثاني الهجري /الثامن الميلادي أخذ تطور الأدب الجعزي في التراجع واستمر ذلك التراجع حتى منتصف القرنالسابع الهجري/ الثالث عشر عندما بدأ الأدب الجعزي في الانتعاش والازدهار مرة أخرى(٥٦).

وعلي الرغم من ذلك فأن هناك نتاج أدبي غير قليل لهذه الفترة يتكون من الجدلات Gedles وهي عبارة عن أخبار لمآثر وأعمال العديد من القديسين أو بطولات الملوك(مثل أعمال الملك لاليبالا Gedle Lalibala ٥٨٥-٦٢٢هـ/ ١١٩٠-١٢٢٥م)(٥٧)

٥٤ - تعتبر الكنيسة الحبشية أن الكتاب المقدس هو القاعدة والمرجع لكل ما يتعلق بمسائل الإيمان. ومن المرجح أن أول نص كتابي نقل للغة الجعز هو الإنجيل، ورغم ما يتردد عن أن الكتاب المقدس المكتوب بالجعزية من وضع فرومنتيوس، إلا أن معظم الدلائل التاريخية تضعه في عصر القديسين التسعة أي مع نهايات القرن الخامس، وقد خصعت هذه الترجمة لأكثر من مراجعة كان أخرها في القرن الرابع عشر.

٥٥ - عبد الحفيظ محمد على: المرجع السابق، ص ٩٦.

56 -Tesfaye Gesesse : Ethiopian Literature before and after the revolution, in Lotus "Journal of Afro-Asian writers association no: 46 –4/80, pp.33-34.

٥٧ - اتخذ الملك لاليبلا (Lalibela) لنفسه لقب جبراماسقال (Gebre Mesqel) ومعناها خادم الصليب، وقد عرف عنه حبه للسلام واهتمامه برجال الدين، وقد قام بترميم العديد من الكنائس وبني أكثر من عشر كنائس جديدة في جميع أنحاء البلاد ما زال بعضها باقياً حتى الآن استعان فيها بعدد من العمال المصريين بالاضافة إلي بعض الهنود، ويقال إنه قبل توليه الحكم نفي بسبب عداوة عمه Tatadim إلا أنه استطاع الهرب وقام بثورة استطاع الاستيلاء بها

والذي ارتبط " اسمه بالكنائس الصخرية الشهيرة في إقليم "لاستا" وكتابة تاريخ الأسرة الزغوية(٣٢٩-٦٦٩هـ/٩٤٠-١٢٧٠م) و "أعمال تكلا هيمانوت Gedle Tekle Haimanot " الذي يعد مستعيد الحكم للأسرة السليمانية ... ومن الجدلات التي كتبت أيضاً " أعمال الأب فيليبوس الذي عارض الإمبراطور عمدا صهيون الأول (٧١٤-٧٤٥هـ/١٣١٤-١٣٤٤م) بسبب تعدد زوجاته فضلاً عن انه تزوج بزوجة أبيه، مما أثار غضب الإمبراطور فأمر بجلده وأجبره على السير عاريًا وسط جماهير الرجال والنساء الساخرة وقد آذت هذه المهانة الراهب في كرامته [٥٨].

ومن أعمال هذه الفترة أيضًا أخبار الإمبراطور عمدا صهيون الأول والتي تحكي عن معاركه وبطولاته، وكذلك من الأعمال الأصيلة في هذه الفترة" قصة الإسكندر الأكبر" والتي تحتوي على العديد من الأعمال البطولية الخيالية التي لا تستند إلى أساس تاريخي، ومن الكتب العلمانية التي ظهرت في هذه الفترة كتاب "صراطا منجست" والذي يقال أن عمدا صهيون هو الذي كتبه بنفسه، والكتاب يصور نظام الحكومة والحقوق المطلقة للإمبراطور وامتيازات الطبقة الحاكمة [٥٩].

ولم تكن هذه الكتب خاصة بالكتب الدينية فقط، بل أُلِفت كتب في موضوعات غير دينية ومن أشهر الكتب التي ظهرت في هذه الفترة كتاب "مجد الملوك " أو " كبرا نجست Kibre negest وكان الهدف الأساسي من هذا الكتاب هو إضفاء شرعية الحق الإلهي

علي الحكم في عهد أخيه الكبير لذا يعتقد انه وصل للحكم بقوة السلاح، ويختلف الباحثون في سنوات حكمه (١١٨٩ – ١٢٢٩م) بينما يذكر آخرون أنها (١١٨٠- ١٢٢٠م) وبينما نجد فريقاً ثالثاً يؤكد أنه كان معاصراً للخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٦-١٠٢٠م) ولكنهم يجتمعون علي أن مدة حكمه كانت أربعين عاماً انظر زاهر رياض: تاريخ أثيوبيا، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ١٢٥.

58 - Perruchon : Histoire des guerres d'Amda Seyon, roi d'Ethiopie, in Journal asiatique.ser.8, t.Xiv,1889, p.152

59 - Sergew Hable Selassie : op,Cit.p. 154.

لنسل الأسرة السليمانية باعتبارهم المستحق الوحيد للعرش(٦٠) ويحتوي هذا الكتاب على القصة الدرامية لرحلات ملكة سبأ (ماكيدا) إلى أورشليم ولقائها مع الملك سليمان، وعلى الرغم من أن الموضوع ليس ذا صبغة دينية خالصة إلا أن معالجته مشربة بمسحة روحانية دينية(٦١)، وهذا أمر متوقع لأنه من المفترض أن سلطة الملوك مستمدة من الرب ولهذا فإن دور الكنيسة وتأثيرها يكون أمرًا ضروريًا وفي الحقيقة يمكن اعتبار هذه المسحة الدينية إحدى الخصائص العامة المميزة لمعظم إنتاج الأدب الجعزي(٦٢).

وقد شهد القرن التاسع الهجري /الخامس عشر الميلادي تطورت سياسية ودينية خطيرة في الحبشة، مثل انتشار حركات الإصلاح والمجادلات اللاهوتية والمنشقين عنها من معتنقي الخرافات، والنزاع بين الأباطرة وبعض معارضي المطران المصري في بعض الأمور المتعلقة بالديانة المسيحية، ويبدو ان هذه الأحداث العظيمة كان لها أثرها في إثراء الحركة الأدبية، لذلك تعد هذه الفترة هي العصر الثاني من ازدهار وانتعاش الأدب الحبشي بعد مرحلة النقل من الأدب القبطي المصري في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي(٦٣).

لقد ارتبطت الحركة الأدبية في هذه الفترة بمحاولة تعزيز هيبة الأديرة الحبشية إذ كانت ثورة عام ١٤٥٣م كانت ضد الثروة الطائلة لبعض الأديرة ولمناهضة الإمبراطور، لذلك أنتشرت بعض الأعمال الأدبية التي تروج للخرافات والشعوذة ولاقت رواجًا بين عامة

---

60 -Budge : op,Cit.p.567.

٦١ - يقال أن الرأس ميخائيل حاكم مقاطعة تيجري هو الذي أمر بكتابة هذا العمل وقد نشره العالم الألماني بيزولد Bezold باللغة الجعزية مصحوباً بترجمة إلي اللغة الألمانية عام ١٩٠٥، كما قام العالم السير وليم بدج بعرضه وترجمته وتحقيقه باللغة الإنجليزية وهو الأن موجود في المكتبة البولندية(كاتلوج ديلمان تحت رقم ٢٤)تحت عنوان:-

- Budge: the Queen of Sheba& her only son Menyelek,London,1922

62 -Edward Ullendorff : Ethiopia and the Bible, London,1955, p.38.

63- Budge: op. cit, pp.568-569.

الشعب عن طريق الأسطفانيوسيين والميكائلين[٦٤]، فقد كان لهم عدد من المؤلفات منها كتاب "همارا نفس أو سفينة نوح" و"مرسي أمين أو المرفأ الأمين" و"فكاري ملكوت أو تفسير الألوهية" وهو من تأليف أحد المنشقين عن هذه الجماعة وهو يمتاز بأسلوبه الأدبي البديع والأفكار المعارضة لهذه الجماعة، فضلاً عن كتاب "فم العدل" وقد أدى ظهور هذه الأعمال الأدبية إلى إشعال حماس الكنيسة من أجل تطهير تابعيها من آثار وشوائب الوثنية القديمة[٦٥].

وطبقًا لبعض كتب هذه الفترة فإن الإمبراطور (زرع يعقوب) الورع بذل ما في وسعه لكي يخلص رعيته من السحر والشعوذة، وقد ألفت بعض الكتب للرد علي عبادة الأصنام وممارسة السحر والشعوذة والهرطقات وعلي ذلك فقد نسب إلي الإمبراطور تأليف عدد ليس قليل من الكتب الدينية المقدسة التي وصف فيها حالة البلاد السياسية والدينية في

٦٤ – أحد أهم الجماعات المعارضة للكنيسة الحبشية والتي كان لها دوراً بارزاً في المجادلات الدائرة حول العديد من الأمور الدينية الهامة كان أهمها قضية أقانيم الثالوث (حيث قالوا أن الآب والابن والروح القدس هم ثلاثة أسماء لوجه واحد وعضو واحد وصورة واحدة، كما قالوا أن الرب لا صورة له علي هيئة الناس ولا يشبههم وأنكروا أقنوم الثالوث) كما عارضوا أيضًا فكرة أن الآب والروح القدس سيظهران مع الابن في مجيئه الثاني، كما عارضوا أن يخصص الإمبراطور للعذراء العديد من أيام الاحتفال، ولم يوافقوا علي محتوي الكتب القانونية للكنيسة، وقد تبعتهم بعض الجماعات الأخري مثل جماعات عاصقا وجماليال للمزيد انظر الأنبا يؤانس، عقيدة المسيحيين في المسيح، دار الكتب، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٧٢-١٧٥، البابا شنوده الثالث، طبيعة المسيح،دار الكتب، القاهرة،١٩٩٢م، ص٢٣ أيضاً

Perruchon : Histoire d'Eskender , d'Amda-Seyon II et de Na'od , rois d'Ethiopie . Texte ethiopien inedit comprenant en outré un fragment de la chronique de Ba‹eda- Maryam, leur Predeceddeur, et traduction. In Journal asiatique.ser.9.vol.3. 1894 .319-366. Sep.-Dr. Paris, 1894 mit eigner Seitenzahlung ,p.365.see also J. B. Coulbeaux: Histoire politique et religieuse d'Abyssinie ("The Political and Religious History of Abyssinia"), Paris, 1929, p.314

65- Gelb, I . J & Edward Ullendorff : op, cit, p. 136.

عهده، فقد ظل لمدة اثنتي عشرة سنة يكتب فيها دون انقطاع، ومن هذه الكتب[٦٦]: "طومار تصبئت أو رسالة الإنسانية"[٦٧] و"مصحف برهان أو كتاب النور"[٦٨] و "مصحف ميلاد أو كتاب الميلاد"[٦٩] و"كهدت شيطان أو إنكار الشيطان"[٧٠] و "مصحف باحري أو

66- Perruchon : Les chroniques de Zar'a ya'eqobe et de Bae'da Maryam, Rois d' Ethiopie de 1434 A 1478, Paris, 1893, p. 77

٦٧ - أشار زرع يعقوب في هذا الكتاب إلي قصة المؤامرة التي حيكت ضده في البلاط من قبل ابنته وزوجها البحت ودد ايساياس واعتمادهما في ذلك علي السحر والسحرة والعرافين، والنص عبارة عن ثلاثة مواعظ تقرأ في أعياد الاحتفالات بالحوارين، ويقول زرع يعقوب أنه قد جمعها من واحد وثمانين من كتب الشريعة التي تتحدث عن عبادة الرب بقلب طاهر بعيد عن الخزعبلات، وهي مواعظ كتبت عموماً من أجل معارضة أعمال السحر والأوثان.

٦٨ - وهو يعد أشهر كتب زرع يعقوب علي الإطلاق، فهو كتاب تشريعي اهتم فيه بوضع كل التشريعات لشعبه وكهنته، بجانب بعض التعليمات للكهنة والشعب وكيفية تقديم القرابين وقراءة الكتب وإقامة الصلوات، كما احتلت فيه قضية يوم السبت جانباً كبيراً، وأقوال السنودس والديدسقليا، وبعث وميلاد المسيح....... إلخ. انظر مجدي عبد الرازق سليمان، النص الملكي في تاريخ الحبشة خلال عصري الإمبراطورين (زرع يعقوب ١٤٣٤-١٤٦٨) وابنه (بئيد ماريام ١٤٦٨-١٤٧٨) ترجمة ودراسة تحليلية، رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية الآداب- جامعة القاهرة،١٩٩٨م، ص ٩١ .

٦٩ - ويدعي كذلك خوختا صحاري أي نافذة الشمس والمقصود به كتاب ميلاد ربنا يسوع وهو يتضمن جزءاً آخر يسمي "مصحف سيلاسي" ويتناول فيه الإمبراطور عقيدة "التثليث" وهو مجموعة من النصائح العامة للشعب المسيحي، وتفسير لبعض أجزاء العهد القديم وارتباطها بالمسيح، كما يوجه بعض الانتقادات لكل من اليهود والمسلمين، وتمرد أولاد إسطفانوس وشهاب الدين أحمد بدلاي ضد الإمبراطور.

٧٠ - هي صلاة معينة ينسب تأليفها لزرع يعقوب، وترد ضمن الصلوات المعروفة باسم (سيف الثالثوث) المنسوبة لزرع يعقوب.

كتاب اللؤلؤة"[٧١] و"تعقبو مشطير أو حفظ الأسرار"[٧٢] و"إجزيئا بيحير نجش أو الرب ملك"[٧٣].

وقد شكك بعض الباحثين في انتساب هذه الكتب إلي (زرع يعقوب)، وذكروا أنها كتبت علي يد رجال الدين الموجودين في البلاط الإمبراطوري تحت رعاية الإمبراطور وإشرافه، وأن هدف تلك الكتب دعم الملك ومقاومة نزعة الهرطقات والممارسات الوثنية، مما يقدم دليلاً حيًا علي تدخل الملك في شئون الكنيسة وشريعتها[٧٤]، غير أن الباحث يتفق مع الرأي المؤيد أن (زرع يعقوب) قد كتب بنفسه معظم ما نسب إليه بصورة مباشرة أو بإشراف مباشر علي كهنته، فمن المعروف أن (زرع يعقوب) خريج مدارس الأديرة المحيطة بالبلاط، والجدير بالذكر أن معظم خريجي هذه المدارس قد عملوا في مناصب متميزة كالقضاء وغيره، كما أنها خرجت العديد من الأمراء الذين تولوا عرش الحبشة فيما بعد مثل (داود ٧٨٤-٨١٤هـ/١٣٨٢ – ١٤١١م) و(زرع يعقوب) و(ناؤود ٩٠٠-٩١٤هـ/ ١٤٩٤-١٥٠٨م) أي أن مؤهلاته الدينية كراهب قبل أن يكون ملكًا تؤهله لذلك، علاوة علي أن أسلوب الكتابة في معظم هذه الكتابات يكاد يكون واحدًا، كما تجدر الإشارة إلي أن ما نسبه المؤرخ إلي (زرع يعقوب) أقل بكثير مما نسبه الباحثون إليه إنتاجًا[٧٥]

٧١ - والمقصود به هو السيد المسيح وهو عبارة عن موعظة يحارب فيها زرع يعقوب السحر واعتماد المريض علي السحرة، ويركز فيها علي ضرورة أن يلجأ الناس في علاجهم إلي القساوسة لا السحرة .

٧٢ - وهي موعظة كتبت بخصوص جسد ودم المسيح تحث الأحباش المسيحيين علي المحافظة علي ما في الأقداح من شراب بحيث لا يراق منها شئ، لأن القدح قد بورك بدم المسيح.

٧٣ - وهو عبارة عن مجموعة من التراتيل تتضمن تحيات تكريماً للقديسين، انظر

-Perruchon : Les chroniques de Zar'a ya'eqobe et de Bae'da Maryam, p. 77

74 - David Buxton : The Abyssinians, Camelot press, Colorado, first Published, London,1970, pp.123-124.

٧٥ - يشير أحد الباحثين إلا أن هناك مخطوطاً يحتوي علي قائمة بالأعمال المؤلفة بالجعزية تنسب جميعها إلي زرع يعقوب منها كتاب يسمي "كتاب الزهور" وكذلك موعظة قصيرة عن الدور الذي أدته السيدة مريم العذراء في خلاص المسيحيين، كما أن له عدة مقالات أخري تتعلق

وإشرافًا[٧٦] إذ حرص علي تأليف العديد من الكتب الدينية التي شرح فيها آراء معارضيه والرد عليهم[٧٧].

ولم تقتصر عملية تأليف الكتب الدينية في عهد الإمبراطور زرء يعقوب فقط، بل كانت هناك العديد منها ما تم تأليفه في عهد أبنه وخليفته (بئيد ماريام ٨٧٣-٨٨٣هـ/١٤٦٨ - ١٤٧٨م) خاصة تلك التى تحتوي علي الصلوات الخاصة بالصوم الكبير، علاوة علي مخطوطات أخري مزينة من داخلها بصور جميلة، وبها أنواع من الحلي الممزوجة بالصلبان والمتعددة الألوان[٧٨].

أما في ما يخص بتفسير الكتاب المقدس فقد كان الأحباش يؤثرون الاستعانة بآباء الكنيسة لا سيما القديس باسليوس والقديس يوحنا الذهبي والقديس كيرلس السكندري، فضلاً عن بعض الآباء السريان والرومانيين، ويعد كتاب "هيمانونه أباو أو إيمان الآباء" عملاً نموذجيًا في هذا الصدد، إذ يشمل علي مختارات في أصول العقيدة

بالصلاة، وأخري لرفض الممارسات السحرية التي اتبعها الوثنيون، علاوة علي ابتهال ديني يسمي "تمجيد المحبوب" وهي صلاة عامة لأيام الأسبوع . للمزيد انظر مجدي عبد الرازق سليمان، المرجع السابق، ص ٩٢.

٧٦ - ينسب إلي زرء يعقوب كذلك الإشراف علي مجموعة من الكتب في عهدة مثل إشرافه علي ترجمه كتاب"قوانين الملوك" الذي أشار عليه به بطرس بن عبد السيد -وهو ناسخ الكتاب- كبديل عن كتاب (فاوس منفساوي)، فمنح بطرس ثلاثين أوقية من الذهب ليسافر إلي مصر ويحضر نسخة من القوانين المدنية لابن العسال ليترجم في بلاطه.كما ينسب إليه أيضاً الإشراف علي كتاب إخنوخ الذي كان أساساً نموذجياً للحوار مع اليهود. مجدي عبد الرازق سليمان، المرجع السابق، ص ٩٢.

77 - Taddesse Tamrat : A Period of Conflict, In A Panorama of History and Spirtual Life, Addis Ababa,1970,p.256.

78 -Tesfaye Gesesse : Ethiopian Literature before and after the revolution, in Lotus "(JAA) no: 46 –4/80, p.84.

والدفاع عن الإيمان وقد نقل الكتاب إلي الجعزية في عهد الإمبراطور الإسكندر(٨٨٣-٨٩٨هـ/١٤٧٨ -١٤٩٢)[٧٩]، كما ظهر كتاب"مصحف مستي Mashafa Mastir أو كتاب السرٌفي عهد (ناؤود٩٠٠-٩١٤هـ/١٤٩٤-١٥٠٨م) في دحض الهرطقات المسيحانية والثالوثية ولمعتقدات أريوس وصابيليوس ونسطور ولتعاليم المجمع الخلقدوني[٨٠]

وقد أهتمت الكتب التي تم تأليفها في عصر الإمبراطور (لبنا دنجل٩٦٤-٩٤٧هـ/١٥٠٨- ١٥٤١م) بالدفاع عن المسيحية في وجه الإسلام، ومن أبرز كتاب هذه الفترة إنباكوم Enbakom وهو تاجر سوري استقر في الحبشة وأصبح رئيسًا لأحد الأديرة فيما بعد، وقد كتب بالجعزية في موضوعات دينية وغير دينية، ومن أهم أعماله الدينية كتاب "أنقستا أمين أو باب الإيمان Anketse Amin "، الذي يهدف إلى تغيير وتحويل عقيدة الأحباش الذين اعتنقوا الإسلام أثناء غزو الإمام أحمد بن إبراهيم وفيه ذكر لآيات قرآنية وبراهين عن صحة المسيحية وشموليتها، ومن أعماله العلمانية المهمة كتاب "قوانين الملوك" الذي أعاد ترجمته إلى الجعزية عن العربية، وقد استمر استخدام هذا الكتاب كمصدر أساسي للقوانين والتشريع حتى أوائل العصر الحديث عندما ظهرت قوانين أكثر تقدمًا ومسايرة لروح العصر، كما كتب إنباكوم كذلك "الموسوعة الجعزية Mesthafe hawi و "أبو شاكر" Abu shakir وهو كتاب عن دراسة معاني الأعداد السحرية والتنجيمية ويقع في تسعةِ و خمسين فصلاً[٨١]. كما ظهر كتاب "مازغبا حينوت"

79 - Ulrich braukamper : The Correlation of Oral Traditions and Historical Records in Southern Ethiopia A Case Study of The Hadiya/ Sidamo, (JES), Vol. XI, No.2, Addis Ababa, (July 1973)., p.138.

٨٠- أثناسيوس المقاري : الكنائس الشرقية وأوطانها، الجزء الثالث، دار نوبار، القاهرة، الطبعة الثانية، أكتوبر٢٠٠٦،ص ص ٧٢-٧٣

٨١ - استنبطنا من مقدمة هذا الكتاب المعادلة الآتية : العام ٦٧٥٠ من تاريخ العالم = عام ١٥٦٩ بعد الإسكندر = عام ٦٥٥= عام ١٢٣٧ بعد المسيح انظر :

Mazgaba Haymanot وهو عبارة عن قراءة تاريخية للمجامع المسكونية الأربعة، ويهدف إلي دحض ادعاءات المرسلين والرد علي أولئك الذين دخلوا في الدين الإسلامي وأظهروا ما في المسيحية من بطلان للعقيدة الصحيحة(٨٢).

٢- الشعر :

أما في ميدان الشعر فقد شهد فترة حكم الأسرة السليمانية علي وجه الخصوص نشاطًا ملحوظًا وخاصة في الشعر الديني الذي يمجد مريم العذراء والقديسين وله منزلة خاصة عند الأحباش، ويلاحظ أن الشعر الجعزي الذي تمخضت عنه نهضة هذه الفترة لم يتعرض لمنافسة خطيرة من الشعر المنظوم باللغة الأمهرية، حقيقة أن هذه الفترة شهدت نموًا سريعًا للشعر المنظوم بهذه اللغة، ولكن هذا اللون من الشعر لم يقف عندئذ موقفًا عدائيًا من الشعر الجعزي، لأن الجعزية كانت لا تزال في هذه الفترة اللغة الطبيعية المألوفة في نظم الشعر، كما ظل الشعر الجعزي يصادف هوي عظيمًا في نفوس كثيرين حتي استخدموه في تصوير بعض مظاهر الحياة المعاصرة، الجدير بالذكر أن هذا الشعر كان عبارة عن ضربين يسمى أولهما «سلام أو صورة» Malke يحيِّي كاتبه فيه صديقًا أو محبوبًا أو يصف محاسن فتاة من الرأس حتى القدم، ويمثل ثانيهما مقطوعات قصار تغنّى غناء في المناسبات الدينية، ومما أُلف من الأناشيد والتراتيل مجموعة في تسبيح مريم العذراء ونشيد آخر ظهر في مطلع القرن التاسع الهجري / الخامس عشر يسمى «دقة» Deggua وإن كانوا ينسبونه خطأ إلى المغني ياريد Yared الذي عاش في القرن السادس الميلادي(٨٣).

٣- التدوين التاريخي :-

- Budge: op. cit, Vol. 2, p.571.
82- Ibid , pp.571-572.
83 -Steven Kaplan : " Iyasus Moʿa and Takla Haymanot, A Note on Hagiographic Controversy" in (JSS) 31, 1, 1986, p. 48.

وثمة مظهر أخر من مظاهر النشاط الفكري في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، يبدو واضحاً في الكتابات التاريخية التي ازدهرت في تلك الفترة، أما هذا الازدهار فيرجع إلي عدة أسباب من أهمها: عودة حكم المملكة للأسرة السليمانية مرة أخري، وإحياء الأساليب القديمة في كتابة التاريخ، فضلاً عن الأحداث المهمة التي امتازت بها فترة حكم السليمانيين والتي ترتب عليها ازدياد الشغف بتدوين التاريخ، كذلك الحروب مع المسلمين فضلاً عن النزاع مع معارضي الكنيسة، وقد بدأت الكتابة التاريخية الحقيقية في الحبشة منذ اعتلاء أول حكام هذه الأسرة العرش عام ١٢٧٠ إذ تم تعيين كاتب متخصص من قبل البلاط وهو "منصب الصحافي تنزاز" لتسجيل الأحداث التاريخية [٨٤].

وقد ازدهرت ثلاثة أنواع من الكتابات التاريخية التي عرفتها العصور الوسطي بصفة عامة وهي سير حياة العظماء من الملوك والقديسين، والمخطوطات التي كانت تحتوي علي معلومات وهبات الكنائس، فضلاً عن كتب الحوادث الوقائع الملكية، ولكن إذا كان القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي قد استأنف هذه الكتابات التاريخية بأنواعها الثلاثة فإنه استأنفها علي نحو جديد من الابتكار يتفق مع روح النشاط التجديد التي امتازت بها نهضة ذلك القرن [٨٥].

ففي كتابة السير نجد أنه بوجه عام حرصت علي أن تظهر سير حياة القديسين في قالب مدح وثناء، بحيث يبدون في ثوب أرباب المعجزات والكرامات، واستمر هذا الأسلوب متبعًا في القرنيين الثامن والتاسع الهجريين/الرابع والخامس عشر الميلاديين، فدونت سير

٨٤- هو منصب استحدثه الإمبراطور (يكونو أملاك) مؤسس الأسرة السليمانية الذى عهد إليه بمهمة تسجيل الأحداث التاريخية، مما كان له الفضل الأول في معرفة أحداث وتاريخ هذه الأسرة، وقد أضاف إليه (زرء يعقوب) مهمة حفظ المراسلات الإمبراطورية وختمها والترجمة الحرفية لهذا اللقب" الكاتب المأمور"، وكان من أهم اختصاصاته: حمل أختام الإمبراطور وقيد زواج الأسرة الإمبراطورية وقيد أوامر الإمبراطور وحفظ جميع المعاهدات وأوراق المملكة للمزيد انظر محمد خليفة حسن، نصوص من الحوليات الملكية الأثيوبية، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولي، القاهرة،٢٠٠٧م، ص ٣٧٣.

85- Christine Chaillot : op. cit, pp.42-44.

بعض القديسين السابقين من جديد وفقاً لمقتضيات المناسبات والظروف أبرزها سيرة الأنبا تكلا هيمانوت، كما كتبت تراجم لقديسي القرن الخامس عشر الميلادي أنفسهم، وعلي رأسهم القديس القديس صموئيل Samu'el حيث نظر إليه المعاصرون علي أنه شهيد الكنيسة في صراعها مع السلطة العلمانية، فضلاً عن سيرة القديس مرحنا كريستوس التي احتلت مكانًا بارزًا في الدراسات الأدبية، وجميع هذه الكتابات لم تخل من كثير من المعجزات التي نسبت إلي ذلك القديس(٨٦).

أما الجانب الثاني من الكتابات التاريخية هي المخطوطات التي مهدت في هذا العصر لمولد نوع جديد من التدوين التاريخي، وقد بلغت هذه المخطوطات ذروتها في القرن الخامس عشر الميلادي، وهي مكتوبة جميعها باللغة الجعزية، وقدر لها أن تظل قائمة حتي نهاية العصور الوسطي، ذلك أن هذه المخطوطات لم تكن مجرد وقائع وصفية، وإنما كانت سردًا لأهم أحداث السنوات خاصة زيارات الأباطرة للأديرة والهبات الممنوحة لها، فضلاً عن تناولها أخبار الحروب مع المسلمين، وكانت هذه المخطوطات قليلة الأهمية في الأديرة الصغيرة، لكنها صارت في الأديرة الكبيرة مثل دير دبر ليبانوس ودبر برهان علي جانب كبير من الأهمية، فقد أقدم معظم الرهبان علي عملية نسخ المخطوطات حتى ظهر عدد من الرهبان الأحباش الذين تخصصوا في نسخ الكتب والمخطوطات وترجمتها(٨٧).

وكانت جميع المخطوطات الحبشية مكتوبة علي الرق المصنوع من الجلد الذى ينقسم إلي نوعين : أما ورق مصنوع من جلد الماعز أو من جلد الغنم وهذا الأخير هو الأفضل، نظراً لأن قيمته عالية فضلاً عن أن جلد الماعز كان يكفي فقط لصنع مستويين أو اثنين من المخطوطات بمقياس ١٨في ١٥.٥ بوصة قسمة محتوياتها في المتوسط ٢٤٥ كلمة، وقد تم ذبح عدد كبير من الماعز خصيصاً لأخذ جلودها واستخدامها في

86 - Taddesse Tamrat : A Period of Conflict, p.243.

٨٧ - عزيز سوريال عطية: تاريخ المسيحية الشرقية، ص١٩٨.

كتابة المؤلفات الدينية مثل الكتاب المقدس وكتب الدراسة و ذلك بدلاً جلود الخراف، أما الكتب الأخري التي صنعت خاصة لأفراد العائلة الحاكمة والنبلاء كانت مكتوبة علي جلد الماعز، وكان القلم عبارة عن عود من القصب الطويل الذي استخدم في جميع أنحاء الشرق والحبر جيد مثل الحبر المستخدم في مصر، أما العناوين والنقاط فهي مكتوبة بالحبر الأحمر، والعديد من المخطوطات مكتوبة في مطلعها بالحبر الأحمر والأسود[٨٨].

أما عن أغلفة المخطوطات فكانت مصنوعة من الألواح الخشبية الغليظة التي يختلف سمكها وفقاً لعدد صفحات الكتاب، هذه الألواح الخشبية مغطاة من الخارج بالجلد البني وألوان مختلفة، وهناك بعض الألواح المصنوعة من المعدن النحاسي المطلي بالذهب مع ثلاثة صلبان علي بعضها، أما الحواف الداخلية فهي لوحات خشبية مغطاة بلون الجلد الداخلي والمسافة التي تفصل بينهما عبارة عن قماش من الحرير أو قطعة من القماش الملون، وتتميز الكتب التي تتعلق بالصلاة بأنها مغطاة بقطع من الزجاج وهو شئ لا يقدر بثمن في نظر الأحباش[٨٩].

وعلي الرغم من أن هذه الأديرة كانت عرضه للسلب والنهب إلا أن بعضها كان به مخازن في جدران الحوائط، أو في صناديق مصنوعة من الخشب أو الحجر، أما في الأديرة الكبيرة مثل دير دبر ليبانوس أو دبر برهان كانت توجد غرفة خاصة تحتوي علي

---

٨٨ – نشر العديد من العلماء والرحالة الأجانب تاريخ السجلات التاريخية الحبشية الهامة ومن أهم هؤلاء العلماء : باست (Basset) وجول برشون (Perruchon) وكونزلمان (Conzelman) وبيرايرا (Pereira) وجايدي (Guidi) وكونتي روسيني (Conti Rossini) وليتمان (Littmann) وبلندل (Blundell) وقد تم ترجمة هذه السجلات إلي عدة لغات أهمها اللاتينية والفرنسية والألمانية والبرتغالية والروسية والأنجليزية . للمزيد أنظر

- Budge : op. cit. p. 567.

٨٩ – أكتشف المبشرون البرتغاليين في القرن السادس عشر الميلادي العديد من هذه الكتب التي تخص العبادات، وكتب أخري مثل معجزات العذراء مريم وحياة القديسين والشهداء، كما وجدوا كثيراً من الرسوم مثل ملكة سبأ، فضلاً عن مائة وأحد عشر من معجزات مريم العذراء . انظر

- Budge : op. cit. p. 566.

مكتبة وبها العديد من الرفوف مثل الكنائس الموجودة في مصر وسوريا وبلاد ما بين النهرين في ذلك الوقت، وكان رئيس المكتبة علي علم تام بنسخ هذه الكتب ويحتفظ بقوائمها وهو أحد الرهبان أو القساوسة(٩٠).

أما النوع الثالث من الكتابات التاريخية فيشمل كتب الوقائع والحوادث التي تعد الإنتاج المميز لفن التدوين التاريخي في بداية حكم الأسرة السليمانية، عندما أخذت الكتابة التاريخية في تدوين أحداث البلاط الملكي، وخير مثال علي ذلك : النصوص الملكية في عصور (عمدا صهيون الأول) و(زرء يعقوب) وابنه (بئيد ماريام) و(لبنا دنجل) فضلاً عن تاريخ ملوك هذه الفترة مثل (إسكندر) و(ناؤود) و(عمدا صهيون الثاني ٨٩٨-٨٩٩هـ/١٤٩٢- ١٤٩٣م)، ولم يقف مؤرخو هذه الحوادث التاريخية عند حد معالجة الحوادث المحلية المتعلقة بالدير والكنيسة وأفراد الشعب وتدوين الحوادث الكبيرة في حياة كل إمبراطور، بل تخطوا ذلك إلي العالم الخارجي وإلي ما حدث في البلاد الأخري مثل ذكر إحراق دير المغطس في مصر وعقد مؤتمر فلورنسا وغيرها، ومن الواضح أن مؤرخي هذه الفترة كانوا يعرفون هذه الأخبار التاريخية من الزوار الذين كانوا يترددون علي الحبشة، الجدير بالذكر أن هذا النوع من الكتابة خضع لإشراف رجال البلاط الإمبراطوري(٩١).

وعلي الرغم من المؤلفات السابق ذكرها التي قام العديد سواء من العلمانيين ورجال الدين بكتابتها، إلا أن مراكز العناية بالدراسات الدينية كانت الأديرة والكنائس بحكم أقدميتها وانتقال تراث الأدب القديم إليها من ناحية، وبحكم أنها لم تشارك المنظمات الديرية الجديدة في الاهتمام بالحركات المتعلقة بإصلاح الكنيسة من ناحية أخري، وهكذا ظلت الأديرة المستودع الأساسي لحفظ الدراسات والأدب الحبشي حتي ورثتها المدارس الديرية في هذه المهمة وغدت الأخيرة مركزًا للدراسات الأدبية وغير الأدبية في العصور

٩٠ – كانت معظم هذه الكتب دينية في المقام الأول إذ كان يحملها المسافر في الصحراء حول رقابته أو تحت ظهره تحت عباءته. للمزيد انظر

- David Buxton: op. cit, p.47.

91 - Paul B . Henze : op, cit, p.37

الحديثة[٩٢]، ولكن علي الرغم من ضيق أفق المدارس في ذلك العصر، إلا أن أثرها أضحى عظيمًا بالنسبة للأجيال التالية، فهي من ناحية أدت إلي إحياء اللغة الجعزية بوصفها لغة الأدب الديني، وبذلك استطاعت أن تقاوم ما طرأ عليها من تحريف في طريقة الأساليب وتركيب الجمل، ومن ناحية أخري كان تلاميذ هذه المدارس وخريجوها هم الذين نهضوا فيما بعد بنسخ ونشر ما عثروا عليه من تراث العصور السابقة، وأكثر هذه الكتب كانت بالطبع الكتب الدينية وكتب اللاهوت[٩٣].

وإذا كان العصر الثاني من حكم الأسرة السليمانية (٨٣٨ -٩٤٧هـ / ١٤٣٤-١٥٤١م) يمثل العصر الذهبي للآداب الجعزية وللنهضة الأدبية في الحبشة، إلا أنه من الصعب بناء صورة متكاملة عن الإنجازات الأدبية والفنية للحبشة في العصر الوسيط، ويرجع ذلك إلي تعرض الحبشة إلي سلسلة من الغزوات من جانب الإمام أحمد الجران واستولى فيه على معظم أنحاء المملكة، وتم خلالها تدمير كثير من الكنائس ونهب كنوزها وإحراق كثير من مخطوطاتها، كما أن الأتراك قد أبادوا خلال هجماتهم المتكررة علي البلاد ولم يفلت من هذا الدمار سوي بعض الأديرة والكنائس التي كانت في مناطق نائية ومرتفعة والتي لم يتمكن الغزاة من الوصول إليها، ومع ذلك لا تزال هناك بعض المخطوطات المهمة في أديرة جزر بحيرة تانا وقد تم الكشف عن بعض هذه المخطوطات ووجدت طريقها إلي بعض الدوائر العلمية في أوروبا[٩٤] .

ولعل خير ما يصور لنا مدي العناية بالأدب في هذه الفترة التاريخية، هو أن عدد ما تم إرجاعه إلي الحبشة من مختلف البلدان الأوروبية وخاصة بريطانيا كان حوالي ألف مخطوطة، فقد أعاد الجيش البريطاني منها نحو أربعمئة مخطوطة إلي البلاط الملكي بخلاف حوالي ستمئة مخطوطة أخري إلي الكنائس والكهنة، على أنه يوجد ما لا يحصي

---

92 - Richard Pankhurst : op . cit ,p .136.

٩٣ - ساويرس بن المقفع: مصدر سابق، ج١، ص٩١٩، عزيز سوريال عطية: تاريخ المسيحية الشرقية، ص١٩٩.

94 - Taddesse Tamrat : Church and State in Ethiopia, pp. 199.

في المكتبات العامة الأوروبية فضلاً عن التي في حوزة الأفراد العاديين[٩٥]، فضلاً عن ما تعرضت له هذه المخطوطات في الفترة الواقعة بين القرنيين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين من عمليات السلب والحرق التي تعرضت لها الكنائس والأديرة علي يد المسلمين[٩٦].

٤ – الأدب الشعبي:

علي أننا إذا كنا في حديثنا عن الأدب الحبشي في هذه الفترة التزمنا جانب الأدب الجعزي، بحكم بقاء الجعزية لغة الكنيسة والمتعلمين، فليس معني ذلك أن عامة الناس لم يكن لهم أدب شعبي خاص بهم، ذلك أن طبقة العامة في الحبشة لم تعرف الجعزية، وإنما عرفت اللغة التي توارثها الناس عن أجدادهم، وهي اللغة الأمهرية[٩٧]، هذا مع ملاحظة أن اللغات المحلية الأخري لم تنهض لتعبر عن النشاط الأدبي قبل القرن التاسع الهجري /الخامس عشر الميلادي، وإلي أن قامت اللغات المحلية بهذه المهمة كان لعامة الناس

---

٩٥ – سعي العالم كونتي روسيني Conti Rossini لدراسة معظم هذه المخطوطات في مؤلفاته المختلفه وأبرزها كتاب:-

- Note Per La Storia Letteraria Abissina, in The Rendiconti Accad . Lincei, Ser.VIII,

- وقد تضمن هذا الكتاب حوالي ١٣٠٠ مخطوطة، وعلي الرغم من ذلك لم تكن هذه المخطوطات كاملة . وقد أخذ العديد من الكهنة الإيطاليين والأسبان والبرتغاليين مجموعات صغيرة من هذه المخطوطات إلي أوروبا فضلاً عن العديد من الرحالة خاصة كل من العالم Salt – Bruce – Parkyns– فضلاً عن أحد الأكاديميين الفرنسيين الذي يدعي D'Abbadie في كتاب يدعي Catalogue Raisonne , Paris, 1895، كما جلب العالم رايت Wright أكثر من خمسمئة مخطوطة حبشية إلي إنجلترا عام ١٨٦٨م أودع منها عدد ٤٠٨ مخطوطة في المتحف البريطاني.

–وفي عام ١٨٤٧م نشر المتحف البريطاني حوالي ٨٢ مخطوطة حبشية للعالم ديلمان Dillmann's، كما نشر مجموعة أخري بعد حوالي عشرين عاماً تحت عنوان :

- Verzeichniss der abessinischen Hand Scriften, Berlin, 1878.

96 - Budge: op. cit, Vol. 2, p.561.

٩٧ – حققت اللغة الأمهرية أول ظهور لها أوائل القرن الرابع الميلادي مزيدًا من التقدم، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال جودة القصائد التي كتبت في مدح الملك إسحاق Yitshak .

آدابها الشعبية، ولكنها كانت آداباً غير مكتوبة، تألفت من أغان وقصص وأساطير يتناقلها الناس شفاهة ويتوارثها الخلف عن السلف، والواقع أنه مهما بلغت بدائية شعب أو قوم، فإن لكل شعب مقدرته علي التعبير التصويري الذي قد يبدو لنا تافهاً وبسيطاً، لكنه لا يخلو من جمال فطري[٩٨]، أما التأليف بالأمهرية فكانت بدايته على يد المبشرين في بدايات العصر الحديث الذين قاموا بترجمة الكتاب المقدس ومؤلفات دينية أخرى إلى الأمهرية لينشروا المذهب الكاثوليكي، ثم ظهر ما يسمى بعد ذلك «أناشيد الملوك» وهو قصائد في مدح الملوك وتمجيدهم[٩٩].

ويلاحظ المتتبع للأدب الحبشي في النصف الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي أن هذا الأدب لم يعد جعزياً خالصاً، ذلك أن تيار اللغات المحلية أخذ يقوي ويشتد في ذلك العصر، تمهيداً لظهور اللغات الحديثة الخاصة بمختلف المدن الحبشية، الأمر الذي يجعل من النصف الأخير من القرن السادس عشر مرحلة انتقال من الأدب الجعزي الخالص إلي مرحلة الآداب المحلية الناشئة[١٠٠]، فقد عثر على أدب تقليدي مكتوب باللغة الأمهرية يعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي وهو عبارة عن بعض الأغاني الإمبراطورية القديمة، ولقد نالت الأنشطة الأدبية الأمهرية أهمية مؤقتة في هذه الفترة حيث كتبت بالأمهرية رسائل مذهبية جدلية بين رجال الدين، كذلك فإنه منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي بدأت الإرساليات في استخدام اللغة الأمهرية في محاولتها لكسب أنصار أكثر في نضالها ضد الكنيسة الأرثوذكسية الحبشية التي كانت تستخدم اللغة الجعزية ولذلك فقد قام هؤلاء المبشرون بطباعة ونشر أعمال باللغة الأمهرية، وبدأت أيضا

98 - Manoel de Almeida: Some Records of Ethiopia 1593-1646, Trans,. And Ed.by C.F. Beckingham& G. W. B Huntingford, Hakluyt Society,N. Y. 1990, pp.189-194.
99 - Budge: op. cit, Vol. 2, p.563.
100 - Ulrich braukamper : op, cit, p.133.

ترجمات أمهرية للكتاب المقدس وكذلك وضعت بعض الكتب الشعبية الروائية بالأمهرية(١٠١).

وهكذا يتضح لنا أن التراث الأدبي -الجعزي والأمهري- كان أقدم منبع للآداب الوطنية في الحبشة العصور الوسطي، إذ ظلت الأساطير والقصص والروايات التاريخية القديمة بذلك التراث متداولة في الحبشة، وبقدوم العديد من الرهبان وأمثالهم من رجال الدين صار الكتاب المقدس يمثل مصدرًا جديدًا للإلهام الأدبي، حتي غدا كل حدث ورد في ذلك الكتاب موضوعاً لتعبير أدبي، ومهما يكن من أمر فإن أهم الميادين التي ظهرت فيها الآداب الوطنة في أواخر العصور الوسطي كانت الكتب الدينية من جهة وسير القديسين من جهة أخري، مما جعل لهذين النوعين أهمية خاصة تتطلب معالجة كل منهما علي حدا(١٠٢).

ولعل أول ما نلاحظه علي هذه النهضة الأدبية في الحبشة أنها كانت نهضة مصطنعة، حدثت بفعل فاعل، وبعبارة أخري قامت هذه النهضة لأن (زرء يعقوب) أراد لها أن تقوم، وأراد لها أن تكون نهضة، فهي ليست نهضة تلقائية شاملة، منبعثة من عوامل ومؤثرات حضارية طبيعية كامنة، وإنما ولدت في بلاط الإمبراطور و نمت وترعرت فيه، وظلت ربيبة (يعقوب) وخلفائه المباشرين إلي أن ماتت وخمدت جذويتها بالسرعة التي ظهرت بها، ولعل هذا هو السبب في أن النهضة الأدبية إذا تم موازنتها بغيرها من الحركات الحضارية في العصور الوسطي ومستهل الحديثة، فإنها تبدو ضيقة الأفق قصيرة العمر، لأنها ارتبطت في مولدها ونشأتها برجل واحد يتعهدها ويرعاها، فظلت منتعشة ما عاش صاحبها، حتي إذا ما مات ماتت معه أو بعده بقليل(١٠٣).

101- C.H. Walker, O.B.E : op . cit , p. 259.
102- Edward Ullendorf. The Ethiopians, p.141
103- Ulrich braukamper : op, cit, p.133.

كذلك نلاحظ علي هذه النهضة أنها كانت حركة إحياء أكثر منها حركة ابتكار وتجديد، ونقصد بالإحياء هنا إحياء الدراسات الدينية ورفع مستوي اللغة الجعزية، بعد أن انحط انحطاطاً بالغاً في العصور السابقة، وبعبارة أخري فإن الدور الأساسي لهذه النهضة انحصر في المحافظة علي التراث الجعزي القديم[١٠٤].

ومن الطبيعي أن تؤدي هذه العناية بالمدارس من جهة وبالكتب والمكتبات من جهة أخري الي نهضة أدبية كبري، هي في الواقع المظهر الرئيسي للنهضة الأدبية، وقد رأينا أن كلا من (زرء يعقوب) و(لبنا دنجل) لم يحاولا محاكاة أباطرة أكسوم القدامي في عظمتهم السياسية والحربية فحسب، بل عملوا أيضاً علي أن التشبه بالقديسين العظام في المجال الحضاري والديني، فجمعا حولهما جماعة من الأدباء والقديسين والعديد من رجال الدين خاصة العلمانيين، مما هيأ للنهضة الحبشية عاملاً أساسيًا من عوامل الازدهار. وقد اكتسبت هذه النهضة طابعاً دينياً في المقام الأول نظراً للعلاقة التي ربطت الأباطرة بالكنيسة، والتي أملت عليهم سياسة معينة تجاهها، لذلك كانت الصدارة في الجانب الأدبي للأدب الديني، كما سبق أن رأينا، ثم جاء التاريخ ليحتل المرتبة الثانية في آداب النهضة الحبشية، فامتازت الكتابات التاريخية في ذلك العصر برقيها وحسن صياغتها مع التعمق في الأسلوب الجعزي . وفيما عدا سير القديسين اهتم كتاب ذلك العصر بكتابة المخطوطات ولم يقفوا عند حد تدوين المخطوطات القصيرة أو الصغيرة، إنما دونت مخطوطات طويلة أشرف عليها رجال البلاط، وهذه المخطوطات الأخيرة التي سميت باسم الوقائع الملكية ظلت تسرد تاريخ البلاد منذ عصر (يكونو أملاك) -مؤسس الأسرة السليمانية- سنة ١٢٧٠م حتي العصور الحديثة[١٠٥].

كما نلاحظ أنه إذا كان الناس قد اعتادوا دائماً أن يسجلوا مآثر أسلافهم وبطولتهم في أدبهم، فإن (زرء يعقوب) سرعان ما أصبح بعد وفاته محورًا ومادة لكثير من الكتابات

---

104 -Tesfaye Gesesse : op. cit, p.34

١٠٥ - محمد خليفة حسن: المرجع السابق، ص ٣٧٣.

التي صورته في صورة القديس العظيم الذي حارب الوثنيين ودافع عن الكنيسة من معارضيها، وهكذا أثرى (زرء يعقوب) الأدب في حياته وبعد مماته(١٠٦).

وأخيراً يميل بعض الباحثين إلي عدم المبالغة في أهمية النهضة الأدبية الحبشية في تلك الفترة لأنها اعتمدت علي عنصر الإحياء والمحاكاة أكثر من اعتمادها علي عنصر التجديد والابتكار(١٠٧)، ويضيف آخرون أن أفق الحياة العلمية في النهضة الحبشية ارتبط بالكنيسة ورجالها وتقاليدها، مما جعل هدف رجال العلم وطلابه لا يتعدي تنظيم تراث الكنيسة وتفسير علومها، ولكن هذه الانتقادات لا يمكن أن تصرفنا عن تقدير مزايا النهضة الحبشية وآثارها، ويمكن الوقوف علي الأثر الذي تركته هذه النهضة بموازنة النشاط العلمي في الحبشة حتي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي – سواء في وفرة الإنتاج والكتابات أو في كثرة المساجلات والمناقشات العلمية – بالركود الذي ساد العصر السابق للنهضة الأدبية في تلك الفترة، لهذا لا نستطيع أن نقلل من أثر النهضة الأدبية في تلك الفترة(١٠٨).

رابعاً : حركة الترجمة:

إذا كان كثير من مظاهر النهضة الأدبية الحبشية بداية العصور الوسطي تميز بغلبة الطابع الديني عليه، فإن هذه النهضة اعتمدت في الحقيقة وبالدرجة الأولي علي حركة الترجمة عن اليونانية والعربية، ويرجع ذلك إلى أن التعليم كان محصوراً علي رجال الكنيسة الذين لم يهتموا بآداب اليونان والرومان والعرب وفلسفتهم وعلومهم، بل جعلوا الكتاب المقدس وما يتصل به من علوم لاهوتية مصدر المعارف كلها، ولم تستطع الحبشة

106 - Budge : The Book of the Saints of the Ethiopian church, II, Olms, 1976, p.124.
107 - Budge: A History Of Ethiopia ,Vol. 2, p.571.
108 - Roland Oliver: The Rise of The Solomonic Dinasty, The Cambridge History of Africa, Vol. 3 , Cambridge University Press, 1977, pp.128-129, 159.

أن تستفيد من هذا التراث اليوناني والعربي استفادة كاملة في هذه الفترة، إلا عن طريق حركة ترجمة عن اليونانية من ناحية والعربية والقبطية خاصة في التاريخ وسير القديسين والترانيم الدينية وغيرها من ناحية أخري(١٠٩).

وقد مرّت الترجمة في عهدين تفصل بينهما مرحلة دامت نحو خمسة قرون لم يصل منها شيء يستحق الذكر، وكانت الترجمة في العهد الأول منهما - أي من القرن الخامس إلى القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، من اليونانية وشملت الكتاب المقدس، وأسفاراً أخري أهمها كتاب «اليوبيل» **Jubilees** و«أخنوخ» **Enoch** و«صعود اشعياء» **Ascension of Isaiah** و«ابن سيراخ» **Sirach**، وكتابان في الرهبنة هما «قوانين باخوم» مؤسس نظام الرهبنة في مصر و«كتاب الرهبان»، وكتاب عنوانه «كيرلس» **Kyrillos** نسبة إلى بطريرك الإسكندرية المتوفى عام ٤٤٤م، وكتاب آخر يدعى «الفيزيولوجية» **Physiologos** عن النبات والحيوان مع تضمينه رموزاً مسيحية، وكانت الترجمة اللاتينية لهذا الكتاب شائعة في أوربا في القرون الوسطى(١١٠).

أما العهد الثاني فقد صارت المؤلفات العربية مصادر الترجمة في الحبشة منذ أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، وإن كان بعضها مترجماً أصلاً عن اليونانية أو السريانية، كما تدل بعض المواضع في النصوص المترجمة على أن أصولها العربية مترجمة عن القبطية، وأهم ما وصل من هذه الكتب كتاب " بيان يسوع " الذي يتنبأ بظهور ملك يدعي ثيودور يملأ العالم سعادة، وقد كتب في عهد الامبراطور ثيودور الأول (٨١٤-٨١٧هـ/١٤١١-١٤١٤م) وكتاب " عقيدة الآباء **Haimanote Abew** " و "قدس الأقداس **Fikare melekot** " وترجمة لكتاب "تاريخ البطاركة" يوحنا النيقوسي عن القبطية «جلال الملوك» (كما سبقت الإشارة)، وكتاب «الضياء» المنسوب إلى الملك (زرء يعقوب) و ثلاثة كتب قانونية تشمل التشريعات الكنسية هي «قانون الملوك» وهو ترجمة

---

109 - Budge: op. cit, Vol. 2, p.570.
110 - Taddesse Tamrat : Church and State in Ethiopia, p.243.

«المجموع الصفوي» لصفي الدين بن العسال[١١١]، كذلك أكثر الكتب شهرة كتاب "مصحف سنكسار Mesthafe sinksar أو " سيناكساريوم Synaxarium والذي لا يزال يحظى بتقدير من الكنيسة الأرثوذكسية الحبشية، ويحتوي على التعاليم الكنسية من العربية إلي الجعزية مع بعض إضافات عن القديسين الأحباش في عهد الإمبراطور (لبنا دنجل)[١١٢].
أما الكتاب الثالث فهو«السندوس» Synodus ومجموعة منها: كتاب الميلاد ومعجزات مريم وتقويم القديسين وسيرة الإسكندر، ضمن سلسلة طويلة من الكتب المليئة بالأساطير تتحدث عن معجزات المسيح ومريم العذراء والقدّيسين والإسكندر المقدوني الذي يعدونه قديساً مسيحياً،وثلاث ترجمات في التاريخ، هي «الوقائع» لأبي شاكر، و«الوقائع» ليوحنا من نيقية، علي أن أهم كتب الترجمات في ذلك الوقت كتاب جرجس بن المكين بن العميد وهو كتاب "تاريخ العالم" يعرف في الحبشية باسم (ولد عمينا) والذي تم ترجمته في عهد (لبنا دنجل)، وثمة ترجمات أخرى كثيرة في الوعظ والتنجيم والسحر واللغة والنحو وسواها[١١٣].

غير أن موقع الصدارة في الأدب الحبشي قد ظل وقفاً علي الكتابات حول السيدة العذراء وكما هي الحال عند الأقباط في تبجيلهم الخاص للسيدة مريم العذراء، ربما كامتداد للاحترام العظيم الذي كان أجدادهم المصريون يكنونة للربة المصرية إيزيس، فإن الأحباش

١١١ - يعد هذا الكتاب من أهم الكتب الدينية التي أثرت في المجتمع الحبشي من الناحيتين الدينية والمدنية لفترة زمنية امتدت إلي أكثر من سبعة قرون لصاحبه ابن العسال المتوفى في أوائل القرن التاسع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، والذي يتكون من جزءين، يبحث الجزء الأول منه في القوانين الكنسية التي يجب أن تسير الكنيسة عليها، و الواجبات الدينية المفروضة علي الفرد المسيحي، في حين يبحث الجزء الثاني في الحياة المدنية والعلاقات بين الأفراد للمزيد انظر الصفي أسعد بن العسال، المجموع الصفوى، زاهر رياض: العصر الأول من الأسرة السليمانية في الحبشة من (يكونو أملاك) إلي (زرء يعقوب) وعلاقة المسلمين بالمسيحيين بوجه خاص(١٢٦٨ - ١٤٦٨م)، رسالة دكتوراه غير منشورة بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية،القاهرة، ١٩٥٥م، ص ١٠١.

112- Richard Pankhurst : op . cit ,p .58.
113 - Edward Ullendorff : op . cit , P.144 .

بدورهم قد ساروا علي هذا التقليد وتلك المشاعر بل وكثفوا فيها بدرجة فاقت الكنيسة القبطية نفسها في ذلك التبجيل(١١٤) لذلك فقد تم ترجمة عدد من الكتب الدينية حولها وأشهرها كتاب عجائب العذراء (تأمارا مريم) وعجائب العذراء والمسيح (تأمارا مريم وإياسوس)(١١٥). فضلاً عن كتابي عجائب مارجرجس الذي ترجم في عهد الإمبراطور إسكندر، كما تم نقل في عهده أيضاً ترجمة وتفسير يوحنا خريسيستوم علي سفر الرسالة إلى اللغة الجعزية، فضلاً عن ترجمة مؤلفات يوحنا صابا في الحياة الديرية إلي الحبشية (١١٦).

أما الأعمال السريانية الأصل التي نقلت إلي العربية أولاً ثم إلي اللغة الجعزية إبان عصر (لبنا دنجل) فيبلغ عددها ثلاثة أعمال: يتناول العمل الأول منها كتاب "فيلكسيوس syusFilke أي فيلو كسين وينسب إلي فيلوكسين المنبجي ت ١٥٢٣م أي حياة آباء البرية المتوحدين علي شكل أسئلة وأجوبة، أما العمل الثاني فهو رسالة في ترويض النفس" لإسحاق النينوي" (١١٧)، أما العمل الثالث والأخير فيعرف باسم الشيخ الروحاني (سابا في السريانية معناها شيخ بينما تقابل في العربية شاب) وهو عبارة عن مجموعة مؤلفات ترويضية ليوحنا سابا، تتضمن دروساً في الأخلاق والحياة الروحية وبعض رسائل سابا، ويشتمل كتابه في الحبشية على ٣٦ ميمراً وفى العربية ٣٠ ميمراً و ٤٨ رسالة وثلاثة ميامر تسمى رؤوس المعرفة، ثم تنتهى المخطوطة برسالة منه إلى

114- Budge . op .cit . p.327.
115 - Jones and Monroe : op . cit , p.54.
116- Perruchon : Histoire d'Eskender , d'Amda-Seyon II et de Na'od , rois d'Ethiopie . Texte ethiopien inedit comprenant en outré un fragment de la chronique de Ba‹eda- Maryam, leur Predeceddeur, et traduction. In Journal asiatique.ser.9.vol.3. 1894 .319-366. Sep.-Dr. Paris, 1894 mit eigner Seitenzahlung ,p.356.
117- Merid Wolde Aregay : Southern Ethiopia and The Christian Kingdom, 1508-1708,With Special Reference to The Galla Migrations and Their Consequences ,London, 1971. p.63.

أخيه ثم استفسار لأخيه، وقد قام بترجمة الكتاب إلى الحبشية أتشجى دير ليبانوس الذي يدعي عنبا قوم (حبقوق) وهو مصرى أو يمنى الأصل وقد تم ترجمة هذا الكتاب بأمر الملك (لبنا دنجل)(١١٨).

وكانت الاتصالات الثقافية بين أوروبا المسيحية والمملكة الحبشية محدودة ضعيفة الأثر، لكن هذه الاتصالات أخذت تظهر قوية واضحة منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، عندما تردد علي الحبشة كثير من الرحالة ورجال الدين سواء لاستكشاف هذه البلاد أو هروباً من الاضطهادات الدينية في بلادهم، فهناك كتابات منقولة عن اليونانية حول التاريخ الطبيعي، وكتاب آخر يدعى «الفيزيولوجية» Physiologos عن النبات والحيوان مع تضمينه رموزاً مسيحية وترجمة ل"شرح الأناجيل" لديونيسيوس برصليبي، وهنالك ترجمات لعظات القديس يوحنا الذهبي وعلي الأخص "شرحه للرسالة إلي العبرانيين" وغيرها من الكتب(١١٩).

هذا عن الحركة الترجمة عن العربية واليونانية في فترة العصور الوسطي، وهي الحركة التي ترتب عليها إنعاش الحياة الأدبية في المملكة الحبشية في الجزء الأخير من العصور الوسطي، ولعل أهم ما نلاحظه والغريب في هذا الأمر أن المترجمين عن العربية اتفقوا مع إخوانهم المترجمين عن اليونانية في معالجة موضوعات متشابهة، كان أهمها العلوم الدينية، لذلك كثيراً ما نصادف في ذلك العصر ترجمتين بالجعزية لمؤلف واحد أصله باليونانية، أحداهما مأخوذة عن العربية والأخري مأخوذة عن الأصل اليوناني مباشرة، وفي معظم الحالات كانت الترجمة عن العربية تسبق زمنيًا الترجمة عن اليونانية (١٢٠)

118- Sylvia Pankhurst: op. cit, pp.302-303

١١٩ – أثناسيوس المقاري :المرجع السابق، ص ٧٣.

120 - Ulrich braukamper : op. cit, p.139.

الخاتمة

عرضت هذه الدراسة للحياة الثقافية عند نصاري الحبشة في فترة العصور الوسطي، وقد توصلت عن عدد من النتائج أبرزها :

أولاً :- أظهرت الدراسة تعدد اللغات في المملكة الحبشية وإن كانت اللغة الجعزية الوسيلة الرئيسة للتعبير الأدبي والديني، إذ تعد فترة الدراسة الحالية تحديدًا العصر الثاني هى فترة إنعاش الأدب الحبشي -بعد مرحلة النقل من الأدب القبطي المصري- إذ انتشرت المؤلفات الحبشية لأول مرة في تاريخها نتيجة حركة الإصلاح الديني، مثل كتب : "همارا نفس أو سفينة نوح" و"مرسي أمين أو المرفأ الأمين" و"فكاري ملكوت أو تفسير الألوهية" و "فم العدل" كما نسب لبعض الأباطرة تأليف عدد من الكتب للرد علي المهرطقين مثل "طومار تصبئت أو رسالة الإنسانية" و"مصحف برهان أو كتاب النور" و "مصحف ميلاد أو كتاب الميلاد" و"كهدت شيطان أو إنكار الشيطان" و "مصحف باحري أو كتاب اللؤلؤة" و "تعقبو مشطير أو حفظ الأسرار" و"إجزيئا بيحير نجش أو الرب ملك". كما امتازت أواخر هذه الفترة بتأليف كتب اهتمت بالدفاع عن المسيحية في وجه الإسلام، أبرزها كتاب "أنقستا أمين أو باب الإيمان Anketse Amin ".

ثانياً :- أوضحت الدراسة ازدهار التدوين التاريخي في هذه الفترة، فقد كان هناك ثلاثة أنواع من الكتابات التاريخية التي عرفتها العصور الوسطي بصفة عامة وهي سير حياة العظماء من الملوك والقديسين، والمخطوطات التي تحتوي علي معلومات وهبات الكنائس، فضلاً عن كتب الحوادث والوقائع الملكية، ولكن إذا كان القرن الثالث عشر قد استأنف هذه الكتابات التاريخية بأنواعها الثلاثة فإنه استأنفها علي نحو جديد من الابتكار يتفق مع روح النشاط و التجديد التي امتازت بها نهضة ذلك القرن، لذلك تمثل فترة الدراسة الحالية "العصر الذهبي للآداب الجعزية" .

ثالثاً :- بينت الدراسة ازدهار حركة الترجمة في تلك الفترة، إذ كانت المؤلفات العربية مصادر الترجمة في الحبشة منذ أوائل القرن الخامس عشر الميلادي، وإن كان بعضها مترجماً أصلاً عن اليونانية أو السريانية، خاصة الكتب المليئة بالأساطير التي تتحدث عن معجزات المسيح ومريم العذراء والقدّيسين والإسكندر المقدوني الذي يعدونه قديساً مسيحياً، وهناك ترجمات أخرى كثيرة في الوعظ والتنجيم والسحر واللغة والنحو وسواها، أما الأعمال السريانية الأصل التي نقلت إلي العربية أولاً ثم إلي اللغة الجعزية إبان عصر (لبنا دنجل) فيبلغ عددها ثلاثة أعمال، وقد ترتب علي ترجمة هذه الكتب إنعاش الحياة الأدبية في المملكة الحبشية.



الدور السياسي للقاضي كمال الدين أبو الفضل الشهرزوري (٥٣٠-٥٧٢هـ/١١٣٥-١١٧٦م)

د. منال محمد السيد عبد المجيد
مدرس بكلية الآداب جامعة بني سويف

أدى القاضي كمال الدين الشهرزوري دورًا كبيرًا في المجالين العلمي والديني، وقد تناول الحديث عن ذلك العديد من الكتاب، لكن الدور ا لذي أغفل ولم يتحدث عنه أحد بشيء من التفصيل هو دوره السياسي، فالمعروف أن هذا الرجل أدى دورًا هامًا في مجال السياسة، وخاصة أنه كان مقربًا من حكام بلاد الشام والعراق. ويتمثل هذا الدور في عدة مجالات، أولاً دوره في دولة عماد الدين زنكي، فقد اعتمد السلطان عماد الدين زنكي اعتمادًا كبيرًا على القاضي كمال الدين الشهرزوري، حيث ولاه عماد الدين زنكي قضاء الموصل، وأصبح قريبًا منه في كثير من الأعمال الهامة وعهد إليه بالمهام الصعبة، فلم يوجد شيئًا في الدولة يخرج عنه على حد قول الإسنوي "[1].

أما القاضي كمال الدين الشهرزوري فهو: أبو الفضل محمد بن أبي محمد عبدالله بن أبي أحمد القاسم الشهرزوري، الملقب كمال الدين الفقيه الشافعي، ولد سنة ٤٨٢هـ/١٠٩٨م بالموصل، وتفقه ببغداد على يد أسعد الميهني، وسمع الحديث من أبي البركات محمد بن خميس الموصلي[2].

استطاع أن يجمع بين الفقه والأدب والشعر، مما يدل على مدى علمه وثقافته، لذلك وصف بأنه فقيه أديبٌ شاعرٌ كاتبٌ فكه المجالسة[3].

فكتب العديد من أبيات الشعر التي تدل على حسه المرهف، فقد ذكر الكاتب عماد الدين الأصفهاني وغيره من المؤرخين العديد منها، على سبيل المثال :

ولقد أتيتك والنجوم رواصد والفجر وهم في ضمير المشرق
وركبت م الأهوال كل عظيمة شوقًا إليك لعلنا أن نلتقي[٤]

وغيرها من أبيات الشعر الرائعة التي تدل على أنه شاعرٌ مُتمكن.

ويعتبر دوره السياسي في زمن عماد الدين زنكي من الأدوار الهامة في تاريخ هذه الفترة، حيث قام عماد الدين زنكي بإرساله إلى السلطان السلجوقي سنجر ابن ملكشاه عام ٥٣٠هـ/١١٣٥م، وذلك لكي يتوسط لديه ويقنعه بتولية الراشد في الخلافة العباسية، ومن الواضح أن عماد الدين زنكي لم يرسل القاضي كمال الدين الشهرزوري في هذه المهمة الصعبة، إلا لعلمه الأكيد بما يتمتع به كمال الدين من حسن تصرف ولباقة وقدرة على الإقناع.

ويحدثنا التاريخ أنه كان يلي الخلافة في تلك الفترة الخليفة المقتفي بالله العباسي (٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٦-١١٦٠م)[٥]، مما يجعلنا نتساءل عن السبب الذي دفع زنكي إلى الاهتمام بتولية الراشد الخلافة بدلاً من المقتفي.

من الجدير بالذكر أنه في عام ٥٣٠هـ/١١٣٥م وصل السلطان مسعود بن ملكشاه إلى بغداد، وضايق الخليفة الراشد بالله، وكان معه عماد الدين زنكي، وعندما طال المقام بها ولم ينالوا شيئا، عاد عماد الدين إلى الموصل، أما السلطان مسعود فبقى ببغداد، الأمر الذي ضايق الراشد، وعلم أنه لا طاقة له بالمقام معه، فذهب إلى الموصل واستنجد بعماد الدين، في نفس الوقت أقام مسعود الخليفة المقتفي بأمر الله في الخلافة وبايعه[٦].

على أية حال فما أن وصل القاضي كمال الدين إلا واستقبل في دار السلطنة استقبالاً حافلاً، وإكرامًا زائدًا، وبدأ يتحدث في أمر الراشد، إلا أنه عندما وصلته رسالة من الخليفة المقتفي يعاتبه على الامتناع عن البيعة له، وأنها من حقه، فما كان من القاضي كمال الدين إلا أن غير رأيه وتصرف من تلقاء نفسه، ويقنع السلطان بالبيعة للخليفة المقتفي. وفي ذلك يقول ابن الأثير : "وقيل لي في أمر البيعة فقلت إن الراشد له في

أعناقنا بيعة، ولا يجوز النكث إلا بما يوجب خلعه، وأنا فقيه، لا يجوز لي فعل ما ينافي الشرع، فيثبتون ما يوجب خلعه حتى أخلعه، وأبايع عني وعن صاحبي فلما سمعوا هذا احضروا المحضر المذكور، فلما رآه وشهد به الشهود، خلع الراشد وبايع المقتفي لأمر الله"(٧).

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى المكانة الكبيرة السامية التي تمتع بها القاضي كمال الدين في ذلك الوقت، حيث استطاع أن يقنع السلطان بإقرار المقتفي في الخلافة بذكائه وقدرته على الاقناع.

والسؤال هنا ماذا كان موقف زنكي مما حدث ؟

لم يكن أمام زنكي، تحت ضغط الأحداث السياسية والعسكرية، إلا أن يتخلى عن الخليفة الراشد، وانحاز إلى المقتفي الذي كافأه بأن أقطعه بعض أملاكه وزاد ألقابه(٨).

كذلك لم يجد عماد الدين زنكي أفضل من القاضي كمال الدين لكي يرسله رسولاً إلى السلطان مسعود بن محمد ملكشاه، عندما وصلت حملة الروم والفرنج عام ٥٣٤هـ/ ١١٣٨م إلى بلاد الشام، للقضاء على زنكي وإجباره على رفع الحصار عن حصن بارين، إلا أن الحملة فشلت في تحقيق هدفها(٩).

من أجل ذلك قرر كل من الإمبراطور البيزنطي حنا كومنين والصليبيون عام ٥٣٦هـ/١١٣٨م) قصد بلاد المسلمين، ومحاصرتهم، لعلهم يحققون نجاحًا يمحو أثر فشلهم في رفع الحصار عن بارين، وبالفعل وقع اختيارهم على مدينة حلب، فزحفوا إليها بحشود كثيرة، أفزعت المسلمين في ذلك الوقت، وضربوا الحصار عليها بالفعل، وفي ذلك يقول ابن الأثير " ونازلوا مدينة حلب وحصروها، وهم في جمع لم يشاهد الناس مثله كثرة"(١٠).

فما كان من عماد الدين زنكي،عندما علم بحصار حلب إلا أن نزل بالقرب منهم ومنع عنهم الميرة، وأخذ يحفظ أطراف البلاد حتى لا ينتشر العدو فيها ويغيروا عليها، ولم يحاول زنكي أن يدخل معهم في حرب مباشرة،لأنه لم يفضل أن يخاطر بالمسلمين(١١).

وفي ذلك الوقت العصيب أخذ زنكي يفكر فيما يفعله، أمام هذه الحشود الكثيرة، فهداه تفكيره إلى الاعتماد على القاضي كمال الدين الشهرزوري، لما عرف عنه من رجاحة العقل وسداد الرأي وحسن التصرف، حيث أرسله رسولاً إلى السلطان مسعود، ليعرفه بحقيقة الحال وكثرة عدد العدو، المحاصرين لمدينة حلب، ويطلب منه النجدة وإرسال العساكر(١٢).

إلا أن القاضي كمال الدين تخوف من أن تخرج البلاد من أيدي عماد الدين، إذا استجاب السلطان مسعود لطلب النجدة وأرسل إليه العساكر، فمن الممكن أن يطمع مسعود في حلب ويمتلكها، فما كان من عماد الدين إلا أن رد على القاضي كمال الدين ردًا يدل على الحكمة والعقل اللذين اشتهر بهما عماد الدين زنكي، حيث فضل أن يمتلك السلطان مسعود مدينة حلب بدلاً من أن يمتلكها البيزنطيون والصليبيون.

وقد ذكر المؤرخون مدى تخوف القاضي الشهرزوري من السلطان مسعود، فقال القاضي لعماد الدين حين أرسله: أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة علينا، وينفذ العساكر، فإذا توسطوا البلاد ملكوها ". فقال عماد الدين " إن هذا العدو قد طمع في البلاد، وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أولى من الكفار "(١٣).

وبعد هذا الرد الصائب من عماد الدين زنكي، خرج القاضي إلى بغداد لمقابلة السلطان مسعود وتبليغه رسالة عماد الدين زنكي، إلا أن السلطان مسعود لم يهتم بالأمر كثيرًا، واكتفى بأن وعد القاضي كمال الدين بإرسال عساكر لنجدة حلب، ولكنه لم ينفذ وعده(١٤).

وهنا تظهر حكمة وحسن تصرف القاضي كمال الدين الشهرزوري، لكي يجبر السلطان مسعود على تنفيذ وعده بسرعة لنجدة حلب، قبل أن يستولى عليها البيزنطيون والصليبيون.

فأسرع القاضي باستخدام الحيلة، حيث أعطى أحد الفقهاء في بغداد مبلغًا كبيرًا من المال، وطلب منه أن يفرق هذه الأموال على جماعة من أوباش بغداد، ويتفق معهم على أن يحضروا بالجامع يوم الجمعة ويستغيثوا بصوت واحد: " وا إسلاماه! وا دين محمداه !". ثم يخرجوا من الجامع يقصدون دار السلطان مسعود مستغيثين(١٥).

ولم يكتف القاضي كمال الدين بفعل ذلك، بل فعل نفس الشيء مع فقيه آخر في جامع السلطان، وكان هدفه من ذلك إثارة الناس على السلطان مسعود، ومطالبته بخروج العساكر لإبقاء مدينة حلب ورفع الحصار عنها، الأمر ا لذي يجعل السلطان مسعود في مأزق، ويضطر مع إثارة الناس إلى إرسال العساكر والوفاء بوعده للقاضي كمال الدين الشهرزوري(١٦).

وقد شرح المؤرخون هذه الحادثة بالتفصيل على هذا النحو: " فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد: " وا إسلام ! وا دين محمداه !" ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطان مستغيثين، ثم وضعت إنسانًا آخر فعل ذلك في جامع السلطان، فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر وقام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه وصاح، وتبعه ذلك النفر بالصياح والبكاء، فلم يبق في الجامع إلا من قام وبكى، وبطلت الخطبة، وسار الناس كلهم إلى دار السلطان، وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم، واجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون، وخرج الأمر عن الضبط، وخاف السلطان في داره "(١٧).

وهكذا نجحت خطة القاضي كمال الدين رسول عماد الدين زنكي، حيث طلب السلطان مسعود مقابلته فحضر إليه وهو خائف مما حدث، ولكنه في الوقت نفسه عزم على قول الصدق والحق، وبمجرد أن حضر سأله السلطان مسعود عن سبب هذه الفتنة، فرد عليه كمال الدين بأن الناس فعلوا ذلك خوفًا من الفتنة والشر، لأن الصليبيين إذا استولوا على مدينة حلب سوف يسيرون بعد ذلك إلى بغداد عن طريق الفرات والبر، دون

أن يكون أمامهم أي عائق يصدهم عن بغداد.

ومن الجدير بالملاحظة أن القاضي كمال الدين بالغ في تخويف السلطان مسعود من حدوث ذلك، الأمر الذي جعل السلطان يقرر سرعة خروج العساكر التي طالب بها كمال الدين، على أن تكون مجهزة بالإمدادات والمؤن الكافية، بشرط أن يعمل القاضي كمال الدين على تفريق هؤلاء العامة المجتمعين خارج دار السلطان مسعود، وبالفعل خرج إليهم الشهرزوري وعرفهم بما قرره السلطان مسعود، وأمرهم بالعودة من حيث أتوا، ففعلوا ذلك، وهدأت الأمور على هذا النحو[١٨].

الأمر الذي يدل على مقدرة القاضي كمال الدين على إيجاد الحل المناسب لأي مشكلة تواجه بالحكمة والعقل والذكاء.

على أية حال اختار كمال الدين عشرة آلاف فارس من أفضل العسكر لدى السلطان مسعود، ثم كتب إلى عماد الدين زنكي يعرفه بأنه نجح في مهمته، ولم يبق أمامه سوى أن يسير بالعساكر إلى مدينة حلب لإنقاذها، فأمره عماد الدين بسرعة السير والحث على ذلك، وما إن عبرت العساكر الجانب الغربي، إذ برسول من عماد الدين زنكي يصل ويخبر القاضي كمال الدين بأن البيزنطيين والصليبيين قد رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منها شيئًا، ويأمر القاضي كمال الدين بترك العساكر. لأن عماد الدين لم يعد يحتاج إليهم في شيء، إلا أن السلطان مسعود عندما علم بذلك الأمر أصر بشدة على خروج العساكر مع القاضي كمال الدين للجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها، وكان هدفه الحقيقي من ذلك أن تصل عساكره إلى هذه البلاد وتمتلكها[١٩].

أصبح القاضي كمال الدين الشهرزوري في حيرة من أمره: كيف يستطيع أن ينفذ أمر عماد الدين زنكي مع إصرار السلطان مسعود على خروج عساكره معه ؟

فما كان منه إلا أن أخذ يتشاور مع الوزير وأكابر الدولة، حتى أقنعهم بعودة العساكر إلى البر الشرقي[٢٠].

وهنا ظهر مدى بُعد نظر القاضي كمال الدين الشهرزوري وحكمته وفطنته لما يدور

حوله، حيث استطاع أن يكشف مكنون نفس السلطان مسعود، وبحسن تصرفه في الموقفين في توفير الجيش عند الاحتياج له، وصرفه عند انتفاء الحاجة إليه، وهذا أنقذ بلا شك عماد الدين من مأزق خطير كان من الممكن أن يقع فيه إذا وصلت عساكر السلطان مسعود إلى الشام في ذلك الوقت، بعد رحيل البيزنطيين والصليبيين[٢١].

وقد أشار ابن الأثير إلى حسن تصرف القاضي كمال الدين مع السلطان مسعود بقوله : " فانظر إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس "[٢٢].

فقد استطاع كمال الدين الشهرزوري بحنكته وذكائه أن يبعد عن عماد الدين أطماع السلطان مسعود، من أجل ذلك كانت لكمال الدين مكانة خاصة عند عماد الدين زنكي[٢٣].

ولحسن تصرف كمال الدين في أي شيء يوكل إليه؛ نجد عماد الدين يستعين به في عام ٥٣٤هـ/١١٣٩م، عندما سار عماد الدين زنكي لمحاصرة مدينة دمشق، وكان يتولاها في ذلك الوقت الأمير جمال الدين محمد بن بوري بن طغتكين، ولكنه لم يكن له من الأمر شيئٌ، فكان المتغلب عليه معين الدين أنر مملوك جده طغتكين[٢٤].

من الجدير بالذكر أن الظروف التي مرت بها دمشق في ذلك الوقت ساعدت زنكي على التدخل في شئون دمشق، وتتلخص في أن بهرام شاه، أخا جمال الدين بوري، عز عليه أن يتجاهله أنر بعد مقتل شهاب الدين، من أجل ذلك لجأ إلى مساعدة زنكي، في نفس الوقت الذي عز على زمرد خاتون – عروس زنكي – أن يقتل ولدها شهاب الدين، ويحل محله في حكم دمشق ابن ضرتها التي تزوجت أنر، فطلبت هي الأخرى من زنكي أن يتدخل لطلب الثأر[٢٥].

فعندما أيقن عماد الدين أن معين الدين أنر لن يسمح له بدخول مدينة دمشق، من أجل ذلك لجأ عماد الدين إلى الحيلة للاستيلاء عليها، وهنا لم يجد أفضل من القاضي كمال الدين يستعين به لثقته الكبيرة به، ولأنه اعتاد أن يوليه المهام الصعبة لحسن تصرفه، فأمره بمكاتبة جماعة من مقدمي أحداث ونظار دمشق، واستمالتهم وترغيبهم بالأموال والهدايا والمناصب الكبيرة، ففعل ذلك القاضي كمال الدين، واستطاع بحنكته

وذكائه أن يكسب الجميع إلى جانبه(٢٦).

حيث أجابه خلق كثير، واتفقوا معه على فتح أبواب دمشق وتسليمها إليه عندما يزحف عماد الدين إليها، ثم خرجوا متفرقين إلى كمال الدين الشهرزوري وجدد عليهم العهود.

وهكذا نجح القاضي كمال الدين في مهمته على أكمل وجه، وعلى الفور أرسل الشهرزوري إلى سيده عماد الدين يخبره بما توصل إليه من اتفاق، إلا أن عماد الدين رأى أنه من الصعب تنفيذ ذلك، لأن شوارع وطرق دمشق ضيقة، وإذا دخل العسكر إليها لا يتمكنون من القتال فيها، وربما كثر المقاتلون لهم والمحاربون، فيعجز عن مقاومتهم(٢٧). لأنهم سوف يقاتلون على الأراضي والأسطح، وإذا دخل جيش عماد الدين زنكي إلى دمشق، فسوف يضطر إلى التفريق لضيق المسالك والطرق، وفي هذه الحالة سوف يطمع أهالي دمشق في الجيش وتكون الخسائر كبيرة، من أجل ذلك تراجع عماد الدين عن هذا العزم بشدة وحذر(٢٨).

وإذا كان عماد الدين زنكي عهد إلى القاضي كمال الدين بهذه المهام الكبيرة والصعبة؛ التي لم يستطيع أحد أن يقوم بها إلا هو، لذكائه وفطنته وحنكته، يضاف إلى ذلك ثقة عماد الدين زنكي فيه.

فكان عماد الدين يصطحبه معه في أسفاره وحروبه، لرجاحة عقله وسداد رأيه ولمنزلته الكبيرة لديه.

فقد كان القاضي كمال الدين حاضرًا في عسكر عماد الدين زنكي، عندما حاصر عماد الدين قلعة جعبر عام ٥٤٠هـ/١١٤٧م، وظل مصاحبًا له ناصحًا ومشيرًا، حتى قتل عماد الدين على يد خادمه يرتقش، قبل أن يستولى على قلعة جعبر عام ٥٤١هـ/١٩٤٧م(٢٩).

هكذا قام القاضي كمال الدين الشهرزوري بدور كبير وهام، في دولة عماد الدين زنكي، لا يمكن إغفاله، فلا عجب أن يمتدحه عماد الدين زنكي بأنه كان ذا الرأي والعقل،

وأجزل له العطاء اعترافًا منه بمكانته الرفيعة لديه. فمثلاً عندما قيل لعماد الدين: " إن هذا كمال الدين يحصل لـه كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار، فقال لهم : بهذا العقل والرأي تديرون دولتي، إن كمال الدين يقل له هذا القدر، وغيره بكثير له خمسمائة دينار، فإن شغلاً واحدًا يقوم فيه كمال الدين خيرٌ من مائة ألف دينار "[٣٠].

وهذا الرد الصائب من عماد الدين يعتبر شهادة كبيرة للقاضي كمال الدين، لما يتمتع به من العقل وسداد الرأي، والخبرة، وأنه بالنسبة لعماد الدين كان العقل الراجح الذي يدبر به دولته.

مما يدل على المكانة السامية التي تمتع بها القاضي كمال الدين لدى عماد الدين زنكي. إلا أن هذه المكانة الرفيعة للقاضي كمال الدين الشهرزوري، عصر عماد الدين زنكي، لم تستمر ولو لحين بعد وفاة عماد الدين عام ٥٤١هـ/١١٤٧م، عندما تولى سيف الدين غازي ابن عماد الدين الأمر، ففي بداية حكمه فوض الأمور كلها إلى القاضي كمال الدين الشهرزوري، وأخيه تاج الدين أبو طاهر يحي، بالموصل وجميع ما يمتلكه، إلا أنه ما لبث أن تغير تجاههما، وأمر بالقبض عليهما عام ٥٤٢هـ/١١٤٨م، واعتقلهما بقلعة الموصل، ثم أحضر نعيم الدين أبا علي الحسن بن بهاء الدين، وهو ابن عم كمال الدين، وكان قاضي الرحبة، وولاه القضاء بالموصل وديار ربيعة بدلاً من كمال الدين[٣١].

ولكن نظرًا للمكانة السامية التي تمتع بها القاضي كمال الدين، عصر عماد الدين، أرسل الخليفة العباسي المقتفي بالله رسولاً من عنده ليشفع في كمال الدين الشهرزوري وأخيه، وبالفعل تم إخراجهما من الاعتقال، إلا أنهم ظلوا في بيوتهما وعليهما الترسيم[٣٢].

إلا أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، فبعد وفاة سيف الدين غازي عام ٥٤٤هـ/ ١١٥٠م، تولى مكانه أخوه قطب الدين مودود بن زنكي، وقام قطب الدين برفع الترسيم عن القاضي كمال الدين وأخيه، فحضروا إليه في الميدان بالموصل وعليهما ثياب العزاء، فعزياه عن أخيه، ثم عادا إلى بيوتهما بغير ترسيم، وعادوا مرة ثانية في الخدمة[٣٣]، فعاد

القاضي كمال الدين لنفس المكانة التي تمتع بها من قبل.

ثم انتقل القاضي كمال الدين الشهرزوري، بعد ذلك، إلى خدمة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي الذي أصبح يحكم بلاد الشام عام ٥٥٠هـ/١١٦٠م "، فتمكن من الدولة النورية، فأصبح الحاكم المتحكم على حد قول أبى شامة "[٣٤]، فولاه قضاء دمشق عام ٥٥٥هـ/١١٦٥م، ونظر الأوقاف ونظر أموال السلطان، واستناب ابنه أبا حامد بحلب، وابن أخيه القاسم بحماه، وابن أخيه الآخر في قضاء حمص[٣٥].

فصار قاضيه ووزيره ومشيره، على حد قول ابن العماد[٣٦]. فيمكن القول إن كمال الدين الشهرزوري وصل إلى مكانة عالية، وأصبحت كلمته نافذة عصر نور الدين محمود " فلم يكن شيئًا من أمور الدولة يخرج من يده "، على حد قول ابن خلكان، فتحكم في أمور الولاية وشد الديوان وغير ذلك[٣٧]. وعلى هذا النحو تجلى دور القاضي كمال الدين الشهرزوري السياسي في زمن نور الدين محمود.

ونظرًا لعلو شأن القاضي كمال الدين الشهرزوري لدى السلطان نور الدين محمود، فقد أرسله رسولاً إلى الخليفة المقتفي عام ٥٦٩هـ/١١٧٤م، وحمله رسالة مضمونها الخدمة للديوان، وما هو عليه من جهاد الكفار، وفتح بلادهم، كما يطلب من الخليفة تقليدًا بما بيده من البلاد: مصر والشام والجزيرة والموصل، وبما في طاعته، كديار بكر وما يجاورها مثل خلاط، وأن يعطي من الإقطاع سواد العراق ما كان لأبيه زنكي، وأن يسمح له ببناء مدرسة للشافعية، وغيرها من الأمور التي جاءت بالرسالة[٣٨].

ومن الجدير بالذكر أن الخليفة أكرم القاضي كمال الدين إكرامًا لم يكرم به رسولا قبله، وأجيب إلى كل ما التمسه[٣٩].

وقد أجيب إلى كل ذلك بفضل بلاغة ورجاحة عقل القاضي كمال الدين الشهرزوري، يضاف إلى ذلك أن الخليفة المقتفى أرسله رسولاً للإصلاح بين نور الدين محمود، وقلج أرسلان بن مسعود صاحب الروم[٤٠].

وإذا دل ذلك على شيء، فيدل على مدى ثقة كلٍ من نور الدين والخليفة المقتفي في حكمة وذكاء وخبرة كمال الدين، فقد وصفه المؤرخون بأنه "عظيم الرياسة خبيرًا بتدبير الملك، لم يكن في بيته مثله ولا نال أحد منهم ما ناله من المناصب"[٤١]. " فتمكن في الأيام النورية تمكنًا بالغًا "[٤٢].

فولاه نور الدين محمود مهامًا كثيرة في دولته، منها: الإشراف على المدارس والمساجد والأوقاف والحسبة، وجميع الأمور الدينية والشرعية، فكان صاحب القلم والسيف في وقت واحد[٤٣].

كما عهد إليه ببناء الأسوار والبيمارستان[٤٤]، ونظر الجامع بدمشق، فأصلح أموره، وفتح مشاهده الأربعة[٤٥].

ولم تقتصر وظائف ومهام القاضي كمال الدين عند هذا الحد، بل نجده يتولى شحنكية دمشق، وولي فيها كمال الدين بعض غلمانه[٤٦]. وذلك عندما أسقط نور الدين الجهات المحظورة والمكوس - غير السجن - قال للقاضي كمال الدين : " انظر أنت في ذلك فأحمل الأمور فيها على الشريعة" ولم يكن نور الدين يحاسب القاضي كمال الدين على شيء من الوقوف، ويقول : " أنا قد قلدته أن يتصرف بها بما يجب، ثم ما فضل من مصاريفها وشروط واقفيها بصرف من بناء الأسوار وحفظ الثغور "[٤٧]. وهذا إن دل على شيءٍ إنما يدل على مدى ثقة نور الدين في القاضي كمال الدين لحسن تصرفه.

وكان القاضي كمال الدين الشهرزوري يقوم بعمل القضاة على أكمل وجه، لا يجامل أحدًا على حساب أحد، يحكم بين المختصمين بالعدل، حتى ولو كان المختصم نور الدين نفسه.

فقد حدث أن اختصم أحد الأشخاص نور الدين محمود نفسه، وحضر نور الدين أمام القاضي الشهرزوري وبدأ يستمع إلى كلٍ من الطرفين المختصمين، وانتهت المحاكمة

بإنصاف نور الدين، فلم يثبت عليه شيئ يدينه.

حقيقة إن عدل نورالدين محمود هو الذي سمح للقاضي الشهرزوري بمحاكمة نور الدين، فقد طلب منه أن يتبع معه مثل ما يتبعه مع غيره : " إني قد جئت للمحاكمة فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري "(٤٨).

ونظرًا لقرب القاضي كمال الدين من نور الدين، وشدة تأثيره عليه، فقد طلبت زوجة نور الدين، وهي الخاتون بنت معين الدين، وساطة القاضي الشهرزوري لكي يقنع زوجها نور الدين بزيادة النفقة الخاصة بها، وبالفعل عرض القاضي هذا الأمر على نور الدين، وحاول أن يقنعه بذلك، ولكنه فشل لأن نور الدين الذي امتاز بالعدل رفض هذا الأمر قائلاً : " قد فرضت لها ما يكفيها والله لا أخوض جهنم بسببها وهذه الأموال ليست لي وإنما هي للمسلمين وأنا خادمهم فلا أخونهم فيها، ولي بحمص ثلاثة دكاكين اشتريتها من الغنائم قد وهبتها إياها، وكان يحصل منها قدر يسير "(٤٩).

ولم يقتصر دور القاضي كمال الدين عصر نور الدين محمود عند هذا الحد، بل كان يقوم بترشيح الموظفين الأكفاء لنور الدين ويعرفه بهم. عام ٥٦٢هـ/١١٦٦م رشح العماد الأصفهاني ليعمل في ديوان إنشاء السلطان نور الدين، وذلك نظرًا لما بلغه من النبوغ في العلم، فعندما جاء إلى دمشق أنزله كمال الدين بالمدرسة النورية الشافعية، والتي نسبت إليه بعد ذلك لأن نور الدين ولاه إياها عام ٥٦٧هـ/١١٧١م. ومنذ ذلك الوقت أصبح له شأن كبير في دولة نور الدين، ومن بعده صلاح الدين الأيوبي الذي اتخذه كاتبًا له لا يفارقه في أسفاره(٥٠).

ومن الجدير بالذكر أن عماد الدين كتب قصيدة مدح في نور الدين محمود، قام القاضي كمال الدين بعرضها على نور الدين، ومطلعها :

لو حفظت يوم النوى عهودها ... ما مطلت بوصلكم وعودها
مؤيد أموره بعزمه ... من السموات العلا تأييدها(٥١)

وإذا كان القاضي كمال الدين الشهرزوري لعب دورًا كبيرًا في دولة عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين محمود، ووصل عندهم إلى أعلى مكانة، وحاز على ثقتهم واحترامهم، فإنه لعب أيضًا دورًا يحسب له بعد وفاة نور الدين عام ٥٦٩هـ/١١٧٤م، حيث اتفق مع كبار الأمراء على أن يتولى الأمر الصالح إسماعيل بن نور الدين " وتحالف معهم على أن يكون أيديهم واحدة وعزائمهم متعاقدة "(٥٢).

ونظرًا لبُعد نظر القاضي كمال الدين؛ فقد أشار على الأمير شمس الدين بن المقدم، وهو القائم على تربية الصالح إسماعيل وأتابكيته – وغيره من كبار الأمراء، بالرجوع إلى مشورة صلاح الدين الأيوبي، عندما حدث صراع بين الأمراء على تربية الصالح إسماعيل، فقال لهم " قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر، وهو من أصحاب نور الدين ونوابه، والمصلحة أن يتشاور في الذي نفعله، ولا نخرجه من بيننا، فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا، وهو أقوى منا لانفراده بملك مصر"(٥٣).

وبالرغم من هذه النصيحة الهامة، التي نصح بها القاضي كمال الدين الأمراء في الشام، إلا أنهم لم يستمعوا إليها، بل إنهم خافوا من صلاح الدين إذا تدخل في هذا الصراع سوف يدخل البلاد ويخرجهم منها(٥٤).

الحقيقة أن القاضي كمال الدين كان بعيد النظر صائب الرأي فيما قاله، لأن صلاح الدين كان بالفعل أذكى وأقوى أمراء نور الدين محمود، في ذلك الوقت، وكان القاضي كمال الدين يعلم أن صلاح الدين عندما يعرف بموت سيده نور الدين وتصارع الأمراء على أملاكه، سوف يسير إليهم ويستخلص البلاد لنفسه، وهو ما حدث بالفعل(٥٥).

فمجرد أن علم صلاح الدين بوفاة نور الدين؛ لم يجد أفضل وأعقل من القاضي كمال الدين لكي يرسل له رسالته يقول فيها : " لو أن نور الدين علم أن فيكم من يقوم مقامي، أو يثق به مثل ثقته بي، لسلم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيري، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني، وسوف أصل إلى خدمته، وأجازي إنعام ولده بخدمة يظهر أثرها

وأقابل كلاً منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده "[٥٦].

هكذا تحقق ما كان يخاف منه القاضي كمال الدين الشهرزوري، والذي حذر منه الأمراء، لأن صلاح الدين غضب غضبًا شديدًا من عدم استعانة الأمراء ومحاولاتهم إبعاده عن الأحداث.

وكما تسلم القاضي كمال الدين رسالة صلاح الدين الأيوبي، تسلم رسالة أخرى من الأمير شمس الدين علي بن الداية، عندما أراد أن ينقل الملك الصالح بن نور الدين إلى حلب، فأرسل إلى القاضي كمال لعلو مكانته وسداد رأيه، لكي يقنعه بأن من المصلحة تنفيذ ذلك، حتى لا يستطيع سيف الدين غازي بن قطب الدين بن زنكي؛ الاستيلاء على مدينة حلب وغيرها من البلاد الجزرية، إلا أن الأمراء رفضوا أن يرسلوا الملك الصالح إلى حلب[٥٧].

على أية حال: عزم صلاح الدين على المسير إلى دمشق لتأديب أمراء نور الدين محمود.

ومن الجدير بالذكر: أن أصحاب القاضي كمال الدين الشهرزوري عندما علموا بقرب وصول صلاح الدين؛ توقعوا أن صلاح الدين سوف ينتقم من القاضي الشهرزوري بسبب العداء الذي كان بينهما أيام نورالدين محمود، عندما كان صلاح الدين متولي الشحنكية بدمشق، فكان كمال الدين يكسر أوامره ويعترض عليه في أموره، لتوخي كمال الدين الأحكام الشرعية[٥٨]، وفي ذلك يقول سبط ابن الجوزي : " وكانت بينهما مضايقة وكل واحد ينقص حكم الآخر "[٥٩].

يضاف إلى ذلك أن القاضي الفاضل كاتب صلاح الدين، كان يريد أن يتخلص منه، لذلك أسرع يجمع الشكاوى والمرافعات التي نسبت إلى كمال الدين لكي يسلمها إلى صلاح الدين وهو في طريقه إلى دمشق[٦٠].

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى أصحاب كمال الدين أشاروا عليه بضرورة الخروج لمقابلة صلاح الدين والقاضي الفاضل، إلا أن كبرياء وعزة القاضي كمال الدين نفسه

جعلته يرفض هذا الأمر، لأنه تعود منذ أيام نور الدين محمود أن يتردد الناس إليه وليس العكس. وفي ذلك يقول السبكي: " فلما كانت ليلة دخول السلطان دمشق، تحزب أصحاب كمال الدين عليه، وقالوا : هذا السلطان من الأصل لا يحبك، ومدبر دولته القاضي الفاضل كذلك، وأعداؤك قد تحزبوا عليك، وما كنت تعرفه من الرفعة قد زالت بزوال دولة نور الدين"(٦١).

ثم أشاروا عليه بضرورة مقابلة القاضي الفاضل الذي وصل إلى دمشق قبل السلطان صلاح الدين، وألحوا عليه في ذلك إلحاحًا كبيرًا، الأمر الذي جعل القاضي كمال الدين يضطر إلى مقابلة القاضي الفاضل، وهو مرغم على ذلك، إلا أنه كان متوقعًا أنه بمجرد أن يصل إلى دار القاضي الفاضل، فإنه سيرفض مقابلته، وبالفعل عندما وصل القاضي كمال الدين الشهرزوري، وطلب مقابلة القاضي الفاضل، ظل منتظرًا طويلاً على بابه حتى يؤذن له. ثم بعد ذلك أخبره طواشي القاضي الفاضل أنه نائم ولن يقابل أحدًا، فعاد القاضي كمال الدين إلى داره وهو في أسوأ حال(٦٢).

ولم يكتف القاضي الفاضل بعدم مقابلة كمال الدين، بل عندما خرج لاستقبال صلاح الدين أراد أن يوغر قلب صلاح الدين على الشهرزوري، إلا أن صلاح الدين لم يستمع إلى كلام القاضي الفاضل، ورد عليه قائلاً : " يا خوند، هذا رجل عظيم في العلم والسؤدد وأفعال نورالدين عند الناس مسددة، وكان منها تعظيم هذا الرجل، وغالب من ينسب إليه كذب، وأما ما ذكر من كثرة دخله، فهو وإن كثر دون كثير من أمراء المملكة، ولعله أحق ببيت المال، وأمواله من كثير منهم، فالذي أراه تعظيمه، وكذا"(٦٣).

وهذا دلالة على المكانة الرفيعة التي تمتع بها القاضي كمال الدين الشهرزوري عصر نور الدين، والتي جعلت صلاح الدين يثني عليه ويعظمه.

وما أن وصل صلاح الدين إلى دمشق حتى مشي إلى دار القاضي كمال الدين زائرًا ومشيرًا، ودخل عليه وجلس معه، وقال يا كمال الدين: لما كنت في الشحنكية قد كانت بيننا هنات ومشاحنات، فقد جئت إليك لأزيل ما في خاطرك من الوهم وأعرفك أن ما في

قلبي لك تكزه قطب نفسًا فالأمر أمرك والبلد بلدك[٦٤].

الحق أن كلاً من صلاح الدين والقاضي كمال الدين تناسى ما كان بينهما أيام نور الدين، وقام القاضي بدور كبير في مساعدة صلاح الدين في فتح دمشق، أعانه وفتح له أبوابها، لأنه كان " الحاكم النافذ حكمه، والصائب سهمه، الثابت نجمه "، على حد قول أبو شامة[٦٥].

ولم ينس صلاح الدين وقوف القاضي كمال الدين بجانبه، فبمجرد أن دخل دمشق أبقى عليه في منصب القضاء، وأكرمه واحترمه واستشاره وعظمه، كما أبقى على ابن أخيه ضياء الدين بن تاج الدين الشهرزوري، واستمر في خدمة صلاح الدين وأقطعه وأحسن إليه واستمر في صحبته[٦٦].

ومن الجدير بالذكر أن القاضي كمال الدين نال عصر صلاح الدين ما لم ينله أحد من الفقهاء من التقدم ونفاذ الكلمة، وسارت له اليد البيضاء عند صلاح الدين[٦٧]. واستمر يتمتع بهذه المنزلة الرفيعة حتى توفى يوم الخميس السادس من المحرم عام ٥٧٢هـ/١١٧٦م بدمشق[٦٨]. وكان حاضرًا عنده ابن أبي عصرون فتولى أمره، فخرج في جنازته، ماشيًا كما حضر الأمراء ومشوا في جنازته مثل سيف الإسلام وتقي الدين عمر وشمس الدولة وغيرهم، وصلى عليه بجامع دمشق، وعندما توفى كان قد تصدق بجميع ما كان عنده، وأوصى بماله وأوقف أوقافًا كثيرة، على أبواب البر وقيل إنه لم يكن له كفن فكفّن في أحرامه[٦٩].

ودفن في اليوم التالي بجبل قاسيون وكان عمره ثمانين سنة وأشهرًا[٧٠].

ومن الجدير بالذكر أنه قبل موته أوصى بالقضاء من بعده لابن أخيه أبى الفضائل القاسم بن يحيى بن عبدالله الملقب ضياء الدين، فنفذ السلطان صلاح الدين وصيته، وفوض القضاء بدمشق إلى ضياء الدين؛ احترامًا لرغبة كمال الدين ولمكانته السامية عند السلطان[٧١].

وقد أثنى عليه كثير من المؤرخين منهم: سبط ابن الجوزي الذي قال عنه:

"كان فاضلا جوادًا سمحًا دينًا عفيفًا ذا مروءة طاهرة وصدقات داره وافرة وبر واصل"[٧٢].

كما قال عنه ابن الأثير: " كان جوادًا فاضلاً رئيسًا ذا عقل ومعرفة في تدابير الدول "[٧٣].

كذلك نجد ابن خلكان يقول عنه إنه كان : " شهمًا جسورًا كثير الصدقة والمعروف وقف أوقاف كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق "[٧٤].

أما الأصفهاني فقال عنه : " كان بارًا بالأبرار مختارًا للأخبار، وقد قواه نور الدين رحمه الله وقلده الحكم في أيامه وسدد مرامي مرامه فكان في الأيام النورية الحاكم المطلق "[٧٥].

وقد ترك القاضي كمال الدين عدة منشآت كان قد أنشأها قبل وفاته، منها المدرسة التي بناها بالموصل لدراسة المذهب الشافعي[٧٦]. كذلك كانت له مدرستان بنصيبين[٧٧].

يضاف إلى ذلك أنه بنى رباطًا في المدينة المنورة[٧٨] كما أحدث الشباك الكمالي الذي يصلي فيه نواب السلطنة عصر نور الدين محمود[٧٩].

كما سن دار العدل لتنفيذ أحكامه بحضرة السلطان حتى لا يبقى عليه مغمز ولا ملمز لذوي الشان فيما دبره "، على حد قول الأصفهاني[٨٠].

وكان القاضي كمال الدين الشهرزوري معروفًا بكرمه الشديد، حيث أوقف قرية الهامة على الشيخ أحمد بن قدامة والد الشيخ ابن عمر، والنصف الآخر على الأساري: " فقيل إنه لما قدم أحمد بن قدامة والد الشيخ ابن عمر إلى دمشق خرج إليه القاضي كمال الدين ومعه ألف دينار فعرضها عليه فلم يقبلها، فاشترى بها قرية الهامة ووقف نصفها على الشيخ أحمد والمقادسة ونصفها على الاساري "[٨١]. كذلك كان يهب بالآلف دينار فما فوقها[٨٢].

رحم الله الشيخ كمال الدين الشهرزوري لكل ما قام به من أعمال هامة تحسب له.

الهوامش :

(١) طبقات الشافعية، ج٢، تحقيق: كمال يوسف الحوت، بيروت، طبعة أولى ١٩٨٧م، ص١٨.

- عماد الدين زنكي: ابن قسيم الدولة أق سنقر التركي، تولى شحنكية بغداد آخر دولة المستظهر بالله ثم انتقل إلى الموصل، وقام بتربية فرخشاه الملقب خفاجي ابن السلطان محمود، ولهذا قيل له أتابك، استطاع أن يملك الموصل وحلب وحمص إلا أنه قتل على يد خادمه برتقش عام ٥٤١هـ. للمزيد عن عماد الدين زنكي ودوره في توحيد الجبهة الإسلامية، انظر: ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، ٤ أجزاء، تحقيق: سامي الدهان، دمشق ١٩٥٤م، ج٢، ص٢٤١-١٤٦؛ انظر أيضًا : حامد زيان : حلب في العصر الزنكي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة القاهرة، ١٩٧٠م، ص٣٥-٤٠.
- الموصل: قال عنها ياقوت الحموي: فهي باب العراق ومفتاح خراسان، ومنها يقصد إلى أذربيجان، وسميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل وصلت بين دجلة والفرات. معجم البلدان، ٥ أجزاء، تحقيق: فريد عبدالعزيز الجندي، لبنان، د.ط، ج٥، ص٢٥٨-٢٦٠.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، ج٤، دار الصادر، بيروت، ص٢٤١؛ السبكي: طبقات الشافعية، ١٠ أجزاء، تحقيق: عبدالفتاح محمد الحلو، محمود الطناحي، ج٦، ص١١٨،١١٧.

- أسعد الميهني : نسبة إلى ميهنة قرية بقرب طوس بن سرخس وأبيور. تفقه بمرو وشاع فضله وبعد صيته وولى نظامية بغداد مرتين ثم توجه من بغداد رسولاً إلى همذان وتوفى بها عام ٥٢٧هـ. ابن العماد الحنبلي: شذارت الذهب في أخبار من ذهب، ٦ أجزاء، بيروت د.ت، ج٤، ص٨٠.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٤٢؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٤٣؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ٣٣ جزء، ج٣، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت لبنان، طبعة أولى ٢٠٠٠م، ص٢٦٦؛ الاسنوي: طبقات الشافعية، ج٢، تحقيق: كمال يوسف الحوت، بيروت، طبعة أولى ١٩٨٧م، ص١٨.

(٤) الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر، ٣ أقسام، ق٢، خاص بشعراء الشام، تحقيق: أحمد أمين، شوقي ضيف، ص٣٢٦؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٤٣؛ الصفدي: الوافي،

ج٣، ص٢٦٧.

- العماد الأصفهاني: ولد عام ٥١٩هـ بأصفهان وتفقه ببغداد على المذهب الشافعي، وأتقن الفقه والعربية، تفوق في الكتابة والترسل والنظم، وخدم في ديوان الإنشاء وترقى إلى أعلى المراتب وعظمت مكانته، وصنف العديد من المؤلفات منها الفتح القسي، وخريدة القصر، توفى عام ٥٩٨هـ. للمزيد عنه انظر : الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد محمود صبيح، تقديم حامد زيان، القاهرة ٢٠٠٣م، ص٩-٢٠؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٤، ص٣٣٢-٣٣٣؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٤، ص١٤٧-١٥٢.

(٥) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبدالقادر احمد طليمات، القاهرة د.ت، ص٥٤؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٢٥٦، ٢٥٧.

- سنجر أبو الحارث سنجر ملكشاه بن ألب أرسلان بن سلجوق سلطان خراسان وغزنة وما وراء النهر، تلقب بالسلطان الأعظم معز الدين، ولد عام ٤٧٩هـ، بسنجار ولذلك سمي سنجر نسبة إلى المدينة، تولى الحكم عام ٤٩٠هـ نيابة عن أخيه بركياروق ثم استقل بالحكم عام ٥١٢هـ، وتوفى ام ٥٥٢هـ بمدينة مرو ودفن بها. للمزيد من التفاصيل عنه، انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٢٧، ٤٢٨.

- الراشد وهو أبو جعفر المنصور بن المسترشد بالله بويع بالخلافة عام ٥٢٨هـ وتلقب بالراشد بالله، وفي عام ٥٣٠هـ طلب مساعدة عماد الدين زنكي، عندما اختلف العساكر السلطانية على السلطان مسعود. تفاصيل ذلك انظر: ابن الأثير: الباهر، ص٥١-٥٣.

- الخليفة المقتفي لأمر الله أبو عبدالله محمد بن المستظهر بالله العباسي، أمير المؤمنين، كان عالمًا فاضلاً حليمًا شجاعًا، خليقًا للإمارة، كان لا يجرى في دولته أمر وإن صغر إلا بتوقيعه، استمر في الخلافة خمسًا وعشرين سنة، وفي أيامه عادت بغداد والعراق إلى يد الخلفاء ولم يبق لها منازع، توفى عام ٥٥٥هـ. للمزيد من التفاصيل عنه، انظر: ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص١٧٢، ١٧٣.

(٦) للمزيد من التفاصيل، انظر: ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، دمشق ١٩٠٨م، ص٢٥٦، ٢٥٧؛ ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، مصطفى عطا، ١٩ جزء، لبنان ١٩٩٢م، ج١٧، ص٣٠٠-٣١٣؛ ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبدالقادر أحمد طليمات، القاهرة د.ت، ص٥١-٥٥.

(٧) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص٥٤؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق،

ص٢٥٦، ٢٥٧.

(٨) علي محمد الصلابي: عصر الدولة الزنكية بقيادة نورالدين محمود، بيروت ٢٠١٠م، ص٤٧.

(٩) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٢؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، جزءان، دار ا لجبل، بيروت د.ت، ج١، ص١٣٠-١٣٢.

من الجدير بالذكر أن الصليبيين بالشام عندما علموا بحصار الملك فولك في حصن بعرين أرسلوا طالبين النجدة من الإمبراطور البيزنطي والغرب الأوربي. للمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة، انظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جزءان، ج١، الطبعة السابعة، ١٩٩٧م، ص٤٥٥-٤٥٧؛ محمد مرسي الشيخ: عصر الحروب الصليبية، الإسكندرية، ص٢١٦-٢١٩؛

Steven Son (W.B): The CRUSades. In the East, Bei Rat 1966, p. 137-139.

- السلطان مسعود: غياث الدين أبو الفتح بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن جعفر السلجوقي، رباه بالموصل الأمير مودود ولما تمكن أخوه السلطان محمود، طمعه جوس بك في السلطنة، فدخل في صراع مع أخيه انتهى بهزيمته، ثم تنقلت به الأحوال حتى استقل بالملك عام ٥٢٨هـ وامتدت أيامه وعاش خمسا وأربعين سنة، ومات عام ٥٤٧هـ. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص١٤٥؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص٢٠٠-٢٠٢.
- حصن بارين أو بعرين: بكسر الراء، وياء ساكنة، ونون، والعامة تطلق عليه بعرين وهو مدنية حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٣٨١.

(١٠) التاريخ الباهر، ص٦٢.

- حلب: مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيبة الهواء لها سور بحجر أبيض وفيه ستة أبواب وفي جانب السور قلعة في أعلاها مسجد وكنيستان. للمزيد عنها، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٢٤-٣٣٢.
- حنا كومنين: تولى عرش الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة والده الكسيوس كومنين عام ١١١٨م، واستمر في الحكم حتى عام ١١٤٣م. حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ٢٠٠٠م، ص٢١٤.

(١١) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٢؛ أبو شامة: الروضتين، في أخبار الدولتين، ج٢، ص٤٢٦.

(١٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٥ أجزاء، ج١، ٢، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧، ج١، ص٧٩؛ أبو شامة: الروضتين، ج١،

ص١٣٢، ١٣٣.

(١٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٧٩؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٣٣؛ انظر أيضًا: محمد الصلابي، السلطان الشهيد عماد الدين زنكي، بيروت ٢٠١٠م، ص١٣٠.

(١٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٢؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٣٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٧٩.

(١٥) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٢؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٣٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٧٩.

- الفقهاء: مفردها الفقيه، من ألقاب العلماء، وكان هذا اللقب من الألقاب المعظمة. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزء، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية بالقاهرة، ج٦، ص٢٢.
- الأوباش: تعني أهل الفساد من العوام الذين عاشوا في ضيق وعسر بالقياس إلى غيرهم من الطبقات المنعمة، وقد استفادوا من منازعات الأمراء، إذا حاول بعض هؤلاء الأمراء أن يكتسب العوام إلى جانبه. سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٩٢م، ص٤٤، ٤٥.

(١٦) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٢؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٣٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٧٩.

(١٧) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٢؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٣٣؛ ابو واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٧٩، ٨٠.

(١٨) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٢، ٦٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٨٠، ٨١؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٣٣، ١٤٣.

- الفرات: معناه الماء العذب، ومخرج الفرات فيما زعموا من أرمينية ثم من قالقلا قرب خلاط، ويدور بتلك الجبال حتى يدخل أرض الروم. عنه انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢٧٤، ٢٧٥.

(١٩) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٣؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٣٤، ١٣٥؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٨٠، ٨١؛ انظر أيضًا: الصلابي: السلطان عماد الدين، ص١٣١.

(٢٠) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٨١؛ انظر أيضًا:

الصلابي: عماد الدين، ص٣١.

- الوزير: يُعد منصب الوزير من أهم المناصب في النظام الإداري بالدولة الإسلامية، حيث يلي الوزير السلطان أو الملك في المكانة، وينفذ أوامره ويعكس له أحوال شعبه، ويعاون الوزير السلطان في شتى الأمور. للمزيد من التفاصيل عن منصب الوزير ومهامه واختصاصاته، انظر: منال محمد: الوزارة في مصر خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب جامعة بني سويف، ٢٠٠٧م.

(٢١) الصلابي: السلطان عماد الدين، ص١٣١.

(٢٢) التاريخ الباهر، ص٦٣.

(٢٣) الصلابي: السلطان عماد الدين، ص١٣٢.

(٢٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٥٨؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٢٧، ١٢٨.

- دمشق: من أشهر مدن بلاد الشام وأجملها وأحصنها. للمزيد عنها انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٥٢٧.

- جمال الدين محمد بن بوري بن طغتكين، كان ظالمًا سيء السيرة، تولى دمشق لمدة عشرة اشهر ومات عام ٥٣٤هـ. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص١٠٥.

- معين الدين أنر: هو مقدم جيش دمشق امتاز بالشجاعة والتدين وكان كثير الصدقات، وتوفى عام ٥٤٤هـ ودفن بقيته التي تقع بين دار البطيخ والشامية. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص١٣٨.

(٢٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٢ جزء، ج١١، بيروت ١٩٧٩م، ص٣٦-٣٩؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨م، ص٢٦٩-٢٧٣؛ ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج٢، ص٢٧٢-٢٧٤؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جزءان، ج١، طبعة سابعة، القاهرة ١٩٩٧م، ص٤٦٧-٤٦٨.

- زمرد خاتون: صفوة الملوك بنت الأمير جاولي أخت الملك دقاق صاحب دمشق لأمه وزوجة تاج الدين بوري وأم ولديه شمس الملوك إسماعيل ومحمود، سمعت من ابن الحسن بن قيس، واستحسنت الكتب وحفظت القرآن وبنت المدرسة الخاتونية بصنعاء دمشق ثم تزوجها أتابك زنكي فبقيت معه تسع سنين حتى قتل. للمزيد من التفاصيل، انظر: ابن العماد: شذرات الذهب، ج٤، ص١٧٨.

- خاتون: جمعها خاتونات أو خواتين، هي كلمة عربية محرفة عن الكلمة المغولية " قادين "

وذلك دون لقب " الملكة " الذي كان في عصر الفاطميين، وكانت تلقب به الزوجة أو الأم أو الأخت وكان لهن مشاركة في الحكم في بلاد الروس. محمد البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص١١٥؛ حسن الباشا: الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، القاهرة ١٩٧٨م، ص٢٦٤، ٢٦٥.

- المقدم: هو موظف يرأس الصناع الفنيين بدار الضرب، وهو المسئول الأول عن جميع مراحل عمليات السبك في دار الضرب. حسنين محمد ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، القاهرة ١٩٩٤م، ص١٠٤، ١٠٥؛ محمد قنديل النقلي: مصطلحات صبح الأعشى، القاهرة ٢٠٠٦م، ص٣١٩.

- أحداث: تعني الشرطة غير الرسمية وكانت تستعمل في الشام خاصة، وهي من العصر الفاطمي وكان من يتولى ولاية الأحداث من العسكريين. القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٠، ص١٦، ٢٢؛ محمد قنديل: مصطلحات صبح الأعشى، ص١٦.

- النظار: مفردها ناظر وهو من ينظر في الأموال وينفذ تصرفاتها ويرفع إليها حسابها لينظر ما يرد. ابن مماتي: قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣م، ص٢٩٨م؛ البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص٣٤١.

(٢٦) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٥٨؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٢٨.

(٢٧) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٥٨؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٢٨.

(٢٨) أبو شامة: الروضتين، ج١، ص١٢٨.

(٢٩) عن حصار قلعة جعبر، انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٤١؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٢٨٤-٢٨٥؛ ابن الأثير: الباهر، ص٧٣، ٧٤؛ انظر أيضا: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص٤٧٦؛ محمد مرسي الشيخ: عصر الحروب الصليبية، ص٢٥٥.

- قلعة جعبر: تقع على الفرات مقابل صفين التي كانت فيها الواقعة بين معاوية وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وكانت تعرف أولاً باسم دوسر فتملكها رجل من بني نمير يقال له جعبر بن مالك فعرفت باسمه. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٤٣.

- المشير: تعني الناصح الذي يؤخذ رأيه، وهي من الوظائف المستحدثة، وصاحبها يلي وظيفة الإشارة، ويكون عادة من يتولاها من كبار الأمراء، ممن يحضرون مجلس المشورة. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٦، ص٧٠؛ ج١١، ص١٠٧،١٥٣؛ محمد البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص٣١٢.

- برتقش: أصله أفرنجي وكان من المقربين لعماد الدين، إلا أنه حقد على سيده لإساءة تقدمت منه إليه فأسرها في نفسه، وقتله وهو نائم ثم هرب إلى قلعة جعبر وكان صاحبها الأمير عز الدين علي بن مالك فأواه في القلعة وأكرمه. ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٢٨٤، ٢٨٥.

(٣٠) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص٦٣؛ أبو شامة: الروضتين، ج١، ص٢٣٥؛ انظر أيضًا: الصلابي: عماد الدين، ص٤١.

(٣١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٤١، ٢٤٢.

تولى سيف الدين غازي بن زنكي حكم الموصل، ولم تذكر المصادر شيئًا عن تغيره تجاه القاضي الشهرزوري وسوء معاملته.

- الرُّحْبة: بضم أوله وسكون ثانية، وباء موحدة، تمتاز بالبساتين والقرى، تقع بين المدينة والشام قريبة من وادي القرى. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٣٧.

- ديار ربيعة: تقع بين الموصل إلى رأس عين نحو بقعاء الموصل ونصيبين، ورأس عين ودنسر والخابور، سميت ديار ربيعة لأنهم كلهم ربيعة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٥٦٢.

(٣٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٤٢.

- الترسيم: مال تقرضه الدولة لقاء خدمة من قبلها الرسمي. وفي المصطلح المملوكي كان الترسيم عبارة عن تعويق المتهم بمكان من الأماكن ويعين عليه حارس. للمزيد من التفاصيل، انظر: البيومي إسماعيل: مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية عصر سلاطين المماليك، جزءان، ج١، القاهرة ١٩٩٧م، ص٢٣، ٢٤.

(٣٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٤٢.

(٣٤) الروضتين، ج٢، ص٤٢٦.

(٣٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٤٢؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٣، ص٢٦٦؛ السبكي: طبقات الشافعية، ج٦، ص١١٨.

- حماه: مدينة كبيرة عظيمة الخيرات، واسعة الرقعة، حافلة بالأسواق، يحيط بها سور محكم، وبها جامع يشرف على نهرها المعروف بالعاص. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٣٣٤-٣٤٥.

- حمص: تقع بين دمشق وحلب بها قلعة حصينة على تل كبير. عنها انظر: ياقوت الحموي:

معجم البلدان، ج٢، ص٣٤٧-٣٥٠.

(٣٦) شذرات الذهب، ج٤، ص٢٤٣.

(٣٧) وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٤٢.

- الولاية: في التقسيم الإداري بمعنى مديرية أو محافظة في اصطلاحنا المعاصر، وكانت مصر مقسمة إلى أربع عشر ولاية في الوجهين البحري والقبلي، ويشرف على الولاية الوالي، وكانت تسمى أيضًا (عمل). القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٣٩٢-٣٩٧؛ انظر أيضًا: محمد البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص٣٦٢.

- شد الديوان: مهمته مرافقة الوزير والتفتيش على مالية الدواوين وعلى موظفيها وعادته إمرة عشرة. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٢؛ حسنين ربيع: النظم المالية، ص٨٢٢.

(٣٨) الأصفهاني: سنا البرق الشامي، ص٧٢؛ ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص١٩١.

- ديار بكر: هي بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن قاسط بن دعمي، يحدها من الغرب دجلة إلى بلاد الجبل المطلة على نصيبين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٥٦١-٥٦٢.

- خِلاط: بكسر أوله، وأخره طاء مهملة. البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة والثمار اليانعة، طولها أربع وستون درجة ونصف وثلث، وعرضها تسع وثلاثون درجة وثلثان في الإقليم الخامس، وهي قصبة أرمينية الوسطى. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٣٥-٤٣٦.

(٣٩) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١، ص١٩١؛ سنا البرق الشامي، ص٧٢.

(٤٠) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٤٢.

- من الجدير بالذكر أن نور الدين محمود خرج عام ٥٦٨هـ إلى أملاك عز الدين قلج أرسلان بن مسعود عازمًا على حربه وأخذ بلاده منه، وذلك نظرًا لاستنجاد ذي النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس بنورالدين ضد قلج أرسلان الذي استولى على بلاده، فما كان من نور الدين إلا أن استقبله بحفاوة وكرم ووعده برد بلاده إليه. للمزيد من التفاصيل، انظر: ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص٨٩.

- قلج أرسلان: بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق بن دقاق التركي السلجوقي صاحب الروم، امتدت أيامه وكبر في السن وتصرف أولاده في مملكته في حياته، عاش سلطانًا أكثر من ثلاثين سنة وتوفى عام ٥٨٨هـ، وتملك من بعده ابنه غياث الدين. ابن العماد، شذرات الذهب، ج٤، ص٢٩٥.

(٤١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٤٢؛ الاسنوي: طبقات الشافعية، ج٢، ص١٨.

(٤٢) السبكي: طبقات الشافعية، ج٦، ص١١٨.

(٤٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٦ جزء، لبنان ١٩٩٢م، ج٦، ص٧٣؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، المجلد الثامن، قسم ١، ٢؛ طبعة أولى حيدر أباد ١٩٥١م، ص٣٤٠.

- الحسبة: من وجوه العدل وأعيانهم من يتولاها تكون يده مطلقة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويتحدث في أمر المكاييل والموازين. للمزيد من التفاصيل عنها انظر: المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٤ أجزاء، طبعة مصورة بالأوفست من طبعة بولاق، ج١، ص٤٦٣، ٤٦٤؛ انظر أيضًا: محمد البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص٣٠٣.

- صاحب القلم والسيف معناها من يجمع بين فضيلة القلم (العلم والدراسة) وفضيلة السيف (تعليم فنون الفروسية والقتال) مثال ذلك أولاد ابن شيخ الشيوخ، عنهم انظر: حامد زيان: العلماء بين الحرب والسياسة في العصر الأيوبي، القاهرة ١٩٧٨م.

(٤٤) أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٤٢٧، ٤٢٨؛ الأصفهاني: سنا البرق، ص١٠٨.

- البيمارستان: يقال له المارستان والمرستان، وهو مستشفى لمعالجة المرضى وإقامتهم، وهو لفظ فارسي مركب من بيمار أي المريض، وستان أي محل، ويقال له بالتركية خسته خانه أي محل المرضى. ويطلق البيمارستان أيضًا على المحل المعد لإقامة المجانين. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤ أجزاء، ج١، ق٣، تحقيق: مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٧١م، ص٧١٦، هامس ٦.

(٤٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٤ جزء، طبعة أولى، القاهرة ٢٠٠٠م، ج١٢، ص٢٧٨.

(٤٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص٧٣.

- شحنكية دمشق: أو الشحنة وهي وظيفة يسمى متوليها صاحب الشحنة وهو رئيس الشرطة والموكل بالأمن في بلد من البلاد. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٣٦٢؛ انظر أيضًا: محمد البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص١٩٣.

(٤٧) ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٢٨١؛ أبو شامة: الروضتين، تحقيق: أحمد البيومي، دمشق ١٩٩١م، ق١، ص٣٤٧؛ الأصفهاني: سنا البرق الشامي، اختصار الفتح بن علي البنداري، تحقيق: فتحية النبراوي، القاهرة ١٩٧٩م، ص٢٨.

(٤٨) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص١٦٦، ١٦٧؛ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ص٣٨؛ ابن

واصل: مفرج الكروب، ج١، ص٢٦٧.

(٤٩) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٠٧.

- عصمة الدين الخاتون بنت الأمير معين الدين أنر زوجة نور الدين ثم صلاح الدين. قامت بوقف المدرسة التي بدمشق للحنفية، وبنت خانقاه للصوفية خارج باب النصر، توفيت عام ٥٨١هـ ودفنت بتربتها في قاسيون على نهر يزيد. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٧٢.

(٥٠) أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص١٦، ١٧؛ الأصفهاني: الفتح القسي، ص١٠.

(٥١) أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٢٧؛ الأصفهاني: سنا البرق الشامي، ص٢٢.

(٥٢) أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٣١٨.

- الصالح إسماعيل وهو الملك الصالح أبو الفتح إسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي، أوصى له والده بالسلطنة من بعده فلم تتم له وحكم حلب فقط، وكان شابا دينا عاقلاً محبا إلى أهل حلب، مات بمرض القولنج عام ٥٧٧هـ، وحزن عليه أهل حلب واقاموا عليه المآتم وبالغوا في النواح والبكاء. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٥٨.

(٥٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص١٦٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣.

- أتابك: يتكون من لفظين تركيين، أتا أو أطا بمعنى الأب، وبك بمعنى أمير، فيكون المعنى الأمير الوالد. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٨؛ محمد عبدالغني الأشقر: أتابك العسكر في القاهرة عصر المماليك البحرية، القاهرة ٢٠٠٢م، ص٢١.

(٥٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص١٩٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٣؛ انظر أيضًا: حامد زيان: تاريخ مصر في العصر الأيوبي، القاهرة ٢٠١١م، ص٤٠.

(٥٥) نظرًا لصغر سن الصالح إسماعيل فقد تنافس أمراء نور الدين للوصاية عليه، ودب الخلاف بين اثنين من أقوى أمراء نور الدين وهما شمس الدين بن الداية، وشمس الدين بن المقدم حيث أراد كلاهما أن تكون له الوصاية. عن الصراع الذي حدث انظر: ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص١٩٦، ١٩٧؛ الأصفهاني: سنا البرق، ص٧٣؛ انظر أيضًا: حامد زيان، تاريخ مصر في العصر الأيوبي، ص٣٩؛ ليلى عبدالجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، القاهرة ٢٠٠٥م، ص٤٣-٤٥.

(٥٦) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص١٦٣؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٧؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٣٢٤.

(٥٧) ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص١٦٣؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٣٢٤.

- من الجدير بالذكر أن نور الدين محمود قبل أن يمرض قد أرسل إلى البلاد الشرقية كالموصل وغيرها يستدعي العساكر منها، فسار سيف الدين في عساكره، وفي الطريق علم بخبر موت عمه نور الدين، فعاد إلى نصيبين، فملكها كما استولى على الخابور والرها والرقة وغيرها من بلاد الجزيرة. أبو شامة الروضتين، ج٢، ص٣٢٤، ٣٢٥.

(٥٨) أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٤٢٦، ٤٢٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٤٩.

(٥٩) مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٤٠.

(٦٠) السبكي: طبقات الشافعية، ج٦، ص١١٩.

- القاضي الفاضل: أبو علي عبدالرحيم بن علي بن الحسن اللخمي البيساني ثم العسقلاني ثم المصري محي الدين صاحب ديوان الإنشاء وشيخ البلاغة، ولد عام ٥٢٩هـ قيل إن مسودات رسائله لو جمعت لبلغت مائة مجلد، كان يحب الكتابة، قصد مصر وخدم الأكابر، فلما تملك صلاح الدين مصر استخلصه لنفسه وحسن اعتقاده فيه ولازمه وارتفعت منزلته، توفى عام ٥٩٦هـ. عنه انظر: ابن العماد: شذرات الذهب، ج٤، ص٣٢٤-٣٢٧؛ فتحية النبراوي: إنشاءات القاضي الفاضل، طبعة أولى، القاهرة ١٩٨٠م؛ سوسن محمد نصر: القاضي الفاضل وصلاح الدين، القاهرة ١٩٩٠م، ص١٢١-١٣٠.

(٦١) طبقات الشافعية، ج٦، ص١١٩.

(٦٢) السبكي : طبقات الشافعية، ج٦، ص١٢٠.

- الطواشي: جمعه طواشيه. وهم الخصيان الذين استخدموا في الطباق المملوكية وفي الحريم السلطاني. سعيد عاشور: العصر المملوكي في مصر والشام، القاهرة ١٩٦٥م، ص٤٣٣؛ حامد زيان: العلماء، ص٤٠؛ هامش ٤.

(٦٣) من الجدير بالذكر أن القاضي الفاضل عاد إلى دمشق قبل دخول صلاح الدين، وتوجه إلى دار القاضي كمال الدين الشهرزوري، وطلب مقابلته ولما دخل الخادم، يستأذن كمال الدين توقع القاضي الفاضل أن كمال الدين سوف يرفض مقابلته مثلما فعل هو من قبل، لذلك فضل أن يرحل قبل أن يخبره الخادم بذلك وهو ما حدث بالفعل. السبكي: طبقات الشافعية، ج٦، ص١٢٠.

- خوند: بالفتح، لفظ فارسي واستعمل أيضًا في اللغة التركية، ومعناه السيد أو الأمير، ويخاطب به المذكر والمؤنث. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٤٢٦؛ انظر أيضًا: محمد البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، ص١٢٤، ١٢٥.

(٦٤) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٢٧.

(٦٥) الروضتين، ج٢، ص٣٢٩. عن فتح صلاح الدين لمدينة دمشق، انظر: سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٢٦ ، ٣٢٧، ٣٤٠؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٣٣٩-٣٤٢؛ انظر أيضًا: ليلى عبدالجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٤٥، ٤٦.

(٦٦) الأصفهاني: سنا البرق الشامي، ص١٠٨؛ أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص٤٢٦، ٤٢٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٤٩.

من الجدير بالذكر أن ضياء الدين دخل في خدمة صلاح الدين منذ أن كان بمصر، فرحب به صلاح الدين وأنعم عليه وولاه الوظائف واصطحبه معه إلى بلاد الشام. للمزيد من التفاصيل، انظر: الأصفهاني:-سنا البرق، ص١٠٨؛ أبو شامة، الروضتين، ج٢، ص٤٢٧.

(٦٧) السبكي: طبقات الشافعية، ج٦، ص١١٨، ١٢٠.

(٦٨) ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر، جزءان، مجلد واحد، القاهرة ١٢٨٥م، ج٢، ص٨٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٤٤.

(٦٩) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ص٣٤١.

- ابن أبي عصرون: هو قاضي القضاة وفقيه الشام شرف الدين أبو سعد عبدالله بن محمد التميمي الحديثي ثم الموصلي ولد عام ٤٩٢هـ، تفقه بالموصل، ثم رحل إلى بغداد وقرأ القراءات ودرس النحو والفقه، ورجع إلى الموصل بعلوم جمه، ودرس بها وأفتى ثم ولي القضاء لصلاح الدين عام ٥٧٣هـ وله مصنفات كثيرة، وتوفى عام ٥٩٣هـ. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٨٣، ٢٨٤.

(٧٠) ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٤٩.

(٧١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٤٤؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج٢، ص٥٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص٢٩٥؛ الأصفهاني: سنا البرق الشامي، ص١٠٨.

(٧٢) مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٤٠، ٣٤١.

(٧٣) الكامل، ج١١، ص٢١٣.

(٧٤) وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٤٢.

(٧٥) سنا البرق الشامي، ص١٠٧، ١٠٨.

(٧٦) الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٤٣؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٣، ص٦٦؛ الأسنوي: طبقات الشافعية،ج٢، ص١٨؛ ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج١٨، ص٢٣٣.

(٧٧) السبكي: طبقات الشافعية، ج٦، ص١١٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٤٣؛

ابن الجوزي: المنتظم، ج١٨، ص٢٣٣.

- نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل من الموصل إلى الشام، بينها وبين الموصل ستة أيام. للمزيد من التفاصيل عنها: انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٣٣، ٢٣٤.

(٧٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٦، ص٢٤٦؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٣، ص٣٦٦؛ السبكي، طبقات الشافعية، ج٦، ص١١٨؛ الأسنوي: طبقات الشافعية، ج٢، ص١٨.

- الرباط: هي دار يسكنها الصوفية، أي أهل طريق الله، فالقوم في الرباط مرابطون متفقون على قصد واحد وعزم واحد وأحوال متناسبة. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٤، ص٤٢٧.

(٧٩) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٤٣.

- نائب السلطنة: هو الذي يقوم مقام السلطان في عامة أموره وفي غالبها. للمزيد من التفاصيل انظر: ليلى عبدالجود: " نائب السلطنة في القاهرة في عصر المماليك البحرية "، بحث منشور بالمؤرخ المصري، يصدرها قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد الأول، يناير ١٩٨٨م، ص١٥٩-٢٢٥.

(٨٠) سنا البرق الشامي، ص١٠٨.

(٨١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، ج٨، ق١، ص٣٤١؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٤٣.

- قرية الهامة: واحدة الهام، وهي كوره واسعة فيها جبل الأق. ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٤٤٧.

(٨٢) السبكي: طبقات الشافعية، ج٦، ص١١٩.

الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا
حاكم مملكة حماة ودوره في الحضارة الإنسانية

د. آمال حامد زيان غانم

أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة القاهرة

اهتم بنو أيوب بالعلم وقَدّروا العلماء، وأجزلوا لهم العطاء، وتقربوا منهم، ولا أدل على ذلك من قول السلطان صلاح الدين الأيوبي لأصحابه : "لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بعلم الفاضل"[١].

ويعود السر وراء اهتمام صلاح الدين الأيوبي بالعلم والعلماء إلى أنه نشأ في أحضان البيت الزنكي[٢]، الذي عُرف حُكامه بحبهم للعلم والعلماء، وازدهرت الحركة العلمية ببلاد الشام في زمنهم ازدهارًا كبيرًا[٣].

والمعروف أن صلاح الدين انتقل صحبة والده الأمير نجم الدين أيوب إلى دمشق عام ٥٤١هـ/١١٤٦م، وكان له من العمر تسع سنوات[٤]، وكانت دمشق في تلك الفترة

---

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ١٩٥٢م، ج٨، ق٢، ص٤٧٢،

- يقصد صلاح الدين بالفاضل، القاضي الفاضل وهو عبدالرحمن بن علي بن حسن أبو علي البيساني الكاتب، ولد بمدينة عسقلان عام ٥٢٩هـ/١١٣٥م، وتولى والده القضاء بمدينة بيسان، ولهذا نُسب إليها، برع في الأدب خاصة كتابة الرسائل، ارتبط بصلاح الدين الأيوبي، وتولى وزارته، كما استمر بعد وفاة صلاح الدين يتولى خدمة ابنيه العزيز والمنصور، توفى عام ٥٦٩هـ/١٢٠٠م، ودفن في القاهرة. انظر: سبط بن الجوزي: مرآة الزمان، نشر مجلة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الهند ١٩٥١م. ج٨، ق٢، ص٤٧٢؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان عباس، بيروت ١٩٧٧م؛ ج٣، ص١٥٨-١٦٣.

(٢) أشار ابن تغري بردي إلى ذلك صراحة بقوله : " أنشأ بنو زنكي (أعني السلطان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد) بني أيوب سلاطين مصر وغيرها ". انظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة د.ت.

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧م، ج١، ص٢٨٣-٢٨٤؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسيني، القاهرة ١٩٨٨م، ج١، ص٦٠٧.

(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبدالقادر أحمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣م، ص١٢٠؛ الكامل في التاريخ، نشر دار صادر، بيروت ١٩٦٦م، ج١١، ص١١٨.

- نجم الدين أيوب : هو الملك الأفضل نجم الدين أبي الشكر أيوب بن شادي بن مروان الكردي، تولى حكم قلعة تكريت، ثم انتقل إلى بعلبك، ثم إلى دمشق، وبعدها استقر

مركزًا علميًا نشطًا، امتلأت بالعلماء والمدارس، مما جعل صلاح الدين ينشأ في بيئة علمية صالحة، جعلته فيما بعد يحب ويقدر العلم والعلماء.

سار خلفاء صلاح الدين على نفس سياسته في الاهتمام بالعلم والعلماء، وكان من بينهم ابن أخيه تقي الدين أبو سعيد عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن نجم الدين أيوب، الذي وصفته المصادر بأنه كان له " آثار في المصافات دلت عليها التواريخ، وله في أبواب البر كل حسنه، منها : مدرسة منازل العز التي بمصر، كانت دار سكنة، فوقف عليها وقفًا كثيرًا وجعلها مدرسة، وكانت الفيوم وبلادها إقطاعه، وله بها مدرستان، شافعية ومالكية، وعليهما وقف جيد أيضًا وبني بمدينة الرها مدرسة، وكان كثير الإحسان إلى العلماء"[٥].

ويعتبر تقي الدين عمر هذا هو أول من تولى حكم مملكة حماة من أبناء البيت الأيوبي، حيث ولاه عمه صلاح الدين حكم حماة عام ٥٧٤هـ/١١٧٨م[٦]. واستمر حكم حماة في ذريته حتى وفاة الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي الأيوبي في ٢٢ شهر ذي القعدة عام ٦٩٨هـ/ ٢١ أغسطس ١٢٩٩م، حيث

بالديار المصرية إلى حين وفاته عام ٥٦٨هـ/١١٧٣م. انظر: المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٥م.

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٥٦-٤٥٧؛ ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق : جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤م، ص٧٣-٧٤؛ العماد الكاتب الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق : محمد صبيح، القاهرة ٢٠٠٣م، ص٥٥٦-٥٧٠؛ الحنبلي: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق : ناظم رشيد، العراق ١٩٧٨م، ص٢٣٤-٢٣٥.

- ولد تقي الدين عمر عام ٥٣٤هـ/١١٣٩م، وتوفى عام ٥٨٧هـ/١١٩١م. ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٥٧.
- منازل العز : كانت متنزهًا للفاطميين، تقع على شاطئ النيل، اسكنها صلاح الدين الأيوبي لابن أخيه تقي الدين عمر، ثم اشتراها الأخير من بيت المال عام ٥٦٦هـ/١١٧٦م، وعندما عزم الأخير على ترك الديار المصرية والاستقرار ببلاد الشام عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م جعلها مدرسة. انظر : ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار، نشر مطبعة بولاق، مصر عام ١٣١٠هـ، ص٩٣؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، نشر مطبعة بولاق، مصر عام ١٢٧٠هـ، ج١، ص٤٨٤.

(٦) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، نشر المطبعة الحسينية، مصر د.ت، ج٣، ص٦١؛ القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نشر دار الكتب المصرية د.ت، ج٤، ص١٧٣؛ انظر أيضًا : زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة : زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة ١٩٥١م، ج١، ص١٥٣.

- يذكر ابن خلكان أن صلاح الدين أعطى حماة لتقي الدين عمر في ٢٣ شعبان عام ٥٨٢هـ، انظر: وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٥٧.

خرجت حماة من حكم البيت الأيوبي عندما عهد السلطان الناصر محمد بنيابة حماة إلى الأمير قرة سنقر المنصوري، في أوائل ذي الحجة من نفس العام[٧].

استمر حكم حماة خارجًا عن يد أبناء البيت الأيوبي إحدى عشر سنة وخمسة أشهر وسبعة عشر يومًا، وبعدها عادت مرة أخرى إلى البيت الأيوبي عندما أصدر السلطان الناصر محمد تقليدًا بحكمها إلى الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا بن الملك الأفضل نور الدين علي في ١٨ جمادي الأولى عام ٧١٠هـ/ ١٤ أكتوبر عام ١٣١٠م[٨]. ويضيف القلقشندي[٩] أن عماد الدين إسماعيل تولى حكم حماة هذه المرة " على عادة من تقدمه فيها من الملوك الأيوبيين " وذلك لأنه كانت لملوك بني أيوب الذين حكموا حماة قبله رسوم خاصة بهم، حيث ضربوا السكة باسمهم إلى جانب اسم السلطان، وكذلك خطبوا باسمهم إلى جانب اسم السلطان.

---

(٧) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٦١؛ ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر، المعروف باسم تاريخ ابن الوردي، تحقيق: أحمد رفعت البدراوي، بيروت ١٩٧٠م، ج٢، ص٣٥٢؛ النويري : نهاية الإرب في فنون الأدب، ج٣١، تحقيق : السيد الباز العريني، القاهرة ١٩٩٢م، ص٣٧٩.

- حكم حماه من ذرية تقي الدين عمر خمسة حكام هم على التوالي : الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر (٥٨٧-٦١٧هـ/١١٩١-١٢٢٠م)، الملك الناصر صلاح الدين قليج أرسلان بن المنصور محمد (٦١٧-٦٢٦هـ/١٢٢٠-١٢٢٩م)، الملك المظفر محمود بن المنصور محمد (٦٢٦-٦٤٢هـ/١٢٢٩-١٢٤٤م)، الملك المنصور محمد بن المظفر محمود (٦٤٢-٦٨٣هـ/١٢٤٤-١٢٨٤م)، الملك المظفر محمود بن المنصور محمد (٦٨٣-٦٩٨هـ/١٢٨٤-١٢٩٩م). انظر: أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٨٠، ٨١، ١٢٦، ١٤٣، ١٧٣، ج٤، ص١٩، ٤١؛ انظر أيضًا : زامباور : معجم الأسرات، ج١، ص١٥٣-١٥٤.
- قرة سنقر المنصوري الأمير سيف الدين، يقول عنه ابن تغري بردي أنه نُسب إلى الملك المنصور قلاوون، رقاه إلى أن جعله أمير مائة، ومقدم ألف بالديار المصرية، ثم ولاه نيابة حماة، ثم نقله إلى نيابة حلب، ثم صار نائبًا للديار المصرية، واستمر يلي مثل تلك الوظائف إلى أن وقعت بينه وبين السلطان الناصر محمد عدة خلافات، غادر على أثرها سلطنة المماليك ولجأ إلى دولة مغول فارس، واستمر بها حتى وفاته عام ٧٢٨هـ/١٣٢٨م. انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ٢٠٠٢م، ج٩، ص٤٧-٤٨. وقد وصفته المصادر بأنه كان " ذو همة عالية، ومعرفة، وتدبير ودهاء "، انظر : ابن حبيب: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٢م، ج٢، ص١٨٣؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ق١، ص٣٠٥.

(٨) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، تحقيق: حمزة أحمد عباس، أبو ظبي، ٢٠٠٧م، ج٢، ص١٣٢٢-١٣٢٣؛ أبو الفدا : المختصر، ج٤، ص٦١.

(٩) صبح الأعشى، ج٤، ص١٧٣.

أما عماد الدين إسماعيل أبو الفدا هذا فهو ابن الملك الأفضل علي بن الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شادي، ولد في شهر جمادى الأولى عام ٦٧٢هـ/ نوفمبر ١٢٧٣م بدمشق في دار ابن الزنجبيلي ونشأ وتربى بها[١٠]، وتلقى تعليمه بحماة وحلب ودمشق، فقد كان والده الملك الأفضل يتنقل بين هذه المدن الثلاث، حيث كان أخوه الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي محمد هو الذي يتولى حكم حماة (٦٤٢-٦٨٣هـ/١٢٤٤-١٢٨٤م)[١١]، ومن بعده تولى حكم حماة ابنه الملك المظفر محمود (٦٨٣-٦٩٨هـ/١٢٨٤-١٢٩٩م)[١٢]، وخلال ذلك كان الملك الأفضل علي والد عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، يقوم على خدمة أخيه وابن أخيه يعاونهما في حكم حماه[١٣].

وعلى هذا النحو نشأ عماد الدين إسماعيل أبو الفدا في بيت اشتهر بالاهتمام بالعلم، فقد ورث بنو أيوب منذ أيام جدهم الأكبر السلطان صلاح الدين الأيوبي، فضيلة العلم، والاهتمام بأهله، وأنشأ الكثير منهم المدارس ودور العلم، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة، وتبوأ بعضهم مكانة عالية بين علماء ذلك العصر[١٤].

---

(١٠) يقول أبو الفدا أن سبب ميلاده بدمشق يعود إلى أن معظم أبناء البيت الأيوبي الذين كانوا بحماة رحلوا عنها، وهاجروا إلى دمشق بسبب هجوم المغول عليها. انظر : المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٨؛ انظر أيضًا: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص٤٥٩.

(١١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، نشر وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، حيدر أباد ١٩٦٠م، ج٤، ص٢٣٦.

(١٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٤١؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، نشر المكتب التجاري، بيروت د.ت، ج٥، ص٤٤٢-٤٤٣.

(١٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢١٩، ج٤، ص١٨-١٩.

(١٤) على سبيل المثال كان جد عماد الدين إسماعيل، الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب (٥٨٧-٦١٧هـ/١١٩١-١٢٢٠م) الذي وصف في المصادر بأنه كان شجاعًا عالمًا، يحب العلماء، ورد إليه منهم جماعة كثيرة، وكان في خدمته قريب مائتي معمم من النحاة والفقهاء ومن بينهم الطبيب المشهور موفق الدين عبدالسلام، وصنف عدة مصنفات مثل " المضمار " في التاريخ، و" طبقات الشعراء ". انظر: محمد تقي الدين شاهشاه : مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق : حسن حبشي، القاهرة ٢٠٠٧م، ص٧-١٢؛ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نشر دار الثقافة، بيروت ١٩٨١م، ج٣، ص٤٣٢؛ الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص٣٣٧-٣٣٨. كذلك جده الملك المظفر تقي الدين محمود بن الملك المنصور (٦٢٦-٦٤٢هـ/١٢٢٩-١٢٤٤م)، الذي وصفه ابن واصل بقوله : " كان له ميل إلى من عنده فضل ومعرفة، ورد إليه الشيخ علم الدين قيصر بن أبي القاسم (المعروف بتعاسيف) المهندس الفاضل في العلوم الرياضية فأحسن إليه وقربه، وولاه تدريس المدرسة الحنفية النورية بحماة، وكان يقترح عليه أمورًا علمية وآلات رياضية ". مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق : حسنين محمد ربيع،

والمعروف أن الحركة العلمية بمصر والشام نشطت نشاطًا كبيرًا خلال العصر الأيوبي، حيث انتشرت المدارس بكل الأنحاء على مختلف المذاهب الدينية(١٥)، واكتظت تلك المدارس بالعلماء والدارسين(١٦)، وبعد أن بسط المماليك نفوذهم على مصر والشام ساروا على نهج بني أيوب في إنشاء المدارس وتشجيع وفود العلماء إليها وإجزال العطاء لهم، ووقف الأوقاف السنية للإنفاق منها على تلك المدارس(١٧)، مما أدى إلى ازدهار الحركة العلمية في تلك الفترة ازدهارًا كبيرًا.

في تلك البيئة العلمية انغمس عماد الدين إسماعيل في الدرس والعلم، حيث نال قدرًا كبيرًا من التعليم على يد عدد كبير من علماء عصره، ونبغ في كثير من العلوم(١٨)، ويذكر ابن تغري بردي أنه " حفظ القرآن العزيز، وعدة كتب، وبرع في الفقه والأصول والعربية، والتاريخ والأدب والطب والتفسير والميقات والمنطق والفلسفة "(١٩).

ويؤكد معاصره ابن أيبك الصفدي، أن "أجود ما كان يعرفه علم الهيئة لأنه أتقنه"(٢٠)، ويزيد ابن حجر على ذلك بقوله: " فاق في علم الهيئة "(٢١).

القاهرة ١٩٧٧م، ج٥، ص٣٤٣-٣٤٤؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص١٧٣.

وعن الأوقاف التي أوقفها بني أيوب على دور العلم ببلاد الشام وأثرها في الازدهار العلمي، انظر :

Amal Hamed Azyan : The role of Endowments in The scintific prosperity of Maqdis in Ayyubid Age, in International Research Journal of Sciences, V.I, September 2012, pp. 39-48.

(١٥) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس، ج١، ص٣٣٠، ٥٧٩؛ ج٢، ص٧٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٢٢٨.

(١٦) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة ١٩٧٠م، ص١٥٩-١١٠؛ عبداللطيف حمزة: الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، القاهرة ١٩٩٩م، ص٨٧-١٤٠.

(١٧) المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٢، ص٣٣١-٤٠٤؛ انظر أيضًا: محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، القاهرة ١٩٨٠م، ص٣٣٣-٣٧٥؛ حامد زيان : الإسكندرية منارة للعلم في البحر المتوسط عصر المماليك، مقال في كتاب مصر وعالم البحر المتوسط، القاهرة ١٩٨٦م، ص٢٦١-٢٦٢.

(١٨) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٦م، ج١، ص٣٩٧.

(١٩) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ص٢٩٢-٢٩٣.

(٢٠) كتاب الوافي بالوفيات: تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت ٢٠٠٠م، ج٩، ص١٠٤؛ أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: فالح أحمد البكور، بيروت ١٩٩٨م، ج١، ص٣٠٤.

- علم الهيئة : هو علم الفلك، وهو علم يبحث عن أصول الأجرام السماوية، وعلاقة

إن الفترة التي عاصرها عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، تعد فترة ازدهار لعلم الفلك في العالم الإسلامي، فبعد أن اتخذ هولاكو أذربيجان عاصمة لمملكته في الشرق[٢٢]، عهد إلى العالم الفلكي نصير الدين الطوسي بإقامة مرصد كبير في مدينة مراغة عام ٥٦٧هـ/١٢٥٩م[٢٣]، وفعل نفس الشيء تيمورلنك بعد استقراره بسمرقند عام ٧٧١هـ/١٣٦٩[٢٤]، حيث جمع حوله فريقًا كبيرًا من علماء الفلك على رأسهم الخواجة

بعضها ببعض، ومالها من تأثير في الأرض. انظر: المعجم الوسيط، نشر مجمع اللغة العربية، القاهرة ١٩٨٥م، ج٢، ص١٠٤٣.

(٢١) ابن حجر : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧.

(٢٢) ابن العميد : أخبار الأيوبيين، نشر Cloude Cahen في :
Bulletin d'etudes Orientales, Tom XV, Paris, 1955-57, p. 175;
أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف باسم : الذيل على الروضتين، عني بنشره السيد عزت العطار الحسني، بيروت ١٩٤٧م، ص٢٠٧.

- هولاكو خان هو ابن تولوي خان بن جنكيزخان، تولى قيادة الحملة الموجهة إلى الشرق واستطاع السيطرة على إيران وآسيا الصغرى وبلاد الشام، وبعد هزيمة جيوشه في عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، تراجع إلى إيران حيث أسس دولة عرفت باسم الدولة الإيلخانية، نسبة إلى كلمة " إيل " المغولية، بمعنى المطيع، أي المطيع للخان، توفى هولاكو عام ٦٦٢هـ/١٢٦٥م. انظر : رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ، ترجمة = محمد صادق نشأت وآخرين، القاهرة ١٩٦٠م، مجلد ٢، ج١، ص٢٣٦-٢٣٧؛ انظر أيضًا: فؤاد عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، الدوحة ١٩٨٧م، ص٢٧-٢٨.
- أذربيجان : تقع جنوب إقليم القوقاز بين قهستان وآران، انظر : القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٩م، ص٢٨٤-٢٨٥.

(٢٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٢، ص٤٢١.

- نصير الدين الطوسي : هو نصير الدين محمد بن الحسن الطوسي، ولد عام ٥٩٧هـ/١٢٠١م بطوس، نبغ في علم الفلك، كان شيعيًا على مذهب الأئمة الاثنى عشرية، خدم الإسماعيلية بقلعة الموت، ثم انتقل بعد سقوط دولتهم إلى خدمة هولاكو خان، حيث نال قدرًا كبيرًا من احترامه، توفى عام ٦٧٢هـم١٢٧٣م. انظر : كتاب الحوادث المعروف باسم الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق : بشار عواد، بيروت ١٩٩٧م، ص٤١٦-٤١٧؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٥، ص٣٣٩-٣٤٠.

(٢٤) خواندمير : دستور الوزراء، تحقيق حربي أمين سليمان، القاهرة ١٩٨٠م، ص٣٩٢.

- تيمور (لنك): يعود أصله إلى بلاد ما وراء النهر، ولد عام ٧٣٦هـ/١٣٣٦م في قرية خواجا إيلغار من أعمال مدينة كش إحدى مدن بلاد ما وراء النهر، أبوه طراغاي (تارجي) ينتمي إلى قبيلة برلاس إحدى القبائل التركية المسلمة، وأمه الخاتون تكينة من = = سلالة جنكيزخان، ومعنى ذلك أن تيمور يجمع بين السلالة التركية والسلالة

علي بن المؤيد الطوسي[٢٥].

ولاشك في أن تبحر عماد الدين أبوالفدا في علم الهيئة (علم الفلك)[٢٦]، هو الذي ساعده مساعدة كبيرة في أن يؤلف كتابه في البلدان، المعروف باسم " تقويم البلدان "، كما سيرد فيما بعد.

ولم يقتصر تبحر عماد الدين إسماعيل على علم الهيئة، وإنما " شارك في سائر العلوم مشاركة جيدة، على رأي ابن أيبك الصفدي "[٢٧]، ومن بين تلك العلوم التي برع فيها عماد الدين إسماعيل، الطب، وقد أشار عماد الدين إسماعيل أبو الفدا إلى قيامه بمداواة وعلاج ابن عمه الملك المظفر محمود حاكم حماة عام ٦٩٧هـ/١٢٩٨م، عندما كان محاصراً لمدينة حموص أثناء غزوته للأرمن[٢٨]، وأصاب الملك المظفر مرض ولم يكن بصحبته طبيب، فقام أبو الفدا بمدواته ووصف بعض الأدوية له، وقد آتت هذه الوصفات الطبية مفعولاً طيبًا، حيث تم شفاء الملك المظفر، مما دفع المظفر إلى أن ينعم على عماد الدين إسماعيل أبو الفدا ويحسن إليه " على جاري عادته " كما يقول أبو الفدا[٢٩].

كذلك مما يوضح مدى مهارته في صناعة الطب، ما حدث عندما حضر إلى القاهرة وبصحبته ابنه الملك الأفضل محمد[٣٠]، فمرض ذلك الولد، فما كان من السلطان الناصر محمد

المغولية، أضيف إلى اسمه كلمة لنك أو لانج، وهي كلمة فارسية بمعنى الأعرج، وذلك لإصابته بعرج في رجله اليمنى، وتيمور كلمة تركية بمعنى الحديد. انظر: ابن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور، تحقيق: أحمد فايز الحمصي، بيروت ١٩٨٦م، ص٣٩-٤٩؛ القرماني: أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق: أحمد حطيط، بيروت ١٩٩٢م، ج٢، ص٥٠٠.

(٢٥) يقول ابن عربشاه عن علي بن المؤيد الطوسي، إنه كان رجلاً شيعيًا ينتمي إلى طائفة الاثنى عشرية، شهمًا شجاعًا، انظر: عجائب المقدور، ص٧٩.

(٢٦) الذهبي: ذيول العبر في خبر من غبر، تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد، بيروت د.ت، ج٤، ص٩٢.

(٢٧) الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤.

(٢٨) النويري: نهاية الإرب في فنون الأدب، ج٣١، ص٣١، ص٣٤؛ مفضل بن أبي الفضائل: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر بلوشه، في:

Patrologia Orientalis, Tom 14, Paris 1920.

- حموص: قلعة تقع شرقي تل حمدون. انظر: النويري: نهاية الإرب، ج٣١، ص٣٤٠، هامش ٢.

(٢٩) المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٣٥-٣٦.

(٣٠) هو الملك الأفضل محمد ناصر الدين، تولى حكم حماة بعد وفاة والده عماد الدين إسماعيل أبو الفدا عام ٧٣٢هـ/١٣٣٢م. انظر: ابن أيبك الدوداري: كنز الدرر وجامع الغرر، ج٩، المعروف باسم الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: هانس روبرت رويمر، القاهرة

إلا أن أمر جمال الدين بن المغربي رئيس الأطباء بملازمته لعلاج ابنه المريض[٣١]، فلازمه ليلاً ونهارًا، وتروي المصادر أن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا : كان يبحث معه في تشخيص ذلك المرض، ويقرر معه الدواء، ويباشر طبخه بيده، حتى كان ابن المغربي يقول : والله لولا أمر السلطان ما لازمته فإنه لا يحتاج إليّ "[٣٢].

وعندما يقرر رئيس الأطباء وهو الذي من شأنه الإشراف على الأطباء، والمسئول عن مستواهم الطبي[٣٣]، أن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا قادر بمفرده على مداواة المرضى وتقرير الدواء وإعداده لهم؛ فهذا يعني شهادة معتمدة بأن أبي الفدا قد انضم إلى زُمرة الأطباء المهرة الذين اشتهروا في ذلك العصر.

لم يقتصر علم عماد الدين إسماعيل أبو الفدا على الفلك والطب فقط، وإنما تعداه إلى غيره من العلوم، من ذلك تبحره في الفقه، فقد درس كتاب "الحاوي" في الفقه لفقيه الشافعية المشهور أبو الحسن الماوردي[٣٤]. وقام بنظمه شعرًا[٣٥]، ويؤكد معاصروه على

٢٠٠١م، ص٤٦٤-٤٦٥.

- اعتاد عماد الدين إسماعيل أبو الفدا الحضور إلى القاهرة لزيارة السلطان الناصر محمد، حاملاً معه مختلف الهدايا. انظر : ابن أيبك الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤؛ الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، وضع حواشيه محمد أحمد عبدالعزيز سالم، بيروت ٢٠٠٧م، ج١، ص١٠٢.

(٣١) جمال الدين ابن المغربي : هو إبراهيم بن أحمد، رئيس الأطباء بالديار المصرية المعروف بابن المغربي، نال حظوة كبيرة عند السلطان الناصر محمد، وكان الناصر يروي له أسراره خاصة مع حريمه، وحاول الكثير من الأمراء الإيقاع به عند السلطان الناصر لكنهم لم يفلحوا في ذلك، توفى عام ٧٥٦هـ/١٣٥٥م. انظر: ابن أيبك الصفدي : أعيان العصر وأعوان النصر، ج١، ص٢٩-٣٠.

(٣٢) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٨؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٧٣م، ج١، ص١٨٥.

(٣٣) يقول السمحاوي واصفًا رئيس الأطباء: " هو أعلم أهل زمانه بهذه الصناعة، وأحذقهم وأعرفهم بالعلاج ". انظر : الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم، المعروف باسم: المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشا للخالدي، تحقيق : أشرف محمد أنس، القاهرة = = ٢٠٠٦م، ج١، ص٤٢٢. وعن مهام رئيس الأطباء، انظر : ابن الأخوة " معالم القربة في أحكام الحسبة، عني بنقله وتصحيحه روبن ليوي، كمبردج ١٩٣٨م، ص١٦٥-١٦٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٤٦٧؛ انظر أيضًا : أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دمشق ١٩٣٩م، ص٢٤.

(٣٤) أبو الحسن الماوردي : هو علي بن محمد بن حبيب المصري، الماوردي الشافعي، من أشهر علماء القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، له عدة مؤلفات أهمها " الحاوي " في الفقه، وكتاب " تفسير القرآن "، وكتاب " الأحكام السلطانية "، وكتاب " قانون الوزارة وسياسة الملك ". حمل لقب " أقضى القضاة " لُقب به في سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٨م، وتولى

أنه "لو لم يعرفه جيدًا ما نظمه"[٣٦]، مما يدل على مدى تبحره في علم الفقه، ودفع ذلك بعض المؤرخين إلى نعته بأنه كان "إمامًا جليلاً"[٣٧].

بالإضافة إلى ذلك كان لعماد الدين إسماعيل أبو الفدا مؤلفات في علوم أخرى مثل كتاب " الموازين " وكتابه المشهور في التاريخ " المختصر في أخبار البشر "، وفي جغرافية البلدان: " تقويم البلدان "[٣٨]. كما كان له مؤلفات أخرى وأشعار كثيرة وعدة موشحات[٣٩]. ويجمل ابن تغري بردي العلوم التي برع فيها عماد الدين إسماعيل بقوله: "وبرع في الفقه والأصول والعربية والتاريخ والأدب والطب والتفسير والميقات والمنطق والفلسفة "[٤٠]. وقد نبغ في تلك العلوم أو على حد تعبير ابن العماد الحنبلي: " تفنن فيها "[٤١].

وهكذا نبغ عماد الدين إسماعيل أبو الفدا في العديد من العلوم والمعارف، ولم يقتصر دوره فقط على التحصيل والدرس، وإنما تعداه إلى التأليف في علوم شتى، وبلغت مؤلفاته درجة كبيرة من الإجادة، لدرجة دفعت بعض المؤرخين إلى وصفه بأنه " كان أعجوبة أعاجيب الدنيا "[٤٢]. وعلى هذا النحو كان لعماد الدين إسماعيل أبو الفدا دور كبير في دفع عجلة الحضارة الإنسانية.

ومن الجدير بالذكر أن معاصره ابن أيبك الصفدي، قرر أنه كانت لدى عماد الدين مكتبة ضخمة ضمت صنوف عديدة من الكتب، انتقاها بعناية فائقة، وعلى حد قول ابن أيبك " أمده على اقتنائها انتقاؤه وفطانته، فمنها الجواهر القيمة، والزواهر التي هي في أفقه مقيمة ". وبعد وفاته تولى ابنه الملك الأفضل توزيع هذه الكتب على أصدقاء والده،

القضاء في بلدان كثيرة، وفي أواخر أيامه أقام ببغداد حيث توفي بها عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، بعد أن بلغ ستًا وثمانين عامًا. انظر: ياقوت الحموي : معجم الأدباء، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٨م، ج١٥، ص٥٢-٥٥؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت ١٩٨٤م، ج١٨، ص٦٤-٦٨؛ انظر أيضًا : أحمد أمين : ظهر الإسلام، القاهرة ١٩٤٥م، ص٢٢٥.

(٣٥) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤.

(٣٦) ابن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤.

(٣٧) المرتضى الزبيدي : ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب، تحقيق : صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٧١م، ص٥٦.

(٣٨) أحمد الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص٤٦١؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤.

(٣٩) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧.

(٤٠) النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٢-٢٩٣.

(٤١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٦، ص٩٨.

(٤٢) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٦، ص٩٩.

كما أنه وقف بعضًا منها[٤٣].

وهكذا كانت حياة عماد الدين إسماعيل مليئة بالأحداث السياسية، وفي نفس الوقت نتيجة حبه للعلم والدرس أحب العلماء[٤٤]، ولم يتردد في إجزال العطاء لهم، فهذا هو جمال الدين محمد بن نباتة، الذي أجرى له راتبًا سنويًا، سوى ما كان " يتحفه به إذا قدم عليه "[٤٥]. لأن ابن نباته لم يكن مقيمًا بحماة، وإنما كان مقيمًا بدمشق، ويذكر الصفدي أنه رتب لجمال الدين بن نباته ستمائة درهم كل عام[٤٦]. وقد مدحه ابن نباتة بقصائد كثيرة[٤٧].

وسيرًا على سياسة أبو الفدا في الإغداق على العلماء، تلك الأموال والهدايا التي منحها لرئيس الأطباء جمال الدين بن المغربي، بعد أن شفى ولده الملك الأفضل محمد، فيذكر ابن حجر العسقلاني أنه " أعطاه فرسًا بكنبوس زركش، وعشرة آلاف، واعتذر إليه مع ذلك، ووعده أنه إذا توجه إلى حماة يكافيه "[٤٨].

تمتع عماد الدين إسماعيل أبو الفدا بخلق طيب، فقد أجمع المؤرخون على وصفه بأنه كان ذو " مكارم وفضيلة تامة "[٤٩]. " وجامعًا للفضائل "[٥٠]، ولاشك في أنه كان لنشأته الأولى أثر كبير في ذلك، فقد شب في وسط أسرة تحلت بكل أوصاف الخلق

---

(٤٣) أعيان العصر وأعوان النصر، ج١، ص٣٠٤، ٣٠٥.
أمَدَّه بمعنى أعانه بمدد. انظر: المعجم الوسيط، ج٢، ص٨٩٢.

(٤٤) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي : ج٢، ص٤٢٣.

(٤٥) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج١، ص١٨٣؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٨؛ الشوكاني : البدر الطالع، ص١٠٢.

- جمال الدين محمد بن نباتة هو محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن صالح بن علي = = ابن نباتة، الفارقي الأصل المصري المولد، ولد في زقاق القناديل بالفسطاط عام ٦٨٦هـ/١٢٨٧م، ونشأ بالديار المصرية، وتعلم بها، ثم رحل إلى الشام حيث اتصل بملوكها خاصة الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة، وأخذ يتردد على حلب ودمشق وطرابلس، وفي أخر أيامه استقر بدمشق، توفى عام ٧٦٨هـ/١٣٦٧م بالقاهرة. انظر : ابن قاضي شهبة : تاريخه، تحقيق : عدنان درويش، دمشق ١٩٩٤م، المجلد الثالث، الجزء الثاني، ص٢٠٣-٢٠٥؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٣٩-٣٤٠؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ص٩٣-١٠٦.

(٤٦) الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤.

(٤٧) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٨.

(٤٨) الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٩.

(٤٩) الذهبي : ذيول العبر في خبر من غبر، ج٤، ص٩٣؛ ابن أيبك الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٨؛ ابن سباط : صدق الأخبار المعروف بتاريخ ابن سباط، تحقيق : عمر عبدالسلام، بيروت ١٩٩٣م، ج٢، ص٦٥١.

(٥٠) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٣.

القويم[٥١]، وقد انعكس ذلك على كافة تصرفات عماد الدين إسماعيل أبو الفدا أثناء فترة شبابه حيث كان أميرًا بدمشق، فأحبه الجميع[٥٢].

منذ عام ٦٩٨هـ/١٢٩٩م بعد وفاة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماة، وخروج حماة عن يد ملوك البيت الأيوبي بتولية الأمير قره سنقر المنصوري حكمها[٥٣]، استقر الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا بدمشق، حيث صار من جملة أمراء دمشق[٥٤]، وكان له من العمر في ذلك الوقت ستة وعشرون عامًا، حيث بلغ من النضج مبلغًا كبيرًا وأثقله ما حصله من العلوم، ولذلك أخذ يشارك مشاركة فعالة في أحداث عصره.

شارك عماد الدين إسماعيل في صباه في الأحداث السياسية المعاصرة له، كما شارك في بعض المعارك، مثل مشاركته عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م - وكان عمره آنذاك اثنى عشر سنة - في فتح حصن المرقب زمن السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م)، ويقول أبو الفدا : " يقول العبد مؤلف هذا المختصر، إنني حضرت حصار الحصن المذكور وعمري إذ ذاك اثنى عشر سنة، وهذا أول قتال رأيته، وكنت مع والدي "[٥٥].

كما شارك في مطلع شبابه في الكثير من المعارك، مثل مشاركته عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م في فتح عكا، وكان آن ذاك يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا حيث كان أمير عشرة "[٥٦].

---

(٥١) مدح المؤرخون معظم أفراد أسرة تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي حكام حماة. انظر : أحمد ابن إبراهيم الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص٣٩٨-٤٠٦، ص٤٣٩-٤٤٥.

(٥٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٣.

(٥٣) أبو الفدا : المختصر، ج٤، ص٦١؛ النويري : نهاية الأرب، ج٣١، ص٣٧٩.

(٥٤) ابن تغري : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٣.

(٥٥) المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢١.

وعن فتح حصن المرقب، انظر : ابن ايبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن المعروف باسم : الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق : أولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١م، ص٢٦٨-٢٧٠.

- المرقب : يقول ياقوت الحموي : " هو اسم بلدة وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام – البحر المتوسط – وعلى مدينة بُلُنياس ". انظر: معجم البلدان، ج٥، ص١٠٨.
- المنصور قلاوون : هو السلطان المنصور قلاوون اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب بألف دينار، ولذلك سمي بالألفي، تولى السلطنة عام ٦٧٨هـ/١٢٩٩م. واستمر في السلطنة إلى حين وفاته عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م. انظر : الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهر والأعلام، تحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت ٢٠٠٥م، ج١٤، ص٦٩٠-٦٩١.

(٥٦) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٢٤.

- أمير عشرة : مرتبة حربية خاصة بأرباب السيوف، يكون صاحبها مقدمًا على عشرة

كذلك مشاركته عام ٦٩١هـ/١٢٩٢م وعمره تسعة عشر عامًا في الحصار الذي فرضه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م) على قلعة الروم، يقول أبو الفدا : " وهذا الحصار أيضًا من جملة الحصارات التي شاهدتها "(٥٧). كذلك شارك عام ٧٠١هـ/١٣٠٢م، في الحملة التي توجهت إلى سيس فيقول : " وورد الأمر إلى زين الدين كتبغا نائب السلطنة بحماة أن يسير بالعساكر إلى بلاد السيس فخرج كتبغا المذكور من حماة، وخرجنا صحبته في يوم السبت الخامس والعشرين من شوال من هذه السنة (٧٠١هـ)"(٥٨)، كما شارك في المناوشات والمعارك التي وقعت مع السلطان محمود غازان خان الدولة الإيلخانية(٥٩).

والمعروف أنه في تلك الفترة كان السلطان الناصر محمد يمر بضائقة شديدة، حيث وقع فريسة صراع مرير بين أمراء المماليك، رغبة منهم في الاستئثار بالسلطة، وذلك لصغر سنه حيث كان يبلغ من العمر آنذاك اثنى عشر عامًا، ووصل الأمر بهؤلاء الأمراء أن حجروا وضيقوا عليه، الأمر الذي دفعه إلى الهروب من مصر عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م فتظاهر بالذهاب إلى الحج وتوجه إلى حصن الكرك، فما كان من أمراء المماليك إلا أن خلعوه من السلطنة، ولولا مكانه الأمير سلار الذي اعتذر وعرضها على الأمير بيبرس الجاشنكير(٦٠).

فرسان، وربما كان له عشرون، لكن يعد في أمراء العشرات. انظر : القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٤، ص١٥.

(٥٧) المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٢٧.
- قلعة الروم : قلعة حصينة تقع غربي الفرات، مقابل البيرة، بينها وبين سميساط. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣٩٠.

(٥٨) المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص٤٣.
- سيس: يقول أبو الفدا: " بلدة كبيرة ذات قلعة بأسوار ثلاثة على جبل مستطيل، ولها بساتين وشهر صغير وهي قاعدة الثغور الشمالية ". تقويم البلدان، ص٢٩٢؛ انظر أيضًا: كي لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس وآخرون، بيروت ١٩٨٥م، ص١٧٣.

(٥٩) الإيلخانيون : يرجع إطلاق اسم الإيلخانيين على هذه الدولة إلى كلمة " آيل المغولية "، بمعنى المطيع للخان. انظر فؤاد عبدالمطي الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص٢٨؛ حامد زيان : المماليك التاريخ السياسي، القاهرة ٢٠١١م، ص٧١.
- السلطان محمود غازان : تولى حكم المغول بفارس عام ٦٩٤هـ/١٢٦٤م. ثم اعتنق الإسلام وتسمى باسم محمود، وجعل الإسلام دينًا رسميًا لدولة مغول فارس، واستمر في الحكم إلى وفاته عام ٧٠٣هـ/١٣٠٤م. البرزالي : المقتفي على كتاب الروضتين، المعروف باسم تاريخ البرزالي، تحقيق: عمر عبدالسلام، بيروت ٢٠٠٦،، ج٢، ص٢٠٧-٢٢١؛ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة والتحارب النافعة، ص٥٢٢.

(٦٠) المقريزي : السلوك، ج٢، ق١، ص٤٣-٤٥؛ انظر أيضًا : حامد زيان : المماليك، التاريخ

رفض الكثير من الأمراء ما آل إليه مصير السلطان محمد وخلعه من السلطنة، وتولية بيبرس الجاشنكير سلطنة المماليك في مصر والشام، فآثر الكثير منهم معاضدته والذهاب إليه في الكرك، وكان من بين هؤلاء الأمير عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، الذي اظهر إخلاصًا شديدًا له وقدم إليه خدمات جليلة(٦١).

وهكذا ارتبط الأمير عماد الدين إسماعيل أبو الفدا برباط المحبة والصداقة مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وخاصة أثناء إقامة الأخير بالكرك، في الفترة الواقعة بين شهر شوال عام ٧٠٨هـ/ مارس ١٣٠٩م وشهر شعبان عام ٧٠٩هـ/ يناير

السياسي، ص٣٩-٤٠.

- الناصر محمد: هو السلطان الناصر محمد بن المنصور قلاوون، تولى السلطنة بعد مقتل أخيه الأشرف خليل عام ٦٩٣هـ/١٢٩٤م وله من العمر تسع سنوات، مما جعله ألعوبة في أيدي أمراء المماليك، ولذلك عزل أكثر من مرة، وقد تولى الناصر محمد السلطنة ثلاث مرات الأولى بين عامي (٦٩٣-٦٩٤هـ/١٢٩٣-١٢٩٤م)، والثانية بين عامي (٦٩٨-٧٠٨هـ/١٢٩٨-١٣٠٨م)، والثالثة بين عامي (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م). انظر: ابن أيبك الدواداري: الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، ص٣٥٢-٤٠٠؛ الدر الفاخرة في سيرة الملك الناصر، ص٦-١٨٩.
- حصن الكَرَكُ: قلعة حصينة جدًا في طرف الشام من نواحي البلقاء، بين أيلة وبحر القُلزم – البحر الأحمر – وبيت المقدس. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣٥٣.
- الأمير سلار: هو الأمير سيف الدين سلار بن عبدالله المنصوري، تركي الجنس، كان أبوه أحد الأمراء عند صاحب الروم ووقع في أسر الظاهر بيبرس في موقعة الإبلستين عام ٦٧٠هـ/١٢٧٧م، ثم اشتراه قلاوون، وترقى وصار من أعيان السلطنة المملوكية، وتولى العديد من الوظائف، توفى عام ٧١٠هـ/١٣١٠م. انظر: ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٦، ص٥-١٣.
- بيبرس الجاشنكير: هو بيبرس البرجي العثماني الجاشنكير، من مماليك المنصور قلاوون، ترقى إلى أن قرره قلاوون جاشنكير – أي الأمين على تذوق الأطعمة والمشروبات – تولى السلطنة عام ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، وتلقب بالمظفر ثم تركها على أثر عودة الناصر محمد عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، حيث تم القبض عليه، وانتهى أمره بالقتل في نفس العام. انظر: البرزالي: المقتفي على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي، ج٣، ص٤٠٣-٤٤٨؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٢، ص٣٦-٤٠.

(٦١) ابن أيبك الدواداري: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص١٥٦-١٧٢؛ الشوكاني: البدر الطالع، ص١٠١-١٠٢.

١٣١٠م[٦٢]. وخلال تلك الفترة توثقت علاقة عماد الدين إسماعيل أبو الفدا بالسلطان الناصر محمد، حيث قام على خدمته خير قيام، لدرجة أن المؤرخ الصفدي يقول " وبالغ في ذلك "[٦٣].

وكان نتيجة إخلاص عماد الدين إسماعيل أبو الفدا في خدمة السلطان الناصر محمد، أن وعده بحكم حماة[٦٤]، وكما سبقت الإشارة فإن حكم حماة خرج عن يد أبناء تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي، منذ وفاة الملك المظفر تقي الدين محمود عام ٦٩٨هـ/١٣٩٩م.

وفي عام ٧١٠هـ/١٣١٠م وَفى السلطان محمد بوعده لعماد الدين إسماعيل أبو الفدا، حيث أنعم عليه بحكم حماة، فقد أرسل إلى أبي الفدا أثناء إقامته بدمشق تقليدا بنيابة حماة، وصدر هذا التقليد بتاريخ ١٨ جمادي الأولى عام ٧١٠هـ/ ١٤ أكتوبر ١٣١٠م[٦٥]. فتوجه أبو الفدا في نفس اليوم إلى حماة لتولي أمرها بدلاً من الأمير سيف الدين اسندمر[٦٦]. غير

---

(٦٢) الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ص١٠١-١٠٢؛ ابن أيبك : الدواداري : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص١٥٦-١٧٢.
خلال هذه الفترة تم عزل الناصر محمد عن سلطنة المماليك، وأقيم مكانه بيبرس الجاشنكير سلطانًا على مصر والشام. انظر : حامد زيان، المماليك، ص٤٠.

(٦٣) الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤؛ انظر أيضًا : ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٦؛ انظر أيضًا : الموسوعة العربية الميسرة، بيروت ٢٠٠٩م، ج١، ص٦٨.

(٦٤) ابن أيبك الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٦.

(٦٥) النويري : نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٦٥؛ ابن سباط : ج٢، ص٦٠٥.

(٦٦) أبو الفدا : المختصر، ج٣، ص٦٠؛ اليونيني : ذيل مرآة الزمان (حوادث سنوات ٦٩٧-٧١١هـ) أبو ظبي، تحقيق : حمزة عباس، ج٢، ص١٣٢٣؛ البرزالي : المقتفى على كتاب الروضتين، ج٣، ص٤٧٤.

- الأمير سيف الدين اسندمر: عُرف في التاريخ بأنه كان جبارًا سفاكًا للدماء، كما عُرف بحبه للأكل، كما كان يحب الفضلاء، تأمر بدمشق، ثم تولى نيابة طرابلس عام ٧٠١هـ/١٣٠٢م، ثم تولى نيابة حماة بعد خروج الناصر من حصن الكرك عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، لكن حدث خلاف بينه وبين الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى بن مهنا وهو أمير آل فضل والعرب بالشام، مما دفع الأخير إلى الشكوى منه للسلطان الناصر محمد، فأمر السلطان بنقل اسندمر إلى طرابلس وعهد بحكم حماة للملك عماد الدين، فرفض استدمر مغادرة حماة، إلا أن وفاة الأمير سيف الدين قبجق المنصوري نائب حلب، حَلّت المشكلة، حيث غادر حماة متوجهًا إلى حلب رغمًا عن السلطان الناصر، فوافق الناصر، لكنه اضمر له شرًا، حيث تم قتله في ذي القعدة عام ٧٢١هـ/ نوفمبر ١٢٢١م. انظر: ابن أيبك الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، ج١، ص٣٢٢-٣٢٣؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج١، ص٤١٤-٤١٥؛ النويري :

أن عماد الدين لم يستطع الدخول إلى حماة إلا بعد أن غادرها الأمير اسندمر الذي توجه إلى حلب، ليتولى حكمها بدلاً من الأمير سيف الدين قبجق المنصوري الذي وافاه الأجل فوافق السلطان محمد على ذلك، ومن ثم دخل عماد الدين إسماعيل حماة في أواخر جمادي الآخرة من نفس العام وتولى حكمها[٦٧].

وبذلك عادت حماة إلى حكم بيت تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي، أو كما يقول أبو الفدا " عودها إلى البيت التقوي "[٦٨].

ازدادت العلاقة الطيبة بين عماد الدين إسماعيل أبو الفدا والسلطان الناصر محمد، وأخذ أبو الفدا يتردد على السلطان في القاهرة، فيزوره كل عام حاملاً معه مختلف الهدايا[٦٩]. وقد ازدادت محبة السلطان له بسبب ما تحلى به أبو الفدا من أدب وفضائل[٧٠]، مما أدى إلى أن يكرمه السلطان ويعظمه[٧١].

ولما أنس السلطان بأبي الفدا آثر أن يصطحبه معه أثناء حجه عام ٧١٩هـ/ ١٣٢٠م[٧٢]. وخلال هذه الصحبة ازداد تعلق السلطان الناصر محمد بأبي الفدا، لما لمسه

نهاية الأرب، ج٣٢، تحقيق : فهيم شلتوت، القاهرة ١٩٩٨م، ص١٦٥.

(٦٧) النويري : : نهاية الأرب، ج٣٢، ص١٦٥.

- سيف الدين قبجق : هو سيف الدين قبجق المنصوري، أصله من المغول، وقع أسيرًا في يد الظاهر بيبرس عام ٦٧٥هـ/١٢٧٦م، أثناء إغارة المغول على مدينة الابلستين، فأعطاه للمنصور قلاوون، وخشي المنصور قلاوون أن ينحاز إلى المغول، فكان يرفض خروجه إلى الشام، وبعد وفاة المنصور أخذت تعلو مكانته، إلى أن تولى نيابة الشام عام ٦٩٦هـ/١٢٩٧م أثناء سلطنة لاجين ثم حدث خلاف بينه وبين لاجين فر على أثره قبجق إلى بلاد محمد غازان المغولي عام ٦٩٨هـ/١٢٩٩م، واستمر في خدمة غازان، حتى انتصر غازان في موقعة الخازندار على جيوش المماليك، فعهد إليه غازان بنيابة الشام، ثم عاد إلى رشده وانضم إلى أمراء المماليك، وحارب إلى جانبهم ضد غازان في موقعة شقحب، وولاه الناصر محمد نيابة حلب في شوال عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م واستمر بها حتى وفاته في أواخر جمادي الأولى عام ٧١٠هـ/أكتوبر ١٣١٠م. انظر : ابن حجر العسقلاني : الدرر، ج٣، ص٣٢٥-٣٢٧؛ ابن أيبك الصفدي: أعوان العصر وأعوان النصر، ج٣، ص١٤١٦-١٤٢١؛ ابن القفطي : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، ص٥٣٩.

(٦٨) المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص٦٠.

(٦٩) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤؛ ابن أيبك الدواداري : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص٢٤٤.

(٧٠) البرزالي : المقتفي على كتاب الروضتين، المعروف باسم تاريخ البرزالي، ج٢، ص٢٢٨، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٣.

(٧١) ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٤، ص١٥٨.

(٧٢) ابن دقماق : النفحة المسكية في الدولة التركية، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري، بيروت

من كرم وطيب أخلاق ومودة " وعظم في عين السلطان "، على حد قول ابن حجر العسقلاني[٧٣]. ونتيجة ذلك أنعم عليه السلطان - في شهر صفر عام ٧٢٠هـ/ مارس ١٣٢٠م، بعد عودتهما من رحلة الحج وأثناء تواجده بالقاهرة - بلقب المؤيد، وأذن له بأن يخطب له بحماة وأعمالها، وأن يخاطب بالمقام العالي ، المولوي، السلطاني، الملكي، المؤيدي[٧٤].

وهي نفس الألقاب التي كانت لعمه الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي. وتؤكد معظم المصادر أن السلطان الناصر محمد، لم يكتف بأن يمنح عماد الدين إسماعيل حكم حماة، ويجعله مثل سائر النواب حكام مختلف نيابات السلطنة، وإنما " جعله سلطانًا يفعل فيها ما يشاء من إقطاع وغيره، ليس لأحد في الدولة بمصر من نائب ووزير معه حكم "[٧٥]. وهذا لم يتسن لأحد من الأمراء غيره، مما يدل على تلك المكانة العالية التي وصل إليها عماد الدين إسماعيل عند السلطان الناصر محمد.

فما كان من عماد الدين إسماعيل أبو الفدا إلا أن ركب بشعار السلطنة، أثناء وجوده بالقاهرة ومشي من المدرسة المنصورية بين القصرين، حتى صعد إلى القلعة وبين يديه جميع خواص القاضي وسائر الناس، ومشي السلحدار بالسلاح والدويدار الكبير بالدواة والغاشية والعصايب، وجميع دست السلطنة بين يديه[٧٦]. حيث قدم فروض الطاعة

١٩٩٩م، ص١٢٦؛ المقريزي : الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق : جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٥م، ص١٠٢؛ ابن أيبك الدواداري : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص٢٩٥.

(٧٣) الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧.

(٧٤) البرزالي : المقتفي على كتاب الروضتين، ج٤، ص٤١٥؛ الشوكاني : البدر الطالع، ص١٠٢؛ ابن سباط : صدق الأخبار المعروف باسم تاريخ ابن سباط، ج٢، ص٦٣٧.
- يقول القلقشندي أن لقب " المقام " من الألقاب الخاصة بالملوك، صبح الأعشى، ج٥، ص٤٩٣؛ وتذكرالمصادر أن السلطان الناصر محمد لقب عماد الدين إسماعيل أبو الفدا أولاً بلقب الملك الصالح، ثم لقبه بعد ذلك بلقب الملك المؤيد. ابن أيبك الصفدي : أعيان العصر وأعوان النصر، ج١، ص٣٠٣.

(٧٥) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات،ج١،ص١٨٣؛ ابن أيبك الصفدي: أعيان العصر،ج١،ص٣٠٣.

(٧٦) ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧؛ الشوكاني : البدر الطالع، ص١٠٢.
- السلحدارية : لفظ مكون من مقطعين الأول عربي وهو السلاح، والثاني فارسي وهو دار بمعنى الممسك، فيكون المعنى حامل السلاح ويحمل مقدمهم لقب أمير سلاح، وموضوعها حمل السلاح للسلطان في مختلف المجامع، انظر : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٤، ص١٨.
- الدودار : لفظ مركب من مقطعين الأول عربي وهو دواة، والثاني فارسي وهو دار بمعنى ممسك أو حامل الدواة، يتولى هذه الوظيفة عدد من الأمراء، على أن يكون مقدم ألف ويختص صاحب هذه الوظيفة بحمل دواة السلطان أو الأمير، بالإضافة إلى تبليغ الرسائل

والولاء والشكر للسلطان، وبعدها عاد إلى حماة، بعد أن جهز السلطان سائر ما يحتاج إليه[٧٧]، ويقول معاصره البرزالي: " فدخل حماة في أبَّهة السلطنة، وتلقاه الناس وخُطب له "[٧٨].

وقد أشار القلقشندي[٧٩] إلى أن طبيعة حكم عماد الدين إسماعيل لحماة اختلفت عن سائر الحكام الآخرين؛ الذين حكموا مختلف البلاد التابعة لسلطنة المماليك، وقد اعتمد في ذلك على ما ذكره أحد الكُتَّاب المعاصرين له وهو: شهاب الدين أحمد بن يحي العمري (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، الذي أشار إلى أن حاكم حماة، ويقصد بذلك معاصره عماد الدين إسماعيل : " كان يستقل فيها بإعطاء الإمرة والإقطاعات، وتولية القُضاة والوزراء، وكُتَّاب السر وكل الوظائف، ويكتب المناشير والتواقيع من جهته "[٨٠]. وقد أكد على ذلك القلقشندي عندما تحدث عن حماة فقال : " إنها كانت بيد بقايا بني أيوب، يطلق عليهم لفظ السلطنة "[٨١]. وعلى هذا النحو كان عماد الدين إسماعيل سلطانًا مستقلاً يقوم بتولية من يراه صالحًا للإمارة والإقطاعات، ويولي القضاة والوزراء وكُتَّاب السر، وسائر الوظائف الكبيرة، دون أن يعود في ذلك إلى مقر السلطنة في القاهرة، اللهم إلا في الأمور

عن السلطان، وتقديم القصص والبريد إليه. القلقشندي : صبح الأعشى، ج٤، ص١٩.

- الغاشية : قطعة مصنوعة من الجلد موشاه بالذهب، بحيث يظن الناظر إليها أنها كلها ذهبًا، يلقيها حاملها أمام السلطان أو الأمير يمينًا وشمالاً. انظر : القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص١٣٣.
- العصايب : هي غطاء للرأس، عبارة عن قطعة من القماش، كالعمامة. انظر : وليم ماير : الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، القاهرة ١٩٧٢م، ص١٢٦.
- دست السلطنة : يقول القلقشندي أنها وظيفة من أجل الوظائف وأرقاها قدرًا وموضوعها أن يجلس أصحابها بدار العدل أيام المواكب خلف كاتب السر، ويقرأون القصص على السلطان بعد قراءة وكاتب السر ويكتبون عليها بما تقضيه الحال، وكانوا في البداية ثلاثة أشخاص، ثم ازدادوا إلى العشرين. انظر : صبح الأعشى، ج١، ص١٠٤.

(٧٧) الذهبي : ذيول العبر في خبر من غبر، ج٤، ص٥٥، ٩١؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق١، ص٢٠٢؛ ابن أيبك الدواداري : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص٢٩٧م.

(٧٨) المقتفى على كتاب الروضتين، ج٤، ص٤١٥؛ انظر أيضًا : ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧؛ المقريزي : السلوك، ج٢، ق١، ص٢٠٢.

(٧٩) صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨٢-١٨٣.

(٨٠) العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٨٥م، ص٦٦.

(٨١) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٧، ص١٧٧.

الكبيرة التي يشاور فيها السلطان[٨٢].

وهكذا علا شأن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، لدرجة أن الأمراء الكبار كانوا يخاطبونه بلقب " المقام العالي " ويكتبون إليه " يقبل الأرض " مثل الأمير سيف الدين تنكز[٨٣]، وهو من الأمراء الذين كانت لهم هيبة عظيمة بدولة المماليك، فكان يكتب إليه : " يقبل الأرض المقام الشريف العالي المولوي السلطاني المالكي المؤيدي العمادي "[٨٤]. كذلك كان السلطان الناصر محمد يكتب إليه " أخاه محمد بن قلاوون، أعز الله أنصاره المقام الشريف العالي السلطاني الملكي المؤيدي العمادي "[٨٥].

وعلى هذا النحو بلغ صاحبنا مكانة عالية في دولة المماليك، فقد احترمه السلطان الناصر محمد احترامًا زائدًا، ونال لديه حظوة كبيرة[٨٦]، كذلك كان حاله مع معظم أمراء المماليك الذين تولوا حكم نيابات الشام، الذين أمر السلطان أن يخاطبوه كما كانوا يخاطبون السلطان ويقدمون إليه الاحترام اللازم. واستمر ذلك إلى حين وفاته عام ٧٣٢هـ/١٣٣١م[٨٧]. وفي نفس هذا المعنى يقول ابن حجر العسقلاني أن عماد الدين إسماعيل " عظم في عين السلطان لما رآه من آدابه وفضائله "[٨٨].

بالإضافة إلى ذلك شارك عماد الدين إسماعيل في أمور السياسة والحرب، فكثيرًا ما انضم إلى الجيوش التي أرسلها السلطان الناصر محمد لمحاربة الخارجين عن السلطنة

---

(٨٢) العمري : مسالك الأبصار، ص٦٦؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨٢-١٨٣.

(٨٣) ابن أيبك الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤.

- الأمير سيف الدين تنكز : هو الأمير تنكز بن عبدالله الحسامي الناصري، تدرج في مختلف الوظائف حتى صار نائب الشام، وعلا شأنه عند السلطان الناصر محمد، وتزوج الناصر من ابنته، وزوج أولاد تنكز من بناته، وكان يسير في خدمته الأمراء من المماليك، والبقايا من أولاد ملوك بني أيوب، وفي عام ٧٤٠هـ/١٣٤٠م غضب عليه السلطان الناصر، فاعتقله في سجن الإسكندرية، ثم قتله عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م، وصادر ممتلكاته. انظر : ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان وأبنائه، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ١٩٨٨م، ج٢، ص١٠٥؛ ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٤، ص١٥٦-١٥٧؛ ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، القاهرة ١٩٨٣م، ج١، ص٤٧٨؛ ابن أيبك الصفدي : أعوان العصر، ج١، ص٥٣٠-٥٣١.

(٨٤) ابن أيبك الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤.

(٨٥) ابن أيبك الصفدي : أعيان العصر، ج١، ص٣٠٣-٣٠٤.

(٨٦) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، ج١، ص١٨٣؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٣.

(٨٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٧، ص١٣٩؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٣.

(٨٨) الدرر الكامنة، ج١، ص٣٩٧.

المملوكية ببلاد الشام ومحاربة الأرمن[٨٩].

ومما سبق يتضح إخلاص عماد الدين إسماعيل للسلطان الناصر محمد إخلاصًا تامًا، وفي المقابل قدر الناصر محمد هذا الإخلاص، فقابله بالإنعام، وقد عبر عن ذلك خير تعبير معاصره المؤرخ ابن أيبك الدوداري بقوله: " فوصل – أي عماد الدين – بحسن عقله ودينه، وخدمته، إلى ما وصل، أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة، فإنه مستحق لذلك "[٩٠].

وعلى هذا النحو يقر ابن أيبك وغيره من المؤرخين أن ما تمتع به عماد الدين إسماعيل من حُسن عقله وآدابه وفضائله ودينه، وإخلاصه في خدمة السلطان الناصر محمد، هو الذي جعل الناصر محمد يأمن إليه، على الرغم مما اشتهر عنه من تخوفه ممن يصل من الأمراء إلى مكانة كبيرة، فكان لا يتردد في التخلص منهم، بعد أن يثبت لديه أنهم اقترفوا ذنبًا[٩١].

وبلغ تقدير السلطان الناصر محمد لعماد الدين إسماعيل أبو الفداء أنه بعد وفاة الأخير رعى السلطان الناصر معزته وتقديره، فعهد إلى ابنه الملك الأفضل محمد بحكم حماة، وأقر ما كان سائدًا أيام أبيه الملك عماد الدين إسماعيل أبوالفدا[٩٢]. وبعد عزل الأفضل محمد عن حكم حماة عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م، لم يعهد السلطان المملوكي إلى أحد من بني أيوب بحكمها، فخرج حكمها عنهم، حيث صارت نيابة يتداول حكمها نائب بعد نائب على حد قول القلقشندي[٩٣].

لم تشغل أمور السياسة والحكم عماد الدين إسماعيل أبو الفدا عن ممارسة هوايته وميوله الطبيعية وحبه وشغفه بالعلم والدرس، فقد أحب العلماء وقربهم إليه، كما انغمس في تأليف الكثير من المؤلفات العلمية، كما سبقت الإشارة.

وسوف يقتصر حديثنا عن مؤلفين فقط من مؤلفاته: الأول في التاريخ وهو " المختصر في أخبار البشر "، والثاني في الجغرافيا وهو " تقويم البلدان "، أما كتابه المختصر في أخبار البشر، فقد تناول فيه تاريخ البشرية منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام، وحتى نهاية عام ٧٢٩هـ/١٣٢٩م، واعتمد أبو الفدا في جمع مادته العلمية في الفترة السابقة عليه، على مجموعة كبيرة من المؤرخين المشهود لهم بالصدق

---

(٨٩) ابن تغري بردي : النجوم، ج٩، ص٢٤.

(٩٠) الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص٣٦٥.

(٩١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ق٢، ص٥٢٤-٥٣٤.

(٩٢) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص٤٢٣؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج٧، ص١٣٩.

(٩٣) صبح الأعشى : ج٧، ص١٧٧.

– تولى نيابة حماة الأمير سيف الدين طقزتمر الذي كان مملوك عماد الدين إسماعيل أبوالفدا. انظر : ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي، ج٢، ص٤٧٣.

والأمانة، مثل كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه، والتاريخ المظفري لابن أبي الدم الحموي، وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان، وكتاب تاريخ اليمن لعمارة اليمني، وكتاب المُغرب في أخبار أهل المغرب لابن سعيد، وكتاب الكامل لابن الأثير، وكتاب مفرج الكروب لابن واصل وغيرهم[94]. أما الفترة التي عاصرها، فيعتبر ما سجله أبو الفدا في كتابه المختصر في أخبار البشر، وثيقة تاريخية هامة، حيث أنه كان شاهد عيان لها.

أما المنهج الذي سار عليه أبو الفدا فقد أشار هو إليه حيث قسمه إلى قسمين رئيسين، بالإضافة إلى مقدمة اشتملت على ثلاثة محاور، تحدث فيها عن أمور عامة وهامة لدارس التاريخ : المحور الأول يشير إلى ما يحيط التاريخ القديم من اختلافات، والمحور الثاني تحدث فيه عن نسخ التوراة، والمحور الثالث وضعه في صورة جدول؛ يوضح المدد الزمنية بين التواريخ المشهورة، سواء كانت ميلادية أم هجرية، أم غيرها من التواريخ[95].

أما القسم الأول فقد تناول التاريخ القديم، والقسم الثاني يتناول التاريخ الإسلامي، أما القسم الأول الذي يتناول التاريخ القديم، فقد جاء في خمسة فصول، حمل الفصل الأول عنوان : " في عمودم التواريخ القديمة وذكر الأنبياء على الترتيب ". والفصل الثاني بعنوان : " في ذكر ملوك الفرس وهم أربعة طبقات "، والفصل الثالث بعنوان : " في ذكر فراعنة مصر "، والفصل الرابع بعنوان : " في ملوك العرب قبل الإسلام "، أما الفصل الخامس فجاء بعنوان : " في ذكر الأمم "[96]. أما القسم الثاني، وهو الذي يتناول التاريخ الإسلامي، فقد رتبه على السنين وفق كتاب الكامل لابن الأثير، أي اتبع أسلوب الكتب الحولية، وهو الأسلوب الذي اتبعه كثير ممن سبقه من المؤرخين[97].

وقد تميز كتاب المختصر في أخبار البشر بعدة ميزات أهمها كونه مختصرًا لحوادث التاريخ، فالكثير ممن سبقه من المؤرخين جاءت كتبهم في عشرات المجلدات، مما شكل صعوبة كبيرة أمام قارئ التاريخ، فعلى سبيل المثال جاءت الفصول الخمسة التي تناولها التاريخ القديم في حوالي مائتي صفحة فقط، شكلت نصف الجزء الأول فقط في كتاب المختصر في أخبار البشر، مما يسهل على القارئ الإلمام بالتاريخ القديم في سهولة ويسر.

أما القسم الثاني وهو الذي يتناول التاريخ الإسلامي، فقد بدأه بمولد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ثم تناول بعده تاريخ الخلفاء الراشدين، ثم تاريخ الدول التي تعاقبت على حكم العالم الإسلامي وفق السنوات كما سبقت الإشارة، أما الأسلوب الذي اتبعه في

---

(94) أبو الفدا : المختصر، ج١، ص٣.

(95) المختصر، ج١، ص٣-٧.

(96) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج١، ص٨-١٠٩.

(97) أبو الفدا : المختصر، ج١، ص٣؛ انظر أيضًا : صلاح الدين المنجد : أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، بيروت ١٩٧٨م، ص١٣-٣٨.

عرضه للأحداث فتميز بالاختصار لما وقع من أحداث خلال السنة، ثم يعرض بعد ذلك لأهم الشخصيات التي توفت في هذه السنة، دون أن يعمد إلى الإطالة ولا إلى الاستطراد، وكما هي عادة مؤرخي الحوليات، فإنه عندما لا يجد في احدى السنوات ما يستحق تدوينه من أحداث، فكان يهمل ذكر أحداثها، كما فعل في عام ٧٢٩هـ عندما قال: " وكانت غرة المحرم من هذه السنة يوم الجمعة رابع تشرين الثاني، ولم يبلغني في أوائلها ما يليق أن يؤرخ والله أعلم "[٩٨]. وتوقف تاريخ أبو الفدا عند نهاية عام ٧٢٩هـ/١٣٢٩م.

وكما سبقت الإشارة قد استقى أبو الفدا مادته العلمية ممن سبقه من المؤرخين، وهنا نجد أنفسنا أمام ملاحظتين: الأولى أنه اعتمد على مجموعة من المؤرخين الثقاة أمثال ابن الأثير، وابن مسكويه، وعمارة اليمني، وابن خلدون، وابن أبي الدم الحموي وغيرهم، والملاحظة الثانية أنه لم يكتف بالنقل فقط، وإنما قام بنقد بعض الروايات التي رأى أنها لا تستقيم مع سائر الأحداث التاريخية.

أما الفترة التي عاصرها فيعتبر تسجيل أبو الفدا لأحداثها وثيقة تاريخية هامة، حيث سجل أحداثها من واقع مشاهداته ورؤيته، وهي رؤية مؤرخ وسياسي، كما أنه شارك مشاركة فعالة في أحداثها، مما جعله ملمًا بالكثير من خبايا الأمور.

فطوال هذه الفترة كان دائم القول، فسرنا ....، بعد وصولي .... ، فعدنا ...، ورد كتابه يطلبنا ....، ثم عدنا إلى حماة .... "[٩٩]. أي أنه كان شاهد عيان على أحداث هذه الفترة.

كذلك فإن إقامة أبو الفدا ببلاد الشام سواء بدمشق أو بحماة، جعله قريب من البلاد التي وضع المغول أيديهم عليها، سواء في العراق أم في إيران، مما جعله على قدر كبير من معرفة أخبارهم، مما زاد من أهمية تاريخه، حيث روى لنا بعض الأحداث التي لم ترو عند غيره من المؤرخين.

ونتيجة ذلك؛ يمثل تاريخ المختصر في أخبار البشر أهمية كبيرة من بين كتب التاريخ الإسلامي، لذلك نجد أن الكثير ممن جاء بعده من الكُتَّاب يعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا، فعلى سبيل المثال من بين أولئك الكُتَّاب المشهورين الذين اعتمدوا على تاريخ أبو الفدا كان، الكاتب أبو العباس أحمد القلقشندي في كتابه "صبح الأعشى"، وبإحصاء عدد من أشار إليه القلقشندي صراحة في اعتماده على تاريخ المختصر لأبي الفدا، فكان أكثر من اثنين وأربعين موضعًا، وأخذ عنه الكثير من الآراء التي انفرد بها عماد الدين إسماعيل دون غيره من المؤرخين، مما يؤكد لنا أن أبي الفدا كانت له رؤية تاريخية خاصة به، توصل إليها عن طريق اطلاعاته العديدة، وقراءاته المتبحرة في كثير من العلوم.

في البداية نجده يقرر أن لفظ " تاريخ "، محدث في لغة العرب، فهو معرب من

---

(٩٨) المختصر، ج٤، ص٩٩.

(٩٩) المختصر، ج٤، ص٤٠-٤١.

الكلمة الفارسية " ماه روز "[١٠٠] وهو بمعنى " يوم الشهر " وهو ما قرره الكثير من المؤرخين والكُتَّاب[١٠١].

وهذا مما يدل على أن عماد الدين إسماعيل تمتع بنظرة ثاقبة في أمور الحياة، ونتيجة قراءاته ووعيه التاريخي، فأشار إلى حقيقة هامة وهي: أن السلطة والحكم لا يدوم، لذلك نجده يوجه خلال كتابه المختصر الكثير من المواعظ والحِكَم، ومن أمثلتها تلك التي قالها عقب سقوط الدولة الفاطمية عام ٥٦٧هـ/١١٧١م. حيث قال : " وهذا دأب الدنيا لم تعط إلا واستردت، ولم تحل إلا وتمررت، ولم تصف إلا وتكدرت، بل صفوها لا يخلو من الكدر ".

كذلك فإنه عندما يتحدث عن مصر، وتاريخها الطويل، يقرر حقيقة واقعه بقوله: " وكان أهل مصر أهل ملك عظيم في الدهور الخالية، والأزمان السالفة، ما بين قبطي ويوناني وعمليق "[١٠٢].

وعندما يتحدث عن ذي القرنين، وهو الذي ورد في القرآن الكريم، وما أثير حول علاقته بالإسكندر الأكبر، يقول : " والصحيح أن الإسكندر المذكور لم يكن منه ذلك – أي صفات ذي القرنين – بل ذو القرنين الذي ذكره الله في القرآن وهو ملك قديم كان على زمن إبراهيم الخليل عليه السلام "، ويؤكد عماد الدين حديثه، بأن لفظ "ذو"، عربية محضة و" ذو القرنين " لقب من ألقاب العرب ملوك اليمن[١٠٣].

كما كانت له رؤية واضحة في طبيعة الكثير من الأمم والشعوب، ومثال ذلك ما ذكره عن اليهود عندما قال : " أمة اليهود أعم من بني إسرائيل، لأن كثيرًا من أجناس العرب والروم والفرس وغيرهم صاروا يهودًا، ولم يكونوا من بني إسرائيل، وإنما بنو إسرائيل هم الأصل في هذه الملة وغيرهم دخيل فيها "[١٠٤].

كذلك يقول عن عنصر الجراكسة : " وهم على بحر نيطس من شرقيه، وهم في شظف من العيش "[١٠٥].

---

(١٠٠) المختصر، ج١، ص١٢٣؛ انظر أيضًا : قاسم عبده قاسم : تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية، القاهرة ٢٠٠٠م، ص١٦-١٧؛ روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، بيروت ١٩٨٣م، ص١٦-٢٨.

(١٠١) المختصر، ج٣، ص٥١.
يرى بعض المؤرخين أن أصل كلمة " تاريخ " عربي من كلمة " الارخ "، وهو ولد البقرة الصغير، أي أنه حدث كما يحدث الولد. انظر : السخاوي : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، عُني بنشره القدسي، بيروت ١٩٧٩م، ص٦؛ حامد زيان : علم التاريخ، القاهرة د.ت، ص٧.

(١٠٢) المختصر، ج٣، ص٤٠٧.

(١٠٣) المختصر، ج١، ص٤٥.

(١٠٤) المختصر، ج١، ص٨٧؛ انظر أيضًا : القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٥٣.

(١٠٥) المختصر، ج١، ص٩٢؛ انظر أيضًا : صبح الأعشى، ج٥، ص٤١٦.

أما رأيه في الجلالقة فيتمثل في قوله : " وهم أمة يغلب عليهم الجهل والجفاء، ومن زيهم أنهم لا يغسلون ثيابهم، بل يتركونها عليهم إلى أن تبلى، ويدخل أحدهم دار الآخر بدون استئذان، وهم كالبهائم، ولهم بلاد كثيرة في شمال الأندلس"[١٠٦].

ومما يوضح مدى دقه عماد الدين إسماعيل ما ذكره من أن أول من حمل لقب ملك من الوزراء الفاطميين في مصر هو : " الملك الأفضل وزير الخليفة الحافظ "[١٠٧].

ومما يدل على تمتع عماد الدين بالدقة في تسجيل حوادث التاريخ: تصحيحه لتلك المعلومة الواردة في كتب التاريخ من أن قحطان بن عابر بن ارفخشذ بن سام ابن نوح، هو التاسع من ملوك اليمن، غير أن عماد الدين أثبت أن قحطان هو أول ملوك اليمن[١٠٨].

كذلك قرر عماد الدين إسماعيل أن أول من ملك اليمن من بني رسول، هو علي بن رسول، وهذا على عكس من سبقه من المؤرخين الذين ذكروا أن أول ملوك اليمن من بني رسول هو المنصور عمر، وهو ابن علي بن رسول سابق الذكر. وقد أيد ابن خلدون رأي عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، وشايعه في ذلك عدد من المؤرخين[١٠٩].

كما ذكر عماد الدين إسماعيل أن الفاطميين قاموا بكسوة الكعبة المشرفة بالبياض عام ٣٨١هـ/٩٩١م، وكان ذلك في إمارة أبي الحسن جعفر (من السليمانين)، على الرغم من أن الكسوة بالبياض قد انتهت بعد أن قام العباسيون بكسوتها بالسواد[١١٠].

ويبدو لنا أن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا بصفته من سلالة ملوك بني أيوب؛ اهتم اهتمامًا خاصًا بالكثير من حياة ملوك الأيوبيين الأوائل، فعلى سبيل المثال يقول إن جَدّه الأكبر صلاح الدين الأيوبي كان يتبرك بأحد الأشراف أمراء المدينة المنورة، وهو القاسم بن مهنا الذي ينتمي نسبه إلى علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، حيث كان يصحبه في فتوحاته " يتبرك به، ويتيمن بصحبته، ويرجع إلى قوله"[١١١].

من ذلك أيضًا ما ذكره عماد الدين إسماعيل عن ظهير الدين طغتكين الأيوبي حاكم اليمن[١١٢]، من أنه تميز بالبخل والشح الشديد، وكيف كان يتحايل على التجار لأخذ ما لديهم من تجارة، ثم بيعها بعد ذلك بالأسعار التي يريدها، وفي ذلك يقول أبو الفدا :

---

(١٠٦) المختصر، ج١، ص٩٣؛ انظر أيضًا : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص٤١٤.
(١٠٧) المختصر، ج٣، ص١٦٠؛ القلقشندي : صبح الأعشى، ج٩، ص٤٠٣.
(١٠٨) المختصر : ج١، ص٦٦؛ انظر أيضًا : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص١٩.
(١٠٩) المختصر، ج٣، ص١٤٢؛ انظر أيضًا : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٧، ص٣٣٩.
(١١٠) القلقشندي : صبح الأعشى، ج٤، ص٢٨٠-٢٨١.
(١١١) المختصر،ج٣، ص٧٥؛ انظر أيضًا: القلقشندي : صبح الأعشى، ج٤، ص٢٩٨-٢٩٩، ٣٠٠.
- يذكر زامباور أن القاسم بن مهنا كان مصاحبًا لصلاح الدين الأيوبي منذ أن تولى حكم المدينة المنورة عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وحتى وفاته عام ٦٠٠هـ/١٢٠٤م. انظر : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ج١، ص١٧٧.
(١١٢) هو الملك العزيز سيف الإسلام ظهير الدين أبو الفوارس طغتكين بن أيوب، حكم اليمن بين سنتي ٥٧٧-٥٩٣هـ/١١٨١-١١٩٧م. انظر : زامباور : معجم الأسرات، ج٣، ص١٥٢.

"وكان شديد السيرة مضيقًا على رعيته يشتري أموال التجار لنفسه، ويبيعها كيف شاء، وجمع من الأموال مالاً لا يحصى حتى أنه كان يسبك الذهب ويجعله كالطاحون ويدخره "[١١٣].

ويستفاد من النص السابق ذكره أن صاحبنا اتبع الموضوعية التاريخية في تأريخه، فلم يجنح إلى جانب أبناء البيت الأيوبي، ويصفح عما قاموا به من أعمال سيئة، ولكننا نجده يذكر مساوئ سيف الدين طغتكين وشحه وشدته على رعيته، وذلك على الرغم مما كان لسيف الدين طغتكين من دور كبير في توطيد النفوذ الأيوبي باليمن، فلم يشفع له ذلك عند أبي الفدا، وإنما أراد أن يبرئ ساحته كمؤرخ، ويذكر ما اتصف به من صفات سيئة.

ونفس الشيء يتكرر مرة أخرى، عندما يصف عماد الدين إسماعيل، أحد حكام أبناء البيت الأيوبي باليمن " بالهوج "، فعندما تحدث عن الملك إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين[١١٤]، قال عنه : " كان به هوج "، ويستطرد أبو الفدا في تحليل شخصية الملك إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين فيقول: إنه ادعى أنه من نسل أمية، وسيرًا على هذا الادعاء كان يلبس نفس الثياب التي كان يلبسها خلفاء بني أمية، فيذكر أبو الفدا أنه: " لبس ثياب الخلافة في ذلك الزمان، وكان طول الكم نحو عشرين شبرًا "[١١٥].

وقد أجمعت المصادر على أن الملك المعز إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين لم يكتف بذلك، وإنما سمى نفسه " المعز لدين الله "، وذلك على نفس اسم الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله الفاطمي، وخطب لنفسه بالخلافة في اليمن، وكان ذلك في أيام عمه الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب، فلما بلغ ذلك الملك العادل، أنكره إنكارًا شديدًا، وقال : " لقد كذب إسماعيل، ما نحن من بني أمية أصلاً "[١١٦].

وحديث عماد الدين إسماعيل أبو الفدا يفيد تأكيده على عدم اتصال نسب الأيوبيين ببني أمية، وهي قضية حاول البعض في بداية العصر الأيوبي إثارتها، غير أن السلطان صلاح الدين الأيوبي حسمها بقوله " ليس لهذا أصل أصلاً "، وذلك وفق ما ذكره ابن خلكان عما سمعه من شيخه بهاء الدين بن شداد[١١٧].

---

(١١٣) المختصر، ج٣، ص٩٣.

(١١٤) هو معز الدين إسماعيل بن سيف الإسلام ظهير الدين أبو الفوارس طغتكين بن أيوب، تولى حكم اليمن بين عامي ٥٩٣-٥٩٨هـ/١١٩٧-١٢٠٢م. انظر : زامباور : معجم الأنساب، ج١، ص١٥٢.

(١١٥) المختصر، ج٣، ص١٠٢.

(١١٦) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق : جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧م، ج١، ص٤؛ الحنبلي : شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص٢٧١-٢٧٢؛ ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر، ج٧ المعروف باسم الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق : سعيد عاشور، القاهرة ١٩٧٢م، ص٦.

(١١٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٧، ص١٤١.

أما كتاب تقويم البلدان: فقد ألفه عماد الدين إسماعيل بعد أن اطلع على ما سبقه من كتب الجغرافيا والبلدان، ولم يجد فيها غرضه في تحقيق الأسماء وذكر الأطوال والعروض، وصفات المدن. لذلك قام بتأليف كتاب " تقويم البلدان "، وقد اتبع أبو الفدا في تأليفه لكتاب تقويم البلدان منهجًا لم يسبقه إليه أحد. وقد أشار في مقدمته أنه سمي هذا الكتاب بـ " تقويم البلدان "، وجعله على نمط كتاب " تقويم الأبدان " لابن جزلة الطبيب(١١٨)، كما أنه سار على نفس طريقة ابن جزلة من وضع جداول، ولذلك هو أول من أدخل نظام الجداول في علم الجغرافيا(١١٩).

أما المنهج الذي سار عليه أبو الفدا في تأليف كتاب " تقويم البلدان "فقد بدأه بالحديث عن الأرض والأقاليم السبعة، ثم تحدث عن البحار والأنهار والجبال، ثم تحدث بعد ذلك عن البلدان بادئًا حديثه بجزيرة العرب.

اتبع أبو الفدا منهجًا خاصًا به في الحديث عن البلدان، لم يأخذه عن أحد من قبله، يتلخص في الحديث عن أهم أماكن البلد الذي تحدث عنه، ثم ذكر المسافات بين مختلف مدن هذا البلد، ثم يرسم جدولاً يوضح فيه اسم البلد، والمصدر الذي استقى منه معلوماته عن هذه المدينة، ثم ذكر طولها وعرضها، وموقعها في أي إقليم هي، ثم يذكر اسمها مضبوطًا، ثم يستأنف حديثه عن مدن هذا البلد بذكر الأوصاف والأخبار الهامة عن هذه المدينة، ثم بعد ذلك ينتقل إلى بلد آخر ويتحدث عن مدينة مدينة(١٢٠).

ومن الملاحظات الهامة أن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، زيادة في الدقة، وحتى تكون أوصافه للبلاد والمدن التي ذكرها في كتاب " تقويم البلدان " صحيحة، استعان في بعض الأحيان ببعض أهل تلك البلاد، مثلما ورد عند حديثه عن جنوة، فيقول أبو الفدا واصفًا جنوة اعتمادًا على مشاهدات بعض أهلها : " وعن بعض أهلها أن جنوة في ذيل جبل عظيم، وهي على حافة البحر، ولها ميناء عليها سور، وهي مدينة كبيرة إلى الغاية، ولها بساتين فيها أنواع الفواكه، ودور أهلها عظيمة، كل دار بمنزلة قلعة، ولذلك اغتنوا عن عمل سور على جنوة، ولها عيون ماء منها شربهم وشرب بساتينهم "(١٢١).

---

(١١٨) أبو الفدا : تقويم البلدان، نشر مكتبة الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٧م، ص٦.

- ابن جزله هو يحي بن علي بن جزله، كان في أيام الخليفة المقتدر العباسي (٢١٥-٣٢٠هـ/٩٠٨-٩٣٢م) من المشهورين في علم الطب، صنف كتاب " تقويم الأبدان " للخليفة المقتدر بأمر الله وكان نصرانيًا وأسلم عام ٤٦٦هـ/١٠٧٤م. انظر : ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج٢، ص٢٦٠.

(١١٩) كراشتكوفيسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح هاشم، القاهرة ١٩٦٣م، ج١، ص٣٩٣.

(١٢٠) انظر أبو الفدا : تقويم البلدان، ص٥-١٢٢.

(١٢١) أبو الفدا : تقويم البلدان، ص٢٣٥؛ انظر أيضًا : القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥، ص٤٠٦.

كذلك اعتمد على المشاهدات الحية، في وصفه لطبيعة العمران بمختلف البلدان التي وصفها، ولم يكتف بالنقل عمن سبقه عن الجغرافيين، وخاصة في وصفه لعمارة البلاد، فقد أدرك أبو الفدا إدراكًا تامًا أن يد التعمير تؤدي بالضرورة إلى تغيير صورة البلد وتنقلها من حال إلى حال، لذلك رفض الاعتماد على الصور الوصفية لعمارة البلدان التي رصدها من سبقه من الجغرافيين السابقين.

وسيرًا على ذلك عندما تحدث عن مدينة بَرْدعة، وكانت في القرن الرابع الهجري عاصمة إقليم " آران " المجاور لإقليم أذربيجان[١٢٢]، ولذلك جاءت أوصاف ابن حوقل لها في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، تنم عما تعج به هذه المدينة من مظاهر الحضارة، على الرغم مما قام به الكُرج من إغارات عليها، إذ يقول عن إحدى مواضعها: " مشتبكة البساتين، والعمارات طيبة المتنزهات، ولها فواكه كثيرة وغلات خطيرة، ومتاجر عظيمة "[١٢٣].

غير أن أبي الفدا لم يقبل أن ينقل هذه الأوصاف عن ابن حوقل، لعلمه عما حدث من تطورات عمرانية لمدينة بُرْدَعة في عصره، وفي ذلك يقول : " هذا لما كانت بردعة في زمان ابن حوقل فإنه متقدم التاريخ .. وأما في زماننا فأخبرني من رآها فقال : خربت ولم يبق منها معمورًا إلا دور المعرة في القدر .. "[١٢٤].

هذا مع ملاحظة أن أبي الفدا تعمد أن ينقل وصفه عن بُرْدَعة من أحد شهود العيان بقوله : " أخبرني من رآها "، وهو في نفس الوقت لم يقبل وصف ابن حوقل، حيث أنه متقدم وفي زمن غير زمنه. هذا إن دل على شيء فإنما يدل على منهج أبو الفدا القائم على تحري الدقة.

وعلى هذا النحو فإن كتاب تقويم البلدان لأبي الفدا عماد الدين إسماعيل؛ يعتبر من أهم الكتب الجغرافية، لأنه اشتمل على تحديد دقيق للكثير من البلدان، ووصفها بدقة متناهية، كما ذكر أطوالها وعرضها، كل ذلك بصورة مختصرة وغير مطولة، مما جعل الكثير مِمَّن كتب عن البلدان يعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا، ومن الأمثلة على ذلك: فإن أبي العباس أحمد القلقشندي، وهو من الكتاب المشهورين في القرن التاسع الهجري /

---

(١٢٢) بَرْدَعة : يقول عنها ياقوت الحموي بلدة في أقصى أذربيجان، ولفظ بردعة أصلها فارسي من كلمة بَرْدة دار، وتعني موضع السبي. انظر : معجم البلدان، نشر : دار صادر، بيروت ١٩٩٨م، ج١، ص٣٧٩-٣٨٠.

(١٢٣) ابن حوقل : صورة الأرض، نشر مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩م، ص٢٩٠.

- الكُرج : سكن الكُرج كرجستان وعاصمتها تفليس، وتقع بين بلاد الروم وأرمينية، وهم شعب دان بالمسيحية على المذهب الملكاني، ويصف القلقشندي بلادهم " أنها بلاد جليلة ومملكتهم فخمة، كانت لهم علاقات ومراسلات مع دولة المماليك ". انظر : صبح الأعشى، ج١، ص٣٦٩، ج٤، ص٣٦٢، ج٨، ص٢٧.

(١٢٤) أبو الفدا : تقويم البلدان، ص٤٦٢.

الخامس عشر الميلادي، اعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا عندما تحدث عن البلدان في موسوعته الشهيرة " صبح الأعشى "، وبإحصاء عدد الإحالات التي أحالها القلقشندي إلى كتاب " تقويم البلدان " نجدها بلغت مائتين وثمانين إحالة، خلال أجزاءه المختلفة[١٢٥]، مما يؤكد على أهمية كتاب تقويم البلدان في خدمة علم الجغرافيا على مر التاريخ.

وقد امتدح الكثير من الكُتّاب والجغرافيين كتاب تقويم البلدان، فعلى سبيل المثال يقول معاصريه ابن أيبك الصفدي(ت ٧٦٤هـ) وابن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) : " وله كتاب تقويم البلدان، هذّبه وجدوَله وأجاد ما شاء "[١٢٦]، ويقول ابن الوردي: " وله كتاب تقويم البلدان، وهو حسن في بابه "[١٢٧].

ويذكر المستشرق الروسي كراتشكوفسكي أن كتاب أبو الفدا " تقويم البلدان " عرفته أوربا مع بداية نهضتها في القرن السادس عشر الميلادي، وترجم إلى اللغة اللاتينية والفرنسية، وكان أساسًا للكثير من الدراسات في علم الجغرافيا في مختلف أنحاء أوربا بعد ذلك[١٢٨].

ومن العرض السابق يتضح لنا أهمية كلّ من كتاب المختصر في أخبار البشر، وكتاب تقويم البلدان، لأبي الفدا عماد الدين إسماعيل، حيث أصبح لهما دور كبير في خدمة الحضارة الإنسانية على مر العصور[١٢٩]، كما أن شخصية عماد الدين هي الأخرى، بما تمتع به من خُلق طيب وحب وتقدير للعلم والعلماء، وعدل وإخلاص لأهل مملكته، وإخلاص وتفانٍ في خدمة مليكه وسلطانه "السلطان الناصر محمد"، كل ذلك جعله نبراسًا لمن أتى بعده من الملوك والحكام، لدرجة أن بعض المؤرخين قالوا: أنه لم يتول حكم العالم الإسلامي بعد الخليفة المأمون العباسي أفضل منه[١٣٠].

وفي ٢٣ شهر المحرم عام ٧٣٢هـ/ ٢٧ أكتوبر ١٣٣١م، وافى الأجل الملك عماد الدين إسماعيل أبو الفدا حاكم حماة فجأة، أثناء وجوده بمملكته حماة[١٣١]، فحزن عليه السلطان الناصر محمد حزنًا شديدًا، وعلى الرغم من تطلع العديد من أمراء المماليك لتولي حكم حماة، إلا أن السلطان الناصر، ونتيجة حُبه لأبي الفدا، آثر أن يولي ابنه الملك الأفضل ناصر الدين محمد بن إسماعيل - حكم حماة، وأصدر في شهر ربيع الآخر من نفس

(١٢٥) محمد قنديل البقلي : فهارس صبح الأعشى، القاهرة ١٩٧٠م، ص٦٤٠-٦٤١.
(١٢٦) الوافي بالوفيات، ج٩، ص١٠٤؛ فوات الوفيات، ج١، ص١٨٤.
(١٢٧) تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٤٢٣.
(١٢٨) تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص٣٩٤.
(١٢٩) شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون، ج٤، بيروت ١٩٩٣م، ص٤٠-٤٢.
(١٣٠) ابن الوردي : تتمة المختصر، ج٢، ص٤٢٣.
(١٣١) الذهبي : ذيول العبر في خبر من غبر، ج٤، ص٩٢؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٢؛ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب، ج٦، ص٩٩.

العام تقليدًا بذلك[١٣٢]. ويعلق ابن أيبك الدوداري على ذلك بقوله: " وحضر ولده ناصر الدين محمد بن الملك عماد الدين وحصل له من الجبر والصدقة ما هو فوق ما كان في أمله "[١٣٣]. وهذا بالطبع رد من السلطان الناصر محمد، لما كان يكنه لأبيه عماد الدين من محبة وإعزاز.

وقد حفظ القلقشندي نص هذا التقليد، وهو يوضح مدى اعتزاز السلطان الناصر محمد بصداقة عماد الدين إسماعيل أبو الفدا، ومما جاء في هذا التقليد: "فوجدنا من الحُزن عليه ما أبكى كل سيف دمًا، وأن كل رمح يقرع سنه ندمًا، وتأسفنا على ملك كاد يكون من الملائك، وأخ كريم أو أعز من ذلك، وسلطان عظيم طالما ظهر شنب بوارقه في ثغور الممالك "[١٣٤].

وهنا يؤكد أن الناصر محمد كان يعتبر عماد الدين إسماعيل أبو الفدا أخًا له أو أعز، وبالفعل كان يكاتبه كما أشار الصفدي بكلمات " أخوه محمد بن قلاوون"[١٣٥].

وقد دُفن عماد الدين إسماعيل أبو الفدا في المقبرة التي أعدها لنفسه عام ٧٢٧هـ/١٣٢٧م، أي قبل وفاته بخمسة أعوام، وذلك قرب مسجد " الحيايا " بمدينة حماة، الذي بناه أيضًا في ذلك التاريخ، ومازال هذا المسجد وتلك المقبرة حتى يومنا هذا موجودة بحماة[١٣٦].

وهكذا كان حال صاحبنا عماد الدين إسماعيل أبو الفدا: الملك العالم في حياته مكرمًا، وبعد مماته أضاء الطريق بمؤلفاته أمام الباحثين والمؤرخين والجغرافيين، جعلها الله في ميزان حسناته، ورحمه الله رحمة واسعة.

(١٣٢) الذهبي : ذيول العبر، ج٤، ص٩١؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢٩٢.
(١٣٣) الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، ص٣٦٤-٣٦٥.
(١٣٤) القلقشندي : صبح الأعشى، ج١٠، ص١٨٥.
(١٣٥) فوات الوفيات، ج٩، ص١٠٤.
(١٣٦) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج١، ص٣٩١.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

- ابن الأخوة : محمد بن محمد القرشي (ت ٧٢٩هـ) :
  - معالم القربة في أحكام الحسبة، تصحيح روبن ليوي، كمبردج ١٩٣٧م.
- ابن أبي أصيبعة : أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ) :
  - عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت ١٩٨١م.
- ابن إياس : أبو البركات محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ) :
  - بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة ١٩٨٣م.
- ابن أيبك الدواداري : أبو بكر بن عبدالله (ت ٩٣٠هـ) :
  - كنز الدرر وجامع الغرر :
    - الجزء السابع، المعروف باسم : الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة ١٩٧٠م.
    - الجزء الثامن، المعروف باسم: الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق: أولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١م.
    - الجزء التاسع، المعروف باسم : الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: هانس روبرت رويمر، القاهرة ٢٠٠١م.
- ابن أيبك الصفدي : صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤هـ) :
  - أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: فالح أحمد البكور، بيروت ١٩٩٨م.
  - الوافي بالوفيات، تحقيق : أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، بيروت ٢٠٠٠م.
- البرزالي : أبو محمد القاسم بن محمد (ت ٧٣٩هـ) :
  - المقتفي على كتاب الروضتين، المعروف باسم تاريخ البرزالي، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ٢٠٠٩م.
- ابن تغري بردي : جمال الدين يوسف أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ) :
  - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر دار الكتب المصرية د.ت.
  - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ٢٠٠٢م.
- ابن الأثير : علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ) :
  - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبدالقادر أحمد طليمات، القاهرة ١٩٦٣م.
  - الكامل في التاريخ، نشر دار صادر، بيروت ١٩٦٦م.
- ابن الجزري : أبو عبدالله محمد بن إبراهيم (ت ٧٣٨هـ) :
  - تاريخ حوادث الزمان وأنبائه، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ١٩٨٨م.
- ابن حبيب : الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ) :

- تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٢م.

– ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين أحمد (ت ٨٥٢هـ) :
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٦م.

– الحنبلي : أحمد بن إبراهيم (ت ٨٧٦هـ) :
- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، العراق ١٩٧٨م.
- صورة الأرض، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩م.

– ابن خلكان : شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ) :
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٧٧م.

– خواند مير : غياث الدين بن همام الدين (ت ٩٤٢هـ) :
- دستور الوزراء، تحقيق: حربي أمين سليمان، القاهرة ١٩٨٠م.

– ابن دقماق : إبراهيم بن محمد (ت ٨٠٩هـ) :
- الانتصار لواسطة عقد الأمصار، نشر مطبعة بولاق مصر ١٣١٠هـ.
- النفحة المسكية في الدولة التركية، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ١٩٩٩م.

– الذهبي : أبو عبدالله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ) :
- سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت ١٩٨٤م.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت ٢٠٠٥م.

– رشيد الدين الهمذاني : فضل الله أبو الخير (ت ٧١٨هـ) :
- جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرين، القاهرة ١٩٦٠م.

– ابن سباط : حمزة بن أحمد (ت بعد ٩٢٦هـ) :
- صدق الأخبار المعروف باسم: تاريخ ابن سباط، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ١٩٩٣م.

– سبط بن الجوزي : شمس الدين يوسف بن قزاوغلي (ت ٦٥٤هـ) :
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، نشر مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الهند ١٩٥١م.

– السخاوي : شمس الدين محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢هـ) :
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، عُني بنشره القدسي، بيروت ١٩٧٩م.

– السمحاوي : شمس الدين أحمد (ت ٨٦٨هـ) :
- الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم، المعروف باسم: المقصد الرفيع المنشا الهادي لديوان الإنشا للخالدي، تحقيق: أشرف محمد أنس، القاهرة ٢٠٠٩م.

– ابن شاكر الكتبي : محمد بن شاكر بن أحمد (ت ٧٦٤هـ) :

- فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، بيروت ١٩٧٣م.

– ابو شامة : عبدالرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ) :

- تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف باسم: الذيل على الروضتين، نشر عزت العطار الحسيني، بيروت ١٩٤٧م.

– ابن شداد : بهاء الدين يوسف (ت ٦٣٢هـ) :

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، المعروف باسم: سيرة صلاح الدين، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤م.

– الشوكاني : محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ) :

- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، وضع هوامشه: محمد أحمد عبدالعزيز سالم، بيروت ٢٠٠٧م.

– ابن عربشاه : شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ٨٥٤هـ) :

- عجائب المقدور في أخبار تيمور، تحقيق: أحمد فايز الحمصي، بيروت ١٩٨١م.

– ابن العماد الحنبلي : أبو الفلاح عبدالحي (ت ١٠٨٩هـ) :

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، نشر المكتب التجاري، بيروت د.ت.

– العماد الكاتب الأصفهاني : أبو عبدالله محمد (ت ٥٩٧هـ) :

- الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق: محمد صبيح، القاهرة ٢٠٠٣م.

– العمري : شهاب الدين أحمد (ت ٧٤٩هـ) :

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ممالك مصر والشام والحجاز واليمن، تحقيق: أيمن فؤاد، القاهرة ١٩٨٥م.

– ابن العميد : الشيخ جرجس (ت ٦٧٢هـ) :

- أخبار الأيوبيين، نشر كلود كاهن Cloud Cahen في :

Bulletin d'etudes Orientales, Paris 1955-1957.

– أبو الفدا : عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ) :

- تقويم البلدان، نشر مكتبة الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٧م.

– ابن الفوطي : كمال الدين عبدالرازق (من علماء القرن الثامن الهجري) :

- كتاب الحوادث، المعروف باسم: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق: بشار عواد، بيروت ١٩٩٧م. [يتشكك محقق الكتاب في نسبته لابن الفوطي].

– ابن قاضي شهبة : أبو بكر بن أحمد (ت ٨٥١هـ) :

- تاريخه، تحقيق: عدنان درويش، دمشق ١٩٩٤م.

– القرماني : أحمد بن يوسف (ت ١٠١٩م) :

- أخبار الدول وآثار الأول، تحقيق: أحمد حطيط، بيروت ١٩٩٢م.

– القلقشندي : أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ) :

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نشر دار الكتب المصرية، د.ت.

- محمد تقي الدين شاهنشاه : محمد بن تقي الدين عمر (ت ٦١٧هـ) :
- مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة ٢٠٠٧م.

- المرتضى الزبيدي : أبو الفيض محمد بن محمد (ت ١٢٠٥هـ) :
- ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب، تحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٧١م.

- مفضل بن أبي الفضائل : (توفى بعد عام ٧٥٩هـ) :
- النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر Blochet في : Patrologia Orientales, Paris 1920, Tom 14.

- المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) :
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، نشر مطبعة بولاق مصر ١٢٧٠هـ.
- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٥م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٧م.

- النعيمي : عبدالقادر بن محمد (ت ٩٢٧هـ) :
- الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: جعفر الحسيني، القاهرة ١٩٨٨م.

- النويري : شهاب الدين أحمد (ت ٧٣٣هـ) :
- نهاية الأرب في فنون الأدب :
  - الجزء ٣١، تحقيق: السيد الباز العريني، القاهرة ١٩٩٢م.
  - الجزء ٣٢، تحقيق: فهيم شلتوت، القاهرة ١٩٩٨م.

- ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ) :
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب :
  - الجزء الأول، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٧م.
  - الجزء الخامس، تحقيق: حسنين ربيع، القاهرة ١٩٧٧م.

- ابن الوردي : زين الدين عمر (ت ٧٥٠هـ) :
- تتمة المختصر في أخبار البشر، المعروف باسم : تاريخ ابن الوردي، تحقيق: أحمد رفعت البنداري، بيروت ١٩٧٠م.

- ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبدالله (ت ٦٢٦هـ) :
- معجم الأدباء، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٨م.
- معجم البلدان، نشر دار صادر، بيروت ١٩٩٨م.

- اليونيني : أبو الفتح موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ) :
- ذيل مرآة الزمان (حوادث سنوات ٦٧١-٦٧٧)، نشر وزارة التحقيقات، حيدر آباد – الهند ١٩٦٠م.

- ذيل مرآة الزمان (حوادث سنوات ٦٩٧-٧١١هـ)، تحقيق: حمزة عباس، أبو ظبي ٢٠٠٧م.

ثانيا : المراجـــع :

- أحمد أمين : ظهر الإسلام، القاهرة ١٩٤٥م.
- أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دمشق ١٩٣٩م.
- آمال حامد زيان :

The role of Endowments to The scintific prosperity of Maqdis in Ayyubid Age, International Research Journal of social Sciences, vol I, September 2012.

- حامد زيان :
  - الإسكندرية منارة للعلم في البحر المتوسط عصر المماليك، مقال في كتاب مصر وعالم البحر المتوسط، القاهرة ١٩٨٦م.
  - المماليك، التاريخ السياسي، القاهرة ٢٠١١م.
  - علم التاريخ، القاهرة د.ت.
- زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة ١٩٥١م.
- سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك، القاهرة ١٩٧٠م.
- شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت ١٩٩٣م.
- صلاح الدين المنجد : أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، بيروت ١٩٧٨م.
- عبداللطيف حمزة: الحركة الفكرية في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول، القاهرة ١٩٩٩م.
- فؤاد عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، الدوحة ١٩٨٧م.
- كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح هاشم، القاهرة ١٩٦٣م.
- محمد قنديل البقلي : فهارس صبح الأعشى، القاهرة ١٩٧٥م.
- محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، القاهرة ١٩٨٠م.
- المعجم الوسيط : نشر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٨٥م.
- الموسوعة العربية الميسرة، بيروت ٢٠٠٩م.
- وليم ماير : الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، القاهرة ١٩٧٢م.



التعاملات القضائية لأهل الذمة في القدس المملوكية في ضوء وثائق الحرم القدسي*

د. محمد نصر عبد الرحمن
أستاذ مساعد بكلية الآداب جامعة عين شمس

تعد وثائق الحرم القدسي الشريف[١] واحدة من أهم مصادرنا عن تاريخ مدينة القدس خلال العصر المملوكي ، لأنها تعتبر شواهد حية تتعلق بشئون سكان هذه المدينة من مسلمين وأهل ذمة، وهى بذلك تغطى حقبة تاريخية هامة من تاريخ هذه المدينة. وتكتسب أهميتها من أن الوثائق الخاصة بمدينة القدس خلال العصر المملوكي قليلة؛ فوثائق دير الفرنسيسكان قليلة ومحدودة، وتتناول العلاقة بين السلطة المملوكية

(*) ألقيت المسودة الأولى لهذا البحث في المؤتمر الدولي: (دراسة الوثائق الشرعية: المقاربات الحديثة المتعلقة بعلم البرديات والوثائق العربية) ، الذي عقد بكلية فرنسا بباريس- فرنسا عام ٢٠١٣:
Colloque international : « L'étude des documents légaux : nouvelles approches de la papyrologie et de la diplomatique arabes », Collège de France, Paris (France) - 2013.

(١) هي مجموعة من الوثائق الخاصة بمدينة القدس في العصر المملوكي، عثرت عليها نائبة مدير المتحف الاسلامي بالقدس "أمل أبو الحاج" في أحد خزائنه في الفترة بين عامي ١٩٧٤ – ١٩٧٦م ، وهى حوالي ٩٠٠ وثيقة تغطى الفترة من ٦٠٤هـ / ١٢٠٤م إلى ٨٦٦هـ / ١٤٦٧م . انظر: محمد عيسى صالحية ،" من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية "، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية السادسة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ص٩؛
Linda S. Northrup and Amal A. Abul-Hajj, "A Collection of Medieval Arabic Documents in the Islamic Museum at the Ḥaram al- Šarīf ", *Arabica* 25 (1979), pp.282-91; Little, D., "The Significance of the Ḥaram Documents for the Study of Medieval Islamic History," *Der Islam* 57 (1980), pp.189-217.
وتجدر الإشارة إلى أن العدد الإجمالي لهذه الوثائق مصور على ميكروفيلم توجد منه حالياً أربع نسخ: نسخة في المتحف الإسلامي في القدس ، ونسخة أخرى لدى مكتبة الجامعة الأردنيَّة ، ونسخة ثالثة لدى معهد الدراسات الإسلاميَّة بجامعة ماكجل McGill بكندا ، والنسخة الرابعة بمعهد البحوث وتاريخ النصوصIRHT بكلية فرنسا بباريس ، انظر: على السيد على ، وثائق الحرم القدسي الشريف مصدر لدراسة بعض جوانب التاريخ الاجتماعي للقدس في العهدين الأيوبي والمملوكي ، مجلة الدرعية ، العدد ٦-٧ ، ١٩٩٩ ، ص ٣٤٩.

والمسيحيين اللاتين ، كما أن سجلات محكمة القدس الشرعية، التي وصلت إلينا، ترجع للعصر العثماني ولا تغطى عصر المماليك[٢].

وتغطى هذه الوثائق العديد من الموضوعات الخاصة بسكان القدس خلال هذا العصر[٣]. وسوف تتناول هذه الدراسة أحد هذه الموضوعات وهو: التعاملات القضائية لأهل الذمة. وبرغم أن هناك دراسة سابقة، قام بها لتل Little، عن اليهود في القدس من خلال هذه الوثائق[٤]، إلا أنها كما يظهر من عنوانها ركزت على اليهود فقط ، وتحديداً نشر الوثائق الخاصة بهم، وإثبات تواجدهم في القدس خلال تلك الفترة. ولن تهتم دراستنا بتناول طبيعة إجراءات التقاضي في الحالات التي سنتناولها ، فهو أمر تناولته الدراسات التي قام بها كريستيان مولر Christian Müller عن القضاء وإجراءاته[٥]، ولكن ستركز على رصد التعايش في هذه المدينة بين أهل الذمة من اليهود والمسيحيين من ناحية ، والمسلمين من ناحية أخرى، تحت رعاية سلطة المماليك ، وذلك من خلال التعاملات

(٣) كامل جميل العسلي ، "وثائق مقدسية تاريخية" ، المجلد الأول ، عمان ١٩٨٣، ص٥١.

(١) وقد قام دونالد لتل Donald P. Little بتصنيف هذه الوثائق وترتيبها ، وعمل وصف لها في كتابه:
Little, D., *A Catalogue of the Islamic Documents from al-Ḥaram a Šarīf in Jerusalem* (Beirut, 1984).

(٢) انظر:

Little, D., "Ḥaram documents related to the Jews of late fourteenth century Jerusalem", *JSS* 30 (1985), pp.327-370.

(٣) انظر على سبيل المثال :

Müller,C., "A legal Instrument in the Service of People and Institutions: Endowments in Mamluk Jerusalem as Mirrored in the Ḥaram Documents", *MSR* 12(2008),pp.173-191; idem, Der Kadi und seine Zeugen Studie der mamlūkischen Dokumente des Ḥaram Šarīf. Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes, Harrassowitz Verlag, Wiesbaden 2013.

القضائية لأهل الذمة في القدس في ضوء هذه الوثائق. كما سنقوم بنشر وثيقة من وثائق الحرم القدسي المتعلقة بأهل الذمة لم تنشر من قبل[٦].

والمعاملات القضائية لأهل الذمة في القدس، من خلال هذه الوثائق، متنوعة، وتشمل: حالات حصر أعيان بغرض الإرث، وحصر موجودات، وعقود بيع، وعقود زواج وطلاق ، وبعض الشكاوى الخاصة. وهى بذلك تغطى جانبا كبيرا من الحياة الاجتماعية والاقتصادية لأهل الذمة في القدس خلال تلك الفترة ، وتوضح لنا إلى أي مدى كان تعايشهم مع المجتمع الإسلامي هناك. ومن المعروف أن اليهود والمسيحيين شاركوا المسلمين في القدس حياتهم ، سواء من حيث العادات والتقاليد، أو من حيث مساهمتهم في النشاط الاجتماعي والاقتصادي.

ومن خلال هذه المعاملات القضائية؛ يظهر لنا أنهم كانوا يتعاملون مع المسلمين وأحكام الشريعة الإسلامية بشكل عادى، دون الشكوى منها غالباً ، ونحن نعلم أن أهل الذمة، من اليهود والمسيحيين، خضعوا لأحكام الشريعة الإسلامية فيما يخص نظام الميراث، منذ أوائل القرن الثاني الهجري ، فصاروا يقسمون مواريثهم وفق التشريع الإسلامي[٧]. ولا يبدو الأمر نوعاً من فرض الشريعة الإسلامية على أهل الذمة، بقدر ماهو محاولة لحل بعض المشكلات الخاصة بالميراث بينهم، حيث أن الكتاب المقدس لا يقدم حلولاً كافية لمثل هذه الأمور[٨].

---

(٤) يسعدنى أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير للبروفيسور "كريستيان موللر" مسئول القسم العربي بمعهد البحوث وتاريخ النصوص IRHT بكلية فرنسا بباريس ، على منحى صورا من هذه الوثائق من المجموعة الميكروفيلمية الخاصة بالمعهد ، وتصريحه لى بنشرها.

(١) ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة ، ج٤ ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص٢٩٣-٢٩٤ ؛ سيدة الكاشف ، مصر الإسلامية وأهل الذمة ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص١٢٥.

(٢) يخلو العهد الجديد من أية إشارة عن طريقة تقسيم الميراث، أما العهد القديم فالأيات الخاصة بالميراث والواردة فى سفرى العدد والتثنية قليلة وغير محددة لنصيب كل فرد ، وتحجب الميراث عن البنت فى حالة وجود وريث ذكر ، كما تعطى الحق للابن البكر فى نصيب مضاعف من الميراث. انظر : سفر العدد ٢٧ / ٨ : ١١ ، سفر التثنية ٢١ / ١٥ : ١٧.

وقد سار أهل الذمة في القدس على نفس المنوال من الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية في تقسيم إرثهم ، ومن ذلك ما جاء بالوثيقة رقم (٥٥٠) بتاريخ ٢ جمادى الثاني ٧٩٦هـ/ ٤ ابريل ١٣٩٤م ، وموضوعها حصر إرث[٩]، وهى خاصة بتركة رجل مسيحي من سكان القدس، يدعى يوسف بن سعد بن جرجس البنا ، وكان يسكن داراً بحارة صهيون بالقدس، والوثيقة خاصة بتحديد ورثة الشخص المذكور ، وبعد أن تم تحديد التركة من قبل بيت المال ، حدد فيها يوسف من سيرثه وهم : زوجته ستيتة بنت سمعان النصرانية ، وابن عميه الغائبين سلمان وسالم. وتمت الوثيقة في حضور وكيل بيت المال، وبتصريح من قاضى القدس.

وتبدو تلك الوثيقة مشابهة لوثائق الإرث الإسلامية ، وعدم تحديد نصيب كل فرد من قيمة التركة، مع وجود وكيل بيت المال بالقدس، يوحى بأن تقسيم التركة سوف يكون وفقاً للشريعة الإسلامية، لأنها محددة ومعروفة للجميع ، مع ذهاب جزء منها لبيت المال، لأن الورثة وفقا للشريعة الإسلامية لا يستحقون الميراث كله.

وكانت تركة من يموت من أهل الذمة دون وريث؛ ترد على أهل ملته، منذ أمر بذلك الخليفة العباسي المقتدر بالله عام ٣١٩هـ / ٩٢٣م[١٠]، لكن الأمر تبدل خلال عصر المماليك وتم إدراجهم ضمن ديوان المواريث الحشرية [١١]، وذلك بعد المرسوم الذي أصدره السلطان الصالح صالح بن محمد بن قلاوون، عام ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، بمعاملة أهل الذمة نفس معاملة المسلمين، وضمهم إلى هذا الديوان ، حيث نص المرسوم على: " أن كل

---

[٣] انظر وصف هذه الوثيقة فى:

Little, *A Catalogue of the Islamic Documents*,p.141.

[١] الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، تحقيق: إبراهيم الإبيارى ، مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص٢٤٨.

[٢]كان هذا الديوان مخصصاً للأموال التى لا يعلم لها مستحق كاللقطة ، ومال من يموت وليس له وارث ، أو إذا ترك المتوفى وارثاً لا يستحق كل الميراث حسب الشرع. انظر: ابن مماتى ، كتاب قوانين الدواوين ، تحقيق: عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص٣١٩ ؛ أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٩٩ ، ص١٤٧.

من مات من اليهود والنصارى والسامرة ، الذكور والإناث منهم ، يحتاط عليهم من ديوان المواريث الحشرية بالديار المصرية وأعمالها ، وسائر البلاد الإسلامية المحروسة ، إلى أن تثبت ورثته ما يستحقونه من ميراثه بمقتضى الشرع الشريف ، وإذا أثبتوا ما يستحقونه يعطونه بمقتضاه ، ويحمل ما فضل بعد ذلك لبيت المال المعمور ، ومن مات منهم ولا وارث له يستوعب إرثه ، حمل موجودة لبيت المال المعمور ، ويجرون في الحوطة على موتاهم من دواوين المواريث، ووكلاء بيت المال المعمور، مجرى من يموت من المسلمين إلى أن تتبين مواريثهم "[٣].

وتؤكد الوثيقة رقم (٣٣٠) ، بتاريخ ٧٩٥هـ/١٣٩٣م على هذا الأمر ، حيث تذكر أن أحد المسيحيين ويدعى يعقوب النصراني؛ قد توفى دون أن يكون له وريث ، وترك داراً بحارة النصارى بالقدس ، وقد آلت ملكية هذه الدار لبيت المال، بعد توثيق الأمر لدى القاضي شرف الدين الشافعي. وسوف نقوم بنشر هذه الوثيقة والتعليق عليها بالتفصيل لمزيد من الإيضاح حول طبيعة هذا الأمر.

(الوصف الشكلي للوثيقة)

- رقم الوثيقة: ٣٣٠
- مصدر الوثيقة: صورة ميكروفيلم بمعهد البحوث وتاريخ النصوص IRHT بكلية فرنسا بباريس عن النسخة الأصلية بمتحف الإسلامي في القدس.
- مادة الوثيقة: الورق ومكتوبة بالخط العربي.
- أبعاد الوثيقة: ٢٨.٢× ٢٩.٣ سم.
- حالة الوثيقة: الوثيقة بحالة جيدة.

(الوصف الموضوعي)

- التاريخ: ٧٩٥هـ/١٣٩٣م.

[٣] القلقشندي ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، ج١٣ ، القاهرة ١٩١٨ ، ص٣٨٤-٣٨٥.

- موضوع الوثيقة: الوثيقة مزدوجة ، تحمل على وجهها شهادة بنقل ملكية متوفى إلى بيت المال ، وعلى ظهرها إشهاد بصحة الشهادة الموجودة على الوجه.

(الوجه)[١٣]

- بتاريخ: العشر الأول من شعبان ٧٩٥هـ/١٢-٢١ يونيه ١٣٩٣م.
- موضوعها: شهادة بنقل ملكية متوفى.
- يوجد بأعلى الوثيقة علامة للقاضي ، وتسعة أسطر هي نص الوثيقة ، وشهادة سبعة شهود بجانب توقيعين للقاضي في الحاشية اليمنى للوثيقة.

(الظهر)[١٤]

- بتاريخ: ٢٢ صفر سنة ٧٩٦هـ/٢٧ ديسمبر ١٣٩٣م.
- موضوعها: إشهاد من القاضي بصحة الشهادة.
- يوجد بأعلى الوثيقة من اليسار علامة للقاضي، وعبارة خاصة بالمحضر أعلى اليمين، وثمانية أسطر هي نص الوثيقة، وشهادة ثلاثة شهود.

(نص الوثيقة)

(الوجه)

(الرأس)

الحمد لله وأسأله التوفيق

(الحاشية اليمنى)

ليشهد بثبوته، والله المستعان، المولى الشيخ شرف الدين

(النص الرئيسي)

١ - بسم الله الرحمن الرحيم

---

(١) انظر اللوحة رقم: (١).

(٢) انظر اللوحة رقم: (٢).

٢- شهد ووضع خطه آخره ومن يكتب عنه بإذنه وهم من أهل العلم والخبرة التامة النافية للجهالة بما يشهدون من شهادة

٣- هم بها عالمون ولها محققون لا يشكون في شأ منها ولا يرتابون أنهم يعرفون جميع الدار الكائنة بالقدس الشريف بحارة

٤- النصارى[١٥] بحارة صهيون[١٦] المشتملة على سفل وعلو ومنافع ومرافق وحدها بكمالها من القبلة حاكورة[١٧] السدرة بيد ورثة المرحوم صارم

٥- الدين الهدباني وتمامه حانوت معد للنسخ بيد الورثة المذكورين ومن الشرق الدرب السالك وفيه بابها ومن الشمال ورثة شمويل اليهودي

٦- ومن الغرب الزدق[١٨] ملكا من أملاك بيت المال المعمور بالقدس الشريف بحكم أنها كانت ملكا ليعقوب الرهاوي النصراني المالك قبل تاريخه عن غير وارث

٧- شرعي سوى بيت المال المعمور بالقدس الشريف علم شهوده ذلك وحققوه يقينا وسطر ذلك حسب الاذن الكريم العالي

٨- سيدنا ومولانا قاضي المسلمين شيخ الشيوخ أبي الروح عيسى الشرفي الحاكم الشافعي الحاكم بالقدس الشريف وأعمالها ومضافاتها أدام الله تعالى

٩- تأييده وأجزل من فضله مزيده بتاريخ العشر الأول من شهر شعبان المكرم سنة خمس وتسعين وسبعمائة

(أ)

١٠- شهد بمضمونه الحاج

---

(١) كانت تقع في الربع الغربي لكنيسة القيامة ، انظر: مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ج٢ ، النجف ١٩٦٦ ، ص٥٣.

(٢) كانت تقع في الجهة الجنوبية من القدس. انظر: مجير الدين ، المصدر نفسه ، ص١١١.

(٣) هي أرض تحبس لزرع الأشجار قرب الدور ، والمقصود بها هنا الفناء الخلفي للبيت. انظر : مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، ط٤ ، القاهرة ٢٠٠٤ ، ص١٨٩.

(٤) يقصد بالزدق العشور السنوية التي كانت تدفعها الابراشيات لبطريرك القدس ، وربما يقصد بها هنا المبنى المخصص لذلك.

١١- على بن عبد الكريم عُرف بالبتبرى

١٢- كتبه عنه بإذنه وحضوره

١٣- شهد عندي

(ب)

١٠- شهد بمضمونه

١١- عمر بن يحيى بن حص المالكي

١٢- وكتب عنه بإذنه

١٣- شهد عندي

(ج)

١٠- شهد بمضمونه

١١- كتبه على بن داود بن محمد

١٢- شهد

(د)

١٠- شهد بمضمونه

١١- كتبه صالح بن عثمان

١٢- شهد عندي

(هـ)

١٣- شهد بمضمونه

١٤- على بن حسن بن سعيد بن يحيى

١٥- كتب عنه بإذنه وحضوره

١٦- شهد

(ى)

١٦- شهد بمضمونه

١٧- أحمد عطاء الله المقدسي

١٨- كتب عنه بإذنه وحضوره

١٩- شهد عندي

(الظهر)

(الرأس)

(اليمين)

١- --------

٢- محضر

٣- تركة يعقوب الرهاوى

(اليسار)

١- أشهد بصحته

(النص الرئيسى)

١- الحمد لله تعالى اللهم صلى على سيدنا محمد وآله وسلم

٢- أشهدني سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى قاضى المسلمين شرف الدين صدر المدرسين مفتى المسلمين قدوة العارفين مربى المربين شيخ الشيوخ أبو الروح عيسى بن سيدنا

٣- العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ برهام العالم العلامة جمال الدين مربى المربين شيخ الشيوخ أبى الجود غانم الأنصاري الخزرجى الشافعي الحاكم بالقدس الشريف

٤- وأعمالها بالولاية الصحيحة الشرعية وشيخ الشيوخ وناظر الأوقاف المبرورة أدام الله تعالى تأييده وأجزل في فضله مزيده على نفسه الكريمة حرسها الله تعالى

٥- وهو في مجلس حكمه ومحل ولايته نافذ القضاء والحكم ماضيهما أنه ثبت عنده وصح رأيه بعد تقدم الدعوة الشرعية المسموعة

٦- وما ترتب عليها شرعاً شهادة من أعلمهم ....عنهم شهادتهم آخر ذيل المسطور باطنه عرفهم وقبل شهادتهم مضمون المحضر المسطور باطنه

٧- على الوجه المقر المشروح باطنه حسبما قامت به البينة باطناً ثبوتاً شرعياً معتبراً مرضياً مستوفياً شرايط الشرعية

٨- وواجباته المرعية وأعتبار ما يجب اعتباره شرعاً وشهد على ذلك في الثاني والعشرين من صفر الميمون سنة ست وتسعين وسبعمائة

٩- وكتب

١٠- محمد بن أحمد البرلسي

١١- كذلك اشهدني لطف الله لي وله فشهدت على ذلك في تاريخه كتب عبد الله بن سليمان المالكي

١٢- كذلك أشهدني سيدنا الحاكم المشار إليه أعلاه أيده الله تعالى فشهدت على ذلك

١٣- كتب ----------

(التعليق)

بوجه عام تؤكد هذه الوثيقة على تطبيق المرسوم الذي أصدره السلطان الصالح صالح بن محمد بن قلاوون عام ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م بمعاملة أهل الذمة نفس معاملة المسلمين وضمهم لهذا لديوان المواريث الحشرية ، وأن من كان يموت من أهل الذمة بدون وريث ، يتم ضم تركته إلى بيت المال بالقدس. كما يؤكد الإشهاد الملحق بها على حرص السلطة المملوكية على استيفاء كافة الإجراءات القانونية المتبعة ، حتى تضمن إقرار العدل مع كافة الرعية من المسلمين أو أهل الذمة.

(الوجه)

(الرأس والحاشية)

تبدأ الوثيقة بعبارة (الحمد لله وأسأله التوفيق)[١٩]، وهى تعرف بعلامة القاضي التي كان يكتبها بعد الانتهاء من كتابة الوثيقة ، وكانت تكتب بخط كبير إلى يسار البسملة ، وكان لكل قاض علامة أو تأشيرة يعرف بها ولا يغيرها ، وهى تبدأ ب " الحمد لله " أو " أحمد الله

وفى الحاشية اليمنى من الوثيقة نجد توقيع القاضي الذي يؤكد تمام الشهادة (ليشهد بثبوته والله المستعان) وهى من علامات الدعوى إذا قامت البينة عليها[٢١]، وجزء من اسمه وهو شرف الدين. وهذا جزء من اسم القاضي شرف الدين عيسى بن جمال الدين غانم بن شرف الدين عيسى (ت٧٩٧هـ/١٣٩٥م) ، وقد عمل نائباً لقاضى نابلس في الفترة من ٧٨١-٧٨٥هـ / ١٣٨٠-١٣٨٣م ، ثم قاضياً للقدس عام ٧٩٣هـ/١٣٩٠م ، ثم قاضياً للقضاة في الفترة من ٧٩٥-٧٩٧هـ/١٣٩٢-١٣٩٥م[٢٢].

(النص)

---

(١) وهذه العبارة إحدى العلامات المشهورة لهذا القاضى ، وظهرت فى عدد من الوثائق المنشورة أو التى لم تنشر بعد ، راجع نماذج لهذه العلامة فى بعض الوثائق عند :

Little, D.,"Two Fourteenth Century Court Records from Jerusalem Concerning the Disposition of Slaves by Minors," *Arabica* 29 (1982), pp.17-28; idem," Documents related to the estates of a merchant and his wife in late Fourteenth Century Jerusalem ", *MSR* 2(1998), p.105.

(٢) الأسيوطى ، جواهر العقود ومعين القضاة والموقعين والشهود ، ج٢ ، نشر: محمد سرور الصبان ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص٣٧٦ ؛ العسلى ، وثائق مقدسية ، ج٢ ، ص٢٢. وللمزيد من التفاصيل عن استخدام القضاة للعلامات فى العصر المملوكى المتأخر وبداية العصر العثمانى انظر:

Vesely, R., "Die richterlichen Beglaubigungsmittel: Ein Beitrag zur Diplomatik arabischer Gerichtsurkunden", *Orientalia Pragensia* 8 (1971), pp.12-18.

(٣) الأسيوطى ، المصدر نفسه ، ص٣٧٦.

(٤) مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج٢ ، ص١٢٧؛

Little, *A Catalogue of the Islamic Documents*, p.9-10.

١- يبدأ النص هنا بداية تقليدية بالبسملة كما العادة في معظم الكتابات المملوكية[٢٣] ووثائق الحرم القدسي ، وإن كان بعضها لا يبدأ بالبسملة[٢٤].

٢- يتحدث هذا السطر عن طبيعة ثقافة الشهود ، ونعرف منه أن بعضهم كان يجيد الكتابة وقد وصفهم (وضع خطه آخره) ، أي كتبوا شهادتهم على الوثيقة بأنفسهم ، والبعض الآخر لم يكن يجيد الكتابه (يكتب عنه بإذنه) ، لذلك قام كاتب الوثيقة بالكتابة نيابة عنه، مع الحرص على إثبات أن جميع الشهود يدركون قيمة ومعنى شهادتهم.

٣- هنا يتم التأكيد على وعى الشهود بقيمة شهادتهم ومعرفتهم الكاملة بالدار التي سوف تؤول ملكيتها لبيت المال.

٤-٥: في هذين السطرين يتم تحديد موضع البيت بدقة ، وحدوده من الجهات الأربع ، وهو أمر معتاد في الوثائق الخاصة ببيع وشراء وملكية العقارات والأراضي ، وذلك من أجل مراعاة حقوق الملاك أو المستأجرين[٢٥]. وقد ذكر هنا أن هذه الدار بحارة النصارى ، وقد يبدو من الإسم أن هذه المنطقة خاصة بسكنى المسيحيين فقط ، لكن الواقع أن المسلمين كان لهم في هذه الحارة بعض البيوت كما ظهر لنا في بعض وثائق الحرم القدسي[٢٦].

٦- نص هذا السطر صراحة على انتقال ملكية البيت من يعقوب النصراني إلى بيت المال لأنه مات دون وريث ، وهذا يؤكد على ما سبق ذكره من معاملة أهل الذمة نفس معاملة المسلمين في شئون المواريث الحشرية.

(٢) الأسيوطى ، جواهر العقود ، ج١ ، ص٢٥.
(٣) انظر على سبيل المثال الوثائق رقم : ٤٦٧ ، ٥٠٣ ، ٥٥٤.
(٤) ابن أبى الدم الحموى ، أدب القاضى ، تحقيق : محى الدين السرحان ، بغداد ١٩٨٤ ، ص٥٤٥.
(٥) راجع هذه الوثائق فى : كامل جميل العسلي: وثائق مقدسية ، ج١ ، ص٢٧٦-٢٧٨.

٧- يمثل هذا السطر التنظير القانوني للشهادة ، حيث يضم المالك الجديد وهو بيت المال ، والشهود المقرين بصحة نقل الملكية ، وإذن القاضي ، مما يمنح الشهادة الشرعية القانونية.

٨- عبارة " سيدنا ومولانا " المذكورة هنا كانت تطلق على قاضي قضاة الشافعية ، حيث كان قاضي قضاة الشافعية بالديار المصرية ورفقته الثلاثة يطلق عليهم: " سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الإمام ، العالم العلامة .... ، ويكتب لقضاة القضاة الأربع بالشام ما يكتب للأربعة بمصر"[٢٧]. أما عبارة شيخ الشيوخ فكانت تطلق عادة على شيخ الصوفية ، أو المتولي الإشراف على الخانقاوات الصوفية[٢٨] ، ويبدو أنه حمل هذا اللقب لأنه كان يشرف على الخانقاه الصلاحية[٢٩] بجانب عمله بالقضاء[٣٠].

٩- نلاحظ هنا أن الكاتب لم يحدد يوماً بعينه تمت فيه الشهادة ، بل حدد التاريخ بالعشر الأول من شهر شعبان ، ومصطلح (الأول ، الأوسط ، الأخر) تعبير دارج في المصادر التاريخية المملوكية ، ونجده في بعض وثائق الحرم القدسي ، وهو عادة يستخدم حينما لايعرف اليوم الذي تم فيه الحدث تحديداً ، لكن ربما هنا نتوقع أن تجهيز هذه الشهادة استغرق أكثر من يوم ، ربما لحضور الشهود أو غيرها من الإجراءات ، لذلك فضل الكاتب إجمال الفترة كلها دون تحديد يوم بعينه.

١٠-١٩: وقد ذيل العقد بتوقيع سبعة من الشهود ، وقع اثنان منهما بخطهما لأنهما يجيدا الكتابة ، بينما وقع الكاتب عن الخمسة الآخرين لعدم اجادتهما الكتابة بعد أخذ إذنهم في ذلك. وهي إحدى شروط صحة الشهادة ، حيث يقول الماوردي: " وعلى

---

[١] انظر: الأسيوطي ، جواهر العقود ، ج٢ ، ص٥٩٣-٥٩٤.

[٢] انظر: القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٦ ، ص٥٧.

[٣] هو بناء أوقفه السلطان صلاح الدين الأيوبي على الصوفية بمدينة القدس عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م ، وكان شيخ الخانقاه يعين من السلطان بمرسوم ، ويكون وراثياً في عائلته. انظر: القلقشندي ، المصدر السابق ، ج١٢ ، ص١٠٥-١٠٦.

[٤] مجير الدين ، الأنس الجليل ، ج٢ ، ص١٢٧.

الشاهدين من الاحتياط في الشهادة به أن يوقعا فيه خطهما ويختماه بختمهما ، ليكون ذلك علامة لهما في نفى الارتياب عنهما ، ويكون ختمهما في داخل الكتاب وختم القاضي على ظهره معطوفا. فإن اقتصر الشاهدان على الخط دون الختم جاز ذلك .. "[1]. ونلاحظ بعد كتابة الشهود السبعة كلمة شهد عند ثلاثة منهم ، وعبارة شهد عندي عند أربعة منهم ، وهذه العبارة تتعلق بطبيعة الشهود ، وهل هم شهود عدول[2] أم لا ، فإذا كان القاضي يعرف الشاهد وتم تزكيته عنده كتب (شهد عندي بذلك) ، أما الشاهد الذي لم يزكى عنده فيكتب شهد فقط[3]. وعليه فهناك أربعة من الشهود عدول تم تزكيتهم لدى القاضي وإن اكتفى هنا معهم بعبارة (شهد عندي) ، والثلاثة الآخرين لم تتم تزكيتهم عند القاضي. وكان على القاضي ألا يسجل حكمه إلا بحضور شاهدي عدل على أقل تقدير ليشهدوا ويكتبوا خطوطهم بالشهادة[4].

(الظهر)

(الرأس)

نجد في الحاشية اليمنى عبارة تشير إلى طبيعة الوثيقة ، وأنها استكمال لمحضر تركة المتوفى ، وفى الحاشية اليسر من الوثيقة نجد توقيع القاضي الذي يؤكد تمام الشهادة (أشهد بصحته) وهى من علامات الدعوى إذا قامت البينة عليها كما سبق أن ذكرنا.

(النص)

١- البداية التقليدية للوثائق وهى ذكر عبارات الحمد والصلاة على الرسول ﷺ ، وهى بداية مشتركة في أغلب الوثائق.

---

(١) الماوردى ، الحاوى الكبير فى فقه مذهب الامام الشافعي ، ج١٦ ، بيروت ١٩٩٩ ، ص٢٢٨.

(٢) شاهد العدل: هى وظيفة قضائية يتولاها طائفة من الشهود خصوا بالعدالة دون سواهم ، وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضى بالشهادة بين الناس فيما لهم أو عليهم. انظر: الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص٦٦ ؛ محمد محمد أمين ، الشاهد العدل فى القضاء الإسلامى ، دراسة تاريخية مع نشر وتحقيق إسجال عدالة من عصر سلاطين المماليك ، حوليات إسلامية ، العدد ١٨ ، ١٩٨٢ ، ص٥.

(٣) الأسيوطى ، جواهر العقود ، ج٢ ، ص٣٧٢.

(٤) محمد أمين ، المرجع السابق ، ص٩.

٢- تدل عبارة (أشهدني سيدنا القاضي) على أن الشاهد كبير القدر ، مثل أن يكون قاضياً أو قريباً منه ، لأن الشاهد العادي يكتب (أشهد على المقر)[٣٥]، لكن يبدو أنه كان أكبر قدراً من أصحابه فبدأ الشهادة بنفسه. والعبارة نفسها دلالة على أن القاضي قد طلب منه الشهادة مع استجابة الشاهد لطلبه.

٢-٣: يحتوى هذين السطرين على بعض الألقاب الخاصة بالقاضي شرف الدين ، وكذلك ذكر اسمه واسم أبيه واسم جده ، وذلك حتى تكتمل صورة الإشهاد على الحاكم على طريقة الشاميين ، وهذه الصيغة تدل على أن القاضي هنا لم يكن قاضيا للقضاة بل نائباً فقط، وفقا لصورة الإشهاد التي ذكرها الأسيوطي[٣٦].

٤- يقصد بناظر الأوقاف ، الأوقاف الخاصة بالخانقاة الصالحية التي كان يديرها القاضي ، وهى الأوقاف التي خصصها صلاح الدين الأيوبي للإنفاق على الخانقاه[٣٧]. والمبرورة من الألقاب التي كانت تجرى مجرى التفاؤل ، تيمناً بالبر الذي سيناله صاحبها[٣٨] .

٥- يقصد بالدعوة الشرعية المسموعة ، قيام القاضي بالاستماع للدعوى من المشاركين فيها، لأن أول شرط يحتاجه القاضي، فيما يثبته أو يحكم بموجبه أو صحته ، هو تصحيح الدعوى في ذلك كله وسماعها[٣٩].

٦-٨: يذكر القاضي هنا ثقته في شهادة الشهود الواردين في الشهادة السابقة ، كما يؤكد على سلامة كافة الإجراءات المتبعة في الشهادة ، وهو بذلك يحدد للشهود الجدد، على هذا الإشهاد، سلامة الشهادة حتى يضعو شهادتهم دون ريبة أو تخوف.

---

(١) الأسيوطى ، جواهر العقود ، ج٢ ، ص٤٤٦.
(٢) المصدر نفسه ، ص٤٥٢.
(٣) مجير الدين ، الانس الجليل ، ج٢ ، ص١٢٧.
(٤) انظر: القلقشندى، صبح الأعشى ، ج٦ ، ص١٦٨ ؛ صالحية ، من وثائق الحرم القدسى ، ص٤٤.
(٥) الأسيوطى ، المصدر السابق ، ص٣٧٣.

٩-١١: أسماء الشهود ، ويظهر أولهم صاحب الأهمية، ثم يتبعه الشاهدان الآخران في الإقرار بصحة الإشهاد، من أجل تعزيز صحة الشهادة السابقة.

وتشير الوثائق إلى الحِرْص الشديد، من أهل الذمة، عندما يشعرون بمرض قد يخشى منه الموت، على أن يتركوا لنسائهم وبناتهم ، وأمَّهاتهم وأخواتهم، ما يَضْمنون لهن به حياة كريمة ، خصوصًا إذا كان الزوج لم ينجب من زوجته ، أو يكون بلا وريث من الأبناء ، وإذا لم يستغرق الورثة الإرث كله؛ فإن بيت المال والمتمثِل في ديوان المواريث الحشرية؛ كان سيحصل على نصيب أكبر من التركة ، فكان الرجل منهم إما أن يعمل حصرًا بموجوداته، قبل الوفاة، على يد أحد قُضاة الشَّرْع والشهود ، ويثبت أن تركته مَدِينة لزوجته ، وأن لها في ذمته مبلغ كذا، كمؤخر صداقٍ ، أو أن يقوم ببيع كل ممتلكاته لها، أو وقفها عليها ، أو على أخته أو أمه ، أو ابنته أو جاريته.

ومن أمثلة حرص أهل الذمة على ترك وصاياهم الخاصة بالميراث لدى القاضي الشرعي: الوثيقة رقم (٥٠٤) بتاريخ ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م، وموضوعها حضْر أعيان بقصْد الإرث ، فقد جاء فيها ما يلي:

"حصل الوقوف على رجل يُسمَّى راشد ابن هارون بن سمعان النصراني الشوبكي ، بدير العامود بالقدس الشريف ، والذي أقَرَّ أنَّ موجودَه ومستحق إرْثه زوجته مريم بنت فريح ابن شند ، النصرانية الشوبكية، وبناته ست الأهل ، المرأة الكامل ، وست النظر الرضيعة ، وشقيقه غانم الغائب بالشوبك. وأقرَّ أنَّ في ذِمَّته صَدَاق زوجته مريم ، من الذهب سِتَّة وثلاثون دينارًا"[1].

وتبدو تلك الوصية مشابهة للوصايا الإسلامية، وعدم تحديد نصيب كل فرد من الوصية؛ يوحى بأنها سوف تكون وفق الشريعة الإسلامية، لأنها معروفة للجميع. وتدل هذه الوثيقة على أمرين : الأول ، ثقة أهل الذمة في السلطة الحاكمة، التي يمثلها

---

[1] صالحية ، من وثائق الحرم القدسي ، ص١٠٥ ؛
Little, *A Catalogue of the Islamic Documents*, p.131.

القاضي، في الحفاظ على حقوقهم ، والثاني هو قبول أهل الذمة للشريعة الإسلامية في تنظيم بعض شئون حياتهم ، وخاصة التي لم ترد فيها نصوص في كتبهم المقدسة ، مما يوحى بالثقة المتبادلة بين الطرفين.

كما كان أهل الذمة أحيانا يقدمون طلباً لديوان المواريث الحشرية ، ويقوم أحد رجال الديوان بحصر الممتلكات وتسليمها للمستحقين للإرث. وفى الوثيقة رقم (١٩٧) بتاريخ ٧٩٥هـ/١٣٩٣هـ ، وهي تتعلّق بأحد اليهود، نجد عملية حصر لممتلكاته ، ثم تحديد من يستحق ارثه ، حيث جاء فيها ما يلي:

" وُقف على رجل ضعيف يهودي يسمى " اسحق بن شمويل بن يوسف " بحارة اليهود بالقدس الشريف .. ، أقر أنه فرض لزوجته " سمحة ابنة يهودا الإفرنجية " ، ومؤخر صداقها ستين أفلوري ذهب ، ومستحق إرثه زوجته المذكورة ووالدته " دوسا بنت سلتين الإفرنجية "[١].

ولم يقف هذا الأمر على الرجال فقط ، بل شمل النساء أيضاً ، حيث كن يقدمن طلباً أيضاً لحصر تركتهن وتحديد من يرثهن. ومثال ذلك الوثيقة رقم (٣٨٤) بتاريخ ٧٩٥هـ/١٣٩٣م ، وهى تتعلق بسيدة مسيحية تدعى " أفروشيا بنت التاج اسحق النصرانية "، وقد حددت فيها تركتها ، وكذلك وريثتها وتدعى " فخر النساء بنت سالم ". وكذلك الوثيقة رقم (٥١١) بتاريخ ٧٩٥هـ/١٣٩٣م ، وهى تتعلق بإمرأة مسيحية تدعى " ستوت بنت أشعيا النصرانية " ، وفيها تحدد هذه المرأة أن ورثتها هما أخويها " يوحنا وفرج الله "[٢].

ولا يبدو ما قام به بعض أهل الذمة، في الوثائق السابقة، غريبا أو شاذاً عن تقاليد المجتمع وقتها ، لأن المسلمين كانوا يقومون به أيضاً لضمان حفظ حقوق أسرهم. ففي الحالة الأولى الخاصة براشد بن هارون ، نجد أنه كان يعلم أن عدم وجود وريث ذكر

---

(١) العسلى ، وثائق مقدسية ، ج٢ ، ص٤٢.

(٢) راجع ملخص هاتين الوثيقتين فى:

Little, *A Catalogue of the Islamic Documents*, p.133.

له يعني أن الثروة كلها لن تؤول لعائلته، بل سيذهب جزء منها لبيت المال ، لذلك حرص على أن يذكر أنه ما زال مديناً لزوجته بصداقها البالغ ٣٦ ديناراً، حتى تحتفظ أسرته بالإرث كاملا ، وظهر ذلك في بداية الوثيقة نفسها، والتي حددت الورثة دون أن تذكر بيت المال من ضمن الورثة ، على الرغم من أن الورثة لا يستحقون الميراث بأكمله. وقد رأينا في وثائق أخرى أن بيت المال كان يتم ذكره حين يكون الورثة لا يستغرقون كل التركة ، كما في الوثيقة رقم (١٦٣) بتاريخ ٧٩٣هـ/١٣٩١م ، الخاصة بحصر أعيان بغرض الإرث ، حيث ذكر بجوار عبارة الوارثون (زوجها ، محمد بن محمد السمنودى ، وبيت المال المعمور)[٤٣].

أما الحالة الثانية فكانت أمراً معتاداً من أجل التسجيل الرسمي للإرث ، حفاظاً على حقوق الورثة، ومنعاً لأي تعدٍ عليها ، ويبدو فيها ثقة أهل الذمة في رجال السلطة القضائية ، ومراعاتهم للحقوق، سواء للمسلمين أو لغيرهم من أهل الذمة ، حتى لو كان الورثة من اليهود الغربيين. ورغم أن لتل[٤٤] افترض أنهم ربما يكونون من زوار القدس، نظراً لأن اسحق لم يكن يملك الدار التي يسكنها ، وكذلك لأن زوجته وأمه كانتا أوربيتين. إلا أن هذا لا يبدو صحيحاً، لأن الوثيقة لم تذكر ذلك صراحة. وقد اعتدنا في وثائق الحرم القدسي أن يذكر بلد الرجال والنساء المذكورين فيها؛ لو كانا من منطقة أخرى غير القدس.

لكن ذلك لم يكن يعني أن ليس هناك بعض التجاوزات؛ التي وقعت ضد بعض أهل الذمة من جانب موظفي السلطة المملوكية ، ومن ذلك ما ورد في الوثيقة رقم (٣٣٥) بتاريخ ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م ، وهي عبارة عن تحقيق في شكوى كان قد تقدم بها شيخ

---

(1) انظر نص هذه الوثيقة في: صالحية ، من وثائق الحرم القدسي ، ص٨٤.

(2) See: Little, Ḥaram documents related to the Jews, p.242.

المغاربة في القدس، ويدعى محمد بن عبد الوارث المالكي، إلى نائب السلطنة في دمشق[٤٥]، وهو المسئول عن أمور القدس. وقد ذكر في الشكوى أن أحد اليهود ويدعى إبراهيم الأمتى توفى وترك وصية لأحد أقاربه ، لكن الموصى له كان في السجن ، وهنا قام متولي المدينة[٤٦] بمصادرة أمواله لبيت المال، دون النظر للوصية، ولم يستجب لشكاوى اليهود هناك. وهنا لجأ اليهود إلى أحد كبار المشايخ المسلمين، وهو محمد المالكي ، الذي حاول إثناء الوالي عن قراره لكنه فشل في ذلك، فكتب شكوى إلى نائب السلطنة في دمشق يوضح له ظلم الوالي وتعسفه ، ويطلب منه التدخل وتنفيذ الوصية. وقد استجاب النائب للشكوى وأمر بالتحقيق فيها[٤٧].

ومن خلال تلك الوثيقة يمكننا الوقوف على بعض الملاحظات ؛ أولها أن هذه الوثيقة تؤكد على العلاقة الطيبة بين المسلمين واليهود في القدس ، وهو ما دفع اليهود للتوسط لدى شيخ مسلم لاستعادة حقوق واحد منهم، وترحيب الشيخ بذلك ، وتنفيذ الأمر لكي تعود إليهم حقوقهم. كما تشير إلى حرص السلطات المملوكية على تحقيق العدالة، وحماية حقوق أهل الذمة في أراضيها ، وهو أمر معروف عن المماليك في علاقتهم بأهل الذمة من رعيتهم.

ومن المعاملات القضائية الأخرى الخاصة بأهل الذمة في القدس: حالات الزواج والطلاق أو الخلع[٤٨]. ومثال ذلك الوثيقة رقم (٣٠٢) بتاريخ ٧٩٤هـ/١٣٩٢م وهى وثيقة

---

(٣) هو لقب للقائم مقام السلطان المملوكى فى عامة أموره أو أغلبها ، وكانت الشام منقسمة إلى عدة نيابات أهمها دمشق ، وكان يقال لنائبها كافل السلطنة. انظر : محمد أحمد دهمان ، معجم الألفاظ التاريخية فى العصر المملوكى ، دمشق ١٩٩٠ ، ص١٤٩.

(٤) لقب يطلق على من يسند إليه القيام أو الإشراف على عمل من الأعمال أو من يتقلد منصباً من المناصب أو ولاية من الولايات. انظر: حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ج٣ ، دار النهضة العربية ، ص٩٩٦.

(١) انظر نص هذه الوثيقة فى : صالحية ، من وثائق الحرم القدسى ، ص٩٢-٩٣؛
Little, Ḥaram documents related to the Jews,pp.244-245.

(٢) الخُلع فى اللغة هو: أن تطلب المرأة من زوجها أن يطلقها مقابل فدية من مالها ، وفى الاصطلاح هو: فرقة بين الزوجين بعوض مقصود لجهة الزوج بلفظ (طلاق) أو (خلع). انظر: شمس الدين

مزدوجة؛ تحمل على وجهها عقد زواج خاص برجل مسلم (عبد الله بن منصور) وامرأة مسيحية (سعيدة بنت تواكيل) يثبت الزواج بينهما، وقيمة الصداق المدفوع من الزوج لزوجته ، وعلى ظهرها عقد الخلع الخاص بهما، بتاريخ ٧٩٥هـ/١٣٩٣م. حيث تطلب الزوجة من زوجها الخلع مقابل رد صداقه ، مع قبول الزوج لذلك دون مشاكل. ومن خلال هذه الوثيقة نلاحظ وجود بعض حالات للزواج بين المسلمين وأهل الذمة ، وهو أمر ليس بجديد ، إذ كان أمراً معتاداً في المجتمع الاسلامى ، حيث تُحِل الشريعة الإسلامية زواج المسلم من نساء أهل الكتاب من اليهود والنصارى[4] ، ويكون للكتابية نفس حقوق المسلمة في النفقة والقسم والطلاق[5].

كما نلاحظ أن الزواج تم وفق الشريعة الإسلامية وفق المذهب الشافعي ، وهو المذهب الذي كان سائداً وقتها في مصر وبلاد الشام[1]. وعلى هذا الأساس استغلت الزوجة المسيحية ذلك في طلب الخلع من زوجها، مع رد ما دفعه من صداق لها، وفق الشريعة الإسلامية. ويؤكد ذلك على حالة الانسجام والتعايش مع أهل الذمة في مجتمع القدس الإسلامي.

ولم تقتصر التعاملات القضائية لأهل الذمة على النواحي الاجتماعية فقط ، بل شملت بعض الأحوال الاقتصادية ، مثل: عقود بيع وشراء ، وقروض ، وإقرارات بحظر العمل ببعض الأنشطة الاقتصادية. ومن هذه النماذج الوثيقة رقم (١٥) بتاريخ ٧٤٣هـ/١٣٤٣م[2]، وهى عقد بيع لدار بحارة النصارى لأحد المسيحيين، ويدعى رزق الله

الأنصارى ، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ، ج٦ ، دار إحياء التراث العربى ، ١٤١٣هـ ، ص٣٩٣ ؛ المعجم الوسيط ص٢٥٠.

(٣) وذلك وفق قوله تعالى: (وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ). آية (٥)– سورة المائدة ؛ الشافعى ، الأم ، ج٥ ، دار المعرفة ١٩٩٠ ، ص٧.

(٤) الماوردى ، الحاوى الكبير فى فقه مذهب الإمام الشافعى ، ج٩ ، بيروت ١٩٩٩ ، ص٢٢٠.

(١) على السيد على ، القدس فى العصر المملوكى ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص١٢٢.

(٢) انظر وصف هذه الوثيقة فى:

Little, *A Catalogue of the Islamic Documents*,pp.277-278.

بن بولس النصراني ، والبائع هنا هو بيت المال بالقدس، وهو شخص اعتباري، لذلك كان النائب عنه وكيل بيت المال، ويبدو أن هذه الدار كانت مما يؤول لبيت المال من الموتى دون وريث.

ونحن نعلم أن حارة النصارى، برغم اسمها، كان للمسلمين فيها بعض البيوت كما سبق أن ذكرنا ، كما كان للمسلمين أيضاً بعض البيوت في حارة اليهود[٣]. وعليه لم يجد بيت المال غضاضة في بيع أحد البيوت التابعة له لبعض أهل الذمة ، ولم يخص المسلمين بها ، مما يوحى بالعدالة في المعاملة من جانب السلطة المملوكية.

ومن الوثائق الأخرى في هذا المجال: الوثيقة رقم (٨٧١) ، بتاريخ ٧١١هـ/١٣١١م[٤]، وهى إقرار دين يخص رجلا مسيحيا يدعى بايدوس بن مانويل النصرانى وابنه ايفانوس ، أقر باستلام قرض قيمته ٢١٠٠ دينار ذهبى، من أحد الأمراء الفرس، عن طريق نائب له يبدو أنه كان يتولى شئونه المالية ، وفى الإقرار يلتزم بايدوس بدفع القرض بعد عام من تاريخ الإقرار.

كذلك هناك من ضمن المعاملات القضائية؛ بعض المعاملات التي كانت بمثابة عقوبة للمخالفين من أهل الذمة، حين يخرقون القانون ، ومن ذلك الوثيقة رقم (٦٣٦) ، بتاريخ ٧٩٦هـ/١٣٩٤م[٥]، وموضوعها تعهد بعدم مزاولة مهنة الجزارة .. وتنص على تعهد ثلاثة من يهود القدس (هلال بن موسى – زكرى بن باروخ – داود بن اشمويل) بعدم ممارسة مهنة الجزارة، سواء للمسلمين أو غيرهم، نتيجة إخلالهم بشروط الذبح ، وفرض غرامة قدرها ١٠ آلاف درهم في حال مخالفة هذا التعهد.

---

(3) Little, Ḥaram documents related to the Jews, p.231.

(٤) انظر وصف هذه الوثيقة فى:
Little, *A Catalogue of the Islamic Documents*, pp.380-381.

(٥) انظر وصف هذه الوثيقة فى: صالحية ، من وثائق الحرم القدسى ، ص٧٧.

ونلاحظ على هذه الوثيقة أنها كانت نوعاً من الحسبة ، حيث كان من مهام المحتسب مراقبة الأسواق والحرف المختلفة، لضمان عدم الإخلال بشروط كل حرفة[٥٦]، ويبدو أن المحتسب قد كشف إخلال هؤلاء الجزارين بشروط الذبح، فقرر عقابهم بمنع مزاولة المهنة.

ولا يبدو في الأمر تعسف ضد اليهود، بمنعهم من الذبح للمسلمين، لأن الإسلام لم ينه عن ذلك، لأنه اعتبر أن طعام أهل الكتاب حل للمسلمين[٥٧]. بل يبدو الأمر معاقبة عادية لمخالفة مهنية ، ويبدو أنها تكررت حتى وصلت لدرجة المنع .. ولم يعترض اليهود على ذلك بل اقروا باعتماد العقوبة وتقبلها دون إجبار.

ولم تصلنا من خلال الوثائق الخاصة بأهل الذمة أية إشارات لتدخل رؤساء كل طائفة في أي تعامل قضائي، سواء بشكل رسمي أو شخصي ، باستثناء إشارة واحدة نادرة وردت في الوثيقة رقم (٥٥٤) ، بتاريخ ٧٩٣هـ/١٣٩١م ، وموضوعها حصر إرث لرجل يهودي من سكان القدس يدعى يعقوب بن شمويل ، حيث ورد بهذه الوثيقة أن من بين من حضروا حصر الإرث (زكى اليهودى الرئيس) ، والمقصود بالرئيس هنا هو رئيس اليهود الذي يحكم عليهم ويقضى بينهم وفق شريعتهم[٥٨]، ويسمى في العبرية ناجد ، وهو منصب مشابه لمنصب البطريرك المسيحى[٥٩].

وبرغم أن الوثيقة لم توضح أي دور للرئيس اليهودي في هذا الإجراء، باستثناء حضوره أثناء حصر الإرث الذي كان ربما كان حضوراً عادياً ، إلا أن لتل[٦٠] رأى أن

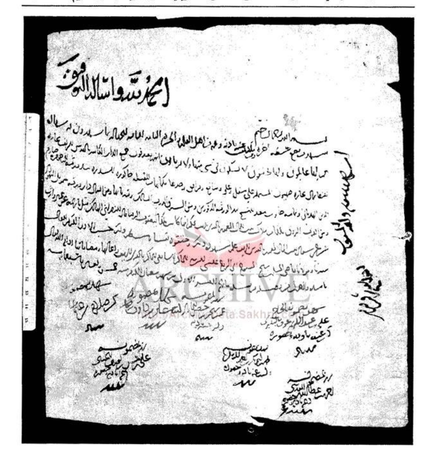
(٢) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٦٩ ، ص٢٤١-٢٤٢ ؛ أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية ، ص١١٦.
(٣) مصداقاً لقوله تعالى: "وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ"، سورة المائدة – آية ٥".
(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج١١ ، ص٣٨٥.
(2) Bosworthm C., " Christian and Jewish religious dignitaries in Mamluk Egypt and Syria", *IJMES*, 3 (1972),pp.70-71; Goitein, D., " The title and office of Nagid: a re-examina- tio "', *JQR*, vol. LIII (1962-3), pp. 93-119.
(3) Little, Ḥaram documents related to the Jews, p.238.

القاضي المسلم ربما قصد حضوره للتأكيد على حسم المسألة، أو أنه سعى لإثبات معرفة الرئيس بسلطة القاضي على هذا الإقرار. ويبدو أن لتل بني افتراضه على أساس تخوف القاضي المسلم من تدخل الرئيس، بعد ذلك، في مسألة الإقرار، ورغبته في إثبات قبوله الرسمي لما جاء في الإقرار، ولكن يبدو هذا الافتراض ضعيفاً ، إذ لم نصادف فيما وصلنا من إقرارات خاصة بأهل الذمة، سواء كانوا يهودا أو مسيحيين، أي إشارة لرئيس أي طائفة منهم ، كما لم تصلنا أي إشارة عن شكوى من تدخل رؤساء الطوائف في المواريث، بعد إقرارها رسمياً لدى القاضي. وأغلب الظن أن الرئيس كان على علاقة شخصية بصاحب الإرث، فكان حضوره أمراً عادياً.

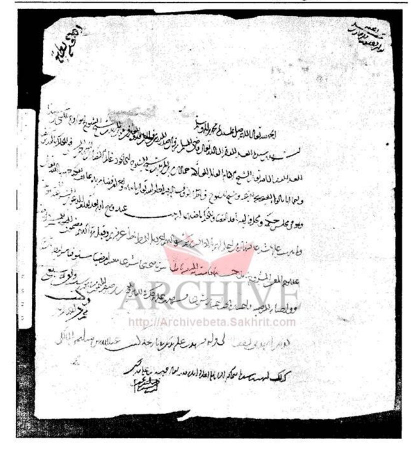
صفوة القول : من خلال التعاملات القضائية لأهل الذمة في القدس، في ضوء وثائق الحرم القدسي ، يمكننا أن نرصد التعايش في هذه المدينة بين أهل الذمة من اليهود والمسيحيين من ناحية ، والمسلمين من ناحية أخرى، تحت رعاية سلطة المماليك. وقد أوضحت لنا هذه الوثائق مدى تعايشهم مع المجتمع الإسلامي هناك. حيث شارك اليهود والمسيحيون المسلمين فى القدس حياتهم ، سواء من حيث العادات والتقاليد ، أو من حيث مساهمتهم في النشاط الاجتماعي والاقتصادي. ومن خلال هذه المعاملات القضائية؛ يظهر لنا أنهم كانوا يتعاملون مع المسلمين، وأحكام الشريعة الإسلامية، بشكل عادى دون الشكوى منها غالباً.

اللوحــــات

لوحة (١)



لوحة (٢)



قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية:

- أحمد عبد الرازق ، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٩٩.
- الأسيوطي ، جواهر العقود ومعين القضاة والموقعين والشهود ، نشر: محمد سرور الصبان، القاهرة ١٩٥٥.
- أنستاس الكرملى ، النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ١٩٣٩.
- ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ' القاهرة ١٩٩٢.
- الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، تحقيق: إبراهيم الابيارى ، مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٣٨.
- أبو الحسن الستولى ، البهجة في شرح التحفة ، بيروت ١٤١٢هـ.
- حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، دار النهضة العربية ،
- ابن أبى الدم الحموي ، أدب القاضي ، تحقيق : محي الدين السرحان ، بغداد ١٩٨٤.
- السخاوى ، الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام بن حجر ، تحقيق: إبراهيم عبد المجيد، بيروت ١٩٩٩.
- سيدة الكاشف ، مصر الإسلامية وأهل الذمة ' القاهرة ١٩٩٣.
- الشافعي، الأم، دار المعرفة ١٩٩٠.
- شمس الدين الأنصاري ، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ، دار إحياء التراث العربي ، ١٤١٣هـ.
- عامر الزيبارى ، أحكام الخلع في الشريعة الإسلامية ، بيروت ١٩٩٧.
- ابن عربي ، أحكام القرآن ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ، بيروت ١٤٠٨هـ.
- على السيد على، القدس في العصر المملوكي، القاهرة ١٩٨٦.
- ---------، وثائق الحرم القدسي الشريف مصدر لدراسة بعض جوانب التاريخ الاجتماعي للقدس في العهدين الأيوبي والمملوكي، مجلة الدرعية،العدد ٦-٧، ١٩٩٩.
- ابن فرحون ، تبصره الحكام في أصول القضية ومناهج الأحكام ، تحقيق: جمال مرعشلى، الرياض ١٤٢٣هـ.
- ابن قدامة ، المغنى ، دار إحياء التراث العربي ١٩٨٥.
- القلقشندى ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، القاهرة ١٩١٨.
- كامل جميل العسلي ، "وثائق مقدسية تاريخية" ، عمان ١٩٨٣.
- الماوردى ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٦٩.
- ------ ، الحاوى الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي ، بيروت ١٩٩٩.
- مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، ط٤ ، القاهرة ٢٠٠٤.

- مجير الدين الحنبلى ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، النجف ١٩٦٦.
- محمد أحمد دهمان ، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، دمشق ١٩٩٠.
- محمد عمارة ، قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية ،.
- محمد عيسى صالحية ، " من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية "، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية السادسة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- محمد محمد أمين، الشاهد العدل في القضاء الإسلامي،دراسة تاريخية مع نشر وتحقيق إسجال عدالة من عصر سلاطين المماليك،حوليات إسلامية،العدد ١٨،١٩٨٢
- ابن مماتى ، كتاب قوانين الدواوين ، تحقيق: عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣.
- المناوى ، النقود والمكاييل والموازين ، تحقيق: رجاء السامرائى ، بغداد ١٩٨١.
- ابن منظور ، لسان العرب ، دار المعارف (ب.ت).
- ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج٤ ، بيروت ١٩٧٧.
- ابن يوسف الحكيم ، الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة ، تحقيق: حسين مؤنس، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، م٦ ، العدد ١-٢ ، ١٩٥٨.

ثانياً: المراجع الأوربية:

- 'Abd ar-Raziq, A., La Femme au temps des Mamlouks en Égypte. Cairo: Institut Francais D'Archeologie Orientale du Caire, 1973.
- Bosworth, C., " Christian and Jewish religious dignitaries in Mamluk Egypt and Syria", *IJMES*, 3 (1972), pp.59-74.
- Little, D.,"The Significance of the Ḥaram Documents for the Study of Medieval Islamic History," *Der Islam* 57 (1980), pp. 189-217.
- ------------, "Two Fourteenth Century Court Records from Jerusalem Concerning the Disposition of Slaves by Minors," *Arabica* 29 (1982), pp. 17-28.
- ------------, *A Catalogue of the Islamic Documents from al-Ḥaram a Šarīf in Jerusalem* (Beirut, 1984).

------------, " Ḥaram documents related to the Jews of late fourteenth century Jerusalem ", *JSS* 30 (1985), pp.327-370.

------------, " Documents related to the estates of a merchant and his wife in late Fourteenth Century Jerusalem ", *MSR* 2(1998),pp.

- Goitein, D., " The title and office of Nagid: a re-examina- tio "', *JQR*, vol. LIII (1962-3), pp. 93-119.
- Linda S. Northrup and Amal A. Abul-Hajj, "A Collection of Medieval Arabic Documents in the Islamic Museum at the Ḥaram al- Šarīf " *Arabica* 25 (1979), pp.282-91.
- Lowry, C., Marriage and divorce in late Fourteenth Century Jerusalem, Master diss., (Portland State University) 2007.
- Müller, C., "A legal Instrument in the Service of People and Institutions: Endowments in Mamluk Jerusalem as Mirrored in the Ḥaram Documents", *MSR* 12 (2008), p.173-191.
------------, Der Kadi und seine Zeugen Studie der mamlūkischen Dokumente des Ḥaram Šarīf. Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes, Harrassowitz Verlag, Wiesbaden 2013.
- Rapoport, Y., *Marriage, money and divorce in medieval Islamic society.* Cambridge : Cambridge Univ. Press, 2005.
- Vesely, R., "Die richterlichen Beglaubigungsmittel: Ein Beitrag zur Diplomatik arabischer Gerichtsurkunden", *Orientalia Pragensia* 8 (1971), pp.12-18.

سفارات السلام بين دولة المماليك ومغول فارس زمن السلطان المنصور قلاوون

د. أحمد هاشم بدرشيني
أستاذ مشارك بكلية الآداب جامعة طيبة المدينة المنورة

منذ مطلع القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، شهد العالم الإسلامي هجوماً شرسا قامت به جموع وثنية غفيرة، جاءت من أواسط الصين، وبالتحديد من هضبة منغوليا، هذه الجموع هي التي أطلق عليها المغول أو التتار، واتسمت هذه الهجمة بالتخريب والتدمير، وزاد من خطورة هذه الجموع أنها لم تدِن بدين سماوي، وإنما كانت وثنية لم تحترم عهودا ولا أمانا، فمالوا إلى الوحشية والقسوة في معاملاتهم[1].

وفي فترة وجيزة استطاعت هذه الجموع غزو معظم بلاد العالم الإسلامي، حيث حطموا الدولة الخوارزمية[2]، ثم أتوا على بغداد وأسقطوا الخلافة العباسية، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله العباسي (٦٤٠-٦٥٦هـ/١٢٤٢-١٢٥٨م)[3]، ثم تابعوا زحفهم في اتجاه

---

(١) عُرفت عقيدة المغول الوثنية بالشامانية، وتنسب إلى لفظ شامان وهو لقب لرجل الدين في هذه الأماكن، ويقوم بعدة وظائف فهو رجل دولة وساحر وطبيب ومشرع سياسي، وانتشرت هذه الديانة بصحراء سيبريا. انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ، طبعة بيروت ١٩٦٦م، ج١٢، ص٣٦٠؛ رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرين، القاهرة ١٩٦٠م، المجلد الثاني، ج٢، ص٢٢٠؛ القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نشر دار الكتب المصرية د.ت، ج٤، ص٣١٠.

(٢) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي، القاهرة ١٩٥٣م، ص٤٢-١٠٦؛ الجويني : جهان كشاي، تاريخ فاتح العالم، ترجمة السباعي محمد السباعي، القاهرة ٢٠٠٧م، ج١، ص١٤٠-١٥١؛ انظر أيضًا : محمد أسد الله صفا : جنكيزخان، بيروت ١٩٨٨م، ص٢١٥-٢٧٢؛ محمد دبر سياقي : السلطان جلال الدين خوارزم شاه في ميزان التاريخ، ترجمة : أحمد الخولي : القاهرة ٢٠٠٩م، ص٤١-٦٨.

(٣) الهمذاني : جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الأول، ص٢٨٥؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية بالقاهرة ١٣٢٥هـ، ج٣، ص١٩٤؛ خواندير: دستور الوزراء، ترجمة

بلاد الشام، حيث دانت لهم معظم مدنه، سواء بالاستسلام أو بقوة السلاح[٤]، مما جعل كثيرا من المؤرخين المعاصرين يتعجبون من هذه الانتصارات السريعة؛ التي أحرزها المغول في تلك الفترة الوجيزة.

غير أن الله سبحانه وتعالى كتب لأمة الإسلام أن تنتصر على هذه الجموع الوثنية، فقام السلطان المظفر قطز، سلطان دولة المماليك في مصر والشام (٦٥٧-٦٥٨هـ/ ١٢٥٩-١٢٦٠م) بالتصدي لهم في معركة عين جالوت عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، وأحرز انتصارًا كبيرًا عليهم[٥]، مما جعلهم يرتدون إلى إيران، حيث أقاموا بها دولة لهم أطلق عليهم اسم "الدولة الإيلخانية"، وضع أساسها هولاكوخان[٦].

حربي أمين سليمان، القاهرة ١٩٨٠م، ص٢٠٨؛ انظر أيضًا: حامد زيان: سقوط بغداد، مقال بمجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة – فرع بني سويف، العدد الخامس، أكتوبر ٢٠٠٣م، ص٥-٤٢؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت ١٩٨١م، ج٣، ص٣١١.

(٤) ابن العميد : أخبار الأيوبيين، نشر Cahen في Bulletin d'etudes Orientales, Paris Tom xv, p.

اليونيني : ذيل مرآة الزمان، حيدر آباد – الهند ١٩٦٠م، ج١، ص٣٤٤.

(٥) أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، نشر السيد عزت العطار، بيروت ١٩٧٤م، ص٢٠٧؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق : محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٧م، ج١، ق٢، ص٤٣٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر دار الكتب المصرية دزت، ج٧، ص٩١؛ انظر أيضًا: حامد زيان: المماليك، التاريخ السياسي، القاهرة ٢٠١١م، ص٥٢-٦٠.

- عين جالوت : بلدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، نشر دار صادر، بيروت ١٩٥٧م، ج٤، ص١٧٧.

(٦) الهمذاني : جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص٩-١٨٩؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، بولاق – مصر ١٢٨٤هـ، ج٥، ص٥٤٢-٥٤٦؛ انظر أيضًا: فؤاد = = عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، الدوحة ١٩٨٧م، ص٢٧-٣٠.

- الإيلخانيون : اطلق على هذه الدولة هذا الاسم، نسبة إلى كلمة " إيل " المغولية التي تعني خاضع أو مطيع، فيكون المعنى المطيع للخان. انظر : خليل أدهم: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة ١٩٧٢م، ج٣، ص٤٨٠.

وإذا كان هولاكوا خان قد توفى عام ٦٦٣هـ/١٢٦٥م، فإن خلفاءه من خانات مغول فارس تابعوا الإغارة على الممتلكات الإسلامية المجاورة لهم، مما أدخلهم في صراع مرير مع سلاطين المماليك أصحاب القوة العسكرية النامية في تلك الفترة[٧].

وفي محاولة من مغول فارس من أجل الوقوف أمام قوة المماليك العسكرية، حاولوا التحالف مع بعض القوى الأوربية، وقوة الدولة البيزنطية، وقد رأى الأوربيون، في شخص المغول، عاملاً مساعدًا لهم في توجيه حملة صليبية مغولية إلى بلاد الشام، لانتزاع بيت المقدس من يد المماليك، غير أن هذه المشاريع الحربية العدائية لم تلبث أن فشلت[٨].

إزاء ذلك الفشل اضطر خان المغول آباقاخان إلى طلب الصلح من السلطان الظاهر بيبرس، غير أن بيبرس رفض مد يده إلى مَن تلطخت يداه بدماء المسلمين[٩].

تابع السلطان الظاهر بيبرس كفاحه ضد مغول فارس وأنزل بهم عدة هزائم[١٠]، كما واصل السلطان المنصور قلاوون (٦٧٩-٦٨٩هـ/١٢٨٠-١٢٩٠م) سياسة الظاهر بيبرس في محاربة مغول فارس، وأنزل بهم هزائم متتالية، كان أشهرها معركة حمص الثانية عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م، التي توفى على أثرها أبقا خان غمًا وكمدًا على هذه

(٧) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٢، ص٥٢٤؛ الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص٣٣-٤٠.

(٨) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٢، ص٥٢٤؛ انظر أيضًا :
Howorth : History of the Mongols, London , pp. ;
سعيد عاشور : الظاهر بيبرس، القاهرة ١٩٦٣م، ص٨٩.

(٩) ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن المعروف باسم الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق : أولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١م، ص١٣٩-١٤٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، نشر مكتبة المعارف بيروت ١٩٨٥م، ج١٣، ص٢٥٤؛ انظر أيضًا : سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة ١٩٦٥م، ص٤٣-٤٥.

(١٠) اليونيني : ذيل مرآة الزمان، ج٣، ص٢-٣؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٢، ص٦٠٦-٦٠٧؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، ص١٥٩، ١٦٨.

الهزيمة[١١].

غير أن هذه السياسة العدائية التي سيطرت على علاقة مغول فارس بسلطنة المماليك، في مصر والشام، لم تلبث أن تغيرت بعد أن تولى السلطان أحمد تكودار حكم دولة مغول فارس عام ٦٨١هـ[١٢].

أما تكودار هذا فهو الابن السابع لهولاكو خان، أمه هي قوتى خاتون[١٣]، التي دانت بالمسيحية، لذلك أثرت على ابنها تكودار وهو في طفولته، مما جعله يدين بالمسيحية وتسمى باسم " نيقولا "، وذلك على الرغم من أن والده هولاكو خان؛ كان وثنيًا على العقيدة البوذية[١٤].

ولم يلبث تكودار أن اعتنق الدين الإسلامي وهو في مطلع شبابه، أثناء حياة والده هولاكو خان أيضًا[١٥]، وذلك بعد أن تعرف على هذا الدين من الشيخ كمال الدين

(١١) يقول البرزالي الذي كان معاصرًا لهذه المعركة : " فلما تحقق – أي أبغا خان – الكسرة رجع على عقبه إلى همدان، فمات بها غما " انظر : المقتفي في كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ٢٠٠٦م، ج١، ص٥٤٨. وعن هذه المعركة انظر أيضًا : محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق : مراد كامل، القاهرة ١٩٦١م، ص٣؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٧٦م، ج١، ص٦٢-٦٣.

(١٢) تولى أحمد تكودار حكم دولة مغول فارس في يوم الأحد ١٣ ربيع الول عام ٦٨١هـ/ ٢٢ يونيه ١٢٨٢م. انظر : الهمذاني: جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص٩٢.

(١٣) الهمذاني : جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص٨٨.
يذكرها المؤرخ محي الدين بن عبدالظاهر باسم : " قتوخاتون "، راجع : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص٤.

(١٤) الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، ص١٢١.
– يرفض أحد الباحثين المحدثين تدين تكودار بالمسيحية، ويعتمد في ذلك على أن الذي أورد تلك المعلومات هو أحد المؤرخين المسيحيين الأرمن، الذي حاول تصوير المغول على أنهم مالو إلى المسيحية. انظر : رجب محمد عبدالحليم : انتشار الإسلام بين المغول، القاهرة ١٩٨٦م، ص١٧٨.

(١٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج، ص٣١٠.

عبدالرحمن، الذي كان له تأثير كبير على تكودار وعلى عدد كبير من أسرته[١٦].

وعلى هذا النحو اعتنق تكودار الإسلام وهو في سن الصبا، ومما يؤكد اعتناق تكودار للإسلام، وهو في مطلع شبابه، هو اعترافه بذلك، وإقراره أنه اعتنق الإسلام " في عنفوان الصبا، وريعان الحداثة "، في الرسالة التي أرسلها إلى السلطان المنصور قلاوون والتي سيأتي شرحها بإذن الله[١٧]. ولذلك لا صحة لما يذكره بعض المؤرخين من أن تكودار أعلن إسلامه بعد ولايته حكم مغول فارس[١٨].

كذلك تشير بعض المصادر أنه بعد إسلامه غَيَّر اسمه، حيث كان اسمه " أغا تكودار "، فتسمى باسم " أحمد تكودار "[١٩]. ويضيف ابن تغري بردي أنه تسمى باسم أحمد في حياة والده هولاكو[٢٠]، ويروي الشيخ الذهبي أن سبب هذه التسمية يعود إلى ما

(١٦) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٤٨.
ويذكر محي الدين بن عبدالظاهر أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن يعود أصله إلى الموصل، وكان يعرف بعبدالرحمن النجار، وهو في الأصل كان مملوكًا. انظر : تشريف الأيام والعصور، ص٤٨؛ ويذكر ابن الفوطي أن والده كان مملوكًا روميًا للخليفة المستعصم بالله، ونشأ عبدالرحمن في بيت الخلافة وعمل كأحد الفراشين، وعند هجوم المغول على بغداد وقع في أسرهم، وحملوه معهم إلى معسكرهم (الأردو) ثم أظهر الزهد حتى غُرف فيهم بالشيخ، ثم تنقل بين البلاد حتى ذهب إلى الموصل، حيث اتصل بعز الدين أيبك بن عبدالله المعروف بالطويل الذي كان مولعًا بعلم الكيمياء، فعلمه بعضًا من ذلك العلم، ثم أنه بعد اتصاله بخانات مغول فارس أخذ يوهمهم بمعرفته بالغيب، ويقوم ببعض الأعمال التي جعلتهم يعتقدون فيه. انظر: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق : بشار عواد وآخرون، بيروت، ١٩٩٧م، ص٤٦٨-٤٦٩ (ملحوظة يتشكك محقق كتاب الحوادث الجامعة في نسبته إلى ابن الفوطي).

(١٧) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٦.

(١٨) بيبرس الدوادار : زبد الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق : زبيدة عطا، القاهرة د.ت، ج٩، ص٢٠٢؛ أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٤، ص١٦؛ ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر المعروف باسم تاريخ ابن الوردي، تحقيق : أحمد رفعت، بيروت ١٩٧٠م، ج٢، ص٣٢٨؛ انظر أيضًا : السيد الباز العريني : المغول، بيروت ١٩٨١م، ص٣٠٢.

(١٩) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات، المجلد الثامن، تحقيق : قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، بيروت د.ت، ص٤.

(٢٠) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق : محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٤م، ج٢، ص٢٥٥.

حدث من الفقراء الصوفية الأحمدية الذين دخلوا به في النار بين يدي هولاكو، فوهبه لهم وسماه أحمد[٢١].

وتخلص من ذلك إلى أن تكودار أسلم وهو في مطلع شبابه، وأنه تسمى باسم أحمد، كل ذلك حَدَث قبل توليه حكم المغول، ويؤكد على ذلك مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذاني بقوله : " ولما كان – أي تكودار – معتنقًا للإسلام، فقد لُقب بالسلطان أحمد "[٢٢]، أي أنه لم يتخذ لقب خان، وهو اللقب الفارسي الذي كان يتلقب به حكام دولة مغول فارس، وإنما آثر أن يتخذ لقبًا من ألقاب الحكام المسلمين.

وثمة إشارة ذات أهمية، يجب التوقف عندها، وهي ما أشار إليها الكاتب والمؤرخ محي الدين بن عبدالظاهر من قوله: أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن أشار على تكودار باعتناق الإسلام "خديعة ومكرًا"، وذلك حتى يقيم سلامًا مع السلطان المنصور قلاوون، ويكتفي أمر حكام مصر والشام ويأمن جانبهم "ويتفرغ لقتال قومه وأقاربه وإخوته وولد أخيه أرغون"[٢٣]. ومعنى ذلك أن محي الدين بن عبد الظاهر يتشكك في إخلاص تكودار للإسلام، وأنه إنما أعلن إسلامه لأهداف سياسية بحتة!! غير إننا لا نستطيع أن نشايع ابن عبد الظاهر في هذا الرأي، خاصة وأن المصادر امتدحت أحمد تكودار وإخلاصه للإسلام والمسلمين[٢٤]، كما أنه بذل قصارى جهده في حث قومه من المغول على الإسلام، لدرجة أن عزله عن الحكم وما ناله من القتل، بعد ذلك، إنما يعود لهذا السبب، ولغيره من الأسباب[٢٥].

---

(٢١) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت ٢٠٠٥م، ج١٤، ص٥٧٧.

(٢٢) جامع التواريخ، المجلد الثاني، ص٩٢.

(٢٣) تشريف الأيام والعصور، ص٤٨؛ وانظر كذلك: ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن المعروف باسم: الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، ص٢٤٨.

(٢٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٧، ص٣١٠.

(٢٥) يقول أبو الفدا : " كانت خواطر المُغل قد تغيرت على أحمد بسبب إسلامه وإلزامه لهم بالإسلام، فاتفقوا على قتله ". المختصر في أخبار البشر، ج٧، ص١٧؛ ويقول ابن أيبك الدواداري : " هذا

سارع أحمد تكودار بعد جلوسه على عرش مغول فارس إلى الكتابة إلى أهل بغداد يخبرهم فيها بإسلامه[٢٦]، ويبعث في قلوبهم الطمأنينة، وأنه سوف يرعى ما ببغداد من مساجد ومدارس، وسوف يقرر لها الأوقاف اللازمة للإنفاق عليها، كما كان الحال أيام الخلفاء العباسيين، وأنه بما مَّن الله عليه بالإسلام، وشهادته بأن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، مؤمن تمام الإيمان بأن يكون المسلمون ومنهم أهل بغداد، من الفئة المنتصرة الظافرة كما قال النبي (ﷺ). وفي ختام الرسالة يطلب من أهل بغداد أن يرسلوا نسخًا من هذه الرسالة إلى كافة الجهات حتى تطمئن القلوب[٢٧].

ويتبادر إلى الذهن سؤال، ما هي الأسباب التي دفعت أحمد تكودار للكتابة إلى أهل بغداد دون غيرهم من أهل البلاد الإسلامية التي تخضع لحكم مغول فارس؟ والمعروف أن مغول فارس بسطوا نفوذهم على كل من العراق وخراسان وآذربيجان والجزيرة، وبعضى من بلاد سلاجقة الروم بآسيا الصغرى[٢٨].

إن الذي دفع أحمد تكودار للكتابة إلى أهل بغداد بهذه الرسالة، هو علمه بما قام به جَدّه هولاكو من تخريب وتدمير لما ببغداد من مساجد ومدارس، وقتله للعديد من علمائها وفقهائها[٢٩]، لذلك أراد أن يزيل عنهم آثار هذه الاعتداءات، ومن ناحية أخرى أراد أن يخبرهم

عمي أحمد أغا قد أسلم، وغيّر ما أسسه جنكزخان ". الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، ص٢٦٤؛ ويقول بيبرس الدوداري : " قتل السلطان أحمد لأسباب منها إساءته إلى أكابرهم ومنها الزامه إياهم بالدخول في الإسلام طوعًا أو كرهًا ". انظر : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج٩، ص٢٢١؛ وانظر أيضًا تحقيق دونالد س. رتشاردز، بيروت ١٩٩٨م، ص٢٣٧؛ ويذكر أيضًا ابن خلدون : أن أهل معسكره كانوا ينقمون عليه إسلامه، فثاروا عليه وقتلوا نائبه ثم قتلوه ". انظر: العبر وديوان المبتدأ والخبر، بولاق مصر ١٢٨٤هـ، ج٥، ص٥٤٦.

(٢٦) انظر نص هذه الرسالة عند محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٥، وملحق رقم (١).

(٢٧) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٥؛ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة، ج٩، ص٢٠٢-٢٠٣.

(٢٨) انظر : الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج١٤، ص٥٧٧.

(٢٩) عما قام به هولاكو من أعمال تدمير وتخريب وقتل ببغداد انظر : رشيد الدين الهمداني : جامع التواريخ،

أنه لن يقوم بالإغارة على بغداد ونهبها، كما فعل أسلافه من حكام دولة مغول فارس السابقين، بل على العكس، سيوف تنعم بغداد في عهده بالأمن والطمأنينة[٣٠].

بالإضافة إلى ذلك فإن الكاتب والمؤرخ محي الدين بن عبدالظاهر ذكر نصاً ذا أهمية كبيرة في هذا الشأن، ويفسر هذا النص أيضًا تحركات مغول فارس بعد ذلك، يقول ابن عبدالظاهر : " ولما جرى ذلك – يقصد تنصيب أحمد تكودار على عرش المغول – تحدثوا فيما بينهم في أن قدرتهم قد ضعفت، ورجالهم قُتلت، وأن المسلمين كلما راحوا في قوة، وأنه لا حيلة في هذا الوقت أتم من إظهار الإسلام"[٣١].

يفهم من هذا النص أن من أهم الأسباب التي دفعت أحمد تكودار إلى الكتابة لأهل بغداد، ثم مراسلة السلطان المنصور قلاون بعد ذلك، هو كما ذكر محي الدين ابن عبدالظاهر؛ للتقرب إلى المسلمين الذين أصبحوا في قوة، بينما بدأ الضعف ينتاب دولة مغول فارس.

وسيرًا على السياسة الجديدة لدولة مغول فارس (الدولة الإيلخانية) في التقرب إلى المسلمين، فكر السلطان أحمد تكودار في إنهاء حالة الحرب القائمة مع دولة المماليك في مصر والشام[٣٢]، تلك الحرب التي لم تهدأ منذ أن أسس جَدَّه هولاكو هذه الدولة، واستمرت مشتعلة بعد وفاته أثناء حكم أبنائه من بعده، وازدادت اشتعالاً أيام آباقا خان الذي توفى على إثر إصابته بالغم والنكد، عقب هزيمته أمام المماليك في معركة حمص الثانية، عام ٦٨٠هـ/١٢٨١م، كما سبقت الإشارة.

المجلد الثاني، الجزء الأول، ص٢٩١؛ أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، ص١٩٨-١٩٩؛ ابن العميد : أخبار الأيوبيين، ص١٦٦؛ خواندمير: دستور الوزراء، ص٢٠٩.

(٣٠) وعن الإغارات المتتالية التي قام بها حكام مغول فارس على بغداد، انظر : المقريزي : السلوك لمعرفة دولة الملوك، ج١، ق٢، ص٤٦٧، ٥١٠، ٥١١.

(٣١) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص٤.

(٣٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، عُني بتصحيحه الأب أنطون اليسوعي، لبنان ١٩٨٣م، ص٥٠٦.

وتنفيذًا لسياسة إقامة هذه العلاقات الطيبة؛ بادر أحمد تكودار في شهر شعبان عام ٦٨١هـ/ نوفمبر ١٢٨٢م بإرسال سفارة إلى الديار المصرية، برئاسة الشيخ قطب الدين محمود بن مصلح الشيرازي قاضي سيواس، وعضوية الأمير بهاء الدين أتابك السلطان مسعود صاحب الروم، والصاحب شمس الدين محمد بن الصاحب شرف الدين بن التيتي وزير ماردين[٣٣]، وفي صحبتهم كما يقول محي الدين بن عبدالظاهر " جماعة كبيرة من أتباع وأشياع وغلمان ومماليك وخواص وتجمل عظيم "[٣٤]. وذلك لمقابلة السلطان المنصور قلاوون، وأداء الرسالة التي وجهها إليه أحمد تكودار، ومخاطبته شفهيًا في إقامة سلام بين الدولتين[٣٥].

أما الذي دفع السلطان أحمد تكودار إلى التقرب من السلطان المنصور قلاوون

---

(٣٣) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة، ص٤٦٢؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، ص٧٠٧؛ يذكر رشيد الدين الهمذاني أن اختيار هذا الوفد كان بمشورة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن. انظر : جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص٩٧.
- سيواس : مدينة بآسيا الصغرى من أملاك سلاجقة الروم، وقد استولى عليها مغول فارس. انظر : القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، نشر دار بيروت للطباعة، بيروت ١٩٧٩م، ص٥٣٧؛ زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة : زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة ١٩٧٢م، ج٢، ص٢٣٢.
- ماردين : مدينة بها قلعة مشهورة، تقع على جبل مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين. انظر: ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٥، ص٣٨-٣٩.
- الصاحب : لقب حملة الوزراء، أول من حمله كافي الكفاة إسماعيل بن عباد، وكان السبب في ذلك أنه كان يصحب الأستاذ ابن العميد، فكانوا يقولون صاحب ابن العميد، ثم غلب عليه هذا اللقب. انظر : القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشاء، ج١، ص٤١٧.

(٣٤) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص٥٠؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج٣، ص١٦.

(٣٥) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٦.
على الرغم من ان المؤرخ بيبرس الدوادار كان معاصرًا لتلك السفارة، إلا أنه لم يشر إليها، وأشار فقط إلى السفارة الثانية التي جاء على رأسها الشيخ كمال الدين عبدالرحمن. انظر : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ص٢٢٣-٢٢٤.

فهو، كما يقول المؤرخ الإنجليزي هورث Howorth، أن قلاوون كان في تلك الفترة زعيمًا للعالم الإسلامي، وتصبوا إليه معظم القوى في تلك الفترة[٣٦]، ويصدق حديث هورث إلى حد كبير، فقد وصلت دولة المماليك في تلك الفترة إلى درجة كبيرة من القوة جعلتها تتزعم العالم الإسلامي، حيث نظر حكام جميع الدولة الإسلامية إلى سلطنة المماليك نظرة كلها احترام وتبجيل[٣٧].

ومن جهة ثانية يُفهم من كتابات المؤرخين المعاصرين أن وراء هذه السفارة دافعا سياسيا هاما، وهو إقامة علاقات الود مع سلاطين المماليك، حتى يأمن السلطان أحمد تكودار من جانبهم، ويتفرغ لمواجهة الخلافات الداخلية خاصة من جانب ابن أخيه أرغون[٣٨]، ويؤكد ذلك ما سبق الإشارة إليه؛ عما ذكره محي الدين بن عبدالظاهر من إشارة مستشاري أحمد تكودار عليه بأن يقيم سلامًا مع السلطان قلاوون، حتى يتفرغ " لقتال قومه وأقاربه وأخوته وولد أخيه أرغون "[٣٩].

ومن ناحية ثالثة، فإن ما بدأ ينتاب دولة مغول فارس من ضعف، وما واكبه من ازدياد قوة دولة المماليك في مصر والشام، كان دافعًا أساسيًا وراء تلك السفارة، وهو ما أشار إليه المؤرخ محي الدين بن عبدالظاهر بقوله " التقرب إلى مراضي مولانا السلطان – أي قلاوون – واكتفاء بأسه "[٤٠].

على كل حال، تحركت تلك السفارة من معسكر السلطان أحمد تكودار " الأردو" قاصدة سلطنة المماليك، ولما كانت العلاقات متوترة بين أهالي بلاد الشام ومصر وبين

---

(٣٦) The Mongols, vol , p.

(٣٧) وعن سياسة المماليك الخارجية، وموقف سائر الدول الإسلامية، انظر : علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية، القاهرة ١٩٦٧م، ص١٦٨-١٧٩؛ حامد زيان : المماليك، التاريخ السياسي، ص٦٥-١١٥.

(٣٨) شافع بن علي : الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق : عمر عبدالسلام، بيروت ١٩٩٨م، ص٩٣.

(٣٩) تشريف الأيام والعصور، ص٤٨.

(٤٠) تشريف الإيام والعصور، ص٤.

مغول فارس، فقد خشي السلطان المنصور قلاوون من قيام الأمراء والأهالي بالفتك بهؤلاء السفراء، وذلك لسابق قيام المغول بأعمال وحشية من قتل وسبي للمسلمين، لذلك ما أن علم السلطان المنصور قلاوون بمسير هذه السفارة إليه، إلا وأصدر قرارًا بتأمينها، وبالفعل ما أن وصلت هذه السفارة إلى مدينة البِيرَةُ، إلا وجدوا في استقبالهم الأمير حسام الدين لاجين الرومي، والأمير سيف الدين كبك، وذلك للقيام بمهمة تأمين سفارة السلطان أحمد تكودار[٤١].

وثمة إشارة وردت في بعض المصادر الإسلامية يجب التوقف عندها، وهي أن السلطان المنصور قلاوون " احترز عليهم – أي على أعضاء هذه السفارة – ولم يمكن أحدًا من الاجتماع بهم "، " وأن أحدًا من خلق الله لا يراهم، ولا يجتمع بهم، ولا يتحدث معهم بكلمة"[٤٢]. فما هي الأسباب التي دفعت السلطان المنصور قلاوون إلى اتخاذ قرار الاحتراز على هؤلاء الرُسل ؟ وإلى الحرص على ألا يجتمع بهم ولا يكلمهم أحد على الإطلاق.

(٤١) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، ص٧٠٧.

- البِيرَةُ : بلد قرب سُميساط بين حلب والثغور الرومية. انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج١، ص٥٢٦.
- حسام الدين لاجين : أصله مملوك المنصور قلاوون اشتراه ورباه واعتقه ورقاه إلى أن جعله من جملة مماليكه، ثم أمره، وتولى عدة وظائف، وقفز إلى عرش سلطنة المماليك عام ٦٩٦هـ/١٢٩٦م، لكن لم تطل مدة حكمه فقد قتل في ربيع الأول عام ٦٩٨هـ/ يناير ١٢٩٧م. انظر : بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة، ج٩، ص٣٠٩-٣١٠؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٨، ص٨٥-١١٤.
- الأمير سيف الدين كبك : هو الأمير سيف الدين كبك أو قبق المنصوري، كان من مماليك السلطان المنصور قلاوون، وترقى وتولى عدة وظائف منها توليته نيابة دمشق ونيابة حماه ونيابة حلب، توفى في آخر جمادي الأولى عام ٧١٠هـ/ أكتوبر ١٣١٠م. انظر: اليونيني : ذيل مرآة الزمان، سنوات ٦٩٧-٧١١هـ، تحقيق : حمزة عباس، أبو ظبي ٢٠٠٧م، ج٢، ص١٣٥٩-١٣٥٧؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٩، ص٢١٦.

(٤٢) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٦؛ أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٣٢٨؛ ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص٣٢٨.

إن من أهم الأسباب التي دفعت السلطان المنصور قلاوون إلى الاحتراز على هؤلاء السفراء هو الحرص على حياتهم، فأصدر أمره بإخفائهم عن العيون، وأن تكون تحركاتهم في الليل، وأن يتوجهوا بهم مباشرة إلى الديار المصرية، دون الدخول إلى بلد من البلدان[٤٣]، وذلك خشية قيام أحد بالاعتداء عليهم من أهالي البلاد، وذلك لسابق قيام المغول بالأعمال الوحشية.

ومن جهة أخرى فقد ضمت هذه السفارة جماعة من رجال المغول؛ كانت مهمتهم القيام بدور التجسس على أحوال دولة المماليك، وهو أمر اشتهر به المغول، فكثيرًا ما قامت السفارات التي أرسلها المغول إلى الدول التي جاورتهم بهذا الدور، مثلما حدث مع الدولة الخوارزمية[٤٤]، وقد أشار "العيني" صراحة إلى هؤلاء الجواسيس الذين كانوا في صحبة السفارة الثانية، التي أرسلها أحمد تكودار إلى المنصور قلاوون، والتي سوف يأتي شرحها فيما بعد[٤٥].

كذلك من بين تلك الأسباب: ما اتصف به المغول من مكر ودهاء، والحيل التي استخدموها في تمزيق شمل البلاد والعباد، وإشاعة الفوضى داخل البلد الذي يريدون السيطرة عليه، لذلك خشي السلطان المنصور قلاوون أن يقوم سفراء المغول بالاتصال بكبار قادة وأمراء المماليك، ومحاولة شرائهم بالمال والمناصب، حتى يقفوا إلى جوارهم، خاصة أن مغول فارس فشلوا في استخدام القوة مع دولة المماليك.

إن للمغول سوابق كثيرة في هذا المضمار، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها ما قام به جَدُّهم الأكبر جنكيز خان من الاتصال بوالدة السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه، واتفق معها على ألا تقف إلى جوار ابنها علاء الدين، في مقابل ألا يقترب من ممتلكاتها ويتركها وشأنها[٤٦]!!

---

(٤٣) ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص٦٤٢.

(٤٤) النسوي: سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص٨٧.

(٤٥) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ٢٠١٠م، ج٢، ص٢٩٦.

(٤٦) النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي، ص٩٢-٩٣؛ عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة

كذلك اتفاق هولاكو مع الوزير بدر الدين محمد بن العلقمي وزير الخليفة العباسي المستعصم بالله، من أجل العمل على تسليمه بغداد وشخص الخليفة وآل بيته[٤٧]، ومن بين ما قام به المغول من مكر وخداع؛ اتفاقهم سرًا مع زين الدين الحافظي، الذي نال قدرًا ومكانة كبيرة عند الملك الناصر صلاح الدين الثاني حاكم دمشق، وكان ذا تأثير كبير عليه، فانتهز هولاكو ثقة الملك الناصر فيه، واتفق معه على خيانة سيده الملك الناصر، وتسليم دمشق للمغول[٤٨].

وعلى هذا النحو؛ كان السلطان المنصور قلاوون محقًا في الاحتراز على هؤلاء الرُسل، وفي العمل على عدم اتصالهم بأحد من أمراء المماليك، حتى لا يقوموا بإغراء أحد من ضعاف النفوس، أو من أولئك الذين يكنون حقدًا وكرهًا للسلطان المنصور قلاوون، فيقوموا بخيانته، وتسهيل مهمة المغول في تحقيق أهدافهم، وبسط نفوذهم على بلاد الشام ومصر. ومن ناحية أخرى، عمل على ألا يَطَّلع من صحب هؤلاء السفراء من

محمد علاء منصور، القاهرة ١٩٩٠م، ص٣٦٤.

(٤٧) ابن الفوطي : الحوادث لجامعة، ص٣٥٦-٣٦٠؛ ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات، تحقيق : إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٣م. ج٣، ص٢٥٢-٢٥٣؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٢، ص٤٠٠.

- بدر الدين محمد بن العلقمي : هو محمد بن محمد بن علي أبو طالب مؤيد الدين ابن العلقمي، تولى الوزارة للخليفة المستعصم بالله العباسي أربع عشرة سنة، عُرف عنه التشيع، ثم خدم هولاكو بعد استيلائه على بغداد، لكنهم أهانوه واحتقروه لما قام به من خيانة الخليفة العباسي، واستمر في غم ونكد إلى حين وفاته في أوائل عام ٦٥٧هـ/١٢٥٩م. انظر : الكتبي : فوات الوفيات، ج٣، ص٢٥٢-٢٥٣؛ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق : محمد محمد أمين، القاهرة ٢٠١٠م، ج١، ص١٧٠-١٧٢؛ خواند مير: دستور الوزراء، ص٢٠٩.

(٤٨) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج٣، ص٣١٠-٣١١؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص١٢٦؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج١٦، تحقيق : محمد ضياء الدين الريس، القاهرة ١٩٩٢م، ص٣٨٦.

- زين الدين الحافظي : هو سليمان بن المؤيد بن عامر اليعقرياني، توفى عام ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م. انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٤٤؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٢، ص٤٢٣.

جواسيس على أحوال المملكة.

وزيادة في الحيطة جَعَلَ هؤلاء السفراء لا يسيرون أثناء النهار، وإنما أمرهم بالمسير أثناء الليل، حتى لا يراهم أحد، وحتى لا يطلعوا هم ومن معهم من الجواسيس على أحوال الدولة، واستمر ذلك حتى وصلوا إلى الديار المصرية، فاستقبلهم السلطان المنصور قلاوون في مقر حكمه بقلعة الجبل، في شهر رجب من نفس العام (٦٨١هـ/١٢٨٢م)[٤٩].

وقد وصف شاهد عيان هذه الفترة، المؤرخ شافع بن علي، الهيئة التي كان عليها السلطان المنصور قلاوون أثناء استقباله لهذه السفارة، فقد أحاط نفسه بما له من الهيبة والاحترام، وذلك حتى يبث الخوف والرعب في نفوس هؤلاء السفراء، الذين سوف ينقلون هذه المشاهد لخان المغول السلطان أحمد تكودار. ويضيف شافع بن علي أن المنصور قلاوون " جلس على منبر ملكه في أحسن الهيئات، وأحسن الصور الحسنات، وقد لبس من المجوهر ما يأخذ الأبصار"[٥٠].

لم يلبث أن مَثُلَ هؤلاء السفراء في حضرة السلطان المنصور قلاوون، حيث أدوا إليه الرسالة التي أرسلها إليه السلطان أحمد تكودار[٥١]، والتي كُتِبَتْ في منتصف شهر جمادي الأول عام ٦٨١هـ/ أغسطس ١٢٨٢م[٥٢]، كما أمرهم السلطان أحمد تكودار بمحادثة السلطان المنصور قلاوون شفاهة في أمر الصلح بين الدولتين[٥٣].

---

(٤٩) ابن الفوطي : الحوادث الجامعة، ص٤٦٢.

- مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشر بولشيه :

Blochet (E.) : Putrologia Orientialis, Tom , Paris , p. .

(٥٠) الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١٠١.

(٥١) ابن إيبك الدواداري : الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، ص٢٤٩.

(٥٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ق٣، ص٧٠٨.

(٥٣) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٦؛ الهمذاني : جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص٩٧.

بدأ السلطان أحمد تكودار رسالته[٥٤] بشرح تلك الهداية التي هداه الله - جَلَّ جلاله - له، وإقراره بوحدانيته وربوبيته وذلك منذ صباه، وشهادته بأن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويؤكد أنه انشرح صدره بالإسلام، وأنه مال إلى إعلاء كلمة الدين الإسلامي الحنيف، وإصلاح أمور المسلمين.

ونوّه السلطان أحمد تكودار في رسالته إلى ما حدث في اجتماع "القوريلتاي"[٥٥]، من الموافقة على قرار الخان الراحل أباقا خان، من جمع جيوش المغول ذات الأعداد الغفيرة، التي ملأت الأرض رعبًا لبطشها الشديد، وتوجيهها صوب ممتلكات دولة المماليك، إلا أنه - أي السلطان أحمد تكودار - شعر بأن هذا العمل يخالف تمامًا ما يجول بخاطره من ضرورة أن يعم السلام والخير للجميع. ذلك الخير الذي يعتبر من أهم ما يقوي شعائر الإسلام، ورأى أنه لا يمكن أن يصدر عنه أمر إلا بما يوجب حقن الدماء، ونشر الأمن والطمأنينة حتى يستريح المسلمون في سائر البلدان، وتخمد نار الفتن، ويعلو ويعظم أمر الله سبحانه وتعالى.

أشار السلطان أحمد تكودار أيضًا في رسالته إلى: أن الذي هداه إلى الإسلام هو الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، حيث يعتبره نِعم العون في أمور الدين، كما أشار أيضًا إلى أنه لفرط ثقته في كل من القاضي قطب الدين الشيرازي، والأتابك بهاء الدين، عهد إليهم بأداء هذه الرسالة.

أكد السلطان أحمد تكودار إلى ما تصبو إليه همته من إعلاء شأن الدين الإسلامي، وإقامة شعائره، وتعظيم أحكامه والعمل بها، وشرح ما قام به من أعمال لكي يدخل السرور

---

(٥٤) انظر نص هذه الرسالة عند كل من : محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٦-١٠؛ مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد، ص٥٠٠-٥١٠، وملحق رقم ٢.

(٥٥) القوريلتاي : كلمة مغولية تعني مجلس السلطنة، الذي يجتمع فيه جميع رؤساء المغول لاتخاذ القرارات المهمة مثل اختيار الحكام أو إقرار حرب، وغيرها من المسائل الخطيرة التي لا يريد الخان أن ينفرد بها. انظر : محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٦، هامش ٤؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٢، ص٣٨٣، هامش ٢.

على قلوب المسلمين، فعفا عن كل سيئة أو جُرم، وقام بإصلاح ما تهدم من المدارس والمساجد والمشاهد، وأوقف الأوقاف العديدة للإنفاق منها على تلك المنشآت، وعمل على أن يصل ريع تلك الأوقاف إلى مستحقيها حسب شروط الواقف، وألغى كل ما استحدث على تلك الأوقاف. وذكر ما قام به من تأمين قوافل الحجيج، وعمل على تسيير تلك القوافل لأداء فريضة الحج، ووضح ما قام به من تسهيل مهمة التجار، فأطلق لهم حرية التنقل بين البلاد في أمن وسلام، ومنع كافة الجنود وحراس الطرق من التعرض لهم بالأذى، وحفظ أموالهم وأرواحهم.

تطرق السلطان أحمد تكودار، بعد ذلك، للحديث عن أولئك الجواسيس الذين كانوا يرتدون زي الصوفية (الفقراء)، والذين شاهدهم جنود المغول، مما جعلهم يسيؤن الظن بطائفة الصوفية وأهل الصلاح، فقاموا بقتل الكثير منهم، وإغلاق الطرق أمامهم، غير أن السلطان أحمد تكودار ذكر أنه أمر بفتح هذه الطرق لسالكيها، سواء أمام التجار أو غيرهم.

وقرر السلطان أحمد تكودار في رسالته أنه يعمل الآن بما يرضي الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم)، ويعمل أيضاً على جمع كلمة المسلمين، وإزالة الخلافات بينهم، حتى يأمن الجميع، وناشد السلطان أحمد تكودار سلطان مصر – المنصور قلاوون – بأن يتمسك بالعروة الوثقى، ويسلك الطريق المُثلى، ويعمل على اتحاد الكلمة، وتسكين الفتنة، حتى تعم السكينة والطمأنينة.

وفي ختام الرسالة وضح السلطان أحمد تكودار: أنه يدعو ويسعى لإقرار السلام بدلاً من الحرب، وأن الله – سبحانه وتعالى – يشكره على تلك المساعي.

وإلى جانب تلك الرسالة، قام أعضاء هذه السفارة بالتحدث مع السلطان المنصور قلاوون مشافهة في أمر إقرار السلام بين الدولتين.

وبعد أن قرأ السلطان المنصور قلاوون رسالة السلطان أحمد تكودار، واستوعب ما جاء بها، ووقف على ما عند رؤساء وأعضاء هذه السفارة من حديث، أمر رئيس ديوان

الإنشاء الكاتب محي الدين بن عبدالظاهر بأن يكتب ردًا على تلك الرسالة[٥٦]، وقد احتوى رد السلطان المنصور على عدة أشياء هي[٥٧] :

أولاً : بدأ السلطان المنصور قلاوون رسالته بحمد الله الذي أظهر الحق، وجاء بالنصر، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله (ﷺ)، وأشار إلى علمه بأخبار السلطان أحمد تكودار ودخوله في الإسلام من الخطاب الذي وصل إليه، ودعا له بأن يثبته الله – عَزَّ وجَلَّ – على هذا الدين القويم، كما أنه قد انشرح صدره لما علمه من اعتناق أحمد تكودار للإسلام منذ صباه، وما حدث بعد ذلك من توليه عرش دولة مغول فارس، لأن الله يصطفي من يوليه العرش من بين أوليائه وعباده الصالحين.

ثانيـاً : أشار السلطان المنصور قلاوون إلى قرار القوريلتاي من توجيه جيوش المغول لمهاجمة أراضي دولة المماليك، ثم عدم انصياع أحمد تكودار لهذا القرار، وقال له إن هذا تصرف العقلاء الذين يفكرون في عواقب الأمور، لأنهم لو فعلوا ذلك لدارت الدائرة عليهم. وذلك إشارة إلى القوة التي تتمتع بها دولة المماليك، وأن جيوش المماليك سوف ترد على أي هجوم يقوم به المعتدين.

ثالثاً : صرح السلطان المنصور قلاوون بأنه ما دام دَخَلَ أحمد تكودار في الإسلام، فقد ذهبت الأحقاد، ولم يعد بينهما حقد ولا عداء، لأن الإيمان كالبنيان يشد بعضه بعضا.

رابعاً : تحدث السلطان المنصور قلاوون عن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن الذي ببركته وكراماته شمل الإسلام كل دار، ودعا بأن يعود الحق إلى أصحابه ببركته، كما أثنى على السفراء الذين حملوا هذه الرسالة، وأنهم قاموا بمهمتهم على أحسن وجه.

---

(٥٦) كان محي الدين بن عبدالظاهر هو رئيس ديوان الإنشاء في زمن المنصور قلاوون في تلك الفترة، وهو الذي تولى كتابة الرد على رسالة أحمد تكودار. انظر : شافع بن علي : الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١٠٢.

(٥٧) انظر نص رسالة السلطان المنصور قلاوون إلى السلطان أحمد تكودار عند كل من : محي = = الدين عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص١٠-١٦؛ مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد، ص٥١١-٥٢٥، وملحق رقم ٣.

خامسًا : مدح السلطان المنصور قلاوون الإصلاحات التي قام بها أحمد تكودار في مختلف المدارس والمساجد، وقيامه بتأمين الطرق خاصة أمام الحجيج، وأشار إلى أن هذه الأعمال من شأنها أن تؤدي إلى دوام المُلك، وهي من الواجبات المُلقاة على عاتق الحكام، ولا يفتخر أحد بالقيام بها، أما الذي يحق أن يفتخر به هو قيام الحكام برد الممتلكات التي استولوا عليها إلى أصحابها، ويضرب بذلك مثلاً في قيام والد أحمد تكودار باغتصاب بعض ممتلكات السلاجقة وغيرهم، والواجب على من يرى حقًا مغتصبًا أن يرده إلى أصحابه، وبذلك تقوى مملكته.

سادسًا : أوضح السلطان المنصور قلاوون أنه بمجرد أن علم بإصدار أحمد تكودار أوامره للجنود وحراس الطرق بعدم التعرض لعابري الطرق، إلا وأصدر هو الآخر قرارًا بمثل ذلك، حيث أمر نوابه، ومقدمو العسكر، خاصة في المناطق القريبة من حدود دولة مغول فارس، بحراسة الطرق وعدم التعرض لسالكيها.

سابعًا : عَقَّبَ السلطان المنصور قلاوون على حديث أحمد تكودار عن الجاسوس الذي ارتدى زي الصوفية، وأدى هذا إلى قتل جماعة من هؤلاء الصلحاء، فأشار المنصور قلاوون إلى أن هذا حدث مرارًا، وكثيرًا ما أرسل المغول جواسيس للاطلاع على بواطن الأمور بدولة المماليك، وتم القبض عليهم، لكن لم يقتلوا وأطلق سراحهم وعفى عنهم.

ثامنًا : أوضح السلطان المنصور قلاوون ردًا على ما أبداه أحمد تكودار من رغبته في إقامة صلح وسلام مع دولة المماليك، أن من يمد يده لإقرار الصلح، لا يستطيع أحد أن يرفضه، ولكن هذا الصلح وهذا السلام لابد أن يقام على قواعد وأسس ثابتة، حيث يتم عن طريق مواصلة السفراء والرسائل، ثم عاتب أحمد تكودار على الاستشهاد ببعض آيات القرآن الكريم التي أتى بها في غير موضعها، وعاتبه أيضًا على مَنِّه باعتناق الإسلام، واستشهد بقوله تعالى : { قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ }(٥٨).

(٥٨) سورة الحجرات، آية ١٦.



تاسعًا : تطرق السلطان المنصور قلاوون لتلك المشافهة التي جرت بينه وبين سفراء أحمد تكودار، حيث أوضحوا أن الله سبحانه وتعالى وَسَّعَ على سلطان مغول فارس، وأنه يحكم بلادا متسعة ذات خيرات وفيرة، ويذكر السلطان المنصور أنه إذا كان الأمر على ذلك؛ فلماذا ينظر إلى ما في يد غيره من ممتلكات، ويجب الاتفاق أولاً على عدم التطلع إلى أملاك الآخرين، ويعلن السلطان المنصور قلاوون أنه إذا تم الاتفاق على ذلك، يمكن إقامة سلام بين الدولتين، ويؤكد أيضًا على أن الصديق في كثير من الأحيان يكون أقرب من الأب أو الأخ، ويضرب مثلاً بذلك من التاريخ الإسلامي، حيث استقر الدين الإسلامي بفضل الصحابة وليس بسبب الأقرباء.

وقبل أن يختم السلطان قلاوون رسالته؛ أكد على أحمد تكودار أن عليه ألا يعتدي على أراضي المسلمين، ويقوم بأذيتهم، ومتى كَفَّ عن ذلك سكنت الفتنة، وحُقنت الدماء، ومن المفروض عليه ألا ينهي عن شيء ويأتي بمثله، ويخبره بأنه توجد بعض أراضي سلاجقة الروم المسلمين مازالت بأيدي المغول، الذين استولوا على خيراتها، وسفكوا دماء أهلها، وسبوا وهتكوا أعراضها.

وفي ختام الرسالة؛ أشار المنصور قلاوون إلى ما حدث أثناء حديثه مع السفراء؛ حول ضرورة إيقاف الإغارات التي يقوم بها المغول على أراضي دولة المماليك، ووجد منهم إصرارًا على متابعة تلك الإغارات في حالة عدم إتمام الصلح المنشود(٥٩). ولذلك دعا السلطان المنصور قلاوون، بدلاً من تلك الإغارات والمناوشات، أن يتم تحديد موعدا ومكانٍ للقاء عسكري، وسيكون النصر فيه لمن كتب الله له النصر، وما النصر إلا من عند الله.

يتضح من هذه الرسالة أن السلطان المنصور قلاوون كان لا يثق في مغول فارس،

---

(٥٩) أشار ابن الفوطي إلى ذلك التهديد، وجاء على لسان السفراء : " فإن أردت الموادعة، فنحن نكف عسكرنا عن قصد بلادك، ونفسح للتجار في السفر كيف شاءوا آمنين، فإن فعلت ذلك وإلا فعين للقتال موضعًا، واعلم أن الله يطالبك بما يسفك بيننا من الدماء ". انظر : الحوادث الجامعة، ص٤٦٢.

فهم يقولون شيئا ويفعلون شيئًا آخر، ولذلك كان رده واضحًا، وهو إذا كان السلطان أحمد تكودار جادًا في طلبه من إقامة سلام وصلح بين الدولتين، فعليه أولاً إعادة الأراضي التي اغتصبها أسلافه خانات المغول، وخاصة ممتلكات سلاجقة الروم، كما يتعهد بعدم الإغارة بعد ذلك على أراضي جيرانه، وإلا فالحرب هي الوسيلة الوحيدة لردع مثل تلك الاعتداءات، وبذلك أظهر السلطان المنصور قلاوون عدم تخوفه من الحرب مع مغول فارس، كما أظهر أيضًا عدم تلهفه على إقامة الصلح معهم.

وبنفس الطريقة التي استقبلت بها دولة المماليك سفارة أحمد تكودار، منذ أن وطأت أقدامهم أراضيها من الاحتراز، والعمل على عدم احتكاكهم بأحد من الأمراء أو الأهالي، ثم تسفيرهم وإعادتهم إلى بلادهم، حيث اصطحبهم الحاجبان الأمير حسام الدين لاجين الرومي، والأمير سيف الدين كبك، وساروا بهم ليلاً حيث خرجوا بهم من قلعة الجبل، في ليلة السبت ثاني رمضان عام ٦٨١هـ/ ٥ ديسمبر ١٢٨٢م، حيث وصلوا إلى حلب في سادس شوال من نفس العام، ومن حلب توجهوا إلى بلادهم[٦٠].

لم ييأس السلطان أحمد تكودار من إقامة سلام مع السلطان المنصور قلاوون، فبادر بإرسال سفارة أخرى إلى مصر، على رأسها هذه المرة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن. و يفهم من المصادر المعاصرة أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن هو الذي بادر بأن يتولى رآسة هذه السفارة ويذهب إلى الديار المصرية لمقابلة السلطان المنصور قلاوون، فقد ذكر محي الدين بن عبدالظاهر أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن " أفهم الملك أحمد أنه يُصلح له مولانا السلطان "[٦١]، كما يذكر ابن الفرات أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن " ظن أنه إذا حضر إلى الملك المنصور، تمكن منه، ويتم له في هذه المملكة – أي مملكة سلاطين المماليك في مصر والشام – ما تم له بالعراق "[٦٢]. كما يشير ابن الفرات إلى أن السلطان

(٦٠) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، ص٧٠٨.
(٦١) تشريف الأيام والعصور، ص١٢.
(٦٢) تاريخ ابن الفرات، الجزء السابع، تحقيق : قسطنطين زريق، بيروت د.ت، ص٢٧٩.

المنصور قلاوون هو الذي طلب حضور الشيخ كمال الدين عبدالرحمن إلى سلطنة المماليك، وإتمام عقد اتفاقية السلام المنشودة، وقال للسفراء شفاهة : " إنني لا أثق إلا بكلام الشيخ عبدالرحمن، لما أعلم من دينه، وأن حكمه على الملك أغا سلطان وعلى وزيره صاحب ماردين"[٦٣].

والمعروف أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن نال قدرًا كبيرًا من الاحترام في الدولة الإيلخانية، حيث حظي بمكانة كبيرة عندهم، وقدموه على أنفسهم، وخاصة والدة أحمد تكودار التي اعتقدت في كراماته، وعهدت له بابنها تكودار في صغره ليقوم برعايته[٦٤]. ويذكر المؤرخ ابن الفرات أنه بعد أن تولى أحمد تكودار حكم دولة مغول فارس؛ ازدادت مكانة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، وأصدر أحمد تكودار أوامره بأن يركب الشيخ كمال الدين عبدالرحمن وعلى رأسه الجتر، والسلاحدارية والجمدارية تحيط بموكبه، تشبهًا بالملوك " في ساير بلاد العراق والعجم "[٦٥]. كما يشير محي الدين بن عبدالظاهر إلى أن

(٦٣) تاريخ ابن الفرات، ج٧، ص٢٧٩.

(٦٤) ابن الفرات : تاريخه، ج٧، ص٢٧٨.
سبقت الإشارة إلى أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن كان هو الذي أشار على تكودار بالإسلام، كما أشار إلى ذلك أحمد تكودار في رسالته إلى المنصور قلاوون.

(٦٥) تاريخ ابن الفرات، ج٧، ص٢٧٨.

- الجتر : لفظ فارسي بمعنى المظلة، وهو قبة من الحرير الأصفر، تحمل على رأس الملك على رأس رمح بيد أمير يكون راكبًا بجوار الملك، يظله بها من الشمس في المواكب والاحتفالات، يقول عنها العامة "القبة" أو "الطبر".انظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٢، ص١٣٣.
- السلاحدارية : لفظ مكون من مقطعين الأول عربي وهو السلاح، والثاني فارسي وهو دار بمعنى ممسك، فيكون المعنى حامل السلاح أو ممسك السلاح، يقول القلقشندي أن موضوعها هو حمل السلاح للسلطان أو الأمير في مختلف المجامع. انظر : صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج٤، ص١٨.
- الجمدارية : لفظ مركب من كلمتين فارسيتين، " جاما " بمعنى الثوب، و" دار " بمعنى ممسك، فيكون المعنى ممسك الثوب، أطلق اللفظ على الشخص الذي يقوم بإلباس السلطان أو الأمير ملابسه. انظر : القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٥، ص٤٥٩.

الشيخ كمال الدين عبدالرحمن تحكم في بلاد مغول فارس، وأشرف على الأوقاف في كل أنحاء البلاد، وكانت له سطوة كبيرة، لدرجة أن أحمد تكودار كان يقف بين يديه هو وعشيرته، ويستمع إلى نصائحه، ويطيعه الجميع(٦٦).

ومن الجدير بالذكر أن هذه السفارة ضمت، إلى جانب الشيخ كمال عبدالرحمن، أحد كبار أمراء المغول وهو المسمى " صمداغو "، والصاحب شمس الدين محمد بن الصاحب شرف الدين التيتي، والوزير زين الدين صاحب ماردين، وفي صحبتهم مائة وخمسون رجلاً من رجال المغول(٦٧).

ولاشك في أن السلطان المنصور قالوون كان على علم تام بما يدور في دولة مغول فارس، وذلك عن طريق الجواسيس والعيون التي كانت ترصد ما يدور داخل تلك الدولة؛ التي ناصب حكامها العداء للمسلمين في كل الأنحاء.

وكان من بين ما وقف عليه السلطان المنصور قلاوون: تلك المكانة الكبيرة التي تمتع بها الشيخ كمال الدين عبدالرحمن في دولة مغول فارس، وتشبهه بالملوك، وركوبه وعلى رأسه الجتر، وحوله السلحدارية والجمدارية، وبأنه سوف يأتي إلى دولة المماليك وهو على هذه الحالة، كما علم أيضًا بأنه صحب معه أعداد من رجال المغول، نحو مائة وخمسين، يندس بينهم بطبيعة الحال جماعة كبيرة من الجواسيس، لرصد ما يدور داخل دولة المماليك(٦٨). لذلك أخذ في تتبع أخبار هذه السفارة. وكما يقول محي الدين بن عبدالظاهر: "صارت أخباره تصل إلى مولانا السلطان منزلة بمنزلة، ومرحلة بمرحلة"(٦٩).

وحتى تظهر دولة المماليك بمظهر القوة، وتحافظ على هيبتها، وهيبة حكامها، أصدر السلطان المنصور قلاوون أوامره بألا تقام مثل هذه المواكب، التي تصاحب الشيخ

---

(٦٦) تشريف الأيام والعصور، ص٤٨-٤٩.

(٦٧) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٤٩؛ ابن الفرات : تاريخه، ج٧، ص٢٧٩؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، ص٧٢٣.

(٦٨) بدر الدين العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج٢، ص٢٩٦.

(٦٩) تشريف الأيام والعصور، ص٤٩.

كمال الدين عبدالرحمن في داخل دولة المماليك، وكما يقول المؤرخ شافع بن علي المعاصر لتك الأحداث : " برزت مراسم مولانا السلطان بالكتابة إلى الأمير جمال الدين آقوش الفارس، أحد الأمراء الكبار القديمي الهجرة، المعروفين بالشجاعة في كل أمر وإمرة، بأن يركب لتلقيه من البيرة، وأنه إذا عدّى يمنعه من الركوب بالجتر، ويقول له: قد صرت في بلاد مولانا السلطان ولا يركب فيها أحد بالجتر غيرهُ"[٧٠].

وبتحليل النص السابق يتضح:

أولاً : أن أختيار السلطان المنصور قلاوون للأمير جمال الدين آقوش للقيام بمهمة استقبال سفارة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن لم يأت من فراغ، فقد عُرف عن هذا الأمير القوة والبطش، لدرجة أن المصادر لقبته بـ " قتال السباع "[٧١].

ثانيًا : أن السلطان المنصور قلاوون أمر بألا يركب الشيخ كمال الدين عبدالرحمن بالجتر ولا يحاط بالسلحدارية والجمدارية داخل حدود مملكته، لأن ذلك من شعار المُلك، وقد أورد القلقشندي عندما تحدث عن الجتر، أنه " من شعائر الملك "[٧٢]، كذلك فإن السلحدارية والجمدارية هما من شعار السلطنة المملوكية، ولا يجوز لأحد أن يتخذهما إلا بإذن السلطان[٧٣].

---

(٧٠) الفضل المأثور من سيرة السلطان المنصور، ص١١٤.

- الأمير جمال الدين آقوش بن عبدالله المنصوري، أصله من مماليك المنصور قلاوون، ترقى إلى أن صار من أعيان الأمراء، وتولى عدة وظائف، وكانت له مجموعة من الآثار بالديار المصرية، توفى عام ٧١٠هـ/١٣١٠م. انظر : ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق نبيل محمد عبدالعزيز، القاهرة ١٩٨٥م، الجزء الثالث، ص٢٦؛ ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق : محمد سيد جاد الحق، القاهرة د.ت، ج١، ص٤٢٧.

(٧١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٩، ص٢١٦؛ الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق : فهيم شلتوت، القاهرة ١٩٩٨م، ج١، ص١٤٥؛ بدر الدين العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج٥، ص٢٣٤.

(٧٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٢، ص١٣٣.

(٧٣) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٤، ص٤٤، ج٥، ص٤٥٩.

وما أن عَلِمَ الشيخ كمال الدين بكل هذه التطورات، وما أقدم عليه رجال السلطان المنصور قلاوون من الاحتراز على هذه السفارة، وعلى مراقبة تلك الجموع التي جاءت بصحبته، إلا وحاول الرجوع من حيث أتى، لكن رجال السلطان المنصور قلاوون منعوه من ذلك، وعلى حد قول مفضل بن أبي الفضائل : " لم يمكنوه من ذلك، وأغلظوا عليه في القول "[٧٤].

ومن الواضح أن السبب الذي دفع الشيخ كمال الدين عبدالرحمن إلى التفكير في الرجوع وعدم إتمام سفارته، هو قيام رجال السلطان المنصور قلاوون بالتضييق عليه، وعلى أعضاء سفارته، وعَلِمَ عِلم اليقين أنه لن يستطيع القيام بما أراد القيام به، خاصة وأن هيبته وهيئته التي اعتاد عليها، لم تعد موجودة في ظل الإجراءات التي قام بها رجال السلطان المنصور قلاوون، وبذلك لن يؤثر على أحد في دولة المماليك، وخاصة بعد قيام رجال السلطان بعزله تمامًا عن سائر أهالي البلاد، وعدم تمكينه من الاتصال بأحد أو التحدث مع أحد.

كذلك من بين الإجراءات التي قام بها الأمير جمال الدين آقوش: فصل وعزل رؤساء هذه السفارة عن سائر الجموع التي رافقتهم، كما منع تلك الجموع من القيام بأي ضجيج أو هرج ولا مرج[٧٥]. كما حَرَصَ الأمير جمال الدين آقوش على ألا يعلم أحد من أهالي بلاد الشام بوصول هذه السفارة، على الرغم مما ضمته من جموع كبيرة. وذلك وفقًا لأوامر السلطان المنصور قلاوون، لذلك توجه بهم مباشرة بعد وصولهم إلى البِيَرةُ، إلى قلعة حلب، حيث وصلوا إليها في ٢٦ شوال عام ٦٨٢هـ/٣٠ يناير ١٢٨٣م، دون أن يشعر بهم أحد، وذلك لأنهم ساروا ليلاً والناس نيام، كما أنهم سلكوا بعض الطرق الغير مأهولة بالسكان ولا المارة[٧٦].

([٧٤]) النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ص٥٢٧.
([٧٥]) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٤٩.
([٧٦]) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٤٩.

وعلى هذا النحو كانت أوامر السلطان المنصور قلاوون واضحة تمامًا، وخاصة في عدم احتكاك أعضاء هذه السفارة، ولا المصاحبين لها، بأحد من أهالي دولة المماليك في الشام ومصر، وذلك مثلما حدث في السفارة السابقة، وإن كان الأمر مختلف كثير الاختلاف في هذه السفارة، فقد خشي السلطان المنصور قلاوون قيام الشيخ كمال الدين عبدالرحمن بفتنة أحد من أمراء المماليك، وذلك لما ملكه ذلك الشيخ من قوة التأثير، وما يقوم من حيل. وكان السلطان المنصور قلاوون محقًا في هذا التخوف، فقد عُرف الشيخ عبدالرحمن بقوة تأثيره، وما يقوم به من أعمال، ويشير ابن الفرات إلى أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن اشتغل بعلم السيمياء، وملك به عقول مغول فارس، فتمسكوا به[٧٧].

كذلك من بين الدوافع التي دفعت السلطان المنصور قلاوون: أن هذه السفارة ضمت عددا كبيرا من الجواسيس الذين حضروا لينقلوا صورة كاملة لما عليه حال دولة المماليك، وقد أشار إلى ذلك صراحة المؤرخ بدر الدين العيني بقوله : " ولم يمكن أحد من الاجتماع بهم، بل كانوا في دار رضوان، وغلمانهم وجواسيسهم بمعزل عنهم "[٧٨]، ولذلك قام الأمير جمال الدين آقوش بعزل هؤلاء الجواسيس، ومن معهم من الغلمان وبقية الحاشية، بعيدًا عن قيادة السفارة، كما قام بمراقبتهم، وحَرَّم عليهم التنقل داخل البلاد، والاحتكاك بالأهالي، حتى لا يحصلوا على ما يريدون من معلومات عن أحوال دولة المماليك.

وزيادة في الحيطة، وحتى لا يتقابل أعضاء هذه السفارة ولا الحاشية المرافقة لها أثناء نزولهم بقلعة بحلب، صدرت الأوامر لنائب حلب، الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصوري، بإخلاء بعض قاعات قلعة حلب لتنزل بها هذه السفارة. كما مُنعوا تمامًا من الخروج من هذه القاعات والاحتكاك بأحد، وذلك كما يقول شافع بن علي: " احترازًا من تَحيُّل "، وأجريت عليهم النفقات اللازمة، وعين لهم من الخدم من يقوم على خدمتهم[٧٩].

---

[٧٧] تاريخ ابن الفرات، ج٧، ص٢٧٨.

[٧٨] عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج٢، ص٢٩٦.

[٧٩] الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١١٤.

- الأمير شمس الدين قرا سنقر : هو الأمير الكبير شمس الدين أبو محمد الجوكندار =

وبعد أن استراحوا بقلعة حلب وقضوا بها عدة أشهر، توجهوا إلى دمشق، حيث اصطحبهم الأمير جمال الدين آقوش ليلاً، وسلك بهم عدة طرق خالية من المارة والسكان، حتى وصلوا إلى قلعة دمشق في ليلة الثلاثاء ثاني عشر ذي الحجة عام ٦٨٢هـ/ ٥ مارس ١٢٨٤م[٨٠]، حيث أنزلوا بقاعة دار الرضوان، وأغدق عليهم بكثير من النفقات من مآكل ومشرب. ويذكر ابن الفرات أن مبلغ نفقاتهم كانت في اليوم الواحد " ألف درهم نفقة، وألف درهم أخرى للأطعمة والحلوى والفاكهة "[٨١]. كما تم رعاية خيولهم وما معهم من دواب وآلات[٨٢].

ومثلما حدث لهذه السفارة، أثناء وجوهم في قلعة حلب، حدث لهم أيضًا في قلعة دمشق، حيث تم الفصل بين رؤسائها وبقية من معها من غلمان وحاشية، فأقام كل فريق منهم في ناحية في قلعة دمشق، وعلى حد تعبير محي الدين بن عبدالظاهر " في أماكن محفوظة "[٨٣]، كما صدرت الأوامر أيضًا بألا يتصل بهم أحد" ولا يتحدث معهم، ولا يسمع ما يقولون، ولا يردون عليهم جوابًا "[٨٤].

وفي تلك الأثناء اجتمع السلطان المنصور قلاوون ببعض أمرائه، وأجرى معهم المشاورات من أجل اتخاذ قرار بشأن هذه السفارة، وهو ما عَبَّر عنه شافع بن علي بقوله: " فإن مشورةُ انعقد مع عُقلاء أمرائه، وشيوخ أمرائه "، فتقرر أن يكون مقابلة هذه السفارة

= المنصوري، من أكبر وأجل مماليك البيت المنصوري، اشتراه الملك المنصور في زمان الإمارة، ثم أخذ يترقى، وتولى عدد من الوظائف، وصفه الصفدي بقوله: " وكان من رجالات العلم ودهاتهم ... كثير العزم، كبير الحزم "، توفى عام ٧٢٨هـ/١٣٢٨م. انظر: خليل بن أيبك الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: فالح أحمد البكور، بيروت ١٩٩٨م، ج٣، ص١٤٣-١٤٧؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج٣، ص٣٣٠-٣٣٢.

(٨٠) محي الدين بن عبدالظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٥؛ ابن الفرات: تاريخه، ج٧، ص٢٧٩.

(٨١) تاريخ ابن الفرات، ج٧، ص٢٧٩.

(٨٢) محي الدين بن عبدالظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٥٠.

(٨٣) تشريف الأيام والعصور، ص٥٠.

(٨٤) محي الدين بن عبدالظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٥٠.

بدمشق[٨٥].

ولما كان السلطان المنصور قلاوون مشغولاً ببعض المهام داخل القاهرة، لذلك تقرر تأجيل لقاء هذه السفارة إلى العام التالي (٦٨٣هـ/١٢٨٤م)[٨٦]، وبالفعل في عام ٦٨٣هـ، توجه السلطان المنصور إلى دمشق، خصيصًا لمقابلة سفارة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن[٨٧]، حيث وصل إليها في يوم السبت ١٢ جمادي الآخرة عام ٦٨٣هـ/ ٢٨ أغسطس ١٢٨٤م[٨٨].

يذكر المؤرخ ابن الفرات أنه في نفس اليوم الذي وصل فيه السلطان المنصور قلاوون إلى قلعة دمشق، جاءته الأخبار بأن السلطان أحمد تكودار قُتل، وتولى بدلاً منه ابن أخيه أرغون بن أباقا خان بن هولاكو[٨٩]، وذلك دون أن يعلم بهذه التطورات الشيخ كمال الدين عبدالرحمن وأعضاء سفارته[٩٠].

وبعد أن استراح السلطان المنصور قلاوون ثلاثة أيام، تم استدعاء الشيخ كمال الدين عبدالرحمن وأعضاء سفارته للمثول أمام السلطان المنصور قلاوون[٩١].

اهتم السلطان المنصور قلاوون بهذه المقابلة اهتمامًا كبيرًا، فقد أراد أن تكون رسالة إلى مغول فارس تعبر عن قوة دولة المماليك في مصر والشام، فيشير المؤرخون

---

(٨٥) الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١١٤-١١٥.

(٨٦) ابن الفرات : تاريخه، ج٧، ص٢٧٩.

(٨٧) يقول النويري : " وكان جُلّ توجهه إلى الشام، بسبب رسل السلطان أحمد ". انظر : نهاية الأرب في فنون العرب، الجزء ٣١، تحقيق: الباز العريني، القاهرة ١٩٩٢م، ص١١٩.

(٨٨) البرزالي : المقتفي على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي، ج٢، ص٤٥؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دولة الملوك، ج١، ق٣، ص٧٢٢.

(٨٩) تاريخ ابن الفرات، ج٨، ص٥-٦.

يذكر محي الدين بن عبدالظاهر أن السلطان قلاوون عَلِم بوفاة أحمد تكودار، عند وصوله إلى غزة وهو في طريقه إلى دمشق. انظر : تشريف الأيام والعصور، ص٦٨.

(٩٠) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٦٨.

(٩١) شافع بن علي : الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١١٥.

إلى أنه ألبس ألفا وخمسمائة من مماليكه أقبية أطلس حُمر مطرزة، وكلفتاة زركش، وحوائص ذهب، وأشعل بين يديه ألف وخمسمائة شمعة حَمل كل مملوك شمعة[٩٢]. ثم أمر بإدخال سفارة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن هو ورفاقه[٩٣].

ويصف الكاتب والمؤرخ المعاصر لتلك السفارة شافع بن علي، هذه المقابلة بقوله : " جلس مولانا السلطان على كرسي سلطانه في صورة لا شك أنها أحسن صورة، وهيئة تدهش ذوي النظر، وقد تجملت خواص مماليكه بأحسن مدخرها من الملابس "[٩٤]. كما وصف شافع بن علي أيضًا هيئة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن عند مقابلته السلطان المنصور قلاوون، فقال : " ودخل هذا الشيخ في هيئة الفقراء، معممًا بفوطة مرخاة، لها عذبة بدلق، طوى كُميُه وجمجم "[٩٥].

ويبدو أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن اعتقد أنه بارتداء هذه الملابس، وبهذه الهيئة سيجعل السلطان المنصور قلاوون ومن حوله من حاشية يعتقدون في كراماته، وعلى حد قول محي الدين بن عبدالظاهر فإنه " يستخف عقولاً مثل تلك العقول "[٩٦].

وفي نفس الوقت فإنه أراد ألا يتبع ما كان معمولاً به في مثل تلك الحالات، ويقدم للسلطان المنصور قلاوون ما يستحقه من الاحترام والتقدير، ويقول محي الدين بن عبدالظاهر، الذي كان حاضرًا تلك المقابلة : " فُرسم له بتقبيل الأرض، فأبى كبرًا منه

---

(٩٢) ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص٦؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣١، ص١٠٠.

(٩٣) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، ص٧٢٢-٧٢٣.

- أقبية : جمع قباء، وهو ثوب ذو أكمام ضيقة، اختلفت أشكاله حسب طبيعة الأماكن والبلاد التي استخدمته. انظر: ماير : الملابس المملوكية، ترجمة :صالح الشيتي، القاهرة د.ت، ص٢٥.
- كلفتاه : هي القلنسوة. انظر : ماير : الملابس المملوكية، ص٣٠-٣١.
- حوائص: المفرد حياصة، وهي ما يشد في الوسط. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢، ص١٣٤.

(٩٤) الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١١٥.

(٩٥) الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١١٥.

(٩٦) تشريف الأيام والعصور، ص٦٩.

وزهوًا "[٩٧]، فما كان من مماليك السلطان المنصور قلاوون إلا أن " أهوى به إلى الأرض حتى كادت أعضائه تتفسخ عضوًا عضوًا "، ونفس الشيء جرى مع أعضاء الوفد[٩٨].

لم يؤثر هذا الفعل الذي قام به الشيخ كمال الدين عبدالرحمن وأعضاء سفارته على السلطان المنصور قلاوون، فلم يعر ذلك اهتمامًا، ورحب بالشيخ ترحيبًا كبيرًا، وأمر بإجلاسه تعظيمًا لقدره[٩٩]. وسمح له بالحديث هو ورفيقيه: الأمير صداغو وشمس الدين بن الصاحب[١٠٠].

وخلال هذه المقابلة قدَّم الشيخ كمال الدين عبدالرحمن هدية إلى السلطان المنصور قلاوون، ويصفها شافع بن علي بأنها عبارة عن " صندوق لطيف مقفل، وحين فتحه السلطان وجد به دواة من فولاذ موشاة بالجوهر، ذات إطار من ذهب "، ويضيف شافع بن علي أن السلطان المنصور بعد أن وقف على ما بداخل الصندوق استحقر هذه الهدية، وأنعم بها على الفور على أحد أمرائه[١٠١].

ويبدو أن الهدية السابقة قدمها الشيخ كمال الدين من عنده، أما هدية السلطان أحمد تكودار، التي قدمها بعد ذلك الشيخ كمال الدين فكانت: "تحفًا منها نحو ستين حبل لؤلؤ كبارًا، وحجر ياقوت أصفر زنته ما ينيف على مائتي مثقال، وحجر ياقوت أحمر، وقطعة بخلش زنتها اثنان وعشرون درهمًا "[١٠٢].

وبعد أن تم تقديم الهدايا، قُدم الشيخ كمال الدين عبدالرحمن للسلطان المنصور قلاوون الرسالة التي حملها من السلطان أحمد تكودار، ثم سمح له السلطان المنصور بالتحدث، وأنصت له جيدًا، ثم سمع لأعضاء السفارة بالعودة إلى مقر إقامتهم بقاعة

(٩٧) تشريف الأيام والعصور، ص٦٩.
(٩٨) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٦٩.
(٩٩) شافع بن علي : الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١١٥.
(١٠٠) العيني : عِقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج٢، ص٢٩٧.
(١٠١) الفضل المأثور من سيرة السلطان المنصور، ص١١٦.
(١٠٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، ص٧٢٣.

الرضوان[١٠٣].

وتعتبر رسالة أحمد تكودار التي حملها الشيخ كمال الدين عبدالرحمن هي الرسالة الثانية[١٠٤]، مؤرخة في شهر ربيع الأول عام ٦٨٢هـ/ يونيه ١٢٨٣م في مدينة تبريز، ويوضح تكودار في هذه الرسالة تمسكه بالإسلام، وما يدعو إليه هذا الدين من خلق جميل، وأهم ما فيه هو الدعوة إلى السلام، ونشر الطمأنينة بين البشر، خاصة بين الطائفة الإسلامية، على حد تعبير أحمد تكودار، وتشير الرسالة إلى أن مملكة جنكزخان أوشكت على الضياع والسقوط، وزوال البهجة، وذلك بسبب الخلاف والنزاع الذي حدث بينهم وبين جيرانهم، ولذلك فإن السلطان أحمد تكودار يريد أن يستبدل بذلك النزاع الوئام والاتفاق، ويمحو الأحقاد بإقامة السلام، وأن النزاع القديم لا محل له، لذلك أرسل رُسله الذي عبر عنهم بالفارسية بـ " الإيلجية "، لإقامة هذا السلام، وذلك حتى تسكن الفتن وتزال الخلافات، حقنًا لدماء المسلمين.

كما ذكر أحمد تكودار في رسالته، أنه أرسل سفارة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن بناءً على طلب السلطان المنصور قلاوون، وذلك على الرغم من أنه لا يحتمل بُعد الشيخ كمال الدين عنه، لما يقدمه له من استشارات، والاستعانة به في كافة الأمور، وعلى حد تعبير أحمد تكودار : " هو لنا في أمور الدين نعم العون، ... وأنه الناصح الذي لا ينطق عن الهوى "، كما تحمل الرسالة أيضًا تحذير أحمد تكودار للسلطان المنصور قلاوون، من الانقياد وراء أهل الشقاق الذين لا يريدون إقامة سلام بين الدولتين فيقول : " فالواجب ألا تسمع أقوالهم، وتترك أفعالهم، أولئك الذين حبطت أعمالهم "، ويتمنى أحمد تكودار في ختام رسالته، ألا يتخذ السلطان المنصور قلاوون قرارًا بعكس إرادة أحمد تكودار، الذي يخطب وده، ويريد إقامة السلام بين الجانبين[١٠٥].

---

(١٠٣) شافع بن علي : الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١١٦.

(١٠٤) راجع نص هذه الرسالة عند محي الدين عبدالظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٦٩-٧١؛ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج٢، ص٢٩٧-٣٠٠، الملحق رقم ٤.

(١٠٥) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص٦٩-٧١.

وقد استدعى السلطان المنصور قلاوون الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، هو وأعضاء السفارة، لمقابلته والتحدث معه مرة أخرى، ثم مرة ثالثة، حتى " استوعب ما عندهم من أخبار، وما وردوا به من الرسائل "، على حد قول ابن الفرات(١٠٦). وفي اللقاء الثالث أخبر السلطان المنصور قلاوون الشيخ كمال الدين عبدالرحمن بمقتل تكودار، وتولية أرغون بن أباقا خان عرش دولة مغول فارس(١٠٧).

كان لخبر مقتل السلطان أحمد تكودار وقع سيء على أسماع أعضاء السفارة، وخاصة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، لدرجة أن شافع بن علي يقول : " فأسقط في يديه، وأغمى عند سماع هذا الخبر عليه "(١٠٨)، وهذا بطبيعة الحال لعلمه بأن دولة سلطانه قد ولت بمقتل أحمد تكودار.

كما أن السلطان المنصور قلاوون أصدر أوامره بأن ينقل الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، وأعضاء سفارته، من قاعة الرضوان بقلعة دمشق، إلى بعض قاعات القلعة الأخرى، ويتم التحفظ عليهم، وتقلل النفقات المخصصة لهم، بحيث جُعل لهم فقط ما يكفيهم، كذلك أصدر أوامره، بأن يتسلم رجاله كل ما معهم من ذهب، وما عساه من هدايا يكون قد أرسلها أحمد تكودار ولم يسلموها له. وقرن السلطان المنصور القول بالفعل، فأرسل لهم الأمير شمس الدين سنقر الأعسر الاستادار، الذي اشتهر بالصرامة والقسوة، لتنفيذ تلك التعليمات(١٠٩).

---

(١٠٦) تاريخ ابن الفرات، ج٨، ص٦.

(١٠٧) ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص٦.

قتل أحمد تكودار في ليلة الخميس ٢٦ جمادي الأولى عام ٦٨٣هـ/ ٢٣ أغسطس ١٢٨٣م، وعن ظروف قتله، انظر : الهمذاني: جامع التواريخ، المجلد الثاني، الجزء الثاني، ص١١٨-١٢١؛ ابن حبيب : تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ج١، ص٧٢.

(١٠٨) الفضل المأثور من سيرة الملك المنصور، ص١١٦.

(١٠٩) ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص٦.

- الأمير شمس الدين سُنْقُر الأعسر، كان مملوك عز الدين أيدمر الظاهري نائب الشام، ثم صار إلى المنصور قلاوون، تولى نيابة الإسكندرية ثم شد الدواوين بدمشق، ثم تقلد عدة مناصب أخرى

وبالفعل توجه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر إلى مقر إقامتهم بقلعة دمشق بقاعة الرضوان، وأمرهم بجمع حوائجهم وأمتعتهم للانتقال إلى قاعات أخرى، وعند انتقالهم أصدر أمرًا بتفتيشهم تفتيشًا دقيقًا، فعثر معهم على مجموعة كبيرة من قطع الذهب واللؤلؤ، وغير ذلك من المجوهرات، فأخذت منهم، وكان من بين الذي وجدوه سبحة لؤلؤ تزيد قيمتها عن مائة ألف درهم كانت في يد الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، فأخذت منه(١١٠).

لم يكتف السلطان المنصور قلاوون بذلك، وإنما تبع ذلك بأن أصدر أمره باعتقال أعضاء هذه السفارة، غير أن الشيخ كمال الدين عبدالرحمن لم يحتمل تلك الصدمات التي حدثت له، من مقتل السلطان أحمد تكودار، ثم اعتقاله بدمشق، وأخذ كل ما كان معه من مجوهرات، فلم يلبث أن مات في يوم الجمعة ٢٨ رمضان عام ٦٨٣هـ/٩ ديسمبر ١٢٨٤م(١١١). فما كان من السلطان المنصور قلاوون إلا أن أصدر أمره، بموارة جثمانه، ودفنه بمقابر الصوفية بدمشق(١١٢).

أما أعضاء السفارة ومن معهم من الحاشية والغلمان، فتقرر اعتقالهم مدة، ثم أطلق سراحهم بعد ذلك، وسمح لهم بالعودة إلى بلادهم(١١٣). فيما عدا الأمير شمس الدين محمد بن الصاحب، فقد نقل إلى قلعة الجبل بمصر، حيث اعتقل بها مدة ثم أفرج عنه، وتولى

بعد وفاة المنصور قلاوون، وصفه ابن حجر العسقلاني " بأنه كان مهابًا ذو صرامة "، توفى عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م. انظر : ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٢، ص٢٧٣-٢٧٤.

- الأستادار : إحدى وظائف عصر المماليك، يكون شاغلها من أرباب السيوف، ويتولى = = التحدث في أمر بيوت السلطان من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠.

(١١٠) ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص٦.

(١١١) شافع بن علي : الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١١٦-١١٧.

(١١٢) البرزالي : المقتفي على كتاب الروضتين، ج٢، ص٥٤.

(١١٣) شافع بن علي : الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، ص١١٧.

بعد ذلك نيابة دار العدل بالديار المصرية[١١٤].

لم يلبث السلطان المنصور قلاوون أن غادر دمشق عائدًا إلى الديار المصرية، بعد أن قضى بها ثلاثة أيام فقط، حيث لم تطل إقامته بها، لأنه لم يحضر هذه المرة إلى دمشق إلا لمقابلة سفارة الشيخ كمال الدين عبدالرحمن، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، تلك السفارة التي لم تحقق شيئًا من النجاح، وانتهت بالفشل[١١٥].



---

(١١٤) ابن الفرات: تاريخه، ج٨، ص٧؛ المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ق٣، ص٧٢٣.

- يقول عنه ابن تغري بردي : " الأمير شمس الدين محمد ابن الصاحب شرف الدين إسماعيل بن أبي سعيد بن التيتي الآمدي، أحد الأمراء، ونائب دار العدل بقلعة الجبل، كان رئيسًا فاضلاً "، توفى عام ٧٠٥هـ/١٣٠٥م. انظر : النجوم الزاهرة، ج٨، ص٢١٧.

(١١٥) ابن الفرات : تاريخه، ج٨، ص٤؛ العيني : عقد الجمان، ج٢، ص٣٢٢.

خاتمـة

ويتضح من العرض السابق أن: السياسة العدائية التي اتبعتها الدولة الإيلخانية مع دولة المماليك أخذت تتغيَّر، بعد أن اعتنق السلطان أحمد تكودار الإسلام، وحاول إقامة سلام مع السلطان المنصور قلاوون، إلا أن شك الأخير في نوايا مغول فارس أدى إلى عدم عقد ذلك السلام. وأن هذا الشك جعله يتخوف من سفارات السلطان تكودار، مما دفعه إلى أن يتخذ الحيطة والحذر ما يساعد على عدم وقوف هذه السفارات على أحوال دولة المماليك، وعدم احتكاكهم بأحد من أمراء وأهالي مصر والشام.

وفي نفس الوقت؛ فإن السلطان المنصور قلاوون حاول إظهار قوة دولته، وأنه سوف يرد الصاع صاعين، إذا فكر مغول فارس في الاعتداء على ممتلكات المماليك المجاورة لهم. كما أنه أظهر قوة وأبهة سلطنة المماليك لسفراء السلطان أحمد تكودار حتى ينقل هؤلاء السفراء ما تتمتع به دولة المماليك من قوة، وذلك حتى لا يفكر قادتهم في الإغارة على أراضي سلطنة المماليك.

كما أوضحت هذه السفارة ما قام به السلطان أحمد تكودار، خان مغول فارس، من إصلاح لمختلف المساجد والمدارس التي خُربت ببغداد، والإنفاق عليها بسخاء، واستعداده للقيام بالأعمال التي تخدم الإسلام والمسلمين في كل الأنحاء، وأنه يعمل من أجل نشر الأمن والأمان والسلام الذي يدعو إليه الإسلام.

غير أن وفاة السلطان أحمد تكودار أدت إلى فشل هذه السفارات، وعدم تحقيق السلام المنشود.

الملحق الأول

رسالة السلطان أحمد تكودار إلى أهالي بغداد(١١٦)

بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وإنَّا جلسنا على كرسي المُلك، ونحن مسلمون. فيتلقَّون أهل بغداد هذه البشرى، ويُعتمدون في المدارس والوقوف وجميع وجوه البرّ ما كان يُعتمد في أيام الخلفاء العباسيين. ويرجع كلّ ذي حق إلى حقه في أوقاف المساجد والمدارس، ولا يخرجون عن القواعد الإسلامية. وأنتم يا أهل بغداد مسلمون. وسمعنا عن النبي ﷺ أنه قال : لا تبرح هذه العِصَابة الإسلامية مستظهرة إلى يوم القيامة. وقد عَرفنا أن هذا الخبر خبر صحيح، ورسول صحيح. وربّ واحد أحَد فَرْد صَمَد. فتطيّبون قلوبكم وتكتبون إلى البلاد جميعها.



(١١٦) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص٥.

الملحق الثاني

الرسالة الأولى للسلطان أحمد تكودار إلى السلطان المنصور قلاوون[١١٧]

بسم الله الرحمن الرحيم، بقوة الله تعالى، بإقبال قا أن، فرمان أحمد إلى سلطان مصر: أما بعد، فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته، ونور هدايته، قد كان أرشدنا في عنفوان الصِبا وريعان الحداثة، إلى الأقرار بربوبيته، والاعتراف بوحدانيته، والشهادة بمحمد عليه أفضل الصلوات السلام، بصدق نبوَّته، وحُسن الاعتماد في أوليائه الصالحين من عباده في بريَّته. "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام". فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين، وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين، إلى أن أقضى بعد أبينا الجيِّد وأخينا الكبير نوبة المُلك إلينا، فأفاض علينا من جلايب ألطافه ولطائفه، ما حقَّق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه. وجلا هذي المملكة علينا. وأهدي عقيلتها إلينا. فاجتمع عندنا في قوريلتاي المبارك – وهو المجمع الذي تنقدح فيه الآراء – جميعُ الإخوان والأولاد والأمراء الكبار، ومقدَّموا العساكر وزعماء البلاد. واتفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير، في إنفاذ الجمَ الغَفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برُحبُها من كثرتها، وملأت الأرض رُعبًا لعظيم صولتها، وشديد بطشتهم إلى تلك الجهة، بهمَّة تخضع لها شمَّ الأطواد وعزمة تلين لها صُمّ الصلاد. ففكرنا فيما تمخضت زُبْدة عزائهم عنه. واجتمعت أهواؤهم وآراؤهم عليه. فوجدناه مخالفًا لما كان في ضميرنا من اقتناء الخير العام، الذي هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام. وألا يصدر عن أوامرنا – ما أمكننا – إلا ما يوجب حقن الدماء، وتسكين الدهماء، وتجري به في الأقطار رُخاء نسائم الأمن والأمان، ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة والإحسان، تعظيمًا لأمر الله، وشفقة على خلق الله. فألهمنا الله – تعالى – إطفاء تلك النائرة، وتسكين الفتن الثائرة. وإعلام من أشار بذلك الرأي بما أرشدنا إليه: من تقديم ما يُرجى به شفاء مِزاج العالم من الأدواء. وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء، وأننا لا نحب المسارعة إلى هز النصال للنضال، إلا بعد

---

(١١٧) محي الدين بن عبدالظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص٦-١٠.

إيضاح المحجة، ولا نأذن لها إلا بعد تبيين الحق وتركيب الحُجة. وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصلاح. وتنفيذ ما ظهر لنا به وجهُ النجاح. إذ كارُ شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين، عبدالرحمن الذي هو نعم العون لنا في أمور الدين. فأصدرناه رحمة من الله لمن دعاه. ونقمة على من أعرض عنه وعصاه. وانفذنا أقضى القضاة قطب الملة والدين، والأتابك بهاء الدين، اللذين هما من ثقات هذه الدولة / الزاهرة، ليعرفاهم طريقتنا.

ويتحقق عندهم ما تنطوي عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا. ويبينًا لهم أننا من الله على بصيرة، وأن الإسلام يَجُبّ ما قبله، وأنه تعالى ألقى في قلبنا أن نتَّبع الحق وأهله، ويشاهدون عظيم نعمة الله على الكافَّة بما دعانا إليه: من تقديم أسباب الإحسان، ولا يحرموها بالنظر إلى سالف الأحوال فكل يوم هو في شأن. فإن تطلعت نفوسهم إلى دليل تستحكم بسببه دواعي الاعتماد، وحُجة يثقون بها من بلوغ المراد، فلينظروا إلى ما ظهر من مآثرنا، مما اشتهر خبره، وعمَّ أثره، فإننا ابتدأنا – بتوفيق الله تعالى – بإعلام أعلام الدين وإظهاره، في إيراد كل أمر وإصداره تقديمًا. وإقامة نواميس الشرع المحمدي على مقتضى قانون العدل الأحمدي إجلالاً وتعظيمًا. وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور وعفونا عن كل من اجترح سيئة أو اقترف، وقابلناه بالصفح وقلنا عفا الله عمَّا سلف. وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس، وعمارة بقاع البر والرُبُط الدوارس، وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القديمة إلى مستحقيها لشروط واقفيها، ومنعنا أن يلتمس شيء مما استُحدث عليها، وألا يغير أحد ما قُرِّر أولا فيها. وأمرْنا بتعظيم أمر الحاج وتجهيز وفدها، وتأمين سُبلها وتسيير قوافلها. وإنا أطلقنا سبيل التجار المترددين إلى تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم، وحَرَّمنا على العساكر والقراغول والشحاني في الأطراف التعرّض بهم في مصادرهم ومواردهم، وقد كان صادف قراغولُنا جاسوسًا في زي الفقراء كان سبيل مثله أن يُهلك، فلم يُهرَق دمُه لحُرْمة ما حرَّمه الله تعالى، وأعدناه إليهم. ولا يخفى عنهم ما كان في إنفاذ الجواسيس من الضرر العام للمسلمين، فإن عساكرنا طالما رأوهم في زي الفقراء والنُسَّاك وأهل الصلاح

فساءت ظنونهم في تلك الطوائف، فقتلوا منهم منْ قتلوا، وفعلوا بهم ما فعلوا، وارتفعت الحاجة بحمد الله تعالى إلى ذلك بما صدر إذننا به من فتح الطريق وتردُّد التجار وغيرهم. فإذا أمعنوا الفكر في هذ الأمور وأمثالها لا يخفى عنهم أنها أخلاق جبلية طبيعية وعن شوائب التكلُّف والتصنّع عرية. وإذا كانت الحالُ على ذلك فقد ارتفعت دواعي المضَرَّة التي كانت موجِبة المخالفة، فإنها كانت بطريق الدين، والذب عن حوْزة المسلمين : فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النُورُ المبين. وإن كانت لما سبق من الأسباب فمن تحرَى الآن طريق الصواب، فإن له عندنا الزُلفى وحسن مآب. وقد رفعنا الحِجَاب، وأتينا بفصل الخطاب وعرفناهم ما عزمنا عليه بنية خالصة لله تعالى على استئنافها، وحرَّمنا على جميع عساكرنا العمل بخلافها، لنرضي بها الله والرسول، وتلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول. وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة، وتنجلي بنور الائتلاف ظلمةُ الاختلاف والغُمَّة. فتسكن في سابغ ظلها البوادي والحواضر، وتقرّ القلوب التي بلغت من الجهد الحناجر، ويعفي عن سالف الهَنَات والجرائر، فإن وفَّق الله سلطان مصر لاختيار ما فيه صلاح العالم، وانتظام أمور بني آدم، فقد وجب عليه التمسك بالعُروة الوُثقَى، وسلوك الطريقة المُثْلَى بفتح أبواب الطاعة والاتحاد، وبذل الإخلاص بحيث تنعمر تلك الممالك والبلاد، وتسكن الفتنة الثائرة، وتُغمَد السيوف الباترة، وتحل الكافة أرض الهويني وروض الهُدَن، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهُون. وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واهبُ الرحمة، ومَنَع عن معرفة قدر هذه النعمة، فقد شكر الله مساعينا وأبلى عُذْرَنا، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا، والله الموفِّق للرشاد والسداد، وهو المهيمن على البلاد والعباد، وحسبنا الله وحده.

الملحق الثالث

رسالة السلطان المنصور قلاوون إلى السلطان أحمد تكودار ردا على رسالته الأولى[١١٨]

بسم الله الرحمن الرحيم، بقوة الله تعالى بإقبال دولة السلطان الملك المنصور: كلام قلاوون إلى السلطان أحمد:

أما بعد حمد الله الذي أوضح بنا ولنا للحق منهاجا، وجاء بنا فجاء نصر الله والفتح ودخل الناسُ في دين الله أفواجا. والصلاة على سيدنا ونبينا محمد الذي فضّله الله على كل نبيّ، نَجَّى به أمّته، وعلى كل نبي ناجى، صلاة تنير ما دجا وتُنير مَن داجَى. فقد وصل الكتاب الكريم، المتلقَّى بالتكريم، المشتمل على النبأ العظيم : من دخوله في الدين، وخروجه عمن خَلَف من العشيرة والأقربين.

ولما فتح هذا الكتاب فاتح بهذا الخبر للمعلم المعلم. والحديث الذي صحَّح عند أهل الإسلام إسلامه، وأصحُ الحديث ما روى عن مسلم. وتوجَّهت الوجوه بالدعاء إلى الله سبحانه في أن يثبته على ذلك بالقول الثابت، وأن ينبت حَبّ حُبّ هذا الدين في قلبه كما أنبت أحسن النبت من أخشن المنابت.

وحصل التأمُّل للفصل المبتدأ بذكره من حديث إخلاصه النيَّة في أول العمر، وعنفوان الصبا إلى الإقرار بالوحدانية، ودخوله في الملة المحمدية، بالقول والعمل والنية. فالحمدُ لله على أن شرح صدره للإسلام، وألهمه شريف هذا الإلهام، كحمدنا لله على أن جعلنا من السابقين الأولين إلى هذا المقام والمقام، وثبَّت أقدامنا في كل موقف اجتهاد وجهاد تتزلزل دونه الأقدام. وأما إفضاء النوبة في المُلك وميراثه بعد والده وأخيه الكبير إليه، وإفاضة جلابيب هذه المواهب العظيمة عليه، وتوقله الأسرة التي طهَّرها إيمانه، وأظهرها سلطانه، فلقد أورثها الله من اصطفاه من عباده، وصدَّق المبشّرات له من كرامة أولياء الله وعُبّاده.

---

(١١٨) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص١٠-١٦.

وأمَّا حكاية اجتماع الإخوان والأولاد والأمراء الكبار ومقدَّمي العساكر وزعماء البلاد في مجمع قور يلتاي الذي تتقدح فيه زبدة الآراء، وأنَّ كلمتهم قد اتفقت على ما سبقت به كلمة أخيه الكبير في إنفاذ العساكر إلى هذا الجانب، وأنه فكَّر فيما اجتمعت عليه آراؤهم، وانتهت إليه أهواؤهم فوجده مخالفًا لما في ضميره؛ إذ قصده الصلاح، ورأيه الإصلاح، وأنه أطفأ تلك النائرة وسكن تلك الثائرة فهذا فعل الملك المتقي، المشفق من قومه على من بقي، المفكر في العواقب، بالرأي الثاقب، وإلا فلو تركوا وآراءهم حتى تحملهم الغرّة، لكانت تكون هذه الكرة هي الكرَّة. لكن هو كمن خاف مقام ربه نهى النفس عن الهوى، ولم يوافق قول من ضلَّ ولا فعل من غوى. وأما القول منه: إنه لا يحب المسارعة إلى المقارعة إلا بعد إيضاح المحجة، وتركيب الحُجة، فبانتظامه في سلك الإيمان صارت حجتنا وحُجته المتركبة. على من غدت طواعيته عن سلوك هذه الحجة متنكبة. فإن الله تعالى والناس كافة قد علموا أن قيامنا إنما هو لنصرة هذه الملة، وجهادنا واجتهادنا، إنما هو على الحقيقة لله. وحيث قد دخل معنا في الدين هذا الدخول، فقد ذهبت الأحقاد وزالت الذُّحُول، وبارتفاع المنافرة، تحصل المضافرة. فالإيمان كالبنيان يشد بعضه ببعض ومن أقام مناره فله أهل بأهل في كل مكان، وجيران بجيران في كل أرض، وأما ترتيب هذه القواعد الجمَّة على إذكار شيخ الإسلام، قدوة العارفين كمال الدين عبدالرحمن – أعاد الله من بركاته – فلم تُر لولي قبله كرامة كهذه الكرامة، والرجاء ببركته وبركة الصالحين أن تصبح كل دار للإسلام دار إقامة، حتى تتم شرائط الإيمان، ويعود شمل الإسلام مجتمعًا كأحسن مما كان. ولا يُنكر لمن لكرامته ابتداء هذا التمكن في الوجود، أنَّ كل حق ببركته إلى نصابه يعود.

وأما إنفاذ أقضى القضاة قطب الملة والدين، والأتابك بهاء الدين الموثوق بنقلهما في إبلاغ رسائل هذه البلاغة، فقد حضرا وأعادا كل قول حسن من حوالي أحواله وخَطَرات خاطره ومنتظرات ناظره. ومن كل ما يُشكر ويحمد، ويعنعن حديثهما فيه عن مسند أحمد.

وأما الإشارة إلى النفوس إن كانت لها تطلع إلى إقامة دليل، تستحكم بسببه دواعي الود الجميل فلينظر إلى ما ظهر من مآثره، في موارد الأمر ومصادره، ومن العدل

والإحسان، بالقلب واللسان، والتقدم بإصلاح الأوقاف والمساجد والربط وتسبيل السبل للحج إلى غير ذلك. فهذه صفات من يريد لملكه الدوام. فلما ملك عدل، ولم يل إلى لؤم من عدا ولا لوم من عذل. على أنها وإن كانت من الأفعال الحسنة، والمثوبات التي تستنطق بالدعاء الألسنة، فهي واجبات تؤدي، وقربات بمثلها يبدى، وهو أكبر من أنه بإجراء أجر غيره يفتخر أو عليه يقتصر، أو له يدخر. بل إنما تفخر الملوك الأكابر برد ممالك على ملوكها، ونظمها على ما كانت عليه في سلوكها. وقد كان والده فعل شيئًا مع الملوك السلجوقية وغيرهم وما كان أحد منهم يدينه بدين، ولا دخل معه في دين. وأقرَّهم في ملكهم، وما زحزحهم عن ملكهم ويجب عليه ألا يرى حقًا مغتصبًا ويأبى إلا ردَّه، ولا باعا ممتدًا بالظلم ويرضى إلا صدَّه. حتى إن أسباب ملكه تقوى، وأيامه تتزيَّن بأفعال التقوى.

وأمّا تحريمه على العساكر والقراغولات والشحاني بالأطراف التعرُّض إلى أحد بالأذى وإصفاء موارد الواردين والصادرين من شوائب القذى فمن حين بلغنا تقدمه بمثل ذلك تقدمنا أيضًا بمثله إلى سائر نوابنا بالرحبة والبيرة وعينتاب، وإلى مقدِّمي العساكر بأطراف تلك الممالك وإذ اتحد الإيمان وانعقدت الأيمان تحتم هذا الإحكام، وترتب عليه جمع الأحكام.

وأمّا الجاسوس الفقير الذي أمسك وأطلق، أن بسبب من يتزيا من الجواسيس بزي الفقراء قتل جماعة من الفقراء الصلحاء رجمًا بالظن فهذا باب من تلقاء ذلك الجانب كان فتحه، وزند من ذلك الطرف كان قدحه. وكم من متزي بفقير من ذلك الجانب سيَّروه، وإلى الاطلاع على الأمور سَوَّروه. وأظفر الله منهم بجماعة كبيرة فرفع عنهم السيف، ولم يُكشف ما غطوه بخرقة الفقر بلم ولا كيف. وأما الإشارة إلى أنَّ باتفاق الكلمة تنجلي ظلم الاختلاف، وتدرّ بها الخيرات الأخلاف، ويكون بها صلاح العالم، وانتظام شمل بني آدم، فلا راد لمن فتح أبواب الاتحاد وجَنَح إلى السلم وما حاد ولا حادَّ. ومن ثني عنانه عن المكافحة، كان كمن مدَّ يدَ المصالحة للمصافحة. والصلح وإن كان سيد الأحكام فلا بدّ من أمور تبني عليه قواعده، ويعلم من مدلوله فوائده. فالأمور المسطورة في كتابه هي كليات

لازمة يعمر بها كل معنى ومعلم، إن تهيأ صلح أو لم. وثم أمور لابد وأن تحكم، وفي سلكها عقود العهود تنظم. قد تحملها بلسان المشافهة التي إذا أوردت أقبلت إن شاء الله عليها النفوس، وأحرزتها صدور الرسائل كأحسن ما تحرزه سطور الطروس. وأما الإشارة إلى الاستشهاد بقوله [وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا] فما على هذا النسق من الود ينسج ولا على السبيل ينهج. بل لفضل المتقدم في الدين ونصره عهود ترعى، وإفادات تستدعى. وما برح الفضل للأولوية وإن تناهي العدد للواحد الأول، ولو تأمل مورد هذه الآية في غير مكانها لتروي وتأول :

وعندما انتهينا إلى جواب ما لعله يجب عنه الجواب من فصول الكتاب، سمعنا المشافهة التي على لسان أقضى القضاة قطب الدين فكان منها ما يناسب ما في هذا الكتاب : من دخوله في الدين، وانتظام عقده بسلك المؤمنين، وما بسطه من معدلة وإحسان، مشكورة بلسان كلِّ إنسان فالمنة لله عليه في ذلك فلا يتُبها منه بامتنان. وقد أنزل الله على رسوله في حق من امتن بإسلامه : [قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم بل الله يمنُّ عليكم أن هداكم للإيمان].

ومن المشافهة أن الله قد أعطاه من العطاء، ما أغناه عن امتداد الطرف إلى ما في يد غيره من أرض وماء، فإن حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك فالأمر حاصل. فالجواب أن ثمَّ أمورًا متى حصلت عليها الموافقة، ابتنى على ذلك حكمُ المصاحبة والمصادقة ورأى الله والناس كيف يكون تصافينا، وإذلال عدونا وإعزاز مصافينا. فكم من صاحب وُجد حيث لا يوجد الأب والأخ والقرابة، وما تمَّ أمرُ هذا الدين واستحكم في صدر الإسلام إلا بمضافرة الصحابة. فإن كانت له رغبة مصروفة إلى الاتحاد وحُسْن الوداد، وجميل الاعتضاد، وكبت الأعداء والأضداد، والاستناد إلى من يشتد المر به عند الاستناد فالرأي إليه في ذلك.

ومن المشافهة أنه إن كانت الرغبة ممتدة الأمل إلى ما في يده من أرض وماء فلا حاجة إلى إنفاذ المغيرين الذين يؤذون المسلمين بغير فائدة تعود. فالجواب عن ذلك أنه

كف كف العُدوان وترك المسلمين وما لهم من ممالك سكنت الدهماء، وحقنت الدماء وما أحقه بألا ينهي عن خُلُق ويأتي مثله، ولا يأمر ببر وينسى فعله، وقنغر طاي بالروم، وهي بلاد في أيديكم وخراجُها يجبي إليكم، وقد سفك فيها وفتك، وسبي وهتك، وباع الأحرار، وأبى إلا التمادي على الإضرار والإصرار.

ومن المشافهة أنه حصل التصميم على ألا تبطل هذه الغارات ولا تفتر عن هذه الإثارات، فيعين مكانًا يكون فيه اللقاء، ويعطي الله النصر لمن يشاء. فالجواب عن ذلك أن الأماكن التي اتفق فيها ملتقى الجمعين مرَّة ومرَّة ومرة قد عاف مواردها منْ سلم من أولئك القوم، وخاف أن يعاودها فيعاوده مصرع ذلك اليوم. فوقت اللقاء علمه عند الله فلا يقدر وما النصر إلا من عند الله لمن أقدر لا لمن قدَّر. ولا نحن ممن ينتظر فلتة، ولا من له إلى غير ذلك لَفْتة. وما أمر ساعة النصر إلا كالساعة لا تأتي إلا بغتة. والله الموفق لما فيه صلاح هذه الأمة والقادر على إتمام كل خير ونعمة.

الملحق الرابع

الرسالة الثانية للسلطان أحمد تكودار إلى السلطان المنصور قلاوون[119]

بسم الله الرحمن الرحيم، بقوة الله تعالى بإقبال قا آن. فرمان أحمد. إلى سلطان مصر. أما بعد فالذي يجب عل العاقل بذل الجُهد : وترك الإهمال والتواني، واستنفاد الوسع في اقتناء الذكر الباقي الذي هو العمر الثاني، وقد انحصر الثناء الجميل والثواب الجزيل في التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، واستعمال العدل والنصفة المندوب إليها. وأي عدل ونصفة أعظم قدرًا، وأعلى ذكرًا في سائر الأصقاع والممالك، من إنقاذ الأنفس بجريعة الذقن من المُهالك وإطفاء نائرة أكباد حرَّى، وقلوب جرحى، ومن أحياها فكأنما أحيا. ولما لم يكن لنا بفضل الله العظيم، وإحسانه الجسيم افتقار ولا بُغية، ولم يبق في ضميرنا إرادة ولا منية، سوى رفاهية العالم، وطمأنينة بني آدم، خصوصًا الطائفة الإسلامية، وأهل الملة الحنيفية أنفذنا الألجية إلى إخواننا : نُوقاي أقا وتودامنكو وغيرهما، ونبهناهم على أن المُلك العقيم الذي ادخره لنا جدُّنا جنكيزخان وآباؤنا الكرام بعد الصبر على المشقة في تحصيله والمقاساة، وتحمُّل أعباء الشدائد والمعاناة، بمجرد النزاع والخصام، وخلاف الوفاق واختلاف الكلام قد أشرف على شُحوب بهجته وبهائه، وتكدير رونق صفاء مائة. والآن آن أن نستبدل وحشة النزاع بأنس الصلح، ونتعوَّض عن غيهب ليلة النفار والنقار تباشير الصبح، وتغمد السيوف البواتر التي استُلَّت من الأغماد، ويعفى أثر الهرج والمرج ونعرض عن الأغراض والأحقاد ويتفق الجميع على القيام بواجب كوج قان وخدمته، والالتزام بواجب طاعته، والاشتمال على ما ينوط بمصلحته. وحيث تأملوا ذلك بعين البصيرة، ورأى من حنكه دوران الفلك والتجربة تبيَّن لهم أن هذا الرأي محض شور لا يشوبه غش ولا مداهنة، وخالص تنبيه لا يغادره سوى زبدة المناصحة. فقالوا: إن الذي وقع من الخلاف كان بين من قد قضى نحبه من الآباء والأسلاف ولم تجر بيننا

---

(119) محي الدين بن عبدالظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ص٦٩-٧١.

مخاشنة، ولا وقع خلف ولا مشاحنة، فعدنا إلى ما كان عليه آباؤنا القدماء الكرام، من الاتفاق والائتلاف وحفظ العهد والذِمام. والتزمنا ألا ينحل عقد هذا النظام. والله الموفق للرشاد والهادي إلى السداد. ولما يفرغ البال من إصلاح ذات البين، واستحكمت مرائر الائتلاف بين الجهتين، أنفذنا الأيلجية بعد النية الخالصة لله وللرسول تسكينًا للفتن الثائرة، وإطفاء للهيب تلك النائرة، وحقنًا لدماء المسلمين، وسد لثلمة الدين. فكانت خلاصة جوابه وزبدة خطابه عند وقوفه على ما كُتب به إليه أنه : لو أنفذ أبونا شيخ الإسلام قدوة العارفين كمال الدين عبدالرحمن لكنت أسكن إلى أمانته وأخلد إلى ديانته وأسمع منه ما لم يحتمل إبداعه الكتب وأشافهه بما عندي من المصالح وأخاطبه بما ينطوي عليه ضميري للمسلمين من النصائح. هذا وغير خاف أنه يعز علينا بعاده، ويوحشنا بينه وفراقه. وربما اتصل به ما نستفيده من حسن معاشرته، وجميل مصاحبته. وحيث كان التماسه موجبًا لإشاعة الخير العام، وإذاعة شعار الإسلام، رضينا بتوجُّهه إلى جهته، إسعافًا لمقترحه، وجعلناه في اتخاذ العهد واليمين، بدلاً عن شمالنا واليمين، ولم يكن بين كلامنا وكلامه بون، إذ هو لنا في أمور الدين نعم العَوْن. والتزمنا بكل ما عساه يسنده إلينا، وبما يرى ثقة بأنه الناصح الذي لا ينطق عن الهوى. وربما شرذمة من الجهّال (من الجهتين) من أهل الشقاق والنفاق لا تجتمع كلمتهم على الوفاق، تنافى طبائعهم الصلح والاتفاق، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره، لاختلاف ملّتهم، وطمعا في إدراك بغيتهم. فالواجب ألا تسمع أقوالهم، وتترك أفعالهم، أولئك الذين حبطت أعمالهم، ومن المعلوم أن كل أمر يمكن اعتماده على الوجه الجميل بحيث تنحسم فيه مواد القال والقيل، لا ينبغي أن تكون الحال فيه بالضد مخصوصًا في الخطب الإدّ، والأمر الجدّ.

" الحمد الله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله " وكتب في أوائل ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمائة. بمقام تبريز.

والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير : علي بن محمد (ت. ٦٣٠هـ) :
  - الكامل في التاريخ، نشر دار صادر، بيروت ١٩٦٥م.
- ابن أبي أصيبعة : موفق الدين أبو العباس أحمد (ت ٦٦٨هـ) :
  - عيون الأنباء في طبقات الأطباء، نشر دار الثقافة، بيروت ١٩٨١م.
- ابن أيبك الدواداري : أبو بكر بن عبدالله (ت ٧٣٦هـ) :
  - كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن المعروف باسم : الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق : أولرخ هارمان، القاهرة ١٩٧١م.
- ابن أيبك الصفدي : صلاح الدين خليل (ت ٧٦٤هـ) :
  - أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق : فالح أحمد البكور، بيروت ١٩٩٨م.
- البرزالي : أبو محمد القاسم بن محمد (ت ٧٣٩هـ) :
  - المقتفي في كتاب الروضتين المعروف باسم : تاريخ البرزالي، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ٢٠٠٦م.
- بيبرس الدوادار : ركن الدين بيبرس المنصوري (ت ٧٢٥هـ) :
  - زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، الجزء التاسع، تحقيق : زبيدة عطا، القاهرة د.ت؛ تحقيق : دونالد رتشاردز، بيروت ١٩٩٨م.
- ابن تغري بردي : جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ) :
  - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر دار الكتب المصرية، د.ت.
  - المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٥م.
  - الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق : محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٨٨م.

- الجويني : علاء الدين عطا ملك (ت ٦٨٠هـ) :
  - تاريخ فاتح العالم، جهان كشاي، ترجمة : السباعي محمد السباعي، القاهرة ٢٠٠٧م.
- ابن حبيب : الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ) :
  - تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ١٩٧٦م.
- ابن حجر العسقلاني : شهاب الدين أحمد (ت ٨٥٢هـ) :
  - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، القاهرة د.ت.
- ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) :
  - العبر وديوان المبتدأ والخبر، نشر مطبعة بولاق مصر ١٢٨٤هـ.
- خواندمير : غياث الدين بن همام الدين (ت ٩٤٢هـ) :
  - دستور الوزراء، ترجمة: حربي أمين سليمان، القاهرة ١٩٨٠م.
- الذهبي : أبو عبدالله محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ) :
  - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت ٢٠٠٥م.
- رشيد الدين الهمذاني : فضل الله أبو الخير بن موفق الدولة (ت ٧١٨هـ) :
  - جامع التواريخ، ترجمة: محمد صادق نشأت وآخرين، القاهرة ١٩٦٠م.
- شافع بن علي : ناصر الدين شافع السعدي الرواحي (ت ٧٣٠هـ) :
  - الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري، بيروت ١٩٩٨م.
- ابن شاكر الكتبي : محمد بن شاكر بن أحمد (ت ٧٦٤هـ) :
  - فوات الوفيات، تحقيق : إحسان عباس، بيروت ١٩٧٣م.
- أبو شامة : شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٠هـ) :
  - تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف باسم : الذيل على الروضتين،

نشر عزت العطار، بيروت ١٩٧٤م.

– ابن العبري : أبو الفرج بن هرون (ت ٦٨٥هـ) :
- تاريخ مختصر الدول، عني بتصحيحه الأب أنطون اليسوعي، لبنان ١٩٨٣م.

– ابن العميد : الشيخ جريس بن العميد (ت ٦٧٢هـ) :
- أخبار الأيوبيين نشر Claud Cahen في :

Bulletin d'etudes Orientales, Paris □□□□□□□□□.

– العيني : بدر الدين أبو محمد (ت ٨٥٥هـ) :
- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة ٢٠١٠م.

– أبو الفدا : عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ) :
- المختصر في أخبار البشر، نشر المطبعة الحسينية، القاهرة ١٣٢٥هـ.

– ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبدالرحمن (ت ٨٠٧هـ) :
- تاريخ ابن الفرات، الجزء السابع، تحقيق: قسطنطين زريق، بيروت د.ت.

– القزويني : زكريا بن محمد (ت ٦٨٢هـ) :
- آثار البلاد وأخبار العباد، نشر دار صادر، بيروت ١٩٧٩م.

– ابن الفوطي : كمال الدين عبدالرازق (من علماء القرن الثامن الهجري) :
- الحوادث المعروف باسم : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة، تحقيق: بشار عواد، بيروت ١٩٩٧م.

– القلقشندي : أبو العباس أحمد (ت ٨٢١هـ) :
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، نشر دار الكتب المصرية، د.ت.

– ابن كثير : أبو الفدا إسماعيل : (ت ٧٧٤هـ) :
- البداية والنهاية، نشر مكتبة المعارف، بيروت ١٩٨٥م.

– مفضل بن أبي الفضائل : (توفى بعد عام ٧٥٩هـ) :
- النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد نشر بلوشيه Blochet في :

Patrologia Orientales, Paris ????.

- المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) :
  - السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٥٧م.
- النسوي : محمد بن أحمد (من علماء القرن السابع الهجري):
  - سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشر وتحقيق: حافظ أحمد حمدي، القاهرة ١٩٥٣م.
- النويري : شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت ٧٣٣هـ) :
  - نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء التاسع والعشرون، تحقيق : محمد ضياء الدين الريس، القاهرة ١٩٩٢م، الجزء الواحد والثلاثون، تحقيق: السيد الباز العريني، القاهرة ١٩٩٢م.
- ابن الوردي : زين الدين عمر (ت ٧٥٠هـ):
  - تتمة المختصر في أخبار البشر، المعروف باسم: تاريخ ابن الوردي، تحقيق: أحمد رفعت البنداري، بيروت ١٩٧٠م.
- ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبدالله (ت ٦٢٦هـ) :
  - معجم البلدان، نشر دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م.
- اليونيني :
  - ذيل مرآة الزمان، نشر وزارة التحقيقات بالهند – حيدر آباد ١٩٦٠م.
  - حوادث أعوام ٦٩٧-٧١١هـ، تحقيق: حمزة عباس، أبو ظبي ٢٠٠٧م.

ثانياً : المراجع :

- السيد الباز العريني : المغول، بيروت ١٩٨١م.
- حامد زيان : سقوط بغداد، مقال منشور بمجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة، فرع بني سويف، العدد الخامس، أكتوبر ٢٠٠٣م.
- خليل أدهم : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، القاهرة ١٩٧٢م.
- رجب محمد عبدالحليم : انتشار الإسلام بين المغول، القاهرة ١٩٨٦م.
- زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة ١٩٥٢م.
- سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة ١٩٦٥م.
- عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة: محمد علاء منصور، القاهرة ١٩٩٠م.
- علي إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية، القاهرة ١٩٦٧م.
- فؤاد عبدالمعطي الصياد : الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين، الدوحة ١٩٨٧م.
- ماير : الملابس المملوكية، ترجمة: صالح الشيتي، القاهرة د.ت.
- محمد أسد صفا : جنكزيخان، بيروت ١٩٨٨م.
- محمد دبر سياقي : السلطان جلال الدين خوارزم شاه في ميزان التاريخ، ترجمة أحمد الخولي، القاهرة ٢٠٠٥م.
- Howorth : History of the Mongols, London [illegible].

آل برهان ودورهم السياسي والعلمي في بخاري تحت حكم القراخطاي في القرنين (٦-٧هـ/١٢-١٣م)

د. الشيماء سيد كامل
مدرس بكلية دار العلوم جامعة المنيا

آل برهان من الأسرات الحاكمة التي تبوأت مكان الصدارة في الحياة الدينية في بخارى[١]، فإليها ترجع رئاسة المدينة ورئاسة المذهب الحنفي[٢] فيها، ارتبطت تلك الأسرة في تاريخ المشرق بالدول الحاكمة التي توالت علي حكم بخارى، كالدولة القراخطائية[٣] التي يطلق علي حاكمها لقب الكورخان، وأن لفظ كورخان لقب يطلق علي ملوكهم وليس من أسمائهم[٤].

وهي الدولة الوثنية التي يعتنق حكامها المذهب المانوي، ويحكمون من مدينة برسخان[٥] علي حدود الصين، ثم حكموا من مدينة بلاساغون[٦]، وكذلك ارتبطت هذه الأسرة بملوك الدولة الخوارزمية الذين حكموا من إقليم خوارزم[٧].

أطلق علي أسرة آل برهان في التاريخ اسم آل مازة، وهم يعدون من الأسر الكبيرة في بخارى، والظاهر أن أول أفراد هذه الأسرة التي اشتهرت به، وإليه تنسب هو: الأمام برهان الدين عبدالعزيز عمر بن من مازة البخارى الحنفي[٨]، الذي ظهر ببخارى في حدود سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، ولُقِبَ كل أفراد هذه الأسرة بلقب برهان الدين[٩]، وقد اشتهرت هذه الأسرة بالبذل والجود والكرم والرياسة والمجد والعظمة، وصارت رئاسة بخارى منهم أبا عن جد، فكانوا يعدون ملوكها ورؤساءها، وخاصة في الفترة الأخيرة من حكم القراخطاي[١٠].

ويرجع القزويني[١١] نسبهم إلي الخليفة عمر بن عبدالعزيز وقد توارث أفراد هذه الأسرة العلم كابراً عن كابر، فكانت إليهم رئاسة جماعة الحنفية، التي تعتبر المذهب الرئيسي لأهالي بخارى، فكان يتبعهم من العلماء قرابة الأربعة آلاف فقيه[١٢]، وقد تميز آل

برهان بأنهم فحول الحنفية المشهورين بالفضل والنبل، ولهم التقدم عند الملوك والسلاطين(١٣)، وهم الذين اتخذوا لقب "صدر جهان" لقباً لرؤسائهم، بمعنى صدر العالم(١٤).

ولابد أن ننوه هنا بمكانة مدينة بخارى وكيفية فتح العرب لها، وما ترتب علي ذلك من نشر الدين الإسلامي بين ربوعها، فبخارى لها مكانة جغرافية مميزة لقربها من خراسان(١٥)، تقع على نهر جيحون، وهي علي شاطئ نهر زرفشان مباشرة، وهو ما يعرف بنهر الصغد' هذا وقد قيل إن نشأة بخارى جاء نتيجة لذوبان الثلوج من الجبال بناحية سمرقند(١٦)، فكونت الماء الكثير الذي يحمل الطمي إلي ناحية " بتك وفتك "، إلي أن طمر ذلك الموضع فتمهدت الأرض، وصارت يقال لها بخارى(١٧)، وبذلك تدفق الناس عليها من ناحية تركستان(١٨)، وهي ترجع من حيث النشأة إلي ما قبل ظهور الإسلام بعدة قرون، وأن الإسكندر المقدوني عندما قصد الصغد أقام مدينتين هناك وربما تكون بخارى أحداهما، وقد أسس فيها ما يطلق عليه الرساتيق، وهي المواضع التي عرفت ببخارى، والتي كانت مقر أميرها وحاكمها(١٩).

ويصف بعض المؤرخين(٢٠) بخارى بأنها تمتاز دون سائر مدن ما وراء النهر بهوائها الجاف المتقلب، لقربها من المناطق الرملية المحيطة بها ذات هواء ساخن وشتاء لفترة قصيرة، الأمر الذي جعل أهلها ينتقلون إلي السهول والوديان القريبة التي تتوسطها المدينة نفسها.

أولاً : انتشار الإسلام علي المذهب الحنفي في بخارى :

انتشر الإسلام بين أهالي بخارى علي المذهب الحنفي بصفة خاصة، وبين أهالي ما وراء النهر بصفة عامة، ونستطيع القول: إن بداية انتشار الإسلام بدأت مع بداية الفتوحات الإسلامية(٢١) لمنطقة بخارى في عصر الدولة الأموية(٢٢)، حيث أتم القائد قتيبة بن مسلم الباهلي فتوحاته، واستقرت القبائل العربية في ربوعها، وأسهم ذلك في خلق فرصة أمام هؤلاء البخاريين ليختلطوا بالمسلمين اختلاطاً مباشراً، فتعارف كل عنصر علي

تقاليد وعادات الآخرين، مما كان له أكبر الأثر في ولائهم للدين الإسلامي واعتناقهم له، فقد سلك الفاتحون سياسة التسامح التي اتبعوها مع حكام بخارى من الدهاقين[٢٣]، لكي يؤلفوا قلوبهم للدين الجديد، هؤلاء الدهاقنة كانوا يمثلون الطبقة الحاكمة في بخارى قبل قدوم العرب، تلك الطبقة كانت قد ارتبطت بعلاقات ودية وتحالفات مع بلاد الصين، واستغلت الولاء للصين في كبح الحركات الشعبية، وتثبيت نفوذهم وسلطانهم في بخارى، وبذلك انتقلت عن طريقهم العبادات الوثنية والأصنام التي كانوا يعتنقونها في تلك الآونة[٢٤].

لذلك تمتعت هذه الطبقة بمكانة متميزة قبل الإسلام، سواء من ناحية الدين أو النواحي السياسية والحكم، وامتلاك الجيوش العسكرية، وارتفعت مكانتهم وانتشر سلطانهم، حتي صارت أسماؤهم تقرن باسم الإمارات والمدن القائمين فيها، فكان منهم دهقان البوزجان، ودهقان الفارياب، ودهقان مرو الروذ، ودهقان مرور[٢٥]، هذا بالإضافة إلي ما تمتعوا به من نفوذ وثروات في بخارى، لهذا فقد حرص القائد قتيبة بن مسلم علي نشر الدين الإسلامي بين تلك الطبقة الحاكمة، كما حرص علي إقامة الصلاة وبناء المساجد، مثل المسجد الجامع بالقرب من قلعة بخارى، إلي جانب مساجد صغيرة متعددة داخل نطاق المدينة[٢٦]، وقد أطلق علي المسجد الجامع اسم "مسجد قتيبة "، كما خلف ببخارى جماعة من المسلمين لتعليم مبادئ الإسلام، كان منهم الضحاك بن مزاحم صاحب التفسير[٢٧].

اتبع قتيبة سياسة جديدة في تعامله مع أهالي بخارى وهي: تسكين القبائل العربية بين أهالي البلاد، فقد قسم المدينة إلي عدة محال، منها محلة الوزير ومحلة القصر وغيرها، وبذلك يتاح للعرب أن يطلعوا علي أفعال وأعمال البخاريين الذين كانوا يدخلون الدين الإسلامي في الظاهر، ويعودون إلى ديانة الأوثان في الباطن[٢٨]، وبذلك نجح في جذب العديد من الأهالي إلي الدين الجديد، هذا العمل الذي صنعه قتيبة كان من الصواب، بحيث صار أمراً واقعاً، فيظل أهالي بخارى مسلمين بالضرورة، وشيئاً فشيئاً أظهر الكثير

منهم إسلامهم والتزموا بالأحكام الشرعية، وأزالوا آثار الكفر ورسم المجوسية، وانضم الكثير منهم للجيوش العربية الفاتحة لمناطق الترك[٢٩].

هذا إلي جانب نشر اللغة العربية ؛ التي صارت اللغة الرسمية والأدبية في بخارى[٣٠] والتي يكتب بها في الدواوين وينطق بها المثقفون والحكام، ولأنها لغة العبادة في الدين الإسلامي؛ فكان ضرورياً أن يتعلمها كل من دخل في الإسلام ليتعبدوا بها أولاً، ويصل نفسه بحكامها ثانياً. ويلاحظ أنه بانتشار الإسلام في بخارى قد فشا فيها العلم، فصار كبار أهلها أئمة وعلماء محترفين، وأصبح فيهم أهل العلم والورع والزهد، من أمثال أبي حفص الكبير البخاري الحنفي، الذي كان يقيم بمحلة القصر، ورحل إلي بغداد وتتلمذ علي يد الإمام محمد بن حسن الشيباني، وعليه فقد ظهرت في بخارى طبقة من الفقهاء الذين اعتنقوا الإسلام علي المذهب السني، وتبوأوا مكان الصدارة في الفترة اللاحقة، وصارت بخارى بفضل علمائها وفقهائها مقصداً لطلاب العلم، الذين أقاموا حلقات التدريس في شتي العلوم الشرعية والعلمية.

ثانياً: أوضاع فقهاء الحنفية السياسي في بخارى قبل آل برهان:

لم يكن فقهاء آل برهان هم أول من تدخل في الشئون السياسية في بخارى، فقد برز دور الفقهاء في الحكم والإدارة، وكان لهم الدور المهم في تسيير شئون البلاد علي مدار تاريخ هذه المدينة، ومن أولي هذه المحاولات تدخل رجال الدين، من طبقة الحنفية، في الدولة السامانية[٣١]، حيث ساندوا الأمير إسماعيل الساماني[٣٢] عندما أرسل الخليفة المعتمد علي الله العباسي (٢٥٦ هـ : ٢٧٩ هـ / ٨٦٩ م : ٨٩٢ م) رسولاً بمنشور ولاية ما وراء النهر إلي الأمير نصر بن أحمد الساماني، هذا الأمير الذي أسند إلي أخيه إسماعيل حكم بخارى نائباً عنه، ومن هنا نري دوراً بارزاً لفقهاء الحنفية بوقوفهم إلي جانب هذا الأمير وتعضيده، واستقباله استقبالاً حافلاً، وبالغوا في الترحاب به، حتي نثروا الذهب والأموال بين يديه، وأقاموا الزينات والاحتفالات، حتي عدوا يوم دخوله بخارى من أعيادهم[٣٣].

وفي حقيقة الأمر؛ فقد استجاب الأمير إسماعيل لمطالب الفقهاء ،بأن عمل علي إعلاء كلمة الدين الإسلامي ونشره خارج نطاق الدولة، فسار إلي بلده طراز[٣٤] وفتحها، وقام بتحويل كنيسة هذه المدينة إلي مسجد جامع، وتليت أول خطبة جمعة في ذلك المسجد باسم الخليفة المعتضد بالله العباسي (٢٧٩هـ -٢٨٨هـ/٨٩٢ م-٩٠٠م)[٣٥]، وبذلك أصبح هذا العمل نصراً كبيراً لفقهاء الحنفية في بخارى.

هذا وقد ظهر دور الفقهاء في بخارى في الدولة السامانية أيضاً، وذلك بوقوفهم إلي جانب الأمير نصر بن أحمد برغم صغر سنه الذي لا يتعدي الثمانية أعوام، في سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م، حيث سانده مشايخ بخارى وحشمها، ورفعوه علي الأعناق وبايعوه بالحكم والإمارة[٣٦] ، وبذلك استطاعوا بقوة مكانتهم التصدي لمحاولة عمه إسحاق، صاحب سمرقند، الوصول إلي الحكم[٣٧].

ومع مرور الوقت بدأ الضعف يدب في كيان الدولة السامانية، حتي وصفهم فامبري[٣٨]، بأنهم صاروا مجرد دمي -إلا نفراً قليلاً منهم-، وأصبحوا لا حيلة لهم بأيدي رجال دولتهم، وبذلك بدأ أهالي بخارى وفقائها يتطلعون إلي القضاء علي هذه الدولة العجوز، وبدأوا في الاستنجاد بالعناصر الخارجية، ومن ثم استجاب لهم العنصر التركي المسمي القراخانيين[٣٩]، الذين استجابوا لمطالب ودعوة الدهاقنة المحليين في بخارى[٤٠]، وللحقيقة قد حاول السامانيون دفع رعاياهم للذود عن ممتلكاتهم ضد الزحف الخاني، ولكنهم لم يفلحوا في ذلك، وذلك نتيجة لما أعلنه الفقهاء وافتوا به "بأن الحرب لا تكون فرضاً إلا إذا أراد الكفار الاستيلاء علي بلد إسلامي"[٤١]. فكانت تلك الفتوي من الفقهاء من أهم الأسباب التي أدت إلي تثبيط همة الرعية بعدم الوقوف في وجه جيش القراخانيين، وبذلك جنوا الفائدة مضاعفة، بعد أن تمت السيطرة للقراخانيين، حيث لم يتخذوا من بخارى أو سمرقند عاصمة لدولتهم، بل صارت هذه البلاد تابعة لحكمهم في بلاساغون، وأطلق بذلك يد الدهاقنة والفقهاء في الحكم والإدارة. فلم يستطع الأمير نوح بن منصور التصدي للزاحفين[٤٢]، واضطر إلي الفرار من أنظار بغراخان[٤٣]، فعبر نهر جيحون إلي بلده آمل

الشط[٤٤]، وقد أشار بعض المؤرخين إلي أن السبب الرئيسي في عدم التصدي للقراخانيين، هو وجود فتنة داخلية في بخارى، قادها أمير الصغانيان الأمير أبو علي سميجور، الذي قام بحث بغراخان علي مهاجمة ممتلكات السامانيين، وذلك نتيجة لعدم استجابة الأمير نوح لمطالبته بمنحه ولاية خراسان ليحكمها[٤٥].

ولكن ما لبث أن توفي بغراخان، بعد أن أقام في بخارى نائباً له لحكمها، وهو أحد أمراء البيت الساماني ويسمي عبدالعزيز نوح بن نصر، ودفن بغراخان في المسجد المقام في آرتيش شمال كاشغر، وما زالت مقبرته مكاناً ومزاراً للمسافرين الأوربيين، ولم تصل إلينا أية عملة تحمل اسمه[٤٦].

وفي حقيقة الأمر؛ فإن ممتلكات الدولة السامانية قد قسمت صلحاً بين الدولة القراخانية والدولة الغزنوية، في عهد السلطان محمود بن سبكتكين[٤٧]، وأصبح للقراخانيين الأقاليم الواقعة شمال نهر جيحون بما فيها بخارى، وللغزنويين الأقاليم التي تقع جنوب النهر، كخراسان وبلاد الغور وخوارزم[٤٨].

ومما تجدر الإشارة إليه أن بخارى استمرت في حوزة القراخانيين كولاية تابعة لحكمهم، يعين فيها حاكم تابع للخان، ويقام بها شحنة عسكرية لحماية المدينة من أي اعتداء، ولضبط الأمن بها[٤٩]، مثلما حدث في سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م، عندما عين أيلك خان آخاه جعفر تكين.

وقد استمر وضع بخارى علي ذلك حتي تغيرت التقسيمات الإدارية في الدولة القراخانية نفسها، حيث انقسمت الدولة بسبب إعلان أولاد قدرخان، وهما بغراخان ويوسف طغرل خان، الحرب علي الخان شمس الملك نصر، ونتج عن ذلك أن صارت ممتلكات الخانية، في التركستان وكاشغر وبلاساغون، من ممتلكات أولاد قدرخان، وأصبح الجزء الغربي، بما فيه ما وراء النهر، من ممتلكات شمس الملك نصر، الذي أقام في بخارى وجعلها عاصمة لمملكته[٥٠] وتعتبر فترة حكمه من أزهي العصور التاريخية في بخارى

حيث ساد العدل بين الرعية، وقام بتأسيس عدة منشأة ومبان معمارية[٥١] في بخارى، مما يدل علي اهتمامه ونهوضه بها في تلك الفترة.

وإذا انتقلنا إلي نقطة أخري، في دور فقهاء بخارى السياسي قبل آل برهان، وهي فترة حكم السلطان ملكشاه السلجوقي، تلك الفترة التي تدخل فيها الفقهاء في الحياة السياسية من جديد، وقاموا بالاتصال بالسلطان لكي يتدخل في شئون بخارى الداخلية،وذلك عندما استاءوا من حاكمهم القراخاني "أحمد خان" وأفعاله وسيرته السيئة بين رعاياه، لذا فقد كتب الفقهاء لملكشاه سراً يستغيثون به، ويسألونه القدوم لإصلاح أحوالهم، هذا بالإضافة إلي تسييرهم أحد الفقهاء المشهورين، وهو الفقيه أبوطاهر بن علي، لكي يحث السلطان علي الإسراع بالقدوم لنجدتهم، وقد وجدت أقوال هذا الفقيه آذاناً صاغية من السلطان، فسار بجيشه في سنة ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩م، تجاه بخارى، وأنزل الهزيمة بأحمد خان وقبض عليه[٥٢]، وبذلك فرض ملكشاه سيطرته علي بخارى، وصارت ولاية تابعة للحكم السلجوقي وخاضعة لنفوذهم.

لقد فتحت سيطرة ملكشاه علي بخارى شهيته، فتقدم إلي إقليم كاشغر لإخضاع حاكمه القرخاني، الذي أسرع لاسترضاء السلطان بإرسال رسول محمل بالهدايا والتحف، ملتمساً منه السماح بإبقائه علي حكمه، عارضاً عليه أن يزوج إحدي بناته من أبناء السلطان، في مصاهرة سياسية تقرب بين الطرفين، وتقضي علي الصراع السياسي بينهما، قائلاً : "..... فلا يضرك إن بقي في الإقليم بيت من بيوت الملك القديم.. وإن اقتضى رأيك وزوجت بعض بنات مواليك لبعض أولادك، فنحن من مواليك وعبيدك..[٥٣]" ومن هنا فقد قبل حاكم كاشغر القراخاني الدخول في طاعة ملكشاه، وضرب السكة باسمه، وأقام الخطبة علي منابر جوامعه باسم السلطان، في مقابل إبقائه علي عرش كاشغر.

ولا ننسي أن نشير إلي أن أحمد خان صاحب بخارى الذي أسره السلطان ملكشاه، قد أطلق سراحه وأعيد إلى الحكم سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م، بعد أن أخذ السلطان عليه العهود والمواثيق بالسير بالعدل بين الرعية، إلا أن فقهاء بخارى اعترضوا علي ذلك،

واتهموه بالزندقة وأفتوا بقتله، وذلك في سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، وبالفعل تم تنفيذ اتهاماتهم له وأعدموه، وقد زاد تدخل الفقهاء في تلك المرحلة بأن قاموا بتعيين أحد أفراد البيت القراخاني مكانه في الحكم، فقاموا بتولية ابن عمه المسمي مسعود خان(٥٤)، مما يوضح إلي أي مدي وصل نفوذ الفقهاء وتحكمهم في بخارى.

كذلك كان لفقهاء العلويين دور سياسي بارز في عهد السلطان سنجر السلجوقي، فقد عمل أحد فقهاء الشيعة، ويطلق عليه اسم الأشرف محمد بن أبي شجاع، بمساندة رئيس البلدة فتنة ضد " محمد أرسلان خان حاكم بخارى(٥٥) القراخاني، الذي كان تحت يديه حكم ما وراء النهر كله، فأسند إلي ابنه نصر خان حكم سمرقند، وأقام هو في بخارى، وبالتالي عندما ثار هذا الفقيه قام بقتل هذا الابن، مما أجبر محمد أرسلان خان على الاستنجاد بالسلطان سنجر(٥٦)، وذلك في سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م، فزحف السلطان علي رأس جيش كبير لنجدة الخان، ولكن ما لبث أن شعر محمد أرسلان خان بعدم الحاجة إلي السلطان، وأن ابنه الآخر الذي كان غائباً في التركستان، قد عاد مسرعاً وكفاه شر هذا الفقية العلوي، بأن تمكن من قتله ومن القبض علي رئيس البلدة وسجنه، وبذلك انتهت الفتنة في بخارى، وبناء عليه فإن الخان طلب من السلطان سنجر -عن طريق الرسل- العودة بجيشه إلى خراسان(٥٧)، مما أدي إلي تفجير الموقف بينهما، حيث أسرع السلطان بالقبض علي الخان وأسره، وعين بدلاً منه في الحكم أحد أفراد الأسرة الخانية، وهو حسن تكين(٥٨) ولكنه ما لبث أن رأف بالخان المعزول، فأرسله إلي ابنته معززاً مكرماً(٥٩)، وهي تعتبر من الأسرة السلجوقية، فإن هذا الخان يعتبر ابن أخت السلطان سنجر.

وصفوة القول: إن فقهاء بخارى، قبل ظهور آل برهان، كان لهم دور إيجابي في التدخل في سياسة البلاد، لدرجة أنهم استعانوا بالدول المجاورة علي حكامهم، وكانوا سبباً في تدخل سلاطين السلاجقة في شئون البلاد.

ثالثاً: تصدي آل برهان للقرخطاي مع السلطان سنجر سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م:

كان أول ما وصلنا من تاريخ آل برهان وتدخلهم في سياسة بخارى: الموقف الذي وقفه رئيس طائفة الحنفية حسام الدين عمر بن برهان الدين بن عبدالعزيز بن مازة، الذي تصدي للقراخطاي إلي جوار السلطان سنجر، تلك الأسرة التي عرفت بآل برهان أو آل مازة، وهم أسرة دينية بارزة تبوأوا مكانة عالية في النفوذ الديني، فظهروا في القرن السادس الهجري في حوالي ٥٣٥هـ/١١٤١م، كوعاظ ورجال دين علي منابر بخارى(٦٠).

أما عن القراخطاي فهم الأتراك الوثنيون القادمون من شمال الصين، والذين طردتهم أسرة كين الصينية في أوائل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي تجاه الغرب(٦١)، وفي بداية خروجهم من حدود الصين تجمعوا حول مملكة كاشغر في فترة حكم أبناء قدر خان يوسف، حيث صاروا تابعين للدولة القراخانية في قسمها الشرقي(٦٢)، حتي تمكنوا من تكوين دولة لهم في حدود سنة ٥١٨ هـ/ ١١٢٤م، اتسعت فشملت المنطقة ما بين مملكة الخوارزمية في الغرب، ومساكن المغول في الشرق، فكان شاطئ نهر جيحون حداً فاصلاً بين مملكة القراخطائية وأقاليم الدولة الخوارزمية(٦٣)، ولابد أن نشير إلي أن تجمع القراخطاي، في تلك المناطق، جاء نتيجة سماح محمد أرسلان القراخاني لبعض قبائل الأتراك القارغلية، بالإقامة في حدود دولته، وإمدادهم بالأموال سنوياً، لكي يستقروا في الدروب بين بلاده وبين الصين، وانضمام العديد إليهم من القراخطاي.

وهذا وقد تمكن أحد ملوك الصين، ويطلق عليه اسم "يي لوتاشي " من الاستقرار بين صفوف تلك القبائل، واستطاع أن يكون جيشاً كبيراً انقلب به علي الخان، فأنزل به الهزيمة(٦٤)، ومن ثم نصب "يي لوتاشي " نفسه حاكماً علي تلك القبائل، واتخذ لنفسه لقب كورخان أو غورخان، وبذلك ألغي الكورخان حكم القراخاني في بلاساغون، وتولي بنفسه الحكم(٦٥) وعلي ذلك تزايد نفوذ الدولة القراخطائية وبسطت نفوذها في المنطقة.

أما عن الصراع الذي دار بين السلطان سنجر وجيوش الخطائية في سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م في موقعة قطوان(٦٦) التي انتصر فيها القراخطائية، وقتل فيها ما يقرب من مائة ألف من عساكر المسلمين، منهم إثنا عشر ألفا من أصحاب العمائم(٦٧)، منهم شهيد آل

برهان حسام الدين المعروف بالصدر الشهيد، والمولود في سنة ٤٨٣هـ/ سنة ١٠٩٠م، وهو أصولي حنفي، بلغ مرتبة الاجتهاد حتي صار مشهوراً فيها، فأقر بفضله علي كثيرين، أخذ العلم عن والده ابن برهان الدين الكبير، وأخذ عنه العلم أبومحمد العقيلي والمرغنائي صاحب كتاب الهداية، ومن مؤلفاته الجامع في الفتاوي الصغري والفتاوي الكبري[٦٨] وغيرها.

وفي موقعة قطوان: قد سار الكورخان قاصداً لقاء السلطان سنجر، في نحو سبعمائة ألف من أشد عساكره، فواجه السلطان السبعين ألف فارس، ولكن أمراء سنجر لم يكونوا علي كلمة واحدة، فكانوا غير متفقين، ودب الخلاف فيما بينهم، مما أدي إلي إنزال الهزيمة بجيشه[٦٩]، وبذلك سقطت بلاد ما وراء النهر في يد القراخطاي الكافر[٧٠]، علي الرغم من بقاء سنجر واقفاً في أعداد قليلة، محاولاً تجميع جنوده، حتي تم أسره، وأسر زوجته السيدة تركان خاتون بنت أرسلان خان، والأمير قماج وابنه، والأمير سنقر العزيزي، وقد فدي سنجر زوجته بخمسمائة ألف دينار، والأمير قماج وابنه فديا نفسهما بمائة ألف دينار[٧١] ويؤكد الحسيني[٧٢] علي شدة وقع القتل في الرجال، واستشهاد الأمير أياق والأمير سنقر العزيزي، وهو يشير إلي قتل رئيس الحنفية ببخارى الإمام الشهيد حسام الدين عمر بن برهان الدين عبدالعزيز، والسيد الإمام شرف الزمان الإيلاقي الحكيم السمرقندي بين يدي الكورخان، وأن الشيخ فخر الدين المالكي أنشد قصيدة[٧٣] في تلك الواقعة.

بوادي درغم شقيت كرامٌ	أراق دماءهم سيف اللئام
بكيتهم وحق لهم بكائي	بأجفان مؤرقة المنام
فتحسبها وقطر الدمع فيها	غذاه المزن أذيال الخيام

ولابد هنا أن نستفسر عن سؤال هام: هل حسام الدين بن برهان كان مصاحباً للسلطان سنجر في الواقعة، وأن الكورخان قتله في أثناء المعركة، فصار شهيداً، أم أنه كان في بخارى متصدياً لقوات الكورخان عند استيلائه علي بخارى، فأمر القراخطاي بقتله؟

وهنا يؤكد المؤرخ الذهبي[٧٤] على أن أبا حفص عمر بن مازة، عندما خرج للمعركة، كان يودع أصحابه وأولاده، داعياً أمامهم أن لا يرجع من القتال، طالباً للشهادة، لذا عندما قتل في درغم بقطوان في صفر سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م، كان له من العمر ثلاثة وخمسون عاماً فقط. هذا يدلنا على أنه كان مصاحباً للسلطان سنجر في المعركة، كذلك يؤكد بارتولد[٧٥] هذا الرأي بقوله : " أنه عند غزو القراخطاي كان رئيس بخارى ابنا لعبدالعزيز ويدعي حسام الدين عمر آل برهان، ويبدو أن بخارى أبدت بعض المقاومة ضد الكفار لأن الصدر قتل وسقط في المعركة، ودفن بكلاباد من نواحي بخارى، وقد نتج عن هذه المعركة أن سقطت بلاد ما وراء النهر في يد الكورخان واستمرت خاضعة له قرابة تسعة وثمانين عاماً[٧٦].

واستمراراً لسياسة الكورخان، وفرض سيطرته علي بلاد ما وراء النهر، فإنه عين في سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م، أميراً من الأسرة الخانية هو جغري خان بن حسن تكين، وهو الذي أرسل إليه الكورخان بإجلاء الأتراك والقارغلية من أعمال بخارى إلي كاشغر، وأن يلزمهم بترك حمل السلاح وأن يعملوا في الزراعة، فامتنع الترك في البداية، ولذلك تدخل الفقيه محمد بن عمر بن برهان الدين عبدالعزيز ابن مازة رئيس بخارى، لدي جغري خان لكي يتدخل ويحث الأتراك، قبل أن يعظم شرهم، وينهبوا البلاد، وقد انتهي الأمر بتردد الرسل بينهم، حتي تمكن آل برهان بمساندة جغري خان من القضاء عليهم، ودفع شرهم عن بخارى[٧٧].

رابعاً : تغيير سياسة آل برهان تجاه القراخطاي :

لقد تغيرت سياسة آل برهان تجاه دولة القرخطاي، وذلك نتيجة لاتباع الكورخان[٧٨] سياسة إدارية ونظام حكم مختلف فيما وقع بين يديه من ممتلكات، فقد اتبع مبدأ الحكم الذاتي علي نطاق واسع في الإمارات الداخلية في مملكته، ولم يشذ عن ذلك إلا بلاساغون التي أسقط عنها حكم الخان القراخاني، واعتلي عرشها، وقد تمثل حكمه في الإمارات، كبخارى، في فرض الجزية على كل بيت ديناراً ذهباً، وكان ممثل الكورخان في

عواصم تلك الولايات المتمتعة بالحكم الذاتي، وكان هذا الممثل أو النائب عن الكورخان لا يذهب إلي مقر الحاكم إلا لأخذ الجزية، فإذا أخذها انصرف، وكان في بعض الأحيان يحظي الخان صاحب سمرقند وبخارى بحق إحضار الجزية بنفسه إلي الكورخان، وكانت الجزية عند القراخطاي، وملوك الصين، تدفع عن كل بيت علي حدة، قطعة واحدة من الذهب – دينار(٧٩).

أما بالنسبة لمدينة بخارى كولاية تابعة لسلطان الكورخان؛ فإنه قام بتعيين شخص من قبله والياً عليها، يطلق عليه اسم أتمتكين بن بياباني(٨٠)، ولم تمدنا المصادر التي بين أيدينا عن شخصية أتمتكين هذا، هل هو من الخانيين أم هو من أمراء القراخطاي،وأن هناك من ينسبه إلي الأمير بياباتي وأنه ابن أخي أتسز ملك خوارزم. وإن كان النرشخي(٨١)، قد أطلق عليه اسم ألبتكين، وهو نفس الاسم الذي أطلقه عليه بارتولد(٨٢) .

وهذا بالإضافة إلي أنه أوصي بأسرة آل برهان للإشراف علي هذا النائب، فقد أسند إلي الإمام تاج الإسلام أحمد بن عبدالعزيز بن مازة إمام بخارى وابن برهان الدين، وقد أمره أن يصدر في أعمالها كلها عن إشارته، ولا يعمل شيئاً بغير أمره ولا يتصرف في أمر إلا في حضوره(٨٣)، وعلي ذلك أصبح تاج أحمد بن مازة أول من تولي منصب الرئاسة من هذه الأسرة، في بخارى، تابعاً للقراخطاي وتلقب بلقب صدر جهان،وقد صار هذا اللقب علماً علي أفراد تلك الأسرة حتي القضاء علي دولة القراخطاي في بخارى، سنة ٦١٣هـ / ١٢١٦م(٨٤).

ومن هنا يتضح تغيير موقف الأسرة البرهانية في بخارى، فقد أوكل إليهم الكورخان مهمة الإشراف علي نائبه في بخارى، مما يؤكد إلي مدى نفوذ الكورخان علي ما تحت يديه من ولايات، كبخارى التابعة لنفوذه، حتي يستعين بحاكم يفرض رأيه علي أهالي بخارى.

ولا يفوتنا أن نشير إلي أن الكورخان كان شديد الحرص علي استمرار تبعية بلاد ما وراء النهر لسلطانه، فقد وضع علي بخارى شحنة من العساكر لكي يدفع لهم الجزية

السنوية، وأوكل إليهم أيضاً حفظ الأمن والنظام في بخارى[٨٥]، فكان أمراء هذه الناحية يدفعون إلى شحنات الكورخان الخراج، وكانوا يحكمون تحت تبعيتهم بلقب الأمير، وقد سلكت أسرة آل برهان، المعروفين بآل صدرجهان، نفس هذا المسلك مع الشحنة، ونائب الكورخان أتمتكين في بخارى، وللحقيقة التاريخية؛ فإن القراخطاي اضطر إلي الاعتراف بالزعامة الدينية لأسرة آل برهان في بخارى، وأن يعمل أتمتكين في كل شئ بإشارة الإمام.

تجسد دور آل برهان في بخارى في التصدي إلي أتمتكين، الذي ظلم الرعية وشرع في مصادرة الأهالي، فعندما رأوا هذا الظلم ما لبثوا أن خاطبوا الكورخان في عاصمته بلاساغون، ورفعوا شكواهم إليه، ومن ثم كان تدخل الكورخان لوقف هذا الظلم، حيث كتب إلي أتمتكين رسالة، على طريقة أهل الإسلام، جاء فيها : "بسم الله الرحمن الرحيم : يعلم أتمتكين أنه إن تكن المسافة بيننا بعيدة فرضانا وسخطنا منه قريب، ليفعل أتمتكين ما يأمر به أحمد – يقصد به الإمام تاج الإسلام أحمد بن عبدالعزيز – وليأمر أحمد بما أمر به محمد، والسلام[٨٦]". هذه الرسالة التي تتضمن عدل وإنصاف الكورخان لرعيته ومحاسبته لهم، وعلي قوة الكورخان في تلك الآونة، وأن كلمته تنفذ علي نائبه، هذا إلي جانب أن مضمون الرسالة يوضح كل الوضوح رغبته في نشر العدل، وإبقاء بخارى تحت سيطرته، والذود عنها وعدم تعرض رعيته لأي مكروه.

خامساً : اتصال آل برهان بالخوارزمية :

برغم انضواء الأسرة البرهانية تحت حكم القراخطاي الوثنيين في بخارى، وتبوئهم دور رؤساء البلدة وزعماء المذهب والفقه الحنفي فيها، فقد حاولوا، في بعض الأوقات، الاستنجاد بالدولة الخوارزمية ضد نفوذ أهالي بخارى. ونتيجة لتذبذب موقف آل برهان من علاقتهم بالقراخطاي والخوارزميين؛ فقد فتح ذلك شهية سلاطين خوارزم علي مهاجمة بخارى، رغبة منهم في توسيع نفوذهم بالاستيلاء على ما تحت يد الخطائيين من بلدان وخاصة ما وراء النهر.

ولابد أن نشير في البداية إلي أن موقعة قطوان وإنزال الهزيمة بالسلطان سنجر السلجوقي؛ ترجع في الأساس إلي استنجاد السلطان أتسز الخوارزمي بقبائل القراخطائين، نتيجة قتل سنجر أحد أبنائه في إحدي المواقع الحربية[٨٧] بالرغم من أن دولة الخوارزميين منبثقة من الأسرة السلجوقية،وأن سنجر هو الذي أوكل إلي محمد بن نوشتكين حكم ولاية خوارزم، في سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م[٨٨]، وبناء علي ذلك فقد رغب أتسز في توطيد علاقته بالقراخطاي في المشرق، محاولة منه للانتقام من السلطان سنجر، بهدف القضاء علي دولة السلاجقة في المشرق، وتأكيداً لذلك: تزوج السلطان أتسز من بنات الخطائية[٨٩]، بالإضافة إلي أن هناك إشارات من نظامي عروضي السمرقندي[٩٠] توضح أن أتمتكين نائب الخطائي، في بخارى، هو ابن أخت السلطان أتسز، وبذلك أصبح هناك تجاوب كبير بينهما.

ولكن هناك بعض الإشارات التي تدل علي خشية أتسز من القراخطاي واقترابهم من ممتلكاته، فكان نهر جيحون يعتبر حداً فاصلاً بينهم[٩١]، وقد حدثت مناوشات من أتباع الكورخان، في بخارى وما وراء النهر، تحت قيادة القائد أوتوز، حيث غزا خوارزم وأنزل بها ضربات شديدة، ثم عاد محملاً بالأسلاب والغنائم، لذا حاول السلطان أتسز غسل ذلك العار في سنة ٥٤٦ هـ/ ١١٥١م بالمسير بجيشه إلي جند[٩٢]، ولكن جهوده باءت بالفشل، فاضطر إلي أن يتعهد بدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دينار – تلك الجزية التي لم يستطع أن يتخلص منها، فتركها عبئاً ثقيلاً علي كاهل خلفائه من بعده[٩٣] – هذا يفسر كيفية إسراع أتسز واهتمامه بعقد الصلح مع القراخطائية، وقد قيل إن هذه الجزية قدمت في البداية علي سبيل الهدية، للمساهمة[٩٤] في نفقات الجيش، طالما كان علي قيد الحياة، بالإضافة إلي إرسال الأغذية والمواشي في كل عام[٩٥].

والجدير بالذكر إن أهالي بلاد ما وراء النهر قاموا بالاستنجاد بالسلطان أيل أرسلان، الذي خلف أباه أتسز حوالي ٥٥٣ هـ / ١١٥٨م، من ظلم أمير الكورخان، ومن تحكمات رئيس البلدة من آل برهان. فأسرع الخوارزمشاه إلي نجدتهم، ففتح أهالي بخارى

أبواب مدينتهم دون أي قتال، وسلموها للخوارزميين، ولكن من الملاحظ أن أمير الكورخان وآل برهان استنجدوا بالقراخطاي، وحشدوا جيشاً بأعداد كبيرة من الترك التركمان النازلين فيما بين قراقورم وجند، مما اضطر السلطان أيل أرسلان إلي العودة لخوارزم، دون أن يحقق أي انتصارات[٩٦]، وقد أشار بارتولد[٩٧]، إلي هذا الصلح الذي تم بين الطرفين وأن علماء بخارى وأئمتها قاموا بجهد مشكور في ذلك، لدرجة أنه لم تتم مواجهة بين الطرفين.

كذلك ساند آل برهان الخطائيين في زحفهم علي خوارزم سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م، وذلك بسبب امتناع السلطان أيل أرسلان الخوارزمي عن دفع الجزية السنوية المقررة عليهم للقراخطاي، وسرعان ما عبرت جيوش القراخطاي نهر جيحون، وحلت الهزيمة بالخوارزمية، وداهم المرض سلطانهم، فترك قيادة الجيش لأحد أمرائه، فلحقت الهزيمة بهم، وتم أسر عدد كبير منهم[٩٨].

ظهرت مطامع القراخطاي في ممتلكات الخوارزميين عند وفاة السلطان أيل أرسلان، الذي عهد إلي ابنه الأصغر "سلطان شاه" بالحكم من بعده، ولكن أخاه الأكبر المسمى تكش، حاكم جند، طالب بأحقيته في الحكم بدلاً منه، لذا سارع إلي طلب العون من القراخطاي، فأمده الكورخان بجيش استطاع أن يحقق النصر به، وأن يطرد أخاه "سلطان شاه" وأمه من خوارزم دون قتال - إلي الأمير "مؤيد أب إبه" في خراسان في سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م[٩٩].

ولكن سرعان ما خالف السلطان تكش القراخطائيين، وتملص من عبء دفع الجزية، فزحف عليه القراخطاي لقتاله، وحاصر خوارزم، ولكن تكش كان يخرج إليهم في كل ليلة مع مجموعة من جنوده ويناوشهم، فكبد القراخطاي خسائر كبيرة في الأرواح، وبالتالي انسحب الباقون إلي بلادهم[١٠٠]،وقد زاد الأمر سوءاً بالنسبة للقراخطاي، فقد فقدوا سيطرتهم علي مدينة بلخ[١٠١]، التي كان صاحبها المسمى "أزبة" يحمل الجزية إليهم في كل عام، ومن ثم ظهر دور آل برهان بالوقوف إلي جانب عناصر القراخطاي، فقد جهز السلطان علاء الدين تكش قواته تجاه مدينة بخارى، في محاولة للسيطرة عليها[١٠٢]، لذلك

أعلن آل برهان وأهالي بخارى، عن بكرتهم، أن القراخطاي أفضل وأحسن حالاً من وقوعهم تحت حكم الخوارزميين.

ومن النوادر الطريفة التي فعلها آل برهان: إحضارهم كلباً أعور وألبسوه قباءً ورموه بالمنجنيق علي الجيش الخوارزمي، صائحين بقولهم : " هذا سلطانكم " – وذلك لأن السلطان تكش كان أعور – ولكن الشئ الملاحظ أن تكش تمكن من اقتحام أبواب بخارى، إلا أنه لم يعاقب آل برهان ولا أهل بخارى بما فعلوه، بل وزع الأموال وأحسن إليهم(١٠٣)، ولم يأخذهم بجريرة ما فعلوه من الاستهزاء به.

ومن هنا نري أن آل برهان وقفوا إلي جانب أهل البلاد وعناصر القراخطائية، علي الرغم من أنه ملك بوذي الديانة، يطلق عليه أنه وثني كافر، ولم يرغبوا في الانحياز إلي جانب السلطان الخوارزمي، علي الرغم من معرفتهم التامة بأنه حاكم مسلم الديانة.

هذا ولا بد أن نشير إلي أن السلطان تكش، بعد عودته إلي خوارزم(١٠٤)، أعاد تجديد علاقته بدولة القراخطاي، وأقر علي نفسه دفع الجزية المفروضة علي أبيه سابقاً، سعياً منه لإرضاء الكورخان(١٠٥)، فهو بذلك يجعلهم سداً منيعاً لمن وراءهم من سلالات المغول القاطنين خلفهم في الناحية الشرقية.

ومن المواقف الإيجابية التي وقفها سلاطين الخوارزمية مع آل برهان: موقف السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧م، إلي جانب آل برهان عند قيام أهالي بخارى بالثورة ضدهم، تلك الثورة الشعبية التي قامت ضد الأرستقراطية الحاكمة، متمثلة في أسرة آل برهان، وكان قائد هذه الثورة رئيس الصناع ببخارى، ولم يصلنا اسم هذا الشخص.

ومما يلاحظ في ذلك فأنه بالرغم من مكانة آل برهان، وبرغم اعتمادهم في الحكم علي سلطتهم الروحية الدينية، علي أساس أنهم رؤساء المذهب الحنفي في بخارى، وأنهم رؤساء البلدة، يسند إليهم مهمة جمع الضرائب وحملها إلي الكورخان في عاصمته بلاساغون، وأنه كان يعيش تحت كنفهم وإدارتهم ما يقارب ستة آلاف فقيه(١٠٦) فقد أسرع

آل برهان بمخاطبة الكورخان طالبين إرسال نجدات عسكرية لصد تلك الثورة، إلا أنه يلاحظ أن الكورخان، في ذلك الوقت، كان في مرحلة ضعف شديد، فاكتفي بإصدار بعض الفرمانات والأوامر(١٠٧) التي لم تؤت نتيجتها، وعلي ذلك فإن استنجاد آل برهان بالسلطان علاء الدين محمد خورازمشاه الذي أنقذ الموقف بتقدمه تجاه بخارى، وقيامه بأسر رئيس الثورة وحمله معه أسيراً إلي خوارزم (١٠٨) مما ترتب عليه عودة بخارى إلي نفوذ وسيطرة آل برهان من جديد، وقد حفز ذلك السلطان "علاء الدين محمد خوارزمشاه" على محاولة القضاء علي القراخطاي في المستقبل.

ولكن قبل أن نتكلم عن هجوم علاء الدين محمد خورازمشاه علي قان قانان، أي سلطان السلاطين عثمان خان القراخاني، صاحب سمرقند(١٠٩)، لابد أن نشير إلي أن أسرة آل برهان برغم قضاء الخوارمشاه علي ثورة رئيس الصناع في بخارى، إلا أنه ألقي القبض علي رأس الأسرة، وهو برهان الدين محمد بن أحمد بن عبدالعزيز البخاري المعروف بصدرجهان، رئيس الحنفية وخطيب بخارى، الذي كان مثل السادة الملوك، إذ كان من جملة من يعيش تحت كنفه ما يقارب ستة آلاف فقيه(١١٠)، وقد نقله السلطان خوارزمشاه، إلي خوارزم ممنوعاً عن الإصدار والإيراد مسلوب الإرادة(١١١)، وأقام بدلاً منه، في رئاسة الحنفية والخطابة في بخارى، مجد الدين مسعود بن صالح الفراوي، ومنحه لقب صدرجهان(١١٢) – وهو أخ لوزير سلطان خوارزم المسمى "نظام الدين صدر الدين علي سعد الدين مسعود" الذي تولي الوزارة منذ عهد السلطان تكش(١١٣) – وقد رتب مجد الدين في الخطابة، وقرر أن يخطب بنفسه عند حضور السلطان، ولكن نظام الملك الوزير الذي كان يبغضه بغضاً شديداً، ولا يختار أن يستقيم له حال، أو يقوم له جاه، لذا وضع من قام بالتشويش عليه في أثناء إلقائه خطبة الجمعة أمام السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه(١١٤)، فعادت بذلك الخطابة في بخارى إلى أفراد أسرة آل برهان.

قضاء علاء الدين محمد خوارزمشاه علي الدولة القراخطائية :

لقد تطلع السلطان علاء الدين خوارزمشاه إلي السيطرة علي ممتلكات الدولة القراخطائية، خاصة وأنه طالت أيامهم في التركستان وما وراء النهر، وثقلت وطأتهم علي أهلها، وأن لهم في كل مدينة نائب يجبي الأموال، واتفق أن سلطان سمرقند الملقب بخان خانات، أي سلطان السلاطين، وهو من بقايا الدولة الخانية، المسمي عثمان خان، أنف وضجر من تحكمهم ككفار لا يدينون بالدين الإسلامي، فأرسل للسلطان يقول له : " إن الله عز وجل قد أوجب عليك وبما أعطاك من سعة الملك وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم.. ونحن نتفق معك علي محاربتهم، ونحمل إليك ما نحمله إليهم، ونذكر اسمك في الخطبة وعلي السكة[١١٥]، وزاد في الأمر أن سيَّر للسلطان رهائن من أهله وفاء بعهده، فاستوثق خوارزمشاه منه[١١٦].

ومن هنا وجد خوارزمشاه أن من العار أن تدفع دولته ومن ما وراء النهر الضرائب السنوية لحاكم كافر، لذا قام بإلقاء رسول الكورخان في نهر جيحون سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م، وأغرقه، عندما جاء مطالباً بالجزية السنوية[١١٧]، كما أمر وجوه أهل خوارزم أن يقتلوا كل رجال القراخطاي الذين ينزلون ضيوفاً في منازلهم، فقتل كل من كان في خوارزم من الخطائيين[١١٨]، أما إذا نظرنا إلي سبب تغيير سياسة عثمان خان تجاه القراخطاي؛ نجد أن الكورخان رفض طلبه بالزواج من إحدي بناته[١١٩].

لقد تجهز الكورخان بجيشه لمواجهة السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه، واستمر القتال بينهما حتي سقط خوارزمشاه في أسره، وبالتالي عمل الحيلة حتي خلص من هذا الأسر[١٢٠].

أعاد خوارزمشاه استعداداته في سنة ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م، يسانده سلطان سمرقند، فدارات الدائرة علي الكورخان، وكان مقدمهم يسمي طاينكوه[١٢١]، الذي مني بهزيمة كبيرة ووقع في أسر خوارزمشاه، فحمل إلي خوارزم، لكن السلطان وضعه موضع العناية والتكريم[١٢٢]، وقد بلغ عمره مائة عام، اتصف بحسن التدبير والأفعال، له خبرة ودراية بشئون الحكم والإدارة[١٢٣].

وتأكيداً علي حسن النوايا بين علاء الدين محمد خوارزمشاه وسلطان سمرقند عثمان خان، فقد اصطحبه السلطان معه إلي خوارزم[١٢٤]، وزوجه من ابنته "خان سلطان"، وبقي في بلاطهم عاماً كاملاً، علي عادة الأتراك[١٢٥]، ولكن بمجرد أن عاد عثمان خان إلي سمرقند أرسل خوارزمشاه معه شحنة، علي غرار ما كان موجوداً سابقاً من القراخطاي، والملاحظ أن هؤلاء الشحنة عاثوا في سمرقند فساداً، وعجز السلطان عثمان خان عن كبح جماحهم وحماية الأهالي من اعتداءتهم المتكررة، وبالتالي فقد خلع طاعة الخوارزمشاه، وطلب النجدة من الكورخان وتزوج من ابنته، وقد شرع في قتل الجنود الخوارزميين، بل زاد في الأمر بأن حاول أن يقتل زوجته الخوارزمية[١٢٦]، وزيادة في إذلالها فقد أجبرها علي أن تخدم في حفل زواجه من القراخطائية، مما تسبب في حقدها وكراهيتها له[١٢٧].

وبناء علي ذلك فقد سار خوارزمشاه في سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م لمحاربة عثمان خان، وأمر بأن يقتل جميع الغرباء في خوارزم، فمنعته أمه تركان خاتون عن فعل ذلك، ولكنه تمكن من القضاء علي عثمان خان وقتله[١٢٨]، وبعد أن فتح سمرقند أطلق يد جنوده في ذبح أهلها ثلاثة أيام كاملة، ثم رفع يده عن فعله الشنيع، لشفاعة أئمة المدينة والسادات بها[١٢٩]، وبذلك قضي علي دولة القراخانيين في بلاد ما وراء النهر.

اتسعت شهية خوارزمشاه، في تلك الفترة، في التوسع في البلدان وامتلاك العديد من المناطق، مثل هراه وإقليم الغور كله[١٣٠]، ولقب نفسه الأسكندر الثاني، وظل الله علي الأرض[١٣١]. أما الخطوة التالية للسلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه؛ فكانت اشتباكه مع الكورخان، ففي سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٣م، عند مدينة بناكت[١٣٢] وقد قصد القراخطاي، في هذا الوقت، طائفة عظيمة من التتر خرجوا من حدود الصين، ونزلوا وراء بلاد تركستان، وعلي رأسهم ملكهم كشلي خان[١٣٣] ويسميه الجويني[١٣٤] كوجلك، الذي اتفق مع خوارزمشاه علي محاربة القراخطاي.. وانتهت الواقعة بفناء القراخطائيين والقضاء علي دولتهم، التي كانت تعتبر سداً منيعاً ضد تقدم عناصر المغول علي البلدان الإسلامية،

وبالتالي أصبحت المواجهة التالية بين الخوارزميين وبين جنكيزخان، زعيم هؤلاء المغول، في سنة ٦١٧هـ /١٢٢٠م، ونسى خوارزمشاه وصية أبيه "السلطان تكش" بعدم محاربة القراخطاي والقضاء عليهم.

سادساً : دور آل برهان العلمي في بخارى :

سبق أن ذكرنا أن آل برهان كانت لهم رئاسة المذهب الحنفي في بخارى، وأنهم كانوا يتوارثون رئاسة الخطابة على منابرها أبا عن جد، وقد صارت مدينة بخارى في عهدهم مجمع الفضلاء والفقهاء، كما صارت بيوتهم ملجأ لأصحاب التيجان، وقد استمر أفراد هذه الأسرة في مراكزهم الدينية والسياسية، طوال فترة حكم القراخطائي لهذه المنطقة، وكانوا يقومون برئاسة الحنفية حتي عهد السلطان أولجايتو (٧٠٣ هـ : ٧١٦ هـ / ١٣٠٣م : ١٣١٦م) ومنذ ذلك التاريخ لايعلم أي شئ عنهم[١٣٥].

ولقد تركز اهتمام آل برهان في الحياة العلمية في بخارى، وامتازوا بحبهم الشديد للعلم والعلماء وأهل الدين، وخاصة فقهاء المذهب الحنفي، كما اهتموا بالمراكز العلمية وإنشاء المدارس والمعاهد العلمية، وتشجيع الشعراء والإغداق عليهم بالهبات والعطايا، ومن أبرز مساهماتهم في مجال الحياة العلمية والثقافية: مؤلفاتهم العلمية البارزة وخاصة في الفقه، وأول من نسمع عنه من هذه الأسرة هو: محمد بن عمر بن عبدالعزيز بن مازة، أبوجعفر البخارى، الفقيه الحنفي، شيخ بخارى ورئيسها وابن شيخها، ولقبه شمس الدين، روي عن أبيه، وعنه أبوالبركات محمد بن علي الأنصاري قاضي أسيوط في مشيخته، وسمع من ابن مازة ببغداد، وقد عاش خمسة وخمسين عاماً، وتوفي في سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م[١٣٦]

ومن مشاهير الفقه الحنفي: عمر بن عبدالعزيز بن مازة، برهان الأئمة، أبومحمد المعروف بالحسام الشهيد، تفقه علي أبيه، وصنف الفتاوي الصغري والفتاوي الكبري، والجامع الصغير والمطول، وهو أستاذ صاحب المحيط البرهاني، ولد في صفر سنة

٤٨٣هـ / ١٠٩٠م، واستشهد في موقعة بادية قطوان -بالقرب من سمرقند- سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م[١٣٧]، وهو من مشاهير علماء المشرق وفقهائها.

وقد رافقه في دراسته كلٌ من: شمس الأئمة الإمام العلامة شيخ الحنفية مفتي بخارى أبوالفضل بكر بن محمد بن علي بن الفضل الانصاري الخزرجي، والجابري وهو شيخ الحنفية نعمان الزمان القاضي عماد الدين أبوالعلاء عمر بن العلامة شيخ المذهب البخارى الزربخري[١٣٨] المتوفي سنة ٥٨٤هـ/ ١١٩٤م، وهما يعدان من أقرب الفقهاء إلي عمر بن عبدالعزيز الحسام الشهيد.

ومن آثار أفراد أسرة آل برهان: ما قام بتأليفه محمود بن أحمد بن الصدر الشهيد البخارى برهان الدين ابن مازة الفقيه، المتوفي في حوالي سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م، مؤلف كتاب المحيط البرهاني في الفقه الحنفي، والذخيرة البرهانية في الفتاوي، ونتيجة الفتاوي، وشرح الجامع الكبير[١٣٩] وكلها في شرح المذهب الحنفي.

كذلك مسعود بن أحمد بن مسعود بن مازة المحاربي أحد الفقهاء الحنفية الفضلاء، وله علم بالتفسير وعلم الحديث، قدم بغداد، وصحبه رسول التتار للحج، فحبس مدة سنتين، ثم أفرج عنه، فحج ثم عاد، فمات في بغداد[١٤٠].

كذلك برع في التأليف من هذه الأسرة للمذهب الحنفي: محمود بن أحمد بن وعبدالعزيز أبوالمعالي، له كتاب " تتمة الفتاوي، وذكره عبدالقادر في مؤلفه المجهين، وله كتاب، نصاب الفقهاء " في الفتاوي أيضاً[١٤١]، ويعتبر محمود هذا من أكابر فقهاء الحنفية، ومن المجتهدين في المسائل، وله خمسة أجزاء من كتاب ذخيرة الفتاوي، وتوفي في بخارى[١٤٢].

ومن أفضل أفراد الأسرة البرهانية: محمود البخارى بن مازة المرغيناني، المولد سنة ٥٥١هـ/ سنة ١١٥٦م، الذي توفي سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م[١٤٣] والذي ألف كتاب المحيط البرهاني في الفقه النعماني، حيث وضح الغريب في الألفاظ الواردة في كتاب الفقه النعماني، كذلك شرح المصطلحات الواردة اعتماداً علي المعاجم اللغوية، وجمع فيه مسائل

المبسوط والجامعين والسير والزيادات، وألحق به مسائل النوادر والفتاوي والواقعات[١٤٤]، ومن تصانيفه أيضاً: "الوجيز في الفتاوي"، و"شرح الجامع الصغير" للشيباني، و"تتمة الفتاوي" وكلها في فروع الفقه الحنفي[١٤٥]، وما يلفت النظر في مؤلفاته أنه ضم إليها ما في الكتب من المشكلات، واختار كل مسألة فيها روايات مختلفة، وأقاويل متباينة، ماهو أشبه بالأصول، غير أنه لم يرتب المسائل ترتيباً، وبعد وفاته قام أحد المحدثين بترتيبها وتبويبها، وبنى لها أساساً وجعلها أنواعاً، وأجناساً[١٤٦].

ارتفعت مكانة صدرجهان المسمي برهان الدين محمد، وزادت ثروته المادية بدرجة عظيمة، لدرجة أنه إذا سمع السامع بأنه خطيب؛ بخارى يعتقد أنه كان مثلاً لسائر الخطباء في ارتفاع قدره، واتساع الأملاك والضياع، وامتطاء صهوة المجد والحكم، وليس الأمر كذلك، بل المذكور لا يقاس إلا برتوت السادات، وفروع الملوك، إذ كان من جملة من يعيش تحت كنفه، وإدارة سلفه، ما يقارب ستة آلاف فقيه، وكان كريماً عاليَ الهمة ذا مروة[١٤٧].

وقد حج "صدرجهان برهان الدين محمد بن أحمد بن مازة" محفوفاً بكثير من مظاهر الأبهة، محمولاً علي محفة، ومتاعه محمول علي أكثر من مائة بعير، وفي معيته كثير من رجال العلم والفقهاء، وقد استقبل في بغداد بكثير في الحفاوة والتكريم، وذلك سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦م، ولكن في طريق عودته إلي بغداد؛ لم يلتفت إليه لسوء سيرته مع الحاج، فأطلقوا عليه مسمي صدر جهنم بدلاً من صدرجهان[١٤٨].

هذا وقد أشير إلي أن آل برهان كانوا متعصبين تعصباً شديداً للمذهب الحنفي، وأنهم كانوا يتقربون إلي الله بما ينزلونه من إذلال بفقهاء الشافعية، وقد نكلوا بأصحابها بشتى أنواع البلاء في جميع البلاد، وخصوهم بالطرد والإبعاد، حتى حاولوا إخفاء مذهبهم خشية التنكيل بهم، وبذلك نكب رؤساء المذهب الشافعي في بخارى، ولم يبق منهم علي أحد، ومنهم أبوالفضائل بن المشاط، ومنهم بنو الخجندي، وقد دخل في المذهب الحنفي

جماعة منهم طلباً للنجاة وخوفاً من أنصار الحنفية، ومن جملتهم القاضي عمدة الدين الساوي[١٤٩] وغيره.

ولا يفوتنا قبل الانتهاء من الحياة العلمية لآل برهان في بخارى إلا أن نشير إلى: اهتمامهم ببذل الكثير من الأموال والعطايا لإحياء الكتب المؤلفة في الفترة السابقة لحكمهم، خاصة الكتب التي تتناول تاريخ بخارى، وبلاد ما وراء النهر، فقد قام برهان الدين بن عبد العزيز بن مازة بإصدار أوامره إلى محمد بن زفر بن عمر لإعادة ترجمة كتاب "تاريخ بخارى"، الذي ألفه: أبو عبد الله محمد بن أحمد البخاري الغنجاري المعروف بالنرشخي والذي تم كتابته في سنة ٣٢٢هـ/٩٤٣م، وقدمه إلى الأمير الحميد أبي محمد نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني[١٥٠].

وقد وضع النرشخي مؤلفه باللغة العربية، وأعاد محمد بن زفر ترجمة هذا الكتاب باللغة الفارسية، وأتم عمله هذا في سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م، وقدمه إلى حاكم بخارى من آل برهان الإمام الأجل عبد العزيز بن مازة[١٥١]، فأجزل له العطايا، مما يوضح اهتمام أفراد أسرة آل برهان إحياء تراث بخارى، وتشجيعهم للعلماء، والمؤرخين على إنتاج المؤلفات والكتب التاريخية.

وصفوة القول: فإن آل برهان المعروفين ببني مازة، لعبوا دوراً بارزاً في العلاقات السياسية الخارجية للبلاد، كما كانوا يعتبرون رؤساء بلدة بخارى وحكامها؛ طوال فترة حكم القراخطائيين، يجمعون لهم الضرائب ويرسلونها إلي الكورخان في عاصمته، وكذلك سيروا أمور البلاد، بالاستنجاد في بعض الأحيان بالخوارزميين ضدهم، وكانت لهم رئاسة المذهب الحنفي والخطابة في بخارى، وألفوا وصنفوا العديد من المؤلفات القيمة في المذهب.

الهوامــــش

١- بخاري : من أعظم مدن بلاد ما وراء النهر، يعبر إليها من أمل الشط، بينها وبين نهر جيحون يومان، كثيرة البساتين، وتعتبر نزهة ما وراء النهر(ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج١، تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، سنة ١٩٩٠م، ص ٤١٩ : ٤٢٠) ؛ وقد أشار المؤرخون إلي أن بخاري أحسن مدينة وخراجها أفضل خراج (القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت، ص ٥٠٩).

٢- المذهب الحنفي : هو المذهب الذي ينسب إلي الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الفقيه الكوفي، الذي تأثر بمن قبله من علماء أهل الرأي، وكان لأتباع أبي حنيفة وتلاميذه المشهورين، مثل أبي يوسف محمد الشيباني وغيرهم دور في إثراء المذهب الحنفي وتوسيع مسائله ومجالات تطبيقه، وقد اتخذته الدول الشرقية، مثل السلاجقة وآل بويه مذهباً لهم في القضاء والعبادات (محمود البخاري بن مازة : المحيط البرهاني في الفقه النعماني، مكتبة مشكاه الإسلامية مقدمه، ص٤ ؛ www.almeskhat.net/books

٣- الدولة القراخطائية : التي تنتمي إلي سلالة المغول، وكلمة قرة لفظ تركي أضافة المغول إلي كلمة خطا، ومعناه أسود، وربما يرجع ذلك إلي عداوتهم وكراهيتهم لهم (ابن العبري:مختصر تاريخ الدول، طبعة المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ١٩٥٨م، هامش ٣، ص ٢١٥) ؛ واتخذ حكامهم لقب كورخان، ومعناه خان خانات أي ملك الملوك أو سلطان السلاطين (النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي، طبعة دار الفكر العربي، ١٩٥٣م، هامش ٤، ص٤٣) ؛ ولقد بهرت القراخطاي الحضارةُ الصينية وما كانت عليه من بذخ وترف، فتأثروا بها تأثراً شديداً، الأمر الذي أفقدهم روحهم الحربية وجعل الضعف يتطرق إليهم تدريجياً، فانتهز جماعة كين الذين سكنوا منشورياً، فانهارت دولتهم وقامت الدولة الخطائية في سنة ٥١٩ هـ / ١١٢٥م (فؤاد عبدالمعطي الصياد : المغول في التاريخ، ج١، دار النهضة العربية للطباعة، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٢٤)؛ ولقد اتخذ الخطائيون من اللغة الصينية لغة رسمية في دولتهم (بارتولد : تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، مراجعه إبراهيم صبري، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م، ص ١٢٤).

٤- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، وعليه حواشي العلامة محمد بن عبدالله القزويني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م، ص ٣١، ١٠٧.

٥- برسخان : مدينة في أقصي تركستان الشرقية علي حدود ختن، وهي غير التي أشار إليها ياقوت الحموي بأنها قرية من قري بخاري (نظامي عروضي السمرقندي : نفس المصدر السابق، ص ١١٣ ؛ معجم البلدان، ج٢، ص ٤٥٦).

٦- بلاساغون : بلد عظيم في ثغور الترك وراء نهر سيحون قريبة من كاشغر (ياقوت الحموي : نفس المصدر السابق، ج١، ص ٥٦٤).

٧- الدولة الخورازمية : تنسب إلي نوشتكين التركي الأصل، الذي اشتراه أحد أمراء السلاجقة يطلق عليه بلكبال من رجل من غرجستان، فسمي لذلك بأنوشتكين غرجه (الراوندي : راحة

الصدور وآية السرور، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي، الإدارة العامة للثقافة القاهرة، ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠م، ص ٢٥٧ ؛ عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص٢٨٢ ؛ براون : تاريخ الأدب في إيران، مطبعة السعادة بالقاهرة، ١٩٥٤م، ص ٣٨٣) ؛ كان نوشتكين يشغل وظيفة الساقي في بلاط ملكشاه السلجوقي، ثم تدرج في سلك الوظائف (النسوي : سيرة السلطان جلال الدين، هامش ٣، ص ٣٤) ؛ وهناك إشارات إلي أنه كان يعمل في وظيفة الطشتدار وليس الساقي (النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٦، تحقيق فوزي العنتيل، مراجعة محمد طه الحاجري، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م، ص ١٩٧ ؛ خواندمير : دستور الوزراء، ترجمة حربي أمين سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٠م، ص ٣٠٨) ؛ وأول من نبغ من الخوارزميين كان محمد بن نوشتكين، الذي أقره السلطان سنجر في الحكم في ولاية خوارزم، وظهرت كفايته السياسية، ودام حكمه حتي وفاته سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م، فخلفه ابنه أتسز(النويري : نفس المصدر السابق، والجزء والصفحة) ؛ خوارزم : ليس أسما لمدينة إنما هو اسم الناحية بجملتها، فأما القصبة فيقال لها الجرجانية(ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص ٣٩٥).

٨- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص ١٠٩.
٩- زامباور:معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود وآخرون، طبعة دار الرائد العربي، بيروت - لبنان، سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٣١٩.
١٠- نظامي عروضي السمرقندي:جهار مقاله، ص١٠٩.
١١- آثار البلاد وأخبار العباد، ص٥١٠.
١٢- القزويني : نفس المصدر السابق والصفحة.
١٣- ابن أيبك الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٢، تحقيق أحمد الأرنؤط وتركي مصطفي، طبعة دار إحياء التراث، بيروت، سنة ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠م، ص ٣٦.
١٤- نصر الدين القرشي الحنفي : الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، ج٢، الناشر مير محمد كتب خانه، كراتشي، ص ٣٧٥.
١٥- خراسان : بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق، أزادوار قصبة جوين وبيهن، وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان، وخراسان تشتمل علي أمهات من البلاد منها نيسابور وهراه ومرو (ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٢، ص ٣٥٠).
١٦- سمرقند : بلد معروف مشهور، وهي قصبة الصغد مبنية علي جنوبي وادي الصغد، وبها المسجد الجامع والقهندز ومسكن الحاكم (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص ٢٤٦ :٢٤٧).
١٧- النرشخي : تاريخ بخاري، ترجمة أمين عبدالمجيد بدوي، ونصر الله مبشر الطرازي، طبعة دار المعارف، سنة ١٩٦٥م، ص ١٨ : ١٩.
١٨- تركستان : اسم جامع لجميع بلاد الترك، وأوسع بلاد الترك بلاد التغزغز، وحدهم الصين والتبت وأول حدهم من جهة المسلمين مدينة فاراب (ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٢، ص ٤٥٦).

١٩- محمد أحمد محمد : بخاري في صدر الإسلام، دار الفكر العربي، ١٩٩٢م، ص٨.
٢٠- محمد أحمد محمد : نفس المرجع السابق، ص ٩.
٢١- بدأت الحملات العسكرية لفتح بلاد المشرق الإسلامي منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب، فتمكن القائد جعدة بن هبيرة في عهد الخليفة علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- من التوغل في تلك المناطق، فأسفرت حملته عن سقوط سيدتين من بنات الحكام فحملهن إلي الخليفة أسيرتين، أما الفتح الكامل لبخاري فكان في عصر الأمويين، ففي خلافة معاوية بن أبي سفيان قاد القائد عبيد الله بن زياد أولي حملات الفتح التي تصدت لها حاكمة بخارى المسماة "الخاتون" وهي الوصية علي عرش ابنها طغشادة، والتي أجبرت علي طلب الصلح من العرب في مقابل مال تؤديه كجزية عن بلادها(الكرديزي : زين الأخبار، ترجمة عفاف السيد زيدان، طبعة القاهرة، ١٩٨٢م، ص ١٦٦ ؛ البلاذري : فتوح البلدان، مراجعة رضوان محمد رضوان، طبعة دار الكتاب العلمية بيروت، لبنان، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م، ص ٤٠١ ؛ ابن أعثم الكوفي : كتاب الفتوح، ج٤، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن الهند، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١م، ص ٧٦؛ النرشخي : تاريخ بخاري، ص ٨ ؛ لقد استنجدت الخاتون بملوك الترك، ليقفوا أمام جيش العرب، حتي استبطأتهم فعقدت الصلح مع عبيد الله بن زياد، ولكن عندما وصلتها الإمدادات ندمت علي الصلح ونقضته فأنزل بها القائد العربي الهزيمة، فاضطرت للمصالحة من جديد، ففرض عليها جزية ألف ألف درهم (الكرديزي : زين الأخبار، ص ١٧٢ ؛ فامبري : تاريخ بخاري، ترجمة أحمد محمود الساداتي، راجعه يحيي الخشاب، القاهرة، ١٨٧٢م، ص ٥٧ : ٥٨).
٢٢- وقد توالت الحملات العسكرية علي بخارى، منها حملة القائد سعيد بن عثمان، وحملة سلم بن زياد، ولكن برغم ذلك لم يستقر العرب في بخارى إلا في عهد الخليفة الوليد بن عبدالملك علي يد القائد قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي قام بأربع محاولات لفتحها، فتمكن في سنة ٩٠ هـ/ ٧٠٨ م، وبناء عليه أعلن طغشادة دخول الدين الإسلامي، فأسند إليه حكم البلاد، وقد نظم قتيبة الإدارة في بخارى، وعقد معاهدة الصلح علي دفع مبلغ مائتي ألف درهم سنوياً للخلافة الأموية، شريطة أن يساند البخاريون العرب الفاتحين في محاولاتهم للتوجه إلي بلاد الصغنيان، وغزو الأتراك الشرقيين (البلاذري : نفس المصدر السابق، ص ٤٠١، الطبري : تاريخ الرسل والملوك، ج٦، ص ٤٢٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الرابعة، طبعة دار المعارف المصرية، ١٩٧٩ م ؛ ابن أعثم الكوفي: كتاب الفتوح، ج٤، ص ١٩٢، ٢٢٤؛ النرشخي: تاريخ بخاري، ص٢٤؛ Gibb: The Arab Conquests in Centurial Asia, P.40 ,(London, 1923).
٢٣- الدهاقنه : هي الطبقة الارستقراطية الحاكمة في بخارى، وهي طبقة أصحاب الأراضي الزراعية والإقطاعات، وكانوا يحتلون مكانة اجتماعية لا نظير لها في بخارى (النرشخي : تاريخ بخاري، ص ٢١)؛ وكان كبار الدهاقيين يقيمون في القرى المحصنة والقصور الفخمة، ومنها قلعة حصينة أطلق عليها اسم قلعة أرك، وتعتبر مقراً لملوكهم وأمرائهم وقادتهم، حيث وجد بها السجن ودواوين الدولة وبيت الحريم وخزائن المال (النرشخي : نفس المصدر السابق، ص ٤١ : ٤٢ ؛ كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م، ص ٥٠٤).

٢٤- النرشخي : نفس المصدر السابق، ص ٢١.
٢٥- الكرديزي : زين الأخبار، ص ١٦٨.
٢٦- كي لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية، ص ٥٠٥ : ٥٠٦.
٢٧- البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤١١.
٢٨- النرشخي : تاريخ بخاري، ص ٨٠.
٢٩- البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤١٩ ؛ لقد اتبع المسلمون الفاتحون عدة وسائل لنشر الدين الإسلامي بين أهالي بخاري وجلب صغار الفلاحين والفقراء إليه، وذلك ببذل الأموال والعطايا، فكان قتيبة يمنح درهمين لكل مصل في مسجده الجامع يوم الجمعة (النرشخي : تاريخ بخاري، ص ٧٤) ؛ وكذلك تم إرسال المعلمين والوعاظ إلي الأهالي الذين دخلوا الإسلام حديثاً لإزالة أي شكوي وشك في قلوبهم من الدين الجديد وتعاليمه، كما تم إحراق الأصنام التي كان يعتقد صغار الفلاحين بأن من يقرب منها بسوء تصبه الويلات واللعنات فلما أحرقت علي يد قتيبة ولم يصبه شئ دخل الإسلام عدد أكبر من البخاريين (البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤١٠ : ٤١١).
٣٠- يري المؤرخ الإيراني عباس إقبال أن اللغة العربية كانت شائعة في الوسط الثقافي الأعلي كلغة رسمية في البلاد، بينما عامة أهل بخاري ينطقون اللغة الفارسية، مشيراً إلي أن سكان إيران لم يكفوا أبداً برغم اعتناقهم الدين الإسلامي – عن التحدث بالفارسية(تاريخ إيران بعد الإسلام، ص١٠).
٣١- النرشخي : تاريخ بخاري، ص ٨٣ ؛ فامبري : تاريخ بخاري، ص ١٠٥: ١٠٦ ؛ الدولة السامانية : تنتسب إلي سامان بن بهرام جور الفارسي الأصلي، الذي ظهر في خلافة المأمون العباسي (١٩٨ هـ : ٢١٨ هـ / ٨١٣م : ٨٣٣م) وقد توارثت هذه الدولة حكم بلاد ما وراء النهر سمرقند وبخاري،وتبادل أمرائها هاتين المدينتين كعاصمة لملكهم (ميرخواند : روضة الصفا، ترجمة أحمد عبدالقادر الشاذلي، مراجعة السباعي محمد السباعي، الدار المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ٧٩).
٣٢- الأمير إسماعيل الساماني : ناب عن أخيه في حكم بخاري، ما بين سنتي ٢٧٩ هـ : ٢٩٥ هـ / ٨٩٢ م : ٩٠٧م، وقد نقل العاصمة السامانية من سمرقند إلي بخاري، وعين عدداً كبيراً من أفراد الأسرة السامانية في المناصب الإدارية وعلي الولايات، حتي صار علي كل ولاية وال معين من قبله (القزويني : تاريخ كزيده – ضمن رسالة ماجستير إعداد محمود محروس قشطة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، سنة ١٩٦٨ م، ص ١٣ ؛ ميرخوند : روضة الصفا، ص ٨١ ؛ عباس إقبال : تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٦٧ ؛
Richard N. Frye: Bukhara the Medieval Achievement, P. 47 , (London, 1965).
٣٣- فامبري : تاريخ بخاري، ص ٩٥ ؛ Frye : Ibid., P. 75
٣٤- طراز : في آخر الإقليم الخامس، طولها مائة درجة ونصف، وعرضها أربعون درجة وخمس وعشرون دقيقة،وهي بلدة قريبة من إسبيجاب من ثغور الترك (ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٤، ص ٢٧).
٣٥- النرشخي : تاريخ بخاري، ص ١١٧.

٣٦- الكرديزي : زين الأخبار، ص ٢٣٩.
٣٧- ميرخواند : روضة الصفا، ص ٨٦.
٣٨- تاريخ بخاري، ص ١١١.
٣٩- القراخانيون : هم من الشعوب التركية الذين أقاموا في تركستان، وكانت عاصمتهم كاشغر ثم بلاساغون، وشملت بلادهم شطراً من البلاد الواقعة بين الحوض الأدنى لنهر " أيلي " الذي يصب في بحيرة ولخشي والمجري الأدني لنهر شو (ابن خلدون : العبر، ج٤، ص ٣٨٩ ؛ بارتولد : تاريخ الترك، ص ٧٣ ؛ Howorth: The Northren Frontagers of hina, P. 467) ؛ ويعتبر " ساتوق بغراخان " أول حكامهم الذين اعتنق الإسلام، واتخذ لقبا إسلامياً خلعته عليه دار الخلافة في بغداد، هو شهاب الدولة (نظامي عروضي السمرقندي: جهار مقاله، ص ١٠٤) .
٤٠- بارتولد : تاريخ الترك، ص ٨٢.
٤١- ابن الاثير : الكامل في التاريخ، ج٩، دار صادر بيروت - لبنان، سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٩٨.
٤٢- بارتولد : تاريخ الترك، ص ٨٢.
٤٣- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج٩، ص ١٠٠ ؛ ابن خلدون : العبر، ج٤، ص ٣٥٠.
٤٤- آمل الشط: آمل مدينة مشهورة في غربي جيحون علي طريق القاصد إلي بخاري، ويقابلها شرقي جيحون، وبينها وبين شاطئ جيحون نحو ميل، ويقال لهذه آمل زم وآمل جيحون وآمل الشط وآمل المفازة (ابن العبري: مختصر تاريخ الدول، هامش ٤، ص ٢١٥).
٤٥- العتبي : تاريخ اليميني - المسمي الفتح الوهبي علي تاريخ أبي نصر العتبي، ج١، طبعة القاهرة ١٢٨٦هـ، ص ١٦٣ ؛ القزويني : تاريخ كزيده، ص ٢٣.
46- Howorth : The Northern Frontagers , P. 471.
٤٧- محمود بن سبكتكين : من سلاطين الدولة الغزنوية بل كان أول من تلقب بهذا اللقب (ميرخواند : روضة الصفا، ص ١٣٥ ؛
Basworth : The titulature of the early Gchaznavich , Oruens , P. 223, (leiden, 1962)
وقد لقبه الأمير منصور الساماني بلقب سيف الدولة ولقب والده سبكتكين بلقب ناصر الدولة.
(Nazim : The Life and the time Mohamad of Gazna, P.24 , Canbridge, 1931).
ارتبط بعلاقات ودية مع طغان خان، وتفرغ كل منهما للجهاد في سبيل الله فقام محمود بنشر الإسلام في الهند وطغان خان بنشره بين قبائل الترك الوثنيين (العتبي : تاريخ اليميني، ج٢، ص ٢٢٤ : ٢٢٥).
٤٨- العتبي : نفس المصدر السابق، والجزء، ص ٢٧ ؛ الكرديزي : زين الأخبار، ص ٢٨٨ ؛ القزويني : تاريخ كزيده، ص ٣٨ ؛ Howorth: The Northern , p. 478.
49- Howorth : Ibid , P. 478.
٥٠- العتبي : تاريخ اليميني، ج١، ص ٢٣٤.

٥١- النرشخي : تاريخ بخاري، ص ٧٦ ؛ من أهم المنشآت المعمارية في بخاري في عهد شمس الملك نصر المسجد الجامع الذي أقامه في سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧ م، وتم نقش منبره ومحرابه في سمرقند، لما تمتع به صناعها من مهارة وذوق عال في هذا الفن، كما خلد هذا الخان اسمه ببناء مدينة كاملة أطلق عليها اسم شمس أباد، حيث اشتري ضياعاً كثيرة بباب إبراهيم ببخاري وأقام فيها قصوراً وبساتين ومراعي، وجعل لها أسواراً محكمة، وبني الخورق لدوابة الخاصة وبرجا للحمام (النرشخي : نفس المصدر السابق، ص ٤٩).

٥٢- الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية، اعتني بتصحيحه محمد إقبال طبعة لاهور، ١٩٣٣هـ، ص ٦٦ ؛ ابن الأثير : الكامل، ج١٠، ص ١٧١.

٥٣- الحسيني : نفس المصدر السابق، والصفحة.

٥٤- الراوندي: راحة الصدور وآية السرور، ص ٢٠٣؛ Howorth: The Northern P.491

٥٥- قام السلطان سنجر بقتل قدرخان القراخاني وعين بدلاً منه ابنه محمد أرسلان في حكم ما وراء النهر، وأمه ابنه ملكشاه.. أي أن سنجر خال له، واستمر هذا الخان حتي سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٣م في طاعة السلطان، وقد ظهر منه ظلم للرعية، فسار إليه سنجر، وانتهي الأمر بالمصالحة بينها علي ضفاف نهر جيحون (نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص١٥٢ ؛ النويري : نهاية الأرب، ج٢٦، ص ٣٧٤ : ٣٧٥ ؛ بارتولد : تركستان من الفتح العربي إلي الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، طبعة الكويت سنة ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م، ص ٤٦٧) ؛ لقد بدأت المصاهرات السياسية بين السلاجقة والقراخانيين منذ أن تمت المصاهرة بين السلطان ملكشاه والسيدة تركان خاتون ابنة طمغاخ خان وابنة عم شمس الملك نصر حاكم بخاري، والتي أطلق عليها لقب خاتون الجلالية نسبة إلي لقب ملكشاه جلال الدين (الراوندي : راحة الصدور، ص ٢٠٧ ؛ فامبري : تاريخ بخاري: ص ١٣٧).

٥٦- لقد بذل السلطان سنجر عدة مساعدات كبيرة لتثبيت أقدام محمد أرسلان خان في الحكم، من أهمها أنه قتل قدر خان جبرائيل صاحب ما وراء النهر ورفعه مكانه في عرش الخانية (الحسيني : زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق محمد نور الدين، دار اقرأ للنشر، بيروت، سنة ١٤٠٥هـ، ص ١٨٠) ؛ وعفا عنه عندما عامل الرعية بطريقة سيئة في سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م، فسار إليه سنجر، فاستنجد محمد أرسلان خان بأمراء سنجر وعلي رأسهم الأمير قماج الذي تعهد للسلطان بأن الخان سوف يسير سيرة حسنة بين أهالي بلاده (ابن خلدون : العبر، ج٤، ص ٣٩٥ ؛ (Howorth : The Northern , P. 495).

٥٧- ابن الأثير : الكامل، ج١٠، ص ٦٠١ ؛ النويري : نهاية الأرب، ج٢٦، ص ٣٨٣.

58- Howorth : The Northern , P. 493.

٥٩- الراوندي : راحة الصدور، ص ٢٥٩.

٦٠- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص ١٠٩.

٦١- ابن العبري : مختصر تاريخ الدول، هامش ٣، ص ٢٣٥ ؛ فؤاد عبدالمعطي الصياد : المغول، ج١، ص ٢٢.
٦٢- ابن خلدون : العبر، ج٤، ص ٣٩٦.
٦٣- فؤاد عبدالمعطي الصياد : المغول في التاريخ، ج١، ص ٢٢ : ٢٣.
٦٤- ابن خلدون : العبر، ج٤، ص ٣٩٦.
٦٥- بارتولد : تاريخ الترك، ص ١٥٧ : ١٥٨.
٦٦- بادية قطوان : قرية من قرى سمرقند علي خمسة فراسخ منها، وهناك عدة مواضع يطلق عليها اسم قطوان مثل قطوان بالكوفة وقطوان في مصر بالغربية (ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج٤، ص ٣٧٥: ٣٧٦).
٦٧- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص ١٠٧.
٦٨- لم تكن موقعة قطوان الأولى من هجمات القراخطاي علي بلاد ما وراء النهر، وإنما سبقتها محاولة من الإغارة في سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٧م عندما تصدي لهم ركن الدين محمود بمساعدة السلطان سنجر الذين أجبروا الكورخان الخطائي إلي العودة سريعاً إلي عاصمته، خشية مساندة السلطان للخان في بلاد ما وراء النهر (نصر الدين بن القرشي الحنفي : الجواهر المضيئة، ج٢، ص ٣٧٥).
٦٩- الراوندي : راحة الصدور، ص ٢٦٤ ؛ ابن الأثير : الكامل، ج١١، ص ٥٤، Howorth : The Northern , P. 497.
٧٠- الحسيني : أخبار الدولة، ص ٩٣ ؛ بارتولد : تركستان، ص ٤٧٦.
٧١- ابن العماد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق - اختصار الفتح بن علي بن محمد البنداري، الطبعة الثالثة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م، ص ١٧٩ ؛ الحسيني:أخبار، ص ٩٣ : ٩٤ ؛ القزويني : تاريخ كزيده، ص ١٢٤.
٧٢- زبدة التواريخ، ص ١٨٧.
٧٣- الحسيني : نفس المصدر السابق والصفحة.
٧٤- سيرة أعلام النبلاء، ج١٤، حققه وخرج أحاديثه خيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة - مصر ، ص٥٥٥ :٥٥٦.
٧٥- تركستان من الفتح العربي، ص ٤٧٧.
٧٦- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص ١٠٧.
٧٧- ابن الأثير : الكامل، ج١١، ص ٣١٠ : ٣١١ ؛ بارتولد : تركستان، ص ٤٨٥.
٧٨- لقد أعقب سقوط ما وراء النهر في يد الكورخان أوخان أن قتل هذا الحاكم، فتولت بدلا منه أخته من بعده حكم مملكة الخطائية فترة من الزمان (ابن العماد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢٥٤).
٧٩- بارتولد : تاريخ الترك، ص ١٢٥ ؛ لقد اتخذ نفوذ الكورخان في ممتلكاته ببلاد ما وراء النهر، صورة جديدة وهي حرية امتلاك الأراضي الزراعية مع فرض الطاعة للكورخان عن طريق شد حزام به لوح من الفضة في وسطه، علامة الطاعة والولاء لهم (ابن العماد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢٥٣).
٨٠- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص٣١.

٨١- تاريخ بخاري، ص ٤٢.
٨٢- تركستان، ص ٤٧٧.
٨٣- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص ٣١.
٨٤- بارتولد : تركستان، ص ٤٧٦ : ٤٧٧.
٨٥- عباس إقبال : تاريخ إيران، ص ٣٣٤.
٨٦- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص ٣١ ؛ لقد أشار بعض المؤرخين بعدل الكورخان وحسن تدبيره ورقة أخلاقه، ولايمكن مراجعته في شئ حيث ينقاد لأمره الجميع (نظامي عروضي : نفس المصدر السابق والصفحة).
٨٧- الراوندي : راحة الصدور، ص ٢٦٤ ؛ الوقعة التي قتل فيها ابن السلطان أتسز الخوارزمي في ٥٣٢هـ / ١١٣٧م (براون : تاريخ الأدب في إيران، ص ٣٨٤).
٨٨- النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٦، ص ١٩٧.
٨٩- ابن العماد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢٥٤.
٩٠- جهار مقاله، ص ٣١.
٩١- الجويني : تاريخ جهانكشاي، ج١، ترجمه محمد ألتونجي، طبعة دار الملاح للطباعة والنشر، سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م، ص ٣٣١.
٩٢- جند : اسم مدينة عظيمة في بلاد التركستان، بينها وبين خوارزم عشرة أيام، قريب من نهر سيحون، وأهلها مسلمون ينتحلون مذهب أبي حنيفة (ياقوت لحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ١٦٨).
٩٣- فامبري : تاريخ بخاري، ص ١٤٨ :١٤٩.
٩٤- القزويني : تاريخ كزيده، ص ٤٨٤.
٩٥- الجويني : تاريخ جهانكشاي، ج١، ص ٣٣١.
٩٦- الجويني : نفس المصدر السابق والجزء، ص ٢٦٥، ٢٦٧.
٩٧- تركستان، ص ٤٨٥.
٩٨- ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ص ٣٧٤ ؛ ابن خلدون : العبر، ج٥، ص ٥١ ؛ بارتولد تركستان، ص ٤٨٨.
٩٩- عباس إقبال : تاريخ إيران، ص ٣٢٣ ؛ لقد كان علي حكم القراخطاي في ذلك الوقت سيدة هي ابنة الكورخان التي يطلقون على زوجها اسم (فوما) بمعنى الصهر (ابن العبري : تاريخ مختصر، هامش ٣، ص ٣٧٥).
١٠٠- ابن الأثير :الكامل، ج١٢، ص ١٣٥ ؛ بارتولد : تركستان، ص ٤٩٨.
١٠١- بلخ : مدينة مشهورة بخراسان وهي في الإقليم الخامس، تحمل غلتها إلي جميع خراسان وإلي خوارزم (ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج١، ص ٥٦٨) ؛ كان بها معبد النوبهار وهو من أعظم بيوت النار، والفرس والترك تعظمه (القزويني : آثار البلاد، ص ٣٣١).
١٠٢- ابن خلدون : العبر، ج٤، ص ٤٠٤.
١٠٣- ابن الأثير: الكامل، ج١٢، ص١٣٧ ؛ ابن العبري : مختصر، ص ٣٩١.
١٠٤- توفي تكش في مدينة شهرستان بين نيسابور وخوارزم سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٦م، وأرسل القادة إلي ابنه قطب الدين محمد يستدعونه، ولقب بعلاء الدين لقب أبيه، وأمر بحمل

جثمان أبيه ودفن في خوارزم في التربة التي أقامها في مدرسته، وكان عادلاً حسن السيرة له معرفة حسنة وعلم يعرف الفقه علي مذهب أبي حنيفة (ابن الأثير : نفس المصدر السابق والجزء، ص ١٥٦ ؛ النويري : نهاية الأرب، ج٢٧، ص ٢٠٥).

١٠٥- الجويني : تاريخ جهانكشاي، ج١، ص٣٣١.
١٠٦- النسوي : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، ص ٦٨ : ٦٩.
١٠٧- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص١١٠؛ بارتولد: تاريخ الترك، ص ١٥٠.
١٠٨- بارتولد : نفس المرجع السابق، ص ١٥١.
١٠٩- النويري : نهاية الأرب، ج٢٧، ص ٢١٧.
١١٠- النسوي : سيرة السلطان جلال الدين، ص ٦٨ : ٦٩.
١١١- وقد استمر برهان الدين محمد في حبس خوارزم حتي سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م عندما أغار المغول وخروج علاء الدين محمد خوارزمشاه من خوارزم، حيث أمرت السيدة تركان خاتون أم السلطان، بقتل جميع الملوك وأبناء الملوك المقبوض عليهم في السجون، ومنهم برهان الدين وأخواه افتخار جهان وابنيه ملك الإسلام وعزيز الإسلام (النسوي : نفس المصدر السابق، ص ٩٤).
١١٢- النسوي : نفس المصدر السابق، ص ٦٩.
١١٣- خواندمير : دستور الوزراء، ص ٣١٠.
١١٤- خواندمير : نفس المصدر السابق والصفحة.
١١٥- النسوي : سيرة السلطان جلال الدين، ص ٦٩ : ٧٠.
١١٦- الجويني : تاريخ جهانكشاي، ص ٣١ ؛ خواندمير : دستور الوزراء، ص ٢٥٩.
١١٧- النويري : نهاية الأرب، ج٢٧، ص٢١٨ ؛ ابن خلدون : العبر، ج٥، ص ١٠٣.
١١٨- عباس إقبال : تاريخ إيران، ص٣٣٥.
١١٩- النويري : نهاية الأرب، ج٢٦، ص٢٠٣.
١٢٠- بارتولد : تركستان، ص ٥١٣ ؛ فامبري : تاريخ بخاري، ص ١٥٣.
١٢١- خواندمير : دستور الوزراء، ص ٢٦٣ ؛ براون : تاريخ الأدب في إيران، ص ٥٤٥.
١٢٢- ابن خلدون : العبر، ج٥، ص ١٠٦ ؛ بارتولد : تركستان، ص ٥١٣ ؛
Honorth : The Northern , P. 501.
١٢٣- خواندمير : دستور الوزراء، ص ٢٦٧.
١٢٤- ابن الأثير : الكامل، ج١٢، ص ٢٦٨.
١٢٥- نظام عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص ١٠٨.
١٢٦- بارتولد : تركستان، ص ٥٢٥.
١٢٧- لقد تعرضت السيدة خان سلطان لكثير من المواقف المذلة في سمرقند، حتي قدم والدها وأنقذها من أيدي عثمان خان، هذه السيدة هي التي اختصها دوش خان بن جنكيز خان لنفسه، بعد فتح خوارزم في سنة ٦١٧ هـ/١٢١٠م (النسوي: سيرة السلطان، ص ٩٧).
١٢٨- الجويني : تاريخ جهانكشاي، ص ٣٣٣ ؛ فامبري : تاريخ بخاري، ص ١٥٣.
١٢٩- عباس إقبال : تاريخ إيران، ص ٣٢٦.
١٣٠- فامبري : تاريخ بخاري، ص ١٥٣.

١٣١- النويري : نهاية الأرب، ص ٢٧، ص ٢٣٧ ؛ القزويني : تاريخ كزيده، ص ١٩٦ ؛ بارتولد : تاريخ الترك، ص١٥١.
١٣٢- فامبري : تاريخ بخاري، ص ١٥٤.
١٣٣- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج١٢، ص ٢٧٠؛ خواندمير: دستور الوزراء، ص٢٧٠.
١٣٤- تاريخ جهانكشاي، ج٢، ص ٣٤.
١٣٥- النويري : نهاية الأرب، ج٢٧، هامش ٣، ص ٢٣٧.
١٣٦- الذهبي : تاريخ الإسلام وفيات المشاهير والأعلام، ج١٢، ص ٣٥٥ ؛ صلاح الدين الصفدي : الوافي بالوفيات، ج٢، ص ٣٦.
١٣٧- ابن قطلوبغا: تاج التراجم في طبقات الحنفية، دار القلم، دمشق - سوريا، سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص ٢١٧ : ٢١٨.
١٣٨- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص ١١٠.
١٣٩- الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج١٥، ص ٣٩٠ : ٣٩١.
١٤٠- عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين، ج١٢، ص ١٤٦ : ١٤٧.
١٤١- ابن كثير : البداية والنهاية، ج١٣، دار الفكر، سنة ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦م، ص ١٦٤.
١٤٢- ابن قطلوبغا : تاج التراجم، ص ٢٨٩.
١٤٣- الزركلي : الأعلام، ج٥، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، مايو ٢٠٠٢م، ص ٢٥٦، ٥٣٨.
١٤٤- محمود البخاري بن مازة : المحيط البرهاني في الفقه النعماني، المقدمه، ص ٤.
١٤٥- عمر رضا كحالة : الأعلام، ج١٢، ص ١٤٧.
١٤٦- حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج١، مكتبة المثنى، بغداد، دار إحياء التراث العربي، ١٩٤١م، ، ص ٣٤٤.
١٤٧- نظامي عروضي السمرقندي : جهار مقاله، ص ١١١.
١٤٨- نظامي عروضي السمرقندي : نفس المصدر والصفحة.
١٤٩- ابن العماد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق، ص ١٧٨.
١٥٠- النرشخي : تاريخ بخارى، ص٥.
١٥١- النرشخي : المصدر السابق، ص١٥ : ١٦.



(*) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، ص٣١٩.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية :

١- ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م) : عز الدين أبوالحسن علي بن أبوالكرم محمد " الكامل في التاريخ "،ج٩، دار صادر، بيروت، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م.

٢- ابن أعثم الكوفي : (ت ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م) أبومحمد أحمد، كتاب الفتوح، ج٤، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، طبعة دار الندوة الجديدة، بيروت، لبنان، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م.

٣- ابن أيبك الصفدي (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢م) : صلاح الدين خليل بن إيبك بن عبدالله " الوافي بالوفيات "، ج٢، ص ٧، تحقيق أحمد الأرنؤط وتركي مصطفي، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠م.

٤- البلاذري (ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) : أبوالحسن أحمد بن يحيي بن جابر، " فتوح البلدان "، عني بمراجعة رضوان محمد رضوان، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٥- ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٠م) : عبدالرحمن بن محمد الحضرمي المغربي : " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر "، ج٤، ص ٥، طبعة القاهرة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١م.

٦- حاجي خليفة (ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٦م) : مصطفي بن عبدالله كاتب جلبي القسطنطيني كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون "، ج١، مكتبة المثني بغداد، دار إحياء التراث العربي، ١٩٤١م.

٧- خير الدين الزركلي : الأعلام، ج٥، الطبعة الخامسة عشر، دار العلم للملايين، مايو ٢٠٠٢م.

٨- الذهبي (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨م) : شمس الدين أبوعبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز " سير أعلام النبلاء، ج١٤، ص ١٥، حققه وأخرج أحاديثه خيري سعيد، المكتبة التوفيقية بالقاهرة.

٩- الطبري (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م) : أبو جعفر محمد بن جرير، " تاريخ الرسل والملوك " ج٦، تحقيق محمد ابوالفضل إبراهيم، الطبعة الرابعة، طبعة دار المعارف، المصرية ١٩٧٩م.

١٠- ابن العبري (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) : عزيغوريوس أبوالفرج بن اهرون : " تاريخ مختصر الدول "، طبع في المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ١٩٥٨م.

١١- عمر رضا كحالة :"معجم المؤلفين "، ج١٢، الناشر مكتبة المثني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٢- فؤاد عبدالمعطي الصياد : " المغول في التاريخ "، ج١، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.

١٣- القزويني (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) : زكريا بن محمد بن محمود : " آثار البلاد وأخبار العباد "، طبعة دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

١٤- ابن قطلوبغا (ت ٨٧٩هـ / ١٤٧٤م) : أبو الفداء زين الدين أبوالعدل قاسم السودوني الحنفي، تاج التراجم في طبقات الحنفية، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، الطبعة الأولي، الناشر دار القلم، دمشق ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
١٥- ابن كثير (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) : ابوالفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري " البداية والنهاية "، ج١٣، دار الفكر ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
١٦- ابن مازة البخاري (ت ٦١٦هـ / ١٢١٩م) : محمود البخاري " المحيط البرهاني في الفقه النعماني، مكتبة مشكاة الإسلامية،
www. Almeshkat. net/ books.
١٧- محمد أحمد محمد : " بخاري في صدر الإسلام "، دار الفكر العربي، ١٩٩٢م.
١٨- نصر الدين القرشي الحنفي (ت ٧٧٥ هـ / ١٣٧٣م) : عبدالقادر بن محمد " الجواهر المضيية في طبقات الحنفية "، ج٢، الناشر مير محمد كتب خانة كراتشي.
١٩- النويري (ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣م) : شهاب الدين أحمد عبدالوهاب : "نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٦، تحقيق فوزي العنتيل، مراجعة، محمد طه الحاجري، ج٢٧، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، مراجعة محمد مصطفي زيادة وفؤاد عبدالمعطي الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م.
٢٠- ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩م) : شهاب الدين أبوعبدالله الرومي، " معجم البلدان "، ٥ أجزاء، طبعة دار صادر، بيروت، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م.

ثانياً: أسماء المصادر والمراجع الفارسية :
٢١- خواندمير (ت ٩٤٢ هـ/ ١٥٣٥م) : غياث الدين بن همام : " دستور الوزراء "، ترجمة وتعليق حربي أمين سليمان، تقديم فؤاد عبدالمعطي الصياد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م.
٢٢- الجويني (ت ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م) : علاء الدين عطاملك الجويني : " تاريخ جهانكشاي في تاريخ الخوارزميين والإسماعيليين والحشاشيين وفتح مدينة بغداد علي يد هولاكو "، ج١، ص٢، نقله من اللغة الفارسية، محمد ألتويخي، الطبعة الأولي، طبعة دار الملاح للطباعة والنشر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
٢٣- الحسني (ت ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م) : صدر الدين أبوالحسن بن أبوالنواس ناصر بن علي، أخبار الدولة السلجوقية "، اعتني بتصحيحه محمد إقبال، طبعة لاهور، ١٩٣٣ م.
٢٤- ________ : " زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية " تحقيق محمد نور الدين، دار اقرأ للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
٢٥- الراوندي (ت ٥٩٩ هـ / ١٠١٩م) : محمد بن علي بن سليمان " راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية "، نقلة إلي اللغة العربية، إبراهيم أمين الشواربي، وعبدالنعيم محمد حسنين، وفؤاد عبدالمعطي الصياد، مراجعة إبراهيم أمين الشواربي، الإدارة العامة للثقافة، القاهرة ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠م.

٢٦- عباس إقبال : " تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتي نهاية الدولة القاجارية (٢٠٥هـ : ٨٢٠هـ) ترجمة من اللغة الفارسية محمد علاء الدين منصور، راجعه السباعي محمد السباعي، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة.
٢٧- العتبي (ت ٤٢٨هـ / ١٠٣٦م) : أبونصر محمد بن عبدالجبار " تاريخ اليميني المسمي بالفتح الوهبي علي تاريخ أبي نصر العتبي، ج١، القاهرة، ١٢٨٦هـ.
٢٨- ابن العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧ هـ / ١٠١٧م) : محمد بن محمد بن حامد : " تاريخ دولة آل سلجوق "، اختصار الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، الطبعة الثالثة، طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
٢٩- القزويني (ت ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م) : حمد الله مستوفي، " تاريخ كزيده " المعروف بالتاريخ المختار، ضمن رسالة ماجستير، إعداد محمود محروس قشطه، بكلية الآداب، جامعة عين شمس، ١٩٦٨م.
٣٠- الكرديزي (ت ٤٤٢ هـ/ ١٠٥١م) : أبوسعيد عبدالحبي بن الضحاك محمود : " زين الأخبار "، ترجمته عفاف السيد زيدان، الطبعة الأولي، القاهرة، ١٩٨٢م.
٣١- ميرخواند (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٩م) : محمد بن خاوند شاه " روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء " ترجمة أحمد عبدالقادر الشاذلي، راجعه السباعي محمد السباعي، الدار المصرية للكتاب ١٩٨٨م.
٣٢- النرشخي (ت ٣٤٨ هـ / ٩٥٩م) : أبوبكر محمد بن جعفر : " تاريخ بخاري"، ترجمة من اللغة الفارسية أمين عبدالمجيد بدوي ونصر الله مبشر الطرازي، طبعة دار المعارف بالقاهرة، ١٩٦٥م.
٣٣- النسوي (ت في القرن ٧هـ /١٣م) : محمد بن أحمد النسوي " سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي"، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي، طبعة دار الفكر العربي، ١٩٥٣م.
٣٤- نظامي عروضي السمرقندي (ت٥٥٥هـ/١١٥٥م): الحسن بن عمر " جهار مقاله "، وعليه حواشي العلامة محمد بن عبدالوهاب القزويني، نقله إلي العربية عبدالوهاب عزام ويحيي الخشاب، الطبعة الأولي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.

ثالثاً: المراجع الأجنبية والمعربة :

٣٥- أرمينوس فامبري : " تاريخ بخاري منذ أقدم العصور حتي العصر الحاضر" ترجمة من اللغة التركية أحمد محمود الساداتي، راجعه يحيي الخشاب، القاهرة ١٨٧٢م.
٣٦- بارتولد : " تاريخ الترك في آسيا الوسطي "، ترجمة أحمد السعيد سليمان، راجعه إبراهيم صبري، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م.
٣٧- ________ : " تركستان من الفتح العربي إلي الغزو المغولي "، نقله من اللغة الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، طبعة الكويت، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
٣٨- براون : " تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلي السعدي "، مطبعة السعادة، بالقاهرة، ١٩٥٤م.

٣٩- زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وحسن محمود حسن وآخرون، طبعة دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م.

٤٠- كي لسترنج : " بلدان الخلافة الشرقية "، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

41- Baswarth: The titulature of the Early Ghaznavich Oriens, (Leiden , 1962).

42- Gibb Sir Hamiton: The Arab Conquests in centeral Asia, (London, 1923).

43- Howorth: The Northern Frontagers of China, Journal of the Royal A.

44- Frye: Bukhara the Medievral Achievement, (London, 1965).

45- Nazim: The life and the time Mahamod of Gazna,(Cambridge, 1931).



الطب والمطببون في شمال الجزيرة العربية على ضوء كتابات الرحالة الغربيين في القرن التاسع عشر

د. زكريا صادق الرفاعي
أستاذ مساعد بكلية التربية جامعة المنصورة

مقدمة

حظيت شبه الجزيرة العربية باهتمام كبير، خلال القرن التاسع عشر، بحكم موقعها الجغرافي من التجارة العالمية؛ فصارت جزءا من معترك الصراع الدولي بين القوى الكبرى(١)، ومن ثم تدفق عليها الرحالة من كل حدب وصوب، على تباينهم في النوازع والأهداف(٢).

وقد خلف هؤلاء الرحالة وراءهم تراثا عريضا من الكتابات؛ لم تتعلق بالنواحي السياسية والاجتماعية فحسب، بل طالت أيضا الجوانب الجغرافية والعمرانية والأثرية، واستطاعت، في الأغلب الأعم، تقديم لوحة حية وثرية للتطور التاريخي لشبه الجزيرة العربية، عبر الحقب والعصور التاريخية المختلفة، ليظل هذا التراث، في نهاية المطاف، بغض النظر عن جوانب الاتفاق والاختلاف حول قضاياه وإشكالاته- واقعا ماثلا دوما، ليس بوسع أحد تجاهله بحال، كما ستظل له سطوته وحضوره في ظل غياب المصادر المحلية(٣).

وتسعى هذه الدراسة الى رصد ما سجلته كتابات الرحالة حول الجوانب الصحية في شمال الجزيرة العربية، خلال القرن التاسع عشر، بهدف استخلاص ما يمكن تسميته بالمعالم الرئيسة للتاريخ الطبي للمنطقة، إن جاز التعبير. ومن الناحية الجغرافية: فإن المقصود بشمال الجزيرة العربية ذلك الجزء الممتد شمالا لهضبة نجد، الواقع عند خط الطول ٣٠-٤١ شرقا. وخط العرض ٣٣ -٢٧ شمالا. ومن الناحية الوصفية: فقد ذكر

البعض أن شمال الجزيرة العربية محصور بين النفود الكبير في الشمال، ووادى الرمة في الجنوب، وبين جبال الحجاز في الغرب وصحراء الدهناء في الشرق، كما ربط آخرون حدودها بأسماء المناطق التى تحدها مثل: بادية الشام من الشمال، وجهات القصيم من الجنوب، والعراق والكويت شرقا، والمدينة المنورة غربا(٤).

وخلال القرن التاسع عشر؛ كانت الهيمنة السياسية، في شمال الجزيرة العربية لإمارة جبل شمر وعاصمتها حائل التى كانت تحت حكم آل على، ثم آل رشيد، وأخذت في المزيد من التوسع حتى صارت لها السيطرة والنفوذ على معظم الأجزاء الشمالية، فضلا عن وسط وغرب الجزيرة العربية(٥)، ولطبيعتها الاستراتيجية المتزايدة؛ غدت محطة رئيسة للرحلات منذ أربعينيات القرن التاسع عشر(٦).

وقد حمل عنوان الدراسة في طياته العديد من التساؤلات، منها محاولة رصد الأمراض الأكثر ذيوعا وإنتشارا، وأنواع وطبيعة الأدوية والعقاقير المستخدمة آنذاك، وأيضا مدى العلاقة بين البيئة الجغرافية، والصحة العامة للسكان، وكذلك طبيعة القائمين على العلاج الطبى، أى المطببون، ومدى خبرتهم فى هذا الصدد، إضافة الى منظومة القيم الدينية والاجتماعية التى صاحبت قناعات الناس ورؤيتهم للصحة والمرض؛ كظاهرة انسانية وواقع اجتماعى معاش.

وقد اعتمدت الدراسة على كتابات الرحالة الغربيين كمصدر رئيس فى المقام الأول، برغم أن رؤيتهم قد جاءت، بطبيعة الحال، من خلال إشارات متفرقة وبصورة عرضية، ضمن سياق الحديث عن جوانب مختلفة حتمتها طبيعة ظروف وأهداف رحلاتهم، كما بدت الدراسات السابقة في هذا الصدد جد محدودة، وربما باستثناء دراسة وحيدة كانت من نصيب الرحالة داوتى؛ لم نعثر على اهتمامات أخرى مماثلة فيما نعلم (٧)، وقد عولت الدراسة على منهج تحليل المضمون لمختلف النصوص، مع مراعاة السياق التاريخى المصاحب لها، كما أفادت الدراسة بطبيعة الحال من الأدبيات التاريخية المتاحة على تنوعها (٨).

الطب والتطبيب بين النظرية والممارسة

منذ وجوده والإنسان في رحلة بحث دائمة لفهم ما يحدث له، و ما حوله من ظواهر وأحداث، ولعل ظاهرة المرض من أبرز تلك الظواهر التى ما فتىء الانسان يجد في السعى، ما وسعه، لفهمها وكيفية التعامل معها، عبر الزمن، جيلا وراء جيل.

ومن الناحية اللغوية: يبدو الفارق في المعنى بين الطب والتطبيب، "فالطِّبُّ مُثَلَّثَة الطَّاءِ هُوَ عِلاَجُ الجِسْمِ والنَّفْس واقْتَصَرَ على الكَسْرِ في الاسْتِعْمال، الطِّبُّ بمَعْنَى الرِّفْق، والطَّبِيبُ الرَّفِيقُ والطِّبُّ بمعنى السِّحْر . . . وقَالَ أَبُو عُبَيْدَة: إنما سُمِّي السِّحْرُ طِبّاً على التفاؤل بالبُرْءِ" [٩].

"والطَّبُّ: المَاهِرُ الحَاذِقُ الرَّفِيقُ، وفي لسان العرب: الطَّبُّ: الحَاذِقُ من الرِّجَالِ المَاهِر بعِلْمِه كالطَّبِيبِ وكُلُّ حَاذِقٍ بِعِلْمِه طَبِيبٌ عِنْد العَرَب، ويقَال: فُلاَنٌ طَبٌّ بِكَذَا أي عَالِمٌ بِهِ..: والمُتَطَبِّبُ: مُتَعَاطِي عِلْمِ الطِّبِّ وقَد تَطَبَّبَ. وقَالُوا: تَطَبَّبَ لَهُ: سَأَل لَهُ الأَطِبَّاءَ، المُتَطَبِّبُ: الَّذِي يُعَانِي عِلْمَ الطِّبِّ ولا يَعْرِفُه مَعْرِفَةً جَيِّدَةً، قلتُ: أَي لِكَوْنِه من بَابِ التَّفَعُّلِ وهو لِلتَّكَلُّف غَالِباً.." [١٠].

ومن ثم فان الطبيب physician هو: المؤهل والمتصدى لعلاج الناس بحكم علمه وخبرته، وإن كان يجب الإشارة الى أنه ليس كل من تلقى العلم نظريا قد مارسه بالفعل عمليا، فهناك كثير من العلماء درسوا الطب ووضعوا فيه مؤلفات، دون وجود ما يشير، بالضرورة، الى ممارستهم العملية للطب [١١].

وفى كثير من الاحيان فان اعتبارات الواقع المعاش - وفى ظل غيبة أو ندرة وجود أطباء في العديد من الاماكن لسبب أو لآخر - قد حتمت وجود فئة صارت لها أهميتها في محيطها الاجتماعى، هم المطببون general practitioner، وهم وإن بدت معرفتهم النظرية بالطب محدودة، فلديهم خبرة عملية متوارثة لا تنكر، اكتسبوها عبر التجارب والممارسات الطويلة من الآباء والأجداد.

و الواقع أن قضية النظر للطب بوصفه علما تارة، وبوصفه مهنة تارة أخرى، قد حظيت بنصيب من الاهتمام في أدبيات التراث العربي. وقد تطرق ابن خلدون الى تلك القضية، فأشار الى الطب باعتباره علما يُعنى بمعرفة الاسباب المختلفة للأمراض، والوقوف على الطرق الفعالة لعلاجها فمن "فروع الطبيعيات صناعة الطب، وهى صناعة تنظر في بدن الإنسان من حيث يمرض ويصح، فيحاول صاحبها حفظ الصحة ... ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب .."، وإن كان في موضع آخر عرض للطب كمهنة، شأنها شأن الحرف والصنائع المتداولة، والتى تتفاوت في اهميتها من مكان لآخر فتلك "الصناعة (أي الطب) ضرورية في المدن والامصار لما عرف من فائدتها ..."[١٢]، على حين أن أهل البادية تقل "حاجتهم للطب ولهذا لا يوجد الطبيب في البادية بوجه، وما ذاك إلا للاستغناء عنه، إذ لو احتيج اليه لوجد"[١٣]، كما اعتبر ابن خلدون، وفقا لتلك الرؤية، أن ما تقوم به القابلة عند الولادة مهنة قائمة بذاتها[١٤]، كما وصف جملة الممارسات الطبية في البادية، بما لها من خصوصية بيئية واجتماعية، بقوله و"للبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الامر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص، متوارثا عن مشايخ الحى وعجائزه، وربما يصح منه البعض، إلا أنه ليس على قانون طبيعى ..."[١٥].

وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر: ميز بعض الدراسين بين الطب كعلم يبحث عن سبب الأمراض وكيفية استعادة الجسم لقوته من جديد، وبين جوانب أخرى مرتبطة به، مثل الجراحة التى اعتبروها أقرب الى المهنة أو الحرفة منها الى العلم النظرى، وتحتاج الى مهارة يدوية خاصة[١٦].

ويبدو أن الرؤية السابقة قد ظلت ماثلة في الأذهان وتركت صداها في كتابات بعض الرحالة، فأشار بالجريف (١٨٢٦-١٨٨٨) الى أن العرب لم "يفرقوا بين الطب والجراحة من حيث النظرية والممارسة" وأن "أفضل علاج لديهم هو الكى، وهو يدخل فى باب الجراحة"، ثم ذكر أن بعض "النباتات التى تنمو هنا لها بعض المزايا الطبية كمسكنات

ومنشطات، ويستخدمها من آن لآخر السكان اصحاب الخبرة والتجربة، كما أن استخدام الكمادات والأدوية الخارجية الأخرى، أو الملطفات، يدخل أيضا فى إطار مهارتهم وخبرتهم، كما تعوض سرعة البديهة الفطرية، الى حد ما، أوجه القصور الناجمة عن جهلهم بالمعلومات النظرية" (١٧).

ومن الأهمية بمكان: التوقف عند ما أبداه بالجريف من آراء حول التراث الطبى للعرب والمسلمين بوجه عام، خاصة وأن الرجل كان من أبرز الرحالة اهتماما ورصدا للأحوال الاجتماعية (١٨) وفى مقدمتها الجوانب الصحية، وقد جمع على حد قوله "معلومات هامة عن الحالة الصحية فى جبل شمر، فى الماضى والحاضر"(١٩)، وفى تقديره أن العرب "لا يعدو أن يكونوا أطفالا فى مجال الشئون الطبية"، وأضاف في موضع آخر "أن القول بفهم العرب للطب وهم شعبى، وكل ما هنالك ترجمة عامية للطب الإغريقي"، وعاد مضيفا "أن ومضات العرب فى الطب سرعان ما خبت، بسبب جمود الإسلام[١]، وجهلهم بالعلوم الكيماوية والأدوية، فظلوا على هذا الحال من الجهل"(٢٠).

والواقع أن الأحكام السابقة، التى أطلقها بالجريف، قد انطوت على ظلم وإجحاف كبيرين بالتراث الطبى للعرب، الذين عرفوا الطب قبل الإسلام، وإن كان قد غلب عليه الطابع البدائي، وتناقله الناس مشافهة في غير نظام، فكان في الواقع طبا فلكلوريا، إن جاز التعبير، وبرغم ذلك برز منهم أطباء معروفون مثل الحارث بن كلده وغيره، ومن جراحي العرب بن أبى رمثة، ومن بيطرييهم العاص بن وائل (٢١).

وكانت المعالجات تعتمد عادة على بعض النباتات، وبالعسل وحده أو مع مواد أخرى شربا تارة، أو على صورة عجائن ولصقات تارة أخرى، وفى كثير من الأحيان: تم الاعتماد على الحجامة والفصد والكى، وبتر الاعضاء بالشفرة المحماة بالنار، وفى بعض الحالات تمت معالجة الجراح المتعفنة والدماميل بمواد ضد العفونة، كما استخدم الحجر

---

(١) هذا رأيه غير المنصف. وانظر ص٦ التالية.

الصحى والفتائل في تضميد الجراح، وكان شائعا لجوء البعض، آنذاك، الى استخدام الرقى والعزائم والاذكار، لطرد الجن والأرواح الشريرة.

على انه في فترة الدولة العباسية، وخاصة عهد الخليفة المأمون، كما هو معروف، بدأ الحرص على الترجمة في الطب والعلوم من اليونانية مباشرة، وكان على رأس هؤلاء المترجمين: حنين بن إسحاق، وسرعان ما تعرف العرب على أعمال أبقراط وجالينوس وغيرهم، ومع الوقت صار علم الطب فيهم أصيلا، فتناولوه بالشرح والنقد، فضلا عن ممارسته عمليا (٢٢).

ولم يمنع اعجاب العلماء العرب بالطب الإغريقي؛ انتقاده في بعض الأحيان، على نحو ما فعل الرازى، فلم يقر بصحة ما توصل اليه جالينوس وأبقراط في بعض القضايا الطبية. وصفوة القول: أنه لم يكن في العالم المتحضر، في ما بين منتصف القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) و القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) علم طبى يعتد به الا ما كان منه عند العرب، كما لم يشك أحد من أهل القرون الوسطى في تفوق العرب في الطب: علما وعملا وتنظيما (٢٣).

ومن المثير للانتباه؛ أن بالجريف قد ربط تأخر العرب والمسلمين، في مجال الطب، بما أسماه بجمود الإسلام، ولم يوضح أي جمود يقصد؟ لاسيما وأن الإسلام من أكثر الديانات السماوية حثا على طلب العلم والمعرفة، وإعلاءً لمكانة العلماء، واعترافا بفضلهم، وليس معروفا الأسباب التى دعت بالجريف لتبنى هذا الزعم والإفتئات، وإن كان مثيرا للانتباه أن ما ذكره بالجريف هو نفس ما سبق وان أبداه الطبيب والمستشرق المعروف "كورنيليوس فان ديك Cornelius Van Dyck" عضو الإرسالية الأمريكية، الذى استقر في بيروت منذ عام ١٨٣٦، واستمرت خدمته بها لمدة ستين عاما، و قد كتب ديك عام ١٨٤٨ مقالة عن الأحوال الحالية لمهنة الطب في سوريا، أوضح فيها أن الطب العربى في حالة من الضعف والجمود، وربما تأثر بالجريف بما كتبه ديك إبان وجوده في بيروت عام ١٨٦٠ (٢٤).

ويجب التنويه إلى أن التهجم على الإسلام كان دأبا لبعض من نخبة العصر الفيكتوري، فكثيرا ما زعموا أن "الإسلام بمكوناته الذاتية غير قابل للإصلاح والتغيير"، بل إنه وفق رؤيتهم "عاجز حتى عن توجيه الحياة الإنسانية لأصحابه"[٢٥]، بل إن بالجريف ذهب، في موضع آخر، الى مدى أكبر في زعمه، وبدا أكثر حنقا على الاسلام حين ربط بغرابة فجة، وغير مبررة، بين "إمكانية تقدم العرب في العلوم المادية والتطبيقية" من جهة، شريطة "زوال الاسلام واختفاء مكة"؟ من جهة أخرى[٢٦].

ويبدو أن مهنة الطب كانت تحظى بالتقدير والقبول من مختلف الطبقات الاجتماعية، ولعل ذلك كان دافعا لاختيار أغلبية الرحالة الظهور بمظهر الأطباء، وقد أشار بعضهم الى أن "مظهرنا التجارى قد سبب لنا بعض المضايقات، ولكن مظهرنا الطبى جنبنا الهزيمة الكاملة"[٢٧]، كما كانت هناك، على حد قول البعض، قناعة سائدة بين الناس أن "الطبيب لدية قوة مقدسة او خارقة للطبيعية وهو إحساس مفيد للطبيب" [٢٨].

وقد أجل الرحالة "فالين" (١٨١١-١٨٥٢) رحلته لمدة عام، حتى يتسنى له دراسة برنامج طبى يمكنه من القيام ببعض الممارسات العلاجية، باعتباره طبيبا في المستقبل [٢٩]، و أطلق في بعض الأحيان على الطبيب اسم "الحكيم" و"المداوى" وهو ما حدث مع الرحالة "داوتى" (١٨٢٣-١٩٢٦) حيث عرف باسم الحكيم خليل، وأطلق عليه بعض المزارعين المداوى، وهو نفس الاسم الذى أطلقه عليه بعض سكان البادية[٣٠].

سطوة التقليد الاجتماعى

لم تكن الخدمات الطبية متاحة في شمال الجزيرة العربية، بل ربما كانت معدومة بالكلية، خلال فترة الدراسة [٣١]، وليست هناك أية إشارة الى وجود مستشفيات عامة يهرع اليها الناس حال مرضهم، بل كان العثور على طبيب أمرا صعب المنال في كثير من الأحيان، وأشارت المصادر الى أن الإمام "عبد الله بن فيصل بن تركى" (ت.١٨٩١) خلال إقامته بحائل، تعذر وجود طبيب لمعالجته من مرضه، الى ان تم العثور على طبيب مع مرور وفد الحج الفارسى الذى قرر، في حينه، أن مرضه خطير [٣٢].

ويبدو أن الاعتماد على الاطباء الفرس واستدعاءهم، من آن لآخر، كان أمرا شائعا، فقد استعان الامير "طلال بن رشيد" (ت.١٨٦٩) بأحدهم لتحديد مرضه [٣٣]، كما تم قدوم طبيب فارسي أيضا لاستئصال طلقة استقرت في القدم، أصيب بها الأمير "محمد بن رشيد" (ت.١٨٩٧) منذ وقت بعيد، أثناء حصاره للجوف [٣٤].

والشاهد أن ظهور أطباء متجولين، على فترات متقطعة، كان حدثا بارزا، وقد أشار بالجريف الى تدفق "الكثيرين عليه في حائل ومن مختلف الأعمار، وكان هناك من طلبه للذهاب معه لمنزله للكشف على أحد أقاربه، وأشار الى أنه تجنب، منذ البداية، التعامل مع النساء والأطفال، لقلة خبرتهم الطبية، وتجنبا للفشل" [٣٥]، كما ذكر الرحالة "داوتي" أنه مارس التطعيم والعلاج نظير استضافته من جانب بعض القبائل، طوال اقامته [٣٦].

وألمح "داوتي" الى أن الناس قد زادوا إقبالا عليه بعد الوثوق به، وأنهم كانوا على معرفة سابقة بالتطعيم، فلم يكن أول من مارس ذلك، وذكروا له وجود شخص من نصارى الشام يدعى "أبو فارس"، كان يمارس التطعيم لهم ضد الجدري، ثم جاء بعده شخص آخر يدعى سليمان، إلا أن السكان أطلقوا عليه اسم أبو فارس لممارسته نفس المهنة، وصار لديهم اعتقاد أن التطعيم يأتي من النصارى فقط من الشمال [٣٧]، كما أشار في موضع آخر الى "تجمع الناس طلبا للدواء لدرجة الاستجداء" [٣٨]، بل كان هناك "إصرار من جانب البعض على أخذ أي علاج مهما كان نوعه" [٣٩].

وكان المزين (الحلاق) له دوره داخل كل قبيلة، فكان يعهد اليه بمسئولية ختان الصبية، وبحسب إفادة داوتي؛ فإن ذلك يتم عادة بعد تجاوز عمر الصبي ثلاث سنوات، وقد تؤجل الجراحة في حال القيام برحلة، أو في ظل وجود طقس عاصف [٤٠].

و قد بدت خطوات أو إجراءات الكشف على المرضى مألوفة "ومسألة إخراج المريض لسانه للفحص، ومد يده لمعرفة النبض، أمرا شائعا، كما ان لهم اعتقادا في ضرورة فحص الرسغين كل على حدة" [٤١]، و ذكر داوتي أن البعض قد طلب منه قياس

الضغط له، مضيفا أن العرب يعلقون أهمية كبيرة على هذا الإجراء، للاطمئنان على أنفسهم[٤٢].

وقد اختلفت آراء الرحالة حول قضية وجوب عزل المريض عن زيارة الناس له، فأشار بالجريف الى أن هذا الأمر "غير معروف هنا، ويعتبرون أن من الواجب زيارة المريض وتشجيعه"[٤٣] على حين أوضح داوتى أن الناس لديهم "قدر من الثقافة والتجربة، فهم مثلا يعزلون المريض بالجدرى وحده، ويجعلون من سبق له الشفاء من المرض التعامل معه، لأنه صار فى نظرهم محصنا، كما أنهم لا يعطون المريض دواءً خشية الإصابة بالعمى، كما أشار الى استغراب الناس لأنه (داوتى) يأخذ الحيطة والحذر من العدوى، لأنهم يعتقدون أن من يأخذ التطعيم لا يصاب بالمرض[٤٤].

ووفقا للمصادر المحلية، فإن إحدى الطرق المتوارثة للوقاية من مرض الجدرى: تعرف باسم الذواقة بتشديد الذال وفتح القاف، وخلاصتها القيام بطهى طعام يحتوى على أجزاء من أنواع مختلفة من اللحوم، كالغنم والبقر والجمل، على شكل قطع صغيرة من كل نوع، ويضاف اليها أنواع الخضروات السائدة، ثم يطهى ذلك كله في قدر، ويعطى المريض منه في الأيام الأولى من إصابته، لاعتقادهم أن المريض سيكون بمنأى عن أية مضاعفات للمرض لاحقا، من خلال ذلك الإجراء[٤٥].

ومن بين القضايا التى أبرزها الرحالة: عدم التزام كثير من المرضى بتعليمات الأطباء، وخاصة الانتظام في تعاطى الدواء، وربما ساهم التقليد الاجتماعى والثقافى السائد في ذلك السلوك، فالكثيرين "قد يعتبرون أن الأدوية التى يطلبونها أو يبتغونها أقل من الرقى والتعاويذ التى ينتظرون منها أن تحدث، فى الحال، تغييرا ماديا محسوسا، دون التزام منهم .. وإذا حدث ولم يشف المريض بعد يوم أو يومين او يتحسن تحسنا كبيرا .. يقولون لم يحدث الدواء أي تقدم، ويتخلون بعدها عن الطبابة والطبيب"[٤٦].

ووصف بالجريف حالة أحد البدو بقوله "وهذا بدوى آخر يعانى من عيب جسمانى تفشل فى علاجه كليات لندن وباريس مجتمعه، مثل اليد الضامرة، والعين العمياء تماما،

يطلب دواء يتوقع بعد أن يستعمله مباشرة، أن يستعيد به كامل عافيته وصحته وسلامته"[٤٧].

وكان منطقيا - في ظل غياب أي رعاية الطبية، فضلا عن قلة الوعى، بل ربما انعدامه - لجوء بعض الناس الى بدائل أخرى، فكان ما أشار اليه داوتى من "تعليق الأحجبة والتمائم، ولاحظ أنها رائجة، فيندر ان ترى طفلا دون تميمة او حجاب، بل هذا يشمل الحيوان أيضا، للوقاية من الحسد"، و أضاف "أن الناس تفضل الأحجبة عن الطبيب، بل ويدفعون له دون تردد وعن طيب خاطر، ولو كان آخر ما معهم من نقود"، كما ذكر أن الأحجبة أنواع، منها ما أسماه أحجبة الناس المشهورين، أي التى كتبها شيوخ مشهورين، وهى مكلفة جدا، والحصول عليها نادر" [٤٨].

كما رصد داوتى المروجين للتمائم والأحجبة، فأوضح أن "بعض المغاربة يقومون، فى طريقهم للحج، وبعضهم فى المدينة - بكتابة الأحجبة، بحيث صاروا أفضل من يقوم بذلك فى تلك المناطق، وخاصة على طريق الحج، وأشار الى الاعتقاد القوى فيها من الناس، وأنها تقيهم من أشد الأخطار، بل إن تفشى تلك الظاهرة دفع داوتى الى مقارنة ذلك بما كان سائدا فى أوربا، فى العصور الوسطى، حيث كان الأمر شائعا، وكان القائمون عليه بعض اليهود[٤٩]، وأشار الى أنه برغم معرفة الناس أنه نصراني، فإن البعض كان يطالبه بكتابة أحجبة لهم، وكانوا مستعدين للدفع لها اكثر من العقاقير الطبية، وأنه كان بوسعه تحقيق ثروة من وراء ذلك [٥٠].

ولعل ما ذكره داوتى هو ما كان شائعا بين البعض من ارتداء ما اطلقت عليه المصادر المحلية "بالحجاب" أو "الجامعة" و يبدو أنها سميت كذلك باعتبار أن الشخص يشدها الى عضده أو صدره؛ لتقيه شر الشياطين وتحميه، وتسهل له كل أمر صعب، بحسب الاعتقاد السائد آنذاك[٥١]، كما حرصت أيضا كثير من النساء البدويات على ارتداء أنواع من القلائد من الخرز، إذ يعتقدن في نجاعة تأثيرها في دفع الأمراض و الوقاية منها[٥٢].

والواقع أنه برغم سعى الرحالة الحثيث لرصد الجوانب الاجتماعية في كثير من الأحيان، إلا انهم قد جانبهم الصواب في أحيان أخرى، مثل اتهامهم للعرب بالتواكل والكسل والمماطلة في دفع أجورهم، دون دليل، وكرر بالجريف أنه خلال فحصه لرجل، وكلما سأله عن سبب مرضه أجاب الرجل مرارا وتكرارا "السبب يا دكتور هو الله"(٥٣)، كما ردد داوتى عبارات البعض في مثل تلك المناسبات - "اتكالنا على الله، الحكيم والشافى هو الله" - بصورة تهكمية دون ادراك أن ذلك لا يعد تواكلا بقدر ما هو تجسيد لإيمانهم العميق، والرضا بالقضاء والقدر في كل احواله، دون التفريط أو الإهمال بالأخذ بالأسباب ومنها اللجوء الى الأطباء(٥٤)، وقد ناقض بالجريف نفسه، فتارة يقول "ان العرب لا يدفعون مطلقا، أو يدفعون بعد الشفاء، وإن عاد ليقول إنه، فى بعض الحالات، يتم الاتفاق على دفع مبلغ معين ويتم الوفاء به(٥٥).

كما أن دواتى قد بالغ بدوره فى اتهام الناس بالبخل، وقد تغافل كثيرا عن ذكر ما دفعوه له، سواء نقدا أو عينا، وخاصة استضافته، ويجب ألا ننسى أن إسباغ الحماية وتوفير الأمن أمر له أهميته فى هذا الصدد، فضلا عن تجاهله لندرة النقود بين الناس، وحالة الفقر بوجه عام. وفى بعض المرات لم يجد رجل شيئا يعطيه للحكيم سوى أن يخلع له ثوبه ثمنا له، فسامحه على الدواء(٥٦).

الصحة والبيئة

حظيت العلاقة بين الصحة والبيئة باهتمام الرحالة على تنوعهم، وكانت قاسما مشتركا في نصوصهم، فأفاض معظمهم في الربط بين البيئة السائدة وأثرها الوثيق على الصحة العامة للسكان، فعلق الرحالة فالين على أثر الظروف المناخية بقوله "فالأجزاء الغربية من شبه الجزيرة مناخها جيد صحى، وجميع السكان يقولون إن المدينة وجبل شمر والجوف مناطق صحية جدا، فى حين يشكو من سوء المناخ فى الرياض والمحلات الشرقية بنجد، وتتفشى الحميات أكثر ايام السنة" (٥٧)، كما لاحظ أن ارتفاع الرطوبة يصاحبه عادة "أمراض صدرية، وهى أمراض نادرة فى الداخل"(٥٨).

كما نوه بدور الهواء النقي في توفير بيئة صحية ومساهمة المناخ الجاف في القضاء على الفضلات والمخلفات [٥٩]، وعند وصفه للحالة العامة التى بدا عليها أهالي مدينة "جبة"، إحدى المدن التابعة لإمارة حائل، أوضح فالين أن "بشرتهم تبدو سقيمة وأجسامهم ضعيفة وفى بلدتهم امراض عديدة تتفشى، وقد يكون هذا سببه ملوحة الماء، والتمر غير الجيد الذى هو الغذاء الرئيس للسكان[٦٠].

وعلى نفس المنوال وصف بالجريف البدو، خلال قدومه من الجوف متجها الى حائل، أن "وجوههم هزيلة يشع منها الجوع، وبشرتهم سوداء بفعل الأقذار والأوساخ الناجمة عن رداءة الطقس"[٦١]، كما عزا "بالجريف" "التهاب غشاء المعدة المخاطى المزمن، بل قرحة المعدة المميتة التى تنتشر بشكل ملحوظ بين عرب المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية – الى استمرار اتخاذهم التمر غذاء لهم"[٦٢]، وفى موضع آخر، وعلى نقيض ما سبق، امتدح بالجريف بنية سكان الجوف وتمتعهم "بالصحة والنشاط، حتى فى سن متأخرة، وقد يشترك بعض الشيوخ فى السبعين فى المعارك، وهم طوال القامة وأجسامهم متناسقة" [٦٣].

وعند دخولها مدينة حائل. عبرت "آن بلنت" عن انبهارها الشديد بنظافة شوارع المدينة على نحو غير مألوف [٦٤]، بينما وصف "هوبير" حالة السكان بقرية العيون، في طريقه من حائل الى القصيم. فى صورة قاتمة بقوله: "فالرجال بشكل خاص لم يكتمل نموهم، وهم قصيرو القامة، قبيحون هزيلون، ووجوههم باهته وضامرة" [٦٥]، وتساءل في موضع آخر عن الأسباب التى أدت الى خلو بعض البلدان من السكان، رغم توافر الماء والغذاء بها، مرجحا أن يكون ذلك "بتأثير الهواء المتخم بالهوام المنبعثة من المياه الراكدة.."[٦٦].

كما حفلت نصوص الرحالة بإشارات كثيرة حول الأنماط والعادات الغذائية السائدة، فنوه بالجريف بالفوائد الصحية للتمر، وإقبال البدو والحضر عليه، حيث يقوم لديهم مقام الخبز [٦٧] كما أشار كثيرون الى استخدام نبات السمح كغذاء يحظى بالقبول[٦٨]، والاعتماد

على الرمان باعتباره علاجا ناجعا لأمراض الكبد[٦٩]، كما وصف "فالين" أنه بالقرب من تبوك يوجد "نبات حريف طعمه لذيذ جدا، وله بعض الشبه بنبات الرشاد الذى ينمو فى بلادنا ... وعرب المدن يجففونه ويستعملونه فى الهضيم ويدعونه رشادا"[٧٠].

وتكررت الإشارات الى الأهمية الغذائية لحليب النياق، وثمرة "المصاع"[٧١]، وبالمقابل حذر البدو من "حليب الغنم لأنه يؤدى الى السمنة أكثر مما يقوى البدن، وقد يسبب أمراض القولون، ويجب معالجته قبل أن يكون صالحا للشرب"[٧٢]، وأشار داوتى الى "اعتقاد الأعراب أن لحم الذئب جيد جدا من الناحية الطبية، ومفيد من أجل آلام السيقان الشائعة جدا، لأن الأغلبية يمشون حفاة الأقدام وعراة السيقان، في جميع فصول السنة"[٧٣].

وعلى صعيد آخر؛ تطرق كثير من الرحالة الى رصد الأوبئة التى حلت بالبلاد من وقت لآخر، فأشار بالجريف الى انتشار وباء الكوليرا فى الجزيرة العربية عام ١٨٥٥[٧٤] كما نقل دواتى عن مرافقيه لقافلة من الحجيج حديثهم عن اجتياح وباء الكوليرا، وهلاك الكثيرين من الحجاج، وسميت بسنة الكوليرا، حتى انه كان يدفن مائة شخص فى يوم واحد، دون توافر أية رعاية طبية[٧٥].

ومن الاوبئة الأكثر انتشار: وباء الجدرى، وكان منتشرا بين الكبار والأطفال، وإن كان انتشاره بين الأطفال اكثر، وربما أدى الى فقد عين واحدة أو الاثنتين، ويترك تشوهات بالوجه نتيجة البثور، وقد صادف وجود الجدرى، فى عنيزة، خلال تواجد دواتى بها عام ١٨٧٨، بعد أن انقطع، كما أشار الناس، سبع سنوات، وفسر انتشار الوباء بوجود بعض القوافل العائدة من الحج[٧٦] وكان بها بعض الرقيق، في طريقه الى القصيم ثم نقله الى العراق، فكان ذلك سببا فى انتشار العدوى[٧٧]، وبنبرة أشبه بالرثاء تطرق داوتى الى النتائج الوخيمة لوباء الجدرى بقوله: "تأكد لى الآن أن الجدرى قد انتشر بين الحجيج، وهذا المرض المرعب، وحمى الكوليرا، هما سبب فناء الجزيرة العربية البدوية، لأن أجسامهم سيئة التغذية، ولا توجد سوى مقاومة ضئيلة"[٧٨].

وفى تقرير آخر، ذكر الرحالة "أوتينج" "أن سكان بلدة "موقق" إحدى القرى التابعة لإمارة حائل، كان يتراوح في السابق ما بين خمسة آلاف وسبعة آلاف نسمة، ولكنهم اضطروا بسبب الطاعون والكوليرا الى الهجرة، فلم يبق منهم الآن سوى ألف أو ألف ومائتين نسمة على أقصى تقدير"(٧٩)، ولا يمكن بالطبع التكهن بمدى صحة التقدير السابق، وربما كان مبالغا فيه، في ظل عدم وجود إحصاءات موثوقة، لكنه يظل مؤشرا على فداحة الأثر الاجتماعى للأوبئة والأمراض (٨٠).

وقد وصف داوتى ذات القرية "بأنها صارت خرائب، وكذلك القرى المجاورة لها مثل "قفار"، كما هلك "بواسط" نحو ثلاثمائة شخص، أما في "حائل فقد هلك شخص أو اثنان من كل أسرة ... وأن البدو اللذين زاروا حائل في زمن الطاعون قد هلكوا بأسرع من أهل البلدة، مع أن العدوى كانت أخف في الصحراء، ولم تنتشر في منازلهم كمرض قاتل ... كان المرض يصيب الرأس والأمعاء، البعض مات في اليوم نفسه، والبعض ظل لفترة أطول، والعلامات المرضية لدى المصاب بالطاعون هي بقعة سوداء تظهر على الأنف، وتغير لون الأظافر والآلام هي تقريبا نفس الآم الكوليرا ... ثم نزلت بالبلاد بعد ذلك حمى خبيثة لمدة عامين"(٨١).

والى جانب الأوبئة والأمراض، كانت هناك أيضا كوارث أخرى لا تقل اثرا في فداحتها، مثل سنوات القحط والمجاعة، وعدم سقوط الأمطار، وقد وعرض أوتينج الى حديث بعض النساء معه عن عام المجاعة" حيث لم يثمر النخيل واضطر الناس الى ذبح الأبل"(٨٢)، وخلال طريقه الى حائل نقل داوتى عن مرافقه قوله "أن الماشية قد نفقت لعدم سقوط المطر، وهلك بعض الناس من جدرى البقر، وأن تلك الكوارث ليست غريبة على أطراف الجزيرة العربية"(٨٣).

وبطبيعة الحال القت الأوبئة والأمراض التى كانت تحدث بصفة دورية، فضلا عن الكوارث الطبيعية على تنوعها، بظلالها على مجمل الأوضاع السياسية والاجتماعية

لشمال الجزيرة العربية[٨٤] وربما كان في مقدمتها بطء النمو السكانى لانعدام الرعاية الصحية[٨٥].

المـرأة والتطبيب

كانت مساهمات النساء موضع ثناء كثير من الرحالة، بل أوضح "جورمانى" أن دورهن لم يكن محصورا في نطاق الظروف العادية فحسب، وانما كان لهن دور أثناء المعارك الحربية، فكن يقمن "بوقف نزيف الدماء بالرمال والذرور، وتضميد الجراح بالعصائب"[٨٦].

وأشار دواتى الى أنه عندما تم "العثور على نبتة جديدة غير معروفة، حملوها الى النساء لفحصها، لأن من صفات ربة المنزل بينهم أن تكون بارعة في العقاقير والنباتات الطبية"[٨٧].

ولعل الفقرة الاخيرة تشير بوضوح الى أن التطبيب ليس ترفا، وإنما هو جزء رئيس من الأعباء الملقاة على عاتق النساء، وطوال رحلته من حائل الى خيبر، وصف داوتى الإقبال المتزايد عليه من النساء، عندما "علمن أننى مداوى، ويحملن الأقط أو قطع اللبن الجاف[٨٨] لشراء الأدوية ... وأضاف أن إحداهن أخبرته أن أخيها مصاب بالريح أو الملاريا، وأنها انحنت بشكل متعمد لتتفحص عقاقيرى باليدين المتمرستين لامرأة حكيمة بالنباتات الطبية"[٨٩].

وقد قص جورمانى تجربته في العلاج، عقب إصابته بالتسمم بعد أن شرب ماء ملوثا فى إحدى المغارات، حيث أصيب بالتقيؤ وصداع شديد، وهبوط عام في قواه الجسدية، ولم ينقذه سوى نقله سريعا الى خيمة قريبة لأفراد من قبيلة الصلب، ووجد نفسه محاطا ببعض النساء "يُفرك بالسمن ويسقى من حليب النوق، وامرأتان تقومان بتدليك عموده الفقرى بالسمن، وتدليكه تحت إبطه وفى صدره، حتى أسترد وعيه"[٩٠].

ولم تكن تلك هى المرة الوحيدة التى عرض فيها جورمانى لتصدى النساء لعلاج المرضى، فقد أشار الى "قيام امرأة عجوز بعلاج مرافقه من رمد قوى بمداوته بالكحل، ثم

بعد ذلك بمغلى رؤوس الماعز وقوائمها التى تغلى بوبرها، وهذا العلاج يعد عاما في الصحراء لأجل جميع أمراض العيون وخاصة للكمه (عشى الأبصار)، وينبغى أن يمكث المريض، وهو مغطى بعباءتين، فوق القدر بعد رفعه عن النار، الى ان يتوقف تصاعد البخار"[٩١].

ولم تكن الحجامة مهنة قاصرة على الرجال فحسب، وانما أشار داوتى الى أن بعض النساء اتخذنها أيضا حرفة لهن"، كما أن النساء أيضا هن الأكثر استخداما للأعشاب والعقاقير، وهن المنوط بهن البيع والشراء للنباتات الطبية، مثل الحلتيت والصمغ لعلاج التشنج، والحبة السوداء وأنواع العلك. ومما أثار دهشتهن تفاعل بعض المركبات وغليانها دون نار" [٩٢].

وبطبيعة الحال؛ كان داوتى محقا في ملاحظته الثاقبة من "أن النساء يقمن بالتطبيب أكثر من الرجال، ولم يقدم تفسيرا لذلك "على حين ذهب البعض الى أن ذلك يعود الى طبيعة البيئة والحياة البدوية، أكثر من المدن التى يفسح فيها المجال للنساء فى التجارة، وخاصة على طرق الحج، وانشغال الرجال بصد غارات القبائل أو الخروج للغزو[٩٣].

وكانت أدوات الزينة ووسائل النظافة محل اهتمام النساء، كاستخدام الحناء لصبغ الشعر، واستخدام بول الإبل (العبس) لغسل شعورهن به، لتأثيره الفعال في تقوية الشعر ونظافته. وقد وصف الرحالة شعرهن "بالسواد والكثافة نتيجة استخدامهن لزيت لحاء النخيل، والدهن المصفى من ذنبة الشاة لا رائحة له، ولا يسبب أية اضرار"[٩٤]، كما أشار داوتى الى شيوع استخدام الرجال والنساء للكحل، سواء في البادية أو الحضر، لاعتقادهم القاطع في فائدته للنظر[٩٥].

وبطبيعة الحال، لم يكن أمام الناس خلال فترة الدراسة بدائل علاجية، فاضطروا الى استخدام المتاح لهم من بيئتهم، والذى بدا في بعض الأحيان مفيدا، وفى أحيان أخرى

غير مفيد، كما رسخ لدى البعض لأسباب مختلفة: قناعة بأن هناك بعض الأمراض لا يجدى معها سوى ممارسات الطب الشعبى[٩٦].

و قد لفت انتباه "بالجريف" أن النباتات الطبية الشائع استخدامها هى "تباتا السنا والحنظل ... وهما الدواءان اللذان لا يعرف اهل الجزيرة سواهما، ويشيع بين البدو اللذين يصابون بالإمساك استخدام جرعة مستخلصة من مملكة زهرة الكاميلية، وهم يتناولونها دون تخفيفها بالماء"[٩٧]، كما ذكر استخدام نبات "الداتورا أو تفاحة الشوك، وهو من النباتات السامة، في أعمال الدجل والشعوذة"[٩٨]، ولم يفت بالجريف الاشارة، بثاقب نظره، الى وجود مدعين للطب "من المغاربة والبلوخ المتجولين، لم يحققوا في رأيه نجاحا، وليسوا موضع ثناء من أحد"[٩٩].

ومن الطريف والمثير للانتباه معا؛ حديث داوتى عن معرفة الناس لبعض أدوات العلاج الحديثة، مثل "مثقب العين وإن كانوا لا يعلقون عليه أملا، ربما لأنهم لم يجربوه وأنه لازال جديدا، كما أشار الى علمهم بوجود مراهم موضعية للعيون"، ويبدو أن غسيل العين لم يكن معروفا، لأنهم كانوا يتزاحمون على بابه طلبا لهذا العلاج الذى كان يوزعه، على حد قوله، مجانا[١٠٠].

ومن الأهمية بمكان؛ الإشارة الى توافر بعض الأدوية الإنجليزية بين أيدى الناس، وكانت تأتى مع قوافل التجارة التى تجلب معها العديد من البضائع والسلع، ومنها الأدوية من الهند، وقد عبر داوتى عن دهشته حينما وصف دواءً لرجل، وكان يظن عدم وجوده بالأسواق لحداثته، ولكنه فوجئ بحصوله عليه فى نفس اليوم، كما حرص الكثيرون من أفراد الطبقات العليا، من الوجهاء والتجار، على جلب التطعيمات المختلفة من الخارج، صحبة القوافل التجارية العائدة، لاستعمالهم الخاص هم وذويهم"[١٠١].

الأمراض الشائعة وطرق العلاج

يمكن القول بأن الأمراض التى غلبت على سكان شمال الجزيرة العربية، بحسب ما رصده الرحالة، هى على النحو الآتي :

أولا: أمراض العيون، وقد احتلت المرتبة الأولى، وقدر البعض أن شخصا من كل ثلاثة مصاب بالعمى، مما يدل على مدى تفشى أمراض العيون بين السكان[١٠٢]، وقد لاحظ داوتى وجود الكثير من العميان اللذين أصيبوا فى وقت لاحق، وليس منذ ولادتهم، كما أشار الى انتشار الكمه، أي العشى الليلى، محذرا من تفاقم ذلك المرض، إذا ما كان متزامنا مع الجدرى، فيؤدى حينئذ الى العمى الكامل [١٠٣]، وكان من أنواع الرمد، الشائعة آنذاك، ما أطلق عليه العامة اسم " أبو أطبيق " [١٠٤].

والعلاج المستخدم لأمراض العيون عادة هو الكحل، وأيضا كما سبقت الإشارة، التبخير بمغلى رؤوس الماعز وقوائمها [١٠٥].

ثانيا: الأمراض الوبائية، مثل الجدرى والكوليرا، وقد سبقت الإشارة الى توالى تلك الأمراض بصفة دورية من آن لآخر، وتركت تأثيرا فادحا على التركيبة السكانية، وخاصة في البادية [١٠٦].

ثالثا: أمراض الكبد، والمستخدم في علاجها الرمان على نحو ما قد سبق، ومن بين طرق العلاج أيضا، بحسب ما أشار البعض اليه، هو "قطع ذيل النعجة بالكامل وهى حية، ثم يقسم الى قسمين: مسطحا ويلف به المريض على محل الكبد، بحيث يبقى الطرف الخارجى من الذيل ذى الشعر فى الخارج، وذلك لمدة أربع وعشرين ساعة، ثم يرفع الذيل من على المريض، ويظهر على جسمه بقع سوداء، فيتم كى اطراف هذه البقع بإبر احمرت في النار، ثم يأخذ المريض بالحمية الشديدة لمدة اسبوع، كما تعالج آثار الكى بالمراهم" [١٠٧].

رابعا: أمراض ارتبطت بمناطق بعينها، على نحو ما ذكر بالجريف عن قرحة المعدة، وهى أكثر شيوعا بين عرب شمال ووسط الجزيرة العربية، بسبب الاعتماد على التمر كوجبة غذائية، موضحا أن الإفراط في تناوله يؤدى الى التهاب غشاء المعدة المخاطي المزمن، بل قرحة المعدة المميتة، على حد قوله. وعلى نفس الشاكلة أشار

الرحالة فالين الى انتشار مرض الزهرى في بلدة سكاكا، إحدى القرى على طريق حائل - من الدرجتين الثانية والثالثة، ونوه داوتى بشكوى أهل تيماء من أمراض الكلى (١٠٨).

خامسا: أمراض الحكة والحساسية، وصداع الرأس النصفى والذى قد يؤدى الى العمى اذا ما اقترن بأمراض العيون، والحميات بفعل المياه الراكدة، والروماتيزم المزمن، إضافة الى الرشح والزكام الشائع بين الأطفال (١٠٩). وقد أشار داوتى الى بعض الأمراض النادرة، مثل معالجته لسيدة كانت تشكو من ألم في عصب الوجه، وربما هو ما أطلق العامة عليه ابا الوجيه، وينتج عنه ميلان بسيط في الوجه(١١٠).

سادسا: أمراض مجهولة، وعادة ما أطلق عليها السكان المحليون "السكنى بالجان، والنفس والسحر، والريح أو الارياح، والعلاج المستخدم في تلك الحالات: هو الرقية، وهى قراءة بعض آيات القران الكريم، ويتبع نفس الإجراء أيضا عند الإصابة بلسعات العقرب(١١١)، كما يسمى عادة الشخص الملدوغ بالقريص او المقروص، وهم يسهرون حوله طوال الليل حتى لا ينام، لاعتقادهم أنه إذا نام الشخص فإن السم يسرى في جسده ويختلط بدمه، ومن ثم يموت، ولا يسمحون له بالنوم الا في وقت معين من الصباح الباكر، لاعتقادهم ان الافعى التى لدغته تكون هى الأخرى في حالة نوم، ويسمونها بالصفرة (١١٢).

ومن أساليب العلاج التى اجمع الرحالة على شيوعها: "العلاج بالكى ويتحمله الناس بصبر يستثير الدهشة والعجب"(١١٣)، وأوضح البعض أنه تم "علاج أمراض التيفوس وأمراض الحمى، وكافة أمراض الرأس، بعملية كى ما يسمى بالمخمس، وهى مجمع العروق وهى الحفرة الواقعة في الرأس، وفي الحد المشترك بين عظم الجمجمة والجبين، والشريان الواقع خلف الأذنين، وأيضا خلف قمة الرأس قليلا "(١١٤).

وقد برعت قبائل بعينها في الطب والتطبيب، فأثنى كثير من الرحالة على قبيلة الصليبة وذيوع شهرتها في الممارسات الطبية، فهم "متميزون عن غيرهم من القبائل، وهم يعملون فقط بصيد النعام والغزال، ويحكى عنهم الكثير، ومنه: أنهم أجروا جراحات فى

البزل وإستخراج الحصى، وهى تحتاج الى مهارة دقيقة، كما يعالجون الكثير من الأمراض المعقدة"[١١٥].

ولا شك أن أحد الإشكاليات المطروحة بالضرورة هو: الى أي مدى نجح الرحالة الغربيون في رصد الأحوال الصحية، في شمال الجزيرة العربية، خلال فترة الدراسة؟ والواقع أنه من الصعوبة بمكان الجزم بأنه قد تم رصد الجوانب الصحية برمتها، فمن جهة أولى لم تكن نظرة الرحالة وهواجسهم واحدة، ومن جهة ثانية؛ فان سياق وملابسات الرحلة لم يكن نمطا موحدا لدى الجميع، وفيما يبدو؛ فقد تركت موجات الشعور بالدهشة والإعجاب والترحيب تارة، والخوف والهلع وربما السخط والغضب تارة أخرى - أثرا باقيا على مجمل تجربتهم ورؤيتهم.

وبرغم النظرات الثاقبة ودقة الملاحظة التى بدت، على نحو خاص، في كتابات "بالجريف وداوتى"، فإن بعض الأمراض وطرق علاجها لم يتم رصدها، وقد ورد في بعض المصادر التراثية أمثلة مختلفة منها: "الوشرة" وهو مرض يصيب الرأس، ويعالج من خلال وضع عجينة من الطحين على رأس المريض، ثم ينتظرون بعض الوقت، حيث يتم كى المكان الذى يجف أولا، لاعتقادهم أن الموضع الذى جف بسرعة هو موضع الإصابة[١١٦].

وكذلك مرض "البلش"، وهذا المرض يظهر على هيئة قروح على جسم المريض تشتد وتتضاعف، والسبب الرئيس له هو الشرب، أو الاغتسال من المياه الآسنة، ويعتمد في علاجه على شجيرة تسمى "العلقة" وهى نبتة برية تخرج في الربيع، فيشرب المريض من منقوعها ويغتسل به[١١٧].

ويمكن القول أخيرا بأن كتابات الرحالة قد أضاءت، الى حد كبير، أحد الجوانب الاجتماعية الهامة، وقدمت لمحات هامة عن الجوانب الصحية التى سادت شمال الجزيرة العربية، خلال القرن التاسع عشر، في ظل ندرة المصادر المحلية.

خاتمــة

كان شمال الجزيرة العربية موضع اهتمام الرحالة الغربيين، طوال القرن التاسع عشر، فوفد اليه الكثيرون لأغراض مختلفة، وارتدى الأغلب الأعم منهم مسوح الاطباء، بهدف تأمين أوضاعهم الاجتماعية في المقام الأول، فصاروا موضع قبول وترحيب، كما أتاح لهم ذلك سبر أغوار الأحوال الاجتماعية بعد رؤيتها عن قرب.

وبرغم اختلاف الأولويات من رحالة لآخر، فقد استطاعوا في نهاية المطاف تقديم صورة نابضة عن الحياة الاجتماعية، وفى مقدمتها الأحوال الصحية، برغم التعالى وعدم الإنصاف من بعضهم، مثل بالجريف وداوتى- تجاه الاسلام والتراث الطبى للعرب والمسلمين بصفة عامة.

ونظرا لانعدام الخدمات الصحية وندرة وجود أطباء آنذاك، لم يكن هناك من سبيل سوى الاعتماد على البدائل التى رسخها التقليد الاجتماعى المهيمن، بغض النظر عن مدى نجاعتها. وبرغم تمسكهم بالحصول على التطعيمات والأدوية، إلا أن ذلك لم يحل دون لجوء البعض الى الرقى والتعاويذ واستخدام الاحجبة، مهما كلفهم من مال.

وقد أوضح الرحالة العلاقة الوثيقة بين الصحة والبيئة، كما رصدوا شيوع العديد من الأمراض المرتبطة بملوحة المياه، وسوء بعض العادات الغذائية، كما عرضوا للآثار المدمرة الناجمة عن الكوارث البيئية، والأوبئة والامراض الدورية التى حلت من آن لآخر.

وقد أبرز الرحالة دور المرأة على نحو فعال، فكن الاكثر ممارسة للتطبيب؛ في ظل الانشغال الدائم للرجال في الدفاع والغزو، كما كانت النساء الأكثر دراية بالأعشاب والنباتات الطبية وكيفية استخدامها، بل كان لذلك الجانب أثر هام في إعلاء مكانة المرأة الاجتماعية. ويمكن القول أخيرا: إن أدبيات الرحالة ربما لم تعرض حصرا كاملا لجميع الظواهر والجوانب الصحية؛ التى كانت سائدة بشمال الجزيرة العربية، إلا أنها أبرزت جوانب عديدة، منها على الأقل: الأمراض الأكثر شيوعا، ووسائل العلاج المتاحة آنذاك.

ولعله من نافلة القول؛ الإشارة الى تعويل العديد من الشرائح الاجتماعية على تفاوتها، ولأسباب متباينة، بصورة متزايدة على ما يسمى بالطب الشعبى، على تعدد مسمياته وممارساته، ولعل ذلك يكون حافزا لإجراء المزيد من الدراسات البحثية، القائمة على الملاحظة المباشرة، من جانب الهيئات الطبية والاجتماعية المعنية، للوصول الى آلية علمية واجتماعية تمكن من الاستفادة من ذلك التراث على نحو أمثل.



الهوامش :

(١) العقبى، أحمد حسين، التنافس الإنجليزي الفرنسي في شبه الجزيرة العربية في القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى، دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣٠ هـ، ص ٧٨-٧٩.

(٢) لم تسر الرحلات على وتيرة واحدة، كما تعددت بدورها الأهداف من رحالة لآخر فغلب على البعض رصد الجوانب السياسية والاجتماعية لعل من أبرزها أعمال بالجريف ودوتى، كما اهتم آخرين بالجوانب الطبوغرافية والبيئية على نحو ما جاء في دراسات فالين، بينما حرصت أطراف أخرى بولع شديد على الاستحواذ على الشواهد الاثرية وشحنها الى اوربا مثلما فعل هوبير وأيتنج مع حجر تيماء، راجع، بلى، لويس رحلة الى الرياض، ترجمة، الشيخ، عبد الرحمن عبد الله، الجهنى، عويضة متريك، الطبعة الاولى، ١٩٩١، المقدمة، ص ز، العثيمين، عبد الله صالح، قراءة في دراسات عن إمارة آل رشيد، الطبعة الاولى، ٢٠٠١، ص ٨٥.

(٣) البادى، عوض، الرحالة الأوربيون في شمال وسط الجزيرة العربية، منطقة حائل، ١٨٤٥-١٩٢٢، الجزء الأول، الطبعة الأولى، نادى حائل الأدبي، ٢٠١٤، ص٩-١٠.

(٤) كحالة، رضا، جغرافية شبه جزيرة العرب، مكتبة النهضة الحديثة، مكة، ١٣٦٤ هـ، ص ١٢٤.

(٥) العثيمين، المرجع السابق، ص ٤٣-٤٤، الريحانى، أمين، تاريخ نجد الحديث وملحقاته، بيروت، د.ت، ص ١١١-١١٢.

(٦) الشمرى، خليف بن صغير، إمارة حائل في عهد الأمير طلال ابن رشيد، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القصيم، ٢٠١٤، ص ٣٨، البادى، مرجع سابق، ص ١١.

(٧) المقصود دراسة الشبل، عبد العزيز بن صالح الهامة، بعنوان "الأوضاع الصحية في شمال الجزيرة العربية من خلال ما كتبه الرحالة شارلز دواتى في كتابه رحلات في الصحراء العربية"، الدرعية، السنة الرابعة، العدد الرابع عشر، يوليو ٢٠٠١.

(٨) تعرضت الدراسة بحسب إطارها الزمنى الى الكتابات التى خلفها الرحالة على النحو الآتى:

رحلة فالين (١٨١١-١٨٥٢) وقد زار جبل شمر مرتين، الاولى عام ١٨٤٥ والثانية عام ١٨٤٨، بالجريف (١٨٢٦-١٨٨٨) وكانت زيارته عام ١٨٦٢، جورمانى (١٨٢٨-١٨٨٤) التى كانت زيارته عام ١٨٦٤، داوتى (١٨٤٣-١٩٢٦) وكانت رحلته عام ١٨٧٨، رحلة آن بلنت (١٨٣٧-١٩١٧) وزوجها ولفريد بلنت (١٨٤٠-١٩٢٢) عام ١٨٧٨، رحلة هوبير (١٨٤٧-١٨٨٤) الأولى عام ١٨٨٠، ثم كانت رحلته المشتركة مع أويتنج (١٨٣٩-١٩١٣) عام ١٨٨٣، وأخيرا رحلة البارون نولده (١٨٤٩-١٨٩٥) وكانت عام ١٨٩٣.

(٩) راجع، البستانى، بطرس، محيط المحيط، مكتبة لبنان، ١٩٨٣، ص ٥٤٣.
(١٠) ابن منظور، لسان العرب، ج١، مادة طبب، ص ٥٥٣ - ٥٥٤.
(11) Abouseif.Doris Behrens.The Image of The Physician in Arab Biographies of The Post Classical Age.Der Islam.1989.p.33
(١٢) المقدمة، ص ١٨٠-١٨١.
(١٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.
(١٤) المرجع نفسه، ص ١٧٩.
(١٥) نفسه، ص ٢٢٤.
(١٦) الطشاكبيرى،أحمد بن مصطفى، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، الجزء الاول، القاهرة ١٩١١، ص٢٨٥-٢٨٦، وأيضا، خليفة، حاجى، كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون، الجزء الاول، استنابول، ٨٩٢، ص ٣٨٦.
(١٧) بالجريف، وليم جيفورد، وسط الجزيرة العربية وشرقها (١٨٦٢-١٨٦٣) ترجمة، حسن، صبرى محمد، المجلس الاعلى للثقافة، ٢٠٠١، ص ٢١٠.
(١٨) اشار بالجريف بنفسه الى ذلك المنحى وانه "بعكس ما ذهب اليه كل من فالن وولستيد اللذان كانا اهتمامهما حصرا على الجوانب الطبوغرافية"، المرجع السابق، ص١٣.
(١٩) المرجع نفسه، و ربما كان ذلك لخدمة مشروعه السياسى ص ١٩٠.
(٢٠) نفسه، ص ١٨١، لم يكن ذلك موقف عاما للمستشرقين، فالمستشرق الألماني ماكس مايرهوف (١٨٧٤-١٩٤٥) على سبيل المثال كان من أبرز المستشرقين الذين أنصفوا التراث الطبى للعرب والمسلمين وله الكثير من الدراسات في هذا الشأن، راجع Meyerhof. Max.The Book of Treasure ,An Early Arabic on Medicine ,The History of Science Society ,Vol.14.No.1.May.1930.
(٢١) حسين، محمد كامل وآخرون، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، د.ت، ص ١٣.
(٢٢) المرجع السابق، ص ١٣-١٤، وراجع أيضا، نافعة، حسن، بوزورث، كليفورد، تراث الاسلام، الجزء الثانى، ترجمة، مؤنس، حسين، العمد، إحسان صدقى، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨، ص ١٢٨-١٢٩.
(٢٣) المرجع نفسه، ص ١٧.
(24) Ian Blecher.Robert ,The Medicalization of Sovereignty :Medicine Public Health And Political Authority In Syria,1861-1936.Stanford University ,2002.pp.36-37.
(25) Blunt. The future of Islam.London kegan paul.1882.p.134
و راجع ايضا Cromer.modern Egypt.London.vol 2.1908 p.134
(٢٦) بالجريف، مرجع سابق، ص ٢١١، كان ذلك أيضا هو موقف الرحالة داوتى الذى كان حريصا في داخله على كبرياء العصر الفيكتورى واتهم بغلظة وجفاء منذ اللحظة الاولى

العرب والمسلمين بالتعصب، راجع، شاز، راشد، الطريق الى الجزيرة العربية، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الاولى، ٢٠٠٧، ص ١٨٨ وأيضا ٢٣٦.

(٢٧) المرجع السابق، ص ٢٣، وقد اعتذر في موضع اخر لانتحاله شخصية الطبيب متعللا " بظروف رحلته رغم انه لدية بعض الخبرة للحالات العادية "، ص١٧٦، وقد ذكر بالجريف اصطحابه لبعض المراجع الطبية وبعض العقاقير والأدوات الطبية، نفسه، ص ٢٢.

(٢٨) نفسه ص ١٩٠، ويبدو أن التنكر في شخصية الطبيب كان أمرا شائعا بين كثير من الرحالة، حيث تنكر الرحالة الفرنسى لوكا Paul Lucas الذى زار مصر في مطلع القرن الثامن عشر في زى طبيب وجامع للأعشاب الطبية، راجع، ذهنى، الهام محمد على، مصر في كتابات الرحالة و القناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٢، ص-٥٧-٥٨.

(٢٩) البادى، مرجع سابق، ص ١٨.

(٣٠) الشبل، مرجع سابق، ص ٣٠٣.

(٣١) لم يكن الأمر قاصرا على منطقة جبل شمر وحدها، بل كان شائعا في كثير من بقاع شبه الجزيرة العربية، راجع، المقيرن، محمد بن مقرن، تطور القطاع الصحى في منطقة الرياض من عهد الملك المؤسس الى عهد خادم الحرمين الشريفين، قراءة تاريخية، دارة الملك عبد العزيز، العدد الثانى ربيع الآخر ١٤٢٥ هـ، السنة الثلاثون، ص ٤٥.

(٣٢) أبو علية، عبد الفتاح حسن، تاريخ الدولة السعودية الثانية، ١٢٥٦-١٣٠٩ هـ، ١٨٤٠-١٨٩١، الطبعة الرابعة، دار المريخ، الرياض، ١٩٩١، ص ٣١٥، ومما يذكر ان الأمير طلال ابن رشيد قد كشف من جهوده الدبلوماسية حتى نجح في ان يجعل طريق الحج العراقى المرور بجبل شمر ومن ثم فإن القوافل كانت تجتمع في الزبير أو النجف وتتجه جنوبا الى جبل شمر ومنها الى البقاع المقدسة وكان لهذا الإنجاز نتائج هامة على الصعيدين السياسى والاجتماعى، راجع، المفضلى، مشعل بن مهجع، الصلات الحضارية بين جبل شمر وجنوب العراق، الطبعة الاولى، ٢٠١٤، ص ٣٣٦-٣٣٧.

(٣٣) داوتى، تشارلز،رحلات داوتى في الجزيرة العربية، ترجمة عدنان حسن، الطبعة الاولى، دار الوراق، ٢٠٠٩، ص ٢٢٤.

(٣٤) المرجع السابق، ص ٢٣١، وغير معروف على وجه الدقة هل تم استدعاء الطبيب الى حائل، أم أن الأمير ارتحل الى العراق لاستخراج الطلق النارى الذى كان بقدمه، ويبدو أن الرأى الأخير هو الأرجح، راجع، الحماد، حمد بن عبد الله، حكم محمد بن عبدالله الرشيد لنجد(١٢٨٩-١٣١٥هـ)(١٨٧٣-١٨٩٧)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك سعود،٢٠٠٤،ص ٦٦.

(٣٥) بالجريف، مرجع سابق، ص ١٧٧.

(٣٦) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٧٧.



(٣٧) المرجع السابق، ص ٢٨٢-٢٨٣.
(٣٨) داوتى، المرجع السابق، ص ٢٧١.
(٣٩) أوتينج، يوليوس، رحلة داخل الجزيرة العربية، ترجمه وعلق عليه، السعيد، سعيد بن فايز، دارة الملك عبد العزيز، ١٩٩٩، ص ١٠٧.
(٤٠) داوتى، مرجع سابق، ص ١٤٠-١٤١.
(٤١) بالجريف، مرجع سابق، ص ٢٠١.
(٤٢) داوتى، مرجع سابق، ص ٢٣٨.
(٤٣) بالجريف، مرجع سابق، ص ٢٠١، ونوه البعض بأن الحكام كانوا يأمرون المصاب بمرض معد من مدينة حائل بالذهاب الى أحد الغيران (الكهوف) في جبل أجا خشية أن يصيب غيره، راجع، العريفى، فهد، هذه بلادنا (حائل) الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض ١٩٨١، ص ١٢٩.
(٤٤) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٩٨، ومن الأهمية الإشارة الى وجود قدر من الوعى لدى الناس، فضمن فهرس مكتبة البنيان كتاب " تسهيل المنافع في الطب والحكمة "، ومن الكتب الموقوفة "التحفة المنتخبة في الأدوية للعامرى "، وأيضا وقف سعيد غلام الأمير محمد بن عبد الله بن رشيد عدة كتب منها "الأزرق" في علم الطب والتحفة المنتخبة في الأدوية المجربة، وأيضا وقف خالد غلام حمود العبيد، الجزء الأول من كتاب الجامع لمفردات الأدوية لابن البيطار، راجع، الحماد، مرجع سابق، ص ١٢٨-١٣٠.
(٤٥) القويعى، محمد بن عبد العزيز، تراث الأجداد، دراسات لجوانب مختلفة من تاريخ مأثوراتنا الشعبية، ج ١، الطبعة الأولى، ١٩٨٢، ص ١١٢.
(٤٦) بالجريف، مرجع سابق، ص ١٧٩-١٨٠.
(٤٧) المرجع السابق، ص ٤٤.
(٤٨) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٨٥-٢٨٦، وقد أشار هوبير الى تجربته الذاتية في هذا الصدد حيث أتى له مرافقة بابنه الوحيد ومعه فنجان من الماء وطلب منه ان يقرأ عليه شيئا من الكلمات الضرورية للشفاء، راجع، هوبير، شارل، رحلة في الجزيرة العربية الوسطى، ١٨٧٨-١٨٨٢، الحماد، الشمر، القصيم، ترجمة، سعادة،اليسار، الطبعة الاولى، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٢٠
(٤٩) من الممارسات التى درج على القيام بها كثير من رجال الدين اليهود: ممارسة السحر والكهانة والعرافة، كما اشتهروا بكتابة التعاويذ والرقى والتمائم لطرد الأرواح الشريرة، راجع، مقار،شفيق، السحر في التوراة والعهد القديم، الطبعة الاولى، الريس، رياض، للكتب والنشر، ١٩٩٠، ص ٣٤٩، والواقع انه فى ظل سيادة الجهل وغياب العلم تم اللجوء الى السحر على تفاوت في كثير من البلدان مثل ايران ما بين القرنين ١٧ و ١٩ وايضا مصر ، راجع،

A.Mohit.Mental Health and Psychiatry in The Middle East :Historical development. Eastern Mediterranean Journal.Vol.7.No.3.2001.p.343.

(٥٠) المرجع السابق، ص ٢٨٦، وقد أشار بالجريف الى أن البعض قد ظنوا أنهم يقومون بالبحث عن الكنوز المخبأة على غرار المغامرين المغاربة الذين يذيع صيتهم فى الطب والعلوم الطلسمية، ويعبرون من أجلها الصحراء، بالجريف، مرجع سابق، ص ٢٤، وراجع إشارة اويتنج لطلب أحد الرعاة أن يكتب له حجابا، ص ٣٧.

(٥١) القويعى، ج١، ص ١٠٧.

(٥٢) العرينى، عبد الرحمن بن على، الحياة الاجتماعية لدى بادية نجد وأثر الدعوة السلفية فيها منذ القرن العاشر الهجرى الى سقوط الدرعية، (٩٠١ هـ-١٢٣٣هـ) (١٤٩٤-١٨١٨م) رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية. ١٩٨٤، ص٢٧٥.

(٥٣) بالجريف، مرجع سابق، ص ١٩٤.

(٥٤) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٨١.

(٥٥) بالجريف، مرجع سابق، ص ١٧٨-١٧٩.

(٥٦) المرجع السابق، ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٥٧) فالين، جورج أوغست، صور من شمالى جزيرة العرب فى منتصف القرن التاسع عشر ، ترجمة، شبلى، سمير سليم، راجعه، يوسف ابراهيم يزبك، الطبعة الثانية، ١٩٩١، ص ٩٠-٩١.

(٥٨) المرجع السابق، ص ١٥٣.

(٥٩) المرجع نفسه، ص ٣٢، بالجريف، مرجع سابق، ص ١٩٩، وقد امتدح داوتى المناخ الصحى لتيماء وجعلها فى مأمن باستمرار من الأوبئة، ص١١٨.

(٦٠) فالين، مرجع سابق، ص ٧٦، وقد استفاض أويتنج فى الحديث عن الإهمال وعدم نظافة مدينة العلا، مرجع سابق، ص ٢١٣، كما تحدث فالين عن مدينة "سكاكة برغم انه لم يزرها وكان يأتيه البعض من رجالها للاستشارة الطبية "فوجدتهم خشنى الملامح وفى حالة بشعة" وأشار الى ان "الحالات الصحية فى بلدتهم سيئة جدا، وأكثر الامراض التى وجدتها فيهم الزهرى فى الدرجتين الثانية والثالثة "، ص ٦١-٦٢.

(٦١) بالجريف، ص ١١١.

(٦٢) المرجع السابق، ص ٨٢.

(٦٣) نفسه، ص ٨٨.

(٦٤) بلنت، آن، رحلة الى بلاد نجد، ترجمة، محمد أنعم غالب، الطبعة الثانية، منشورات دار اليمامة ١٩٧٨، ص ١٨٥، والجدير بالذكر أن "ولفرد بلنت" قد تأثر كثيرا فى لقاءه برتشارد بيرتون وأيضا بعمل بالجريف، كما كان محررا ومشاركا فى مؤلفات زوجته سواء الكتاب السابق أو كتابها عن القبائل البدوية على نهر الفرات، راجع،

Berdine.Michael.Denis ,The Accidental Tourist ,Wilfrid Scawen Blunt ,Islamic Reform And The British Invasion of Egypt 1882,university of Arizona,2001,pp.35-36.

(٦٥) هوبير، مرجع سابق، ص ٧٤.
(٦٦) المرجع السابق، ص ٨٨ -٨٩.
(٦٧) بالجريف، مرجع سابق، ص ٢٩٧.
(٦٨) المرجع السابق، ص ٤٨، وأيضا فالين، مرجع سابق، ص ٢٩.
(٦٩) فالين، مرجع سابق، ص ٢٤.
(٧٠) المرجع السابق، ص ١٦٨-١٦٩.
(٧١) بالجريف، مرجع سابق، ص ٤٧-٤٩.
(٧٢) داوتي، مرجع سابق، ص ١٣٣- ١٣٤.
(٧٣) المرجع السابق، ص ١٣٥-١٣٦.
(٧٤) بالجريف، مرجع سابق، ص ٤٦٧، وراجع، الحماد، مرجع سابق ، ص ٣٩-٤٠.
(٧٥) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٧٧، وكان الوباء قد بدا في الهند وانتقلت العدوى مع الحجيج الى مكة، انظر، فاسيلييف، اليكسى، تاريخ العربية السعودية، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٩٥، ص ٢٣٦.
(٧٦) المرجع السابق، ص ٢٩٥.
(٧٧) الفاخرى ،محمد بن عمر، تاريخ الفاخرى، دراسة وتحقيق وتعليق، الشبل، عبد الله بن يوسف، ١٩٩٩، حديثه عن حوادث عام ١٢٧٤ هـ ومنها مرض الحجيج بعد عودتهم من مكة، وايضا حديثه عن وقوع مرض الجدرى والسعال وهلاك كثير من الاطفال بسببه ص ٢١٥ -٢٢١.
(٧٨) داوتى، مرجع سابق، ص ٦٣.
(٧٩) أوتينج، مرجع سابق، ص ١٣٤، وقد اوضح هوبير أن " قرية موقق منهكة بسبب أنواع الحمى المستشرية بانتظام كل سنة منذ الخريف وحتى الصيف وفى عام ١٨٧٠ حصد مرض الكوليرا الذى جلبته قافلة عائدة من مكة ربع السكان، هوبير، مرجع سابق، ص ٩٣.
(٨٠) تفاوتت باستمرار التقديرات لعدد السكان فقدر فالين عدد السكان في مدينة حائل بنحو عشرين الفا، بينما ارتفع التقدير لدى لوريمر الى خمس وخمسين الفا ومن ثم فان التقديرات في ظل غياب وثائق محلية دقيقة، تظل في نطاق المؤشرات فحسب، راجع لوريمر، ج.ج، دليل الخليج، القسم الجغرافى، ج ٦، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد ال ثانى، قطر، ص ٢٢٤٨.
(٨١) داوتى، مرجع سابق، ص ٢١٨-٢١٩، كما أشار هوبير الى تفشى الحمى في الحائط، هوبير، مرجع سابق، ص١٢٣.
(٨٢) أويتنج، مرجع سابق، ص ٤٠.

(٨٣) داوتي، مرجع سابق، ص ١٧٤.

(٨٤) هناك وصف للعديد من الكوارث البيئية في منطقة نجد مثل انتشار بعض الاوبئة والجفاف، راجع، الذكير، مقبل، مطالع السعود في تاريخ نجد وآل سعود، البسام،عبد الله العبد الرحمن، الطبعة الاولى، د.ت، راجع الحديث عن سنوات، ١١٢٦-١١٢٨-١١٣٢ هـ، ص ٨٢-٨٣.

(٨٥) العثيمين، عبد الله صالح، نشأة امارة آل رشيد، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ١٩٨١ ص ٨٠.

(٨٦) جوارماني، كارلو كلاوديو، نجد الشمالي، رحلة من القدس الى عنيزة في القصيم، ترجمة وتعليق، احمد ايبش، الطبعة الاولى، المجمع الثقافي بأبوظبي، ٢٠٠٩، ص ٥٨.

(٨٧) داوتي، مرجع سابق، ص ١٢٦.

(٨٨) الاقط وهو من مادة اللبن وذلك بعد خضه يعمدون بعد ذلك الى طبخه مدة طويلة ثم يبرد ويشكل على هيئة قطع صغيرة ثم ينشر حتى يجف فيؤكل –القويعي ج ١، ص ١١٦ .

(٨٩) داوتي، مرجع السابق، ص ٢٥٢-٢٥٣، كما ذكر أنه أعطى بعض النساء مشروب الكينا المقاوم للحمى، مقابل بعض من السمن، نفسه، ص ٢٥٦.

(٩٠) جوارماني، مرجع سابق ن ص ٦٣-٦٤.

(٩١) المرجع السابق ن ص ٨٣.

(٩٢) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٨٣-٢٨٤.

(٩٣) المرجع السابق، ص ٢٨٨.

(٩٤) أوتينج، مرجع سابق، ص ٥٠، وعن طريقة الإجهاض للنساء كانت هناك وصفة متعارف عليها عبارة عن كأس من عرق الفرس بعد أن تتعرق في سباق تأخذها المرأة وتجهض بعدها مباشرة، راجع، الشمرى،خليف، مرجع سابق، على نحو خاص الفصل الخامس.

(٩٥) داوتي، مرجع سابق، ٩١-٩٢، وتتزين المرأة البدوية بمختلف الأصباغ المعروفة آنذاك .

(٩٦) من النماذج في هذا الصدد اعتقاد البعض ان دم البرزان يشفى من داء الكلب ، راجع، العريني، مرجع سابق، ص ٤٥١-٤٥٢، وراجع أيضا، معمر،عبد الله، الطب الشعبي: حقيقة العلاج وثقافة المرض، شؤون اجتماعية، السنة ٢٣، العدد، ٨٩، ٢٠٠٦، ص ١٨٨-١٨٩.

(٩٧) بالجريف، مرجع سابق، ص ١٨٢.

(٩٨) المرجع السابق، ص ٢٩٩.

(٩٩) المرجع نفسه، ص ١٨٥.

(١٠٠) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٩٨-٢٩٩.

(١٠١) المرجع السابق، ص ٢٩٩-٣٠١، وأيضا لوريمر، مرجع سابق ج٥، ص ١٦٩٧، وكثيرا ما تشكى الرحالة من الاحوال البيئية الصعبة في الحفاظ على الادوية مثل ارتفاع الحرارة وهبوب الرياح، نفسه، ص٢٨٥.

(١٠٢) – لوريمر ، مرجع سابق، ج٦ ص ٢٢٤٣.

(١٠٣) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٩٤-٢٩٥.

(١٠٤) القويعي، مرجع سابق، ج ١ ، ص ١٥٢.

(١٠٥) جورماني، مرجع سابق، ص ٨٣.

(١٠٦) داوتي، مرجع سابق، ص ٦٣.

(١٠٧) حسني،حسين، مذكرات ضابط عثماني في نجد، الاوضاع العامة في منطقة نجد، ترجمة وتعليق صابان،سهيل، الرياض ٢٠٠١، ص ٧٥.

(١٠٨) دواتي، مرجع سابق. ص ١٦٠.

(١٠٩) الشبل، مرجع سابق، ص ٢٩٧، وذكر داوتي أيضا ان حالات الصرع محدودة، ص ٣٠١.

(١١٠) القويعي، ج١، ص ١٥٢.

(١١١) وقد أبدى داوتي دهشته من بعض أساليب العلاج مثل " تناول المريض لجيف النسور او روث الحمار وخلطه بالماء وبعض الحليب "، الشبل ص٢٨٧، وربما كان وراء ذلك الاعتقاد ان تلك الوسيلة تسهم في طرد الأرواح الشريرة.

(١١٢) القويعي، مرجع سابق، ج١، ص ١٠١.

(١١٣) بالجريف، مرجع سابق، ص ١٨٣.

(١١٤) حسين حسني، مرجع سابق، ص ٧٥.

(١١٥) بالجريف، مرجع سابق، ص ١٨٣-١٨٤، وحول الصلب، راجع، بلي، لويس، مرجع سابق، ص ١٤٩-١٥١ وراجع دراسة وافية حول الصلب في، العريني، مرجع سابق، الفصل الثاني، ص ١٤٢ وما بعدها.

(١١٦) القويعي، مرجع سابق، ج٢، ص ١٤١.

(١١٧) المرجع السابق، ص ١٣٩-١٥١.

مراجع الدراسة

أولا العربية والمعربة

١ - ابن منظور، لسان العرب، ج١، القاهرة د.ت.
٢ - العقبى، أحمد حسين، التنافس الإنجليزي الفرنسى في شبه الجزيرة العربية في القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى، دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣٠هـ
٣ - الطشاكبيرى، أحمد بن مصطفى، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، الجزء الاول، القاهرة ١٩١١.
٤ - ذهنى، الهام محمد على، مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٢.
٥ - فاسيلييف، اليكسى، تاريخ العربية السعودية، الطبعة الاولى، بيروت ١٩٩٥.
٦ - الريحانى،أمين، تاريخ نجد الحديث وملحقاته، بيروت، د.ت.
٧ - بلنت، آن، رحلة الى بلاد نجد، ترجمة، غالب، محمد أنعم، الطبعة الثانية، منشورات دار اليمامة، ١٩٧٨.
٨ - البستانى، بطرس، محيط المحيط، مكتبة لبنان، ١٩٨٣.
٩ - داوتى، تشارلز، رحلات داوتى في الجزيرة العربية، ترجمة، حسن، عدنان، الطبعة الاولى، دار الوراق، ٢٠٠٩.
١٠ - لوريمر، ج.ج، دليل الخليج، القسم الجغرافى، ج ٥ - ٦، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى، قطر، د.ت .
١١ - فالين،جورج أوغست، صور من شمالى جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر، ترجمة سمير سليم شبلى، راجعه، يوسف ابراهيم يزبك، الطبعة الثانية، ١٩٩١ .
١٢ - خليفة، حاجى، كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون، الجزء الاول، استنابول، ١٨٩٢.
١٣ - حسنى، حسين، مذكرات ضابط عثمانى في نجد، الاوضاع العامة في منطقة نجد، ترجمة وتعليق سهيل صابان، الرياض ٢٠٠١.
١٤ - شاز، راشد، الطريق الى الجزيرة العربية، الدار العربية للموسوعات، الطبعة الاولى، ٢٠٠٧.
١٥ - كحالة، رضا، جغرافية شبه جزيرة العرب، مكتبة النهضة الحديثة، مكة، ١٣٦٤ هـ
١٦ - هوبير، شارل، رحلة في الجزيرة العربية الوسطى، ١٨٧٨-١٨٨٢، الحماد، الشمر، القصيم، ترجمة اليسار سعادة، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٣.

١٧- مقار، شفيق، السحر في التوراة والعهد القديم، الطبعة الاولى، رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٠.
١٨- أبو علية، عبد الفتاح حسن، تاريخ الدولة السعودية الثانية،١٢٥٦-١٣٠٩ هـ، ١٨٤٠-١٨٩١، الطبعة الرابعة، دار المريخ، الرياض، ١٩٩١.
١٩- العثيمين، عبد الله صالح، نشأة امارة أل رشيد، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ١٩٨١.
٢٠- العثيمين، عبد الله صالح، قراءة في دراسات عن امارة آل رشيد، الطبعة الاولى، ٢٠٠١.
٢١- البادى، عوض، الرحالة الاوربيون في شمال وسط الجزيرة العربية، منطقة حائل، ١٨٤٥-١٩٢٢، الجزء الاول، الطبعة الاولى، نادى حائل الأدبي، ٢٠١٤.
٢٢- العريفى، فهد، هذه بلادنا (حائل) الرئاسة العامة لرعاية الشباب، الرياض ١٩٨١.
٢٣- جوارمانى، كارلو كلاوديو، نجد الشمالى، رحلة من القدس الى عنيزة في القصيم، ترجمة وتعليق، احمد ايبش، الطبعة الاولى، المجمع الثقافى بأبوظبي، ٢٠٠٩.
٢٤- بوزورث، كليفورد، تراث الاسلام، الجزء الثانى، ترجمة، حسين مؤنس، احسان صدقى العمد، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨ .
٢٥- بلى، لويس، رحلة الى الرياض، ترجمها وحقق لها، عبد الرحمن عبد الله الشيخ، عويضة بن متريك الجهنى، الطبعة الاولى، الرياض، ١٩٩١.
٢٦- القويعى، محمد بن عبد العزيز، تراث الاجداد، دراسات لجوانب مختلفة من تاريخ مأثوراتنا الشعبية، ج ١، ج ٢، الطبعة الاولى، ١٩٨٢.
٢٧- الفاخرى، محمد بن عمر، تاريخ الفاخرى، دراسة وتحقيق وتعليق، عبد الله بن يوسف الشبل، ١٩٩٩.
٢٨- حسين، محمد كامل، وآخرون، الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، د.ت.
٢٩- المفضلى، مشعل بن مهجع، الصلات الحضارية بين جبل شمر وجنوب العراق، الطبعة الاولى، ٢٠١٤.
٣٠- بالجريف، وليم جيفورد، وسط الجزيرة العربية وشرقها (١٨٦٢-١٨٦٣) ترجمة، صبرى محمد حسن، المجلس الاعلى للثقافة، ٢٠٠١.
٣١- أوتينج، يوليوس، رحلة داخل الجزيرة العربية، ترجمه وعلق عليه، سعيد بن فايز السعيد، دارة الملك عبد العزيز، ١٩٩٩.

ثانيا دراسات غير منشورة

- الحماد، حمد بن عبد الله، حكم محمد بن عبدالله الرشيد لنجد (١٢٨٩-١٣١٥ هـ) (١٨٧٣ -١٨٩٧)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك سعود، ٢٠٠٤.
- الشمرى، خليف بن صغير، امارة حائل في عهد الامير طلال ابن رشيد، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القصيم، ٢٠١٤.

- العرينى، عبد الرحمن بن على، الحياة الاجتماعية لدى بادية نجد واثر الدعوة السلفية فيها منذ القرن العاشر الهجرى الى سقوط الدرعية، (٩٠١ هـ-١٢٣٣ هـ) (١٤٩٤-١٨١٨ م) رسالة ماجستير، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية، ١٩٨٤.

ثالثا الدوريات

- معمر، عبد الله، الطب الشعبى : "حقيقة العلاج وثقافة المرض "، شؤون اجتماعية، السنة ٢٣، العدد، ٨٩، ٢٠٠٦.
- الشبل، عبد العزيز بن صالح، " الاوضاع الصحية في شمال الجزيرة العربية من خلال ما كتبه الرحالة شارلز داوتى في كتابه رحلات في الصحراء العربية "، الدرعية، السنة الرابعة، العدد الرابع عشر، يوليو ٢٠٠١.
- المقيرن، محمد بن مقرن، "تطور القطاع الصحى في منطقة الرياض من عهد الملك المؤسس الى عهد خادم الحرمين الشريفين، قراءة تاريخية "، دارة الملك عبد العزيز، السنة الثلاثون، العدد الثانى ربيع الآخر ١٤٢٥ هـ.

رابعا باللغة الانجليزية

Blunt.The future of Islam.London Kegan -paul.1882

-Cromer.modern Egypt.London.vol 2.1908.

-Abouseif.Doris.behrens.The Image of The Physician in Arab Biographies of The Post Classical Age. Der Islam.1989.

Denis Berdine.Michael,The Accidental Tourist ,Wilfrid Scawen Blunt ,Islamic Reform And The British Invasion of Egypt 1882,university of Arizona,2001.

- Ian Blecher.Robert,The Medicalization of Sovereignty :Medicine Public Health And Political Authority In Syria,1861-1936.Stanford University ,2002.

ب- دوريـــات

-A.Mohit.Mental Health and Psychiatry in The Middle East :Historical development. Eastern Mediterranean Journal.Vol.7.No.3.2001.p.343.

- Meyerhof.Max.The Book of Treasure,An Early Arabic on Medicine,The History of Science Society,Vol.14.No.1. May. 1930.



الموقف التركي من الأزمة السورية فيما بين عامي ١٩٥٥-١٩٥٧م

د. محمد عزيز محمد سيف
مدرس بكلية الآداب جامعة سوهاج

أولا: الحلف التركي-العراقي عام ١٩٥٥م وأثره في توتر العلاقات التركية-السورية(١):-

علي أثر إعلان انتهاء الانتداب الفرنسي علي سورية، وحصولها علي استقلالها عام ١٩٤٦م؛ حدث تبادل للتمثيل الدبلوماسي بين سورية وتركيا، وظلت العلاقات بينهما في حالة من الفتور. ويبدو أن ذكريات الماضي القريب كان لها أثر في هذا الاتجاه، بدرجة لا بأس بها، فالأتراك يتذكرون دور القوميين العرب المناوئ لتركيا في الحرب العالمية الأولي، والسوريون يتذكرون الحكم العثماني السيئ، والطرق التي استعملها العثمانيون في محاولتهم قمع حركة القوميين العرب الحديثة النشأة. ولم يستطع السوريون أن ينسوا تحويل إقليم الأسكندرونة، من قبل سلطات الانتداب الفرنسي، إلي أيدي الأتراك عشية الحرب العالمية الثانية(٢).

ومن جهة أخري: استاءت سورية، شأنها في ذلك شأن سائر الدول العربية، لاعتراف تركيا بقيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م، الأمر الذي جعلها – أي تركيا – ممقوتة في العالم العربي، بسبب سياستها الموالية لإسرائيل(٣). وعلي أثر انقلاب حسني الزعيم(٤) في ٣٠ مارس سنة ١٩٤٩م وإطاحته بالرئيس شكري القتلي(٥) حدث تقارب سوري- تركي، بعد أن أعلن حسني الزعيم استعداده للتنازل عن لواء الأسكندرونة للأتراك، كما أنه كان شديد العداء للشيوعية؛ التي كانت تعاديها تركيا أيضا. ونتيجة للأوضاع السياسية غير المستقرة في سوريا، والتي شهدت عدة انقلابات عسكرية بعد انقلاب حسني الزعيم، تباينت العلاقات التركية – السورية حتي عام ١٩٥٤م.

وابتداءً من عام ١٩٥٥م وهو العام الذي تولت فيه قوي اليسار الحكم في سورية، أخذت العلاقات السورية- التركية في التوتر، خصوصا بعد أن أعلن حكام سورية أن سياستهم الخارجية تقوم علي أساس استنكار الأحلاف العسكرية، وتبني سياسة الحياد الإيجابي بين المعسكرين الشرقي والغربي.

وقد كان لسياسة العراق الخارجية، في تلك الفترة، أثرها في زيادة حدة التوتر في العلاقات السورية- التركية، حيث سار العراق في طريق عقد الأحلاف مع الدول الغربية الاستعمارية المناوئة للعالم العربي. وقد بدأ العراق هذه الأحلاف بالدخول في مفاوضات مع الجانب التركي، لتوقيع حلف دفاعي مع تركيا. ونتيجة لتحقيق هذا الغرض، قام عدنان مندريس(٦) رئيس الوزراء التركي، بزيارة إلي بغداد، تأكيدا لموقف العراق المعلن تجاه الحلف المقترح. وكان البيان العراقي- التركي المشترك، في ١٣ يناير سنة ١٩٥٥م، الذي صدر عقب تلك الزيارة؛ تتويجا لهذا الموقف. ودعما لهذا الاتحاد قام عدنان مندريس بزيارة إلي دمشق وبيروت، في طريق عودته من بغداد، ودعاهما إلي الانضمام للحلف العراقي- التركي المقترح توقيعه بين الجانبين، ولكنه لم يلق تأييدا(٧).

وعلي إثر توقيع الحلف التركي- العراقي(٨) - الذي كان نواة لحلف بغداد-(٩) في الرابع والعشرين من فبراير سنة ١٩٥٥م. تدهورت العلاقات السورية-التركية مرة أخري، حيث قاومت سورية جهود تركيا المستمرة لحث سورية والدول العربية علي الانضمام إلي ذلك التحالف.(١٠)

وبعد مرور يومين علي توقيع هذا الحلف "التركي - العراقي"؛ قام السفير الأمريكي في دمشق، "جيمس موس" في السادس والعشرين من فبراير سنة ١٩٥٥م، بزيارة رئيس الوزراء السوري صبري العسلي، ووزير الخارجية خالد العظم، وسلمهما مذكرة تتضمن وجهة نظر الولايات المتحدة الأمريكية في هذا الحلف ومما جاء في هذه المذكرة(١١).

١-إن الولايات المتحدة الأمريكية كانت دائما تستند إلي جهود الدول الأخرى للقيام بتعاون يهدف إلي الوصول إلي أعلي درجة من التعاون بين الدول المهتمة بتحسين دفاع الشرق الأوسط ضد العدوان الشيوعي.

٢- ترحب الولايات المتحدة الأمريكية بالتحالف التركي- العراقي، كخطوة إنشائية للاعتراف بالحاجة للدفاع الفعال عن الشرق الأوسط، ضد التوسع الشيوعي(١٢).

٣- تعتقد الولايات المتحدة الأمريكية أنه: علي الدول العربية أن ترحب بالاتفاق التركي- العراقي، من أجل تقوية دفاعاتهم ضد الأخطار الشيوعية.

ومن أجل الضغط علي سورية للانضمام للحلف العراقي- التركي قامت دولتا الحلف "تركيا والعراق" بحشد قوات عسكرية علي حدودهما مع سورية، للضغط عليها لحثها علي الانضمام لذلك الحلف، فتزداد بذلك قوة الجبهة الموالية للحلف، مما يشجع علي انضمام الدول العربية الأخرى؛ التي كانت لا تزال مترددة في الانضمام إليه، كالأردن ولبنان. وكان الحلف التركي - العراقي ينص علي إمكانية اشتراك دول عربية أخري، لكن مصر اعتبرت أن ذلك يهدف إلي عزلها عن العالم العربي، واتهمت إذاعة صوت العرب من القاهرة، التي كانت تحرك الشارع العربي(١٣)، تركيا بإرسال فرقتين عسكريتين إلي الحدود السورية - التركية، لممارسة الضغط علي سورية لقبول حلف بغداد(١٤).

لكن الرد السوري علي التحالف التركي- العراقي جاء فوريا وقويا، إذ أن رئيس الأركان السوري "شوكت شقير" ونائبه "عدنان المالكي" اجتمعا بعدد كبير من الضباط، ومن السياسيين، ومن ذلك الاجتماع أعلن أن حكومة سورية ترفض الحلف العراقي- التركي وجميع الأحلاف الأخرى (١٥). كما وافقت سورية علي إقامة حلف كامل مع مصر وعلي توحيد جيشهما، حيث قام وزير الخارجية السوري خالد العظم بتوجيه دعوة للصاغ صلاح سالم أثناء وجود الأخير في لبنان، لزيارة سورية فزارها في السادس والعشرين من فبراير سنة ١٩٥٥م، وعرض الصاغ صلاح سالم أن تقوم الدول العربية بعقد حلف بينها، واقترح أن تبدأ سورية بعقد اتفاق ثنائي مع مصر، يشبه الاتفاق التركي- العراقي، ثم

توصل الاثنان "صلاح سالم" و"خالد العظم" إلي صيغة تصريح مشترك، عرضه خالد العظم علي مجلس الوزراء السوري فوافق عليه في الثاني من مارس سنة ١٩٥٥م، ومما جاء فيه:(١٦)

١- عدم الانضمام إلي الحلف التركي - العراقيأو أية أحلاف أخري.

٢- إقامة منظمة دفاع عسكري وتعاون اقتصادي عربي مشترك.

وهكذا يتضح لنا أن حلف بغداد قد زاد من المشاعر الساخطة لسورية تجاه تركيا، وكان هو العامل الأساسي الذي دفعها إلي توقيع معاهدة عسكرية للقيادة الموحدة مع مصر. ونتيجة للاتفاق المصري-السوري؛ قامت مصر بإرسال وحدات من قواتها العسكرية، لترابط مع الجيش السوري علي الحدود السورية، تحسبا لهجوم محتمل علي سورية من قبل تركيا.

وحيال رفض سورية الانسياق للمشروع الأمريكي؛ حرضت الولايات المتحدة الأمريكية تركيا علي التحرش بسورية، لإثارة المتاعب في وجهها، فادعت تركيا أن حلف الدفاع العربي موجه ضدها، وحشدت قواتها العسكرية علي حدودها المتاخمة لسورية. وأرسلت تركيا إلي دمشق مذكرتين قاسيتين خاليتين من اللياقة والدبلوماسية، ولا تأخذان بعين الاعتبار حقوق سورية الطبيعية وسيادتها علي أراضيها(١٧)، وخلاصة ما جاء فيهما: "...فإن الميثاق السوري - المصري يهدف إلي عزل تركيا عن العالم العربي. وأنه في حالة تحقيق هذا الميثاق من قبل سورية فإن تركيا تعتبر هذا العمل معاديا لها..(١٨)".

وردا علي موقف الحكومة التركية أصدرت الحكومة السورية، في الثاني والعشرين من مارس سنة ١٩٥٥م، بيانا جاء فيه(١٩): -

"إن الحكومة السورية إذ تؤكد مجددا رغبتها في الاحتفاظ بالعلاقات الطبيعية مع تركيا وعدم استهدافها إياها بأية نوايا عدوانية. إن الحكومة السورية تعلن أنها علي الرغم من كل هذه الأجواء المثيرة، ستبقي دائبة علي خطتها المسالمة في معالجة مشاكلها مع تركيا، وماضية، في الوقت نفسه، بتنفيذ ما جاء في برنامجها الوزاري الذي نال ثقة

المجلس النيابي، معتقدة أن خطتها في السعي لتأمين سلامة الوطن وتصفية الجو العربي؛ تقتضيها المصلحة القومية العليا للأمة العربية".

وبعد الاحتجاج السوري علي هاتين المذكرتين أعلن الاتحاد السوفيتي(عدو تركيا الأول) حمايته لسورية، ففي اليوم التالي-٢٣ مارس سنة ١٩٥٥م- تدخل الاتحاد السوفيتي مباشرة في الأزمة، إذ أعلم "مولوتوف" وزير الخارجية الروسي سفير سورية في موسكو "الدكتور فريد الخاني" أن الإتحاد السوفيتي يؤيد موقف سورية، ويرغب في تقديم جميع أنواع المساعدات إليها. بهدف حماية استقلاها وسيادتها(٢٠). وقد أعلن الاتحاد السوفيتي صراحة أنه سيهب للدفاع عن سورية، في حالة تعرضها للهجوم من طرف أية دولة وقعت علي حلف بغداد.(٢١)

كما أصدرت الحكومة السوفيتية عدة بيانات تكشف فيها عن أهداف الغرب من الحلف – من وجهة نظرها – مؤكدة أنها لن تقف مكتوفة الأيدي إزاء تلك المؤامرات الغربية ضدها(٢٢)، كما نددت الحكومة السوفيتية، في هذه البيانات، بإجراءات الغرب وضغوطه لجر الدول العربية للحلف، وقدمت احتجاجا لدي الأمم المتحدة لوقف مثل هذه الضغوط.(٢٣)

ومن هذا يتضح لنا معارضة الاتحاد السوفيتي لحلف بغداد. وقد أحدثت تلك المعارضة السوفيتية نتيجة إيجابية في المنطقة العربية، حيث ظهرت جبهة عربية معارضة لذلك للحلف، كانت علي استعداد لتقبل المساعدات السوفيتية لإحباط أغراض الحلف. وبذلك وفر هذا الحلف للاتحاد السوفيتي حلفاء طبيعيين، فوجد لزاما عليه مساندتهم عسكريا وسياسيا واقتصاديا، وهذا ما حدث بالفعل في المساعدات الاقتصادية والفنية التي قدمها الإتحاد السوفيتي فيما بعد لسورية. ويعتبر البعض أن الحلف كان من أكبر العوامل التي أدت إلي ظهور الاتحاد السوفيتي في الشرق الأوسط، إذ أصبح يمد يده إلي الدول العربية التي رفضت الانضمام لذلك للحلف، وكان في مقدمة هذه الدول العربية "سورية"

التي كانت في حاجة إليحليف قوي يساندها، ويقف إلي جوارها ضد التهديدات الخارجية من ناحية تركيا وغيرها.

ثانيا: مبدأ إيزنهاور وأثره في ازدياد حدة التوتر بين تركيا وسورية :-

نتيجة لذلك، أخذت الولايات المتحدة الأمريكية تعيد النظر في سياستها الخارجية إزاء الشرق الأوسط، وخاصة بعد العدوان الثلاثي علي مصر سنة ١٩٥٦م، وإدراك الولايات المتحدة الأمريكية عجز بريطانيا وفرنسا عن القيام بمهمة الدفاع عن الشرق الأوسط، وفشلهما في التصدي للنفوذ السوفيتي بالمنطقة، وبخاصة بعد التهديد السوفيتي باستخدام القذائف الصاروخية ضد المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط(٢٤). حيث طرح الرئيس الأمريكي إيزنهاور E1senhower مبادرته لملء الفراغ(٢٥) في الشرق الأوسط، وهي تهدف إلي مقاومة النفوذ السوفيتي والشيوعي المتغلغل في منطقة الشرق الأوسط، ومن هنا جاء إعلان الرئيس الأمريكي إيزنهاور عن سياسته الجديدة تجاه الشرق الأوسط في صورة رسالة وجهها إلي الكونجرس الأمريكي، في الخامس من يناير سنة ١٩٥٧م، حيث سعي الرئيس الأمريكي إيزنهاور للحصول علي سلطات من الكونجرس الأمريكي، تتيح له تقديم المساعدات لدول الشرق الأوسط سواء المساعدات المادية أو العسكرية، وهو ما عرف "بمبدأ إيزنهاورE1senhower doctr1ne "(٢٦) ولقد كان لتركيا دور مهم في مساندته، استجابة لطلب الولايات المتحدة الأمريكية(٢٧).

وكانت مبادئ إيزنهاور تنص علي: أن تقدم الحكومة الأمريكية المساعدات لصد عدوان الشيوعية الدولية، وبناء علي طلب الحكومات المعنية في المنطقة. كما أنه في الوقت نفسه وفي ٢٥ من مارس سنة ١٩٥٧م أعلن إيزنهاور في لقائه مع "ماكميلان Macm1llan" رئيس وزراء بريطانيا عن رغبة بلاده "الولايات المتحدة الأمريكية" في الانضمام إلي اللجنة العسكرية التابعة لحلف بغداد(٢٨)، وبذلك كان في استطاعة دولة مثل تركيا أن تستنجد بالولايات المتحدة الأمريكية، بدعوي أن سورية تهدد أمنها، فقد

صار الغرب، وبخاصة الأمريكيون يكرهون سورية لتعاونها الاقتصادي مع الدول الشيوعية واعتبار ذلك تبعية(٢٩).

كانت سورية أول من هاجم مبادرة إيزنهاور في الشرق الأوسط، ففي العاشر من شهر يناير سنة ١٩٥٧م، أي بعد أقل من أسبوع واحد من طرح الرئيس الأمريكي لمبادرته بشأن الشرق الأوسط وإرسالها إلي الكونجرس الأمريكي، أصدرت الحكومة السورية بيانا تعارض فيه نظرية الفراغ، وتعارض فكرة أن المصالح الاقتصادية تعطي أي دولة حق التدخل في المنطقة، وتنكر أن الشيوعية تشكل خطرا مباشرا علي العالم العربي، فالإمبريالية والصهيونية هما الخطران الرئيسيان اللذان يظل العرب عرضة لهما(٣٠).

وفي التاسع عشر من شهر يناير سنة ١٩٥٧م، اجتمع قادة مصر وسورية والسعودية والأردن في القاهرة، حيث تم التوقيع علي اتفاق رباعي، أكدت فيه تلك الدول علي إيمانهم بضرورة التضامن والتعاون لتدعيم الكيان العربي واستقلاله(٣١)، كما أعلنوا رفضهم لنظرية الفراغ الأمريكية(٣٢). وأشاروا إلي أن المنطقة العربية لن تكون منطقة نفوذ لأية قوة أجنبية، وأن الوحدة القومية العربية هي وحدها القادرة علي ملء ذلك الفراغ المزعوم(٣٣)، كما جاء في البيان الختامي الصادر عن ذلك الاجتماع: "إن التهديد الحقيقي الذي تتعرض له دول المنطقة هو من جانب إسرائيل وليس من جانب الاتحاد السوفيتي".(٣٤)

علي نقيض الموقف السوري من مبادرة إيزنهاور؛ جاء الموقف التركي علي لسان صحيفة " ظافر" الناطقة باسم الحزب الديمقراطي الحاكم في تركيا، إذ أشارت إلي أن مبدأ إيزنهاور واضح وبسيط، فالهدف الذي يسعي إلي تحقيقه هو: أن يكون الشرق الأوسط لشعوب الشرق الأوسط، والضمان الذي يقدمه هو القوة العسكرية الأمريكية، والخير الذي يسعد به هو توفير المساعدة في المجال الاقتصادي للشرق الأوسط، من خلال المعونات المالية الضخمة، وسيحكم التاريخ بصحة مبدأ إيزنهاور أو خطئه، علي أساس الوضع

والأهمية اللذين ستعطيهما الولايات المتحدة الأمريكية لتركيا في هذه الخطط وحساباتها(٣٥).

وقد أرسل الرئيس الأمريكي إيزنهاور مبعوثه الشخصي "جيمس ريتشارد" إلي أنقرة في مارس سنة ١٩٥٧م، وذلك لشرح مبدأ إيزنهاور مع رئيس الوزراء التركي "عدنان مندريس". وبعد انتهاء المباحثات أصدرت الحكومة التركية بيانا رسميا جاء فيه(٣٦):

".... إن الحكومة التركية تكرر مساندتها لاقتراح الولايات المتحدة الأمريكية من أجل دعم الاستقلال السياسي لدول الشرق الأوسط، وضمان سلامتها الإقليمية ضد تهديد الشيوعية الدولية...... ".

ونتيجة لظهور هذا المبدأ، فقد تعرضت مجموعة من الدول العربية إلي ضغط شديد من جانب الولايات المتحدة الأمريكية وتركيا، بغية حملها علي قبول مبدأ إيزنهاور، وشنت الصحف التركية حملات ضد الدول العربية التي رفضت هذا المبدأ(٣٧)، ومن بين هذه الدول "سورية" التي أعلنت في بداية عام ١٩٥٧م رفضها المطلق لهذا المبدأ. وفي الوقتنفسه قام خالد العظم وزير الداخلية السوري حينئذ ذات التوجهات اليسارية(٣٨) بزيارة الاتحاد السوفيتي لإجراء مباحثات مع الجانب السوفيتي، وقد تمخضت تلك المباحثات، التي جرت بين الطرفين في موسكو، عن توقيع اتفاقية اقتصادية وعسكرية واسعة المدي، في السادس من أغسطس سنة ١٩٥٧م بقيمة ٥٧٩ مليون دولار.(٣٩)

وا إلي جانب موقف الرفض الذي وقفته بعض الدول العربية من مشروع إيزنهاور، والذي أثار قلق دول الغرب وتركيا باعتبارها - أي تركيا - الدولة إلي تعهدت بالإسهام في تحقيق أهداف ذلك المشروع، فقد كان رفض سورية، خلال تلك الفترة، لعروض أمريكية(٤٠) بتمويل اقتصادها، والتجائها إلي دول الكتلة الشرقية في الحصول علي حاجاتها من السلاح والمساعدات الاقتصادية أسوة بالطريق الذي انتهجته مصر، كل ذلك كان مثارا لقلق أكبر من جانب الولايات المتحدة الأمريكية، وأيضا لتركيا التي كانت تنظر بحساسية شديدة تجاه أي نشاط سوفيتي في المنطقة، وبخاصة الدول التي تشترك معها

في الحدود مثل سورية. ولذلك بدأت الدعايات الأمريكية والتركية([٤١]) تركز اتهاماتها، ضد كل من مصر وسورية، بالسير في فلك الشيوعية، كما بدأت تركيا في الإعلان عن مخاوفها إزاء تطور العلاقات العربية- السوفيتية.

لذلك عمدت الولايات المتحدة الأمريكية علي تدبير مؤامرة ضد سورية، بالاتفاق مع دول حلف بغداد(العراق وتركيا) إضافة إلي الأردن ولبنان، ولكن الحكومة السورية كشفت عن هذه المؤامرة في الثاني عشر من أغسطس سنة ١٩٥٧م، وقامت بإبعاد ثلاثة من الدبلوماسيين الأمريكيين من العاملين بالسفارة الأمريكية في سورية([٤٢])، وهم الملحق العسكري "روبرت مالوي" والسكرتير الثاني "هوارد ستون" ونائب القنصل "فرانسيس جيتون"، واعتبرت الحكومة السورية هؤلاء أشخاصا غير مرغوب فيهم، حيث اتهم هؤلاء بالتآمر مع الرئيس السوري المخلوع "أديب الشيشكلي" لقلب نظام الحكم([٤٣]). وقد ردت واشنطن علي ذلك بطرد السفير السوري "فريد زين الدين" وأحد موظفي سفارته.([٤٤])

كما أنزلت الولايات المتحدة الأمريكية رجال البحرية الأمريكية جوا في لبنان والأردن والعراق، وقد تعلل "دالاس" وزير الخارجية الأمريكية، بأن تركيا تواجه خطرا عسكريا متزايدا، من جراء تدفق الأسلحة السوفيتية إلي سورية([٤٥]). ولقد لعب "عبد الحميد السراج" مدير المخابرات الحربية السورية([٤٦]) والضباط التقدميون؛ دورا مهما في كشف خيوط هذه المؤامرة. وكان من النتائج المباشرة لكشف هذه المؤامرة، توجيه مذكرة من الضباط التقدميين إلي رئيس الأركان "نظام الدين" بصيغة إنذار يضمن إجراء تغييرات بين الضباط المشكوك في ولائهم، أو تقديم استقالته فأثر الحل الثاني، كما قامت الحكومة السورية في ١٧ أغسطس عام ١٩٥٧م، بعدة إجراءات هدفت التطهير الشامل في القيادات العسكرية، حيث أحالت نظام الدين رئيس أركان الجيش السوري المعروف باعتداله - بعد قبول استقالته - إلي التقاعد، وعينت بدلا منه العقيد "عفيف البزري" المعروف بتعاطفه مع السوفيت وذا الميول اليسارية([٤٧]). كما تم توزيع المناصب القيادية الأخرى، والهامة أيضا، فيالجيش السوري، حيث تم اختيار "أمين النفوري" مساعدا

لرئيس الأركان و"مصطفي حمدون" لرئاسة الشعبة الأولي و"أحمد عبد الكريم" لرئاسة الشعبة الثالثة، واستمر عبد الحميد السراج رئيسا للشعبة الثانية(٤٨). وفي الوقت نفسه جري تطهير الجيش السوري من عشرات الضباط، وراقبت تركيا والولايات المتحدة الأمريكية هذه التطورات في سورية عن كثب، واتهمتا سورية بأنها اتجهت نحو المعسكر الشرقي.(٤٩)

ولذلك أوفدت الولايات المتحدة الأمريكية، في الأول من سبتمبر سنة ١٩٥٧م، مساعد وزير خارجيتها -لوي هندرسون Handrson- إلي تركيا، لبحث تطورات الموقف في المنطقة(٥٠). حيث اجتمع مع عدنان مندريس رئيس الوزراء التركي، وقد أصدر هندرسون بعد عودته إلي واشنطن بيانا قال فيه "إن الوضع في سورية خطير جدا، والولايات المتحدة الأمريكية، مهتمة اهتماما عميقا بما يجري في سورية التي أصبحت فريسة للشيوعية(٥١)"، وقد خلص هندرسون في ختام زيارته تلك إلي نتيجة مؤداها: أن سورية تمثل مصدرا للخطر علي جارتها تركيا(٥٢). كما نقل عن "دالاس" وزير الخارجية الأمريكي، عقب اجتماعه بهندرسون،أنه يري ضرورة القيام بعمل عاجل، لو ثبت أن سورية علي وشك أن تصبح دولة خاضعة للاتحاد السوفيتي، وأن تطورات الموقف في سورية تلقي علي تركيا أعباء جديدة، فيما يتعلق بالدفاع عن الشرق الأوسط، الأمر الذي يستوجب تقديم مساعدات عسكرية واقتصادية لتركيا، حتي تتمكن من تحصين حدودها مع سورية.(٥٣)

وقد كانت تركيا تشعر بعدم الارتياح تجاه الوضع في سورية، وبخاصة بعد أن أحرز الجناح اليساري تقدما في انتخابات عام ١٩٥٧م، وقد انعكست نتيجة الانتخابات السورية هذه، عام ١٩٥٧م، علي الصحافة التركية التي أشارت بوضوح إلي مدي القلق الذي انتاب تركيا من جراء وصول اليساريين إلي السلطة في سورية.وكان مما جاء في احدي هذه الصحف " أن تركيا كانت وما تزال "حينئذ" محاطة بقوات عدائية من الغرب

والشمال والشرق، وأصبحت الآن تحاصر بقوات عدائية من الجنوب، إذ أن سورية غدت قاعدة صواريخ روسية، ويعتبر هذا حصارا جغرافيا علي تركيا..(٥٤):-"

وفي العاشر من سبتمبر سنة ١٩٥٧م،أعلنت الخارجية السوفيتية أن تركيا تنوي القيام بهجوم عسكري علي سورية، وأنه إذا سارت تركيا علي هذا النهج فربما وجدت نفسها في الهاوية. كما أعلن "جروميكو" وزير الخارجية السوفيتي أن بلاده لا يمكن أن تظل مكتوفة الأيدي، وأنها تراقب عن كثب المحاولات التي تبذل لتحويل الشرق الأوسط والأدنى إلي مسرح للصراع المسلح.(٥٥)

وقد كشفت صحيفة الجيش السوفيتي "النجم الأحمر" في ذات اليوم " العاشر من سبتمبر سنة ١٩٥٧م، النقاب عن مؤامرة أمريكية شيطانية لغزو سورية، وأكدت الصحيفة أن المؤامرة كانت تنطوي علي خطة ذات خمس مراحل لعبت فيها تركيا دورا بارزا وذلك علي النحو التالي(٥٦):

أولا : تقوم إسرائيل بتحركات عسكرية استفزازية علي حدودها مع سورية.

ثانيا: تسارع تركيا عند ذلك إلي تجميع قواتها علي الحدود السورية الشمالية مثيرة احتمال حدوث صدام سوري – إسرائيلي.

ثالثا: تقوم العراق بدورها بحشد قواتها، بحجة أنها تستهدف مساعدة سورية.

رابعا: تقوم الطائرات التركية والعراقية بغارات علي بعض المراكز علي الحدود، مدعية أن سورية قد خرقت حدودها.

خامسا: تسارع العراق وتركيا بالزحف علي سورية، وهما تناشدان في الوقت نفسه الولايات المتحدة الأمريكية لتقديم معونتها لصد العدوان السوري.

ويروي إيزنهاور في مذكراته، عن تلك الفترة، أنه كان هناك شبه إجماع بين قادة هذه الدول علي وجوب الإطاحة بالنظام القائم في سورية آنذاك(٥٧).

وهكذا يبدو لنا مدي التغلغل التركي فيالشأن السوري، وانسياق تركيا وراء المخططات الأمريكية. وبالإجمال يمكن القول إن ' الموقف التركي كان مثيرا للاستفزاز في

سورية إلي حد أنه ابتداء من منتصف سبتمبر سنة ١٩٥٧م، أصبح الصدام السوري - الأمريكي أكثر جدية، غير أنه أستبدل به صدام سوري - تركي تقف وراءه الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي.(٥٨)

وفي ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٥٧م اتهم رئيس الوزراء السوفيتي في ذلك الوقت "بولجانين" تركيا بأنها وضعت قوات عسكرية تركية علي الحدود السورية، بهدف القيام بهجوم مخطط له من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، وحذر بولجانين من أن هذا النزاع المسلح علي سورية لن يقتصر علي تلك المنطقة فقط(٥٩).

وقد حذر الاتحاد السوفيتيتركيا من القيام بعمل عسكري ضد سورية؛ لإدراكه أن تركيا هي أكثر الدول تهديدا لسورية، حيث بعث بولجانين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي برسالة شديدة اللهجة إلي رئيس الوزراء التركي "عدنان مندريس" جاء فيها "..... عندما تؤكد الأنباء أن الحشود تتجمع عند الحدود بين سورية وتركيا، فإن السؤال المنطقي الذي يتبادر إلي الذهن في هذه الحالة هو: ماهو شعور الأتراك في حالة وجود حشود أجنبية علي حدودهم؟ إن تركيا ستجر علي نفسها ويلات كثيرة، إذا سارت علي رأي الدول الأجنبية التي لاتهمها حماية السلام في الشرق الأوسط علي الإطلاق....."(٦٠)

ورد عدنان مندريس رئيس الوزراء التركي علي رسالة رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي "بولجانين" قائلا: ".... إن الإدعاءات المزعومة التي ذهبتم إليها، لا أساس لها من الصحة، كما أن اهتمام الاتحاد السوفيتي تجاه الوضع في سورية يثير دهشة تركيا، ولاسيما أن الدول المعنية لم تقدم أيةشكوى ضد تركيا، كما أن شعور تركيا بعدم الارتياح عن التطورات في سورية طبيعي للغاية، إذ غدت سورية مستودعا للأسلحة السوفيتية...". وأذاعت وزارة الدفاع التركية في نفس الوقت بيانا فندت فيه إدعاءات الاتحاد السوفيتي، مؤكدة أن القوات التركية تقوم بمناورات روتينية، كان مقررا إجراؤها من قبل حلف شمال الأطلسي، حيث كانت تركيا أحد أعضاء ذلك الحلف(٦١).

وتجدر الإشارة إلي أنه عليالرغم من التفوق العسكري التركي علي سورية([٦٢])، إلا أن تركيا لم تكن في حقيقة الأمر قادرة بمفردها عليالقيام بهجوم عسكري علي سورية - بعد تراجع الدول العربية - حليفة تركيا - عن الاشتراك في الهجوم؛ لأن معني ذلك أنها - أي تركيا - ستعرض نفسها لهجوم سوفيتي عبر حدودها الممتدة مع الاتحاد السوفيتي.([٦٣])

إضافة إلي أن مصر قد اتخذت خطوة جريئة، حين بعثت بقواتها إلي ميناء اللاذقية السوري، في ١٣ أكتوبر سنة ١٩٥٧م؛ لترابط تلك القوات إلي جانب القوات السورية علي الحدود مع تركيا، لصد أي هجوم محتمل من جانب الأتراك علي الأراضي السورية([٦٤])، وذلك تنفيذا لميثاق الدفاع المشترك المعقود بين البلدين "مصر وسورية" سنة ١٩٥٥م.

وفي هذا الجو المفعم بالتوتر بادر الملك "سعود بن عبد العزيز" ملك المملكة العربية السعودية حينئذ، للقيام بدور الوساطة بين سورية وتركيا، وسافر إلي بيروت لهذا الغرض، وبعث منها عدة رسائل إلي الدول المعنية، وقد أيدت تركيا وساطة سعود، أما بالنسبة إلي سورية فإنها رحبت في البداية بهذه الوساطة، غير أنها عادت وعدلت عن قرارها، وقد ترددت حينئذ أنباء مفادها أن سبب رفض سورية لوساطة الملك سعود بن عبد العزيز يرجع إلي([٦٥]):

١-ممارسة الجيش السوري الضغط عليالرئيس السوري شكري القوتلي" لرفض وساطة الملك سعود بن عبد العزيز .

٢- عدم رغبة مصر في وساطة سعود بن عبد العزيز، إذ أنها كانت تتهم الأخير بأنه ميال إلي السياسة الأمريكية.

وبعد رفض سورية وساطة الملك سعود بن عبد العزيز، قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة مناقشة الأزمة السورية، في الثامن عشر من أكتوبر عام ١٩٥٧م، حيث تقدمت سورية بمساندة من الاتحاد السوفيتي،بشكوى إلي الجمعية العامة للأمم المتحدة

تتهم فيها تركيا بتعريض السلم العالمي للخطر، واستمرت هذه الجلسات حتي أول نوفمبر من نفس العام. وقد تحدث في هذه الجلسات وزير خارجية الاتحاد السوفيتي "جروميكو"، حيث أدان كلا من تركيا والولايات المتحدة الأمريكية، وطلب من الجمعية العامة مساعدة سورية في حالة وقوع عدوان عليها. وأكد جروميكو بأنه لدي الاتحاد السوفيتي وثائق وبيانات تثبت بأن وزارة الدفاع التركية تعد مشروعا للهجوم علي سورية. كما اتهم وزير خارجية الاتحاد السوفيتي تركيا بتدبير مؤامرة للإطاحة بنظام الحكم في سورية عن طريق بعض السوريين المقيمين في تركيا(٦٦).

والقي المندوب التركي كلمة في الجمعية العامة للأمم المتحدة، أكد فيها بأن الاتحاد السوفيتي يحاول إيقاع العداوة بين تركيا والعالم العربي، بغية اتساع هوة الخلاف بينهما وهو يرنو، في نفس الوقت، إلي تعزيز مركزه في المنطقة(٦٧) وأن الاتحاد السوفيتي يقوم بمحاولة لإفساد العلاقات التركية- السورية، بإثارة شائعات مؤداها أن الحشود التركية علي الحدود متأهبة للهجوم علي سورية. وأعلن المندوب التركي بأن إحساس بلده بعدم الارتياح تجاه التطورات الأخيرة في سورية طبيعي للغاية؛ لأن هناك تهديدا مباشرا علي تركيا من الشمال والجنوب، كما أكد أن حكومته قد استفسرت من سورية عن سبب إنشاء قاعدة بحرية وقاعدة للغواصات في أراضيها، مع أنها لا تملك أسطولا، غير أنها لم ترد علي استفسارات الحكومة التركية.(٦٨)

وبعد هذه المناقشات قدمت عدة اقتراحات في الجمعية العامة للأمم المتحدة، بشأن حسم النزاع بين سورية وتركيا، وهذه الاقتراحات هي:(٦٩)-

١ - اقتراح قدمته سورية، وبدعم من الاتحاد السوفيتي، ويتضمن إنشاء لجنة تقوم بتقصي الحقائق علي الحدود السورية - التركية.علي أن يتم إبلاغ الجمعية العامة للأمم المتحدة بنتائج ما تتوصل إليه تلك اللجنة، وذلك في غضون أسبوعين.

٢ - اقتراح قدمته سبع دول(٧٠) وتؤيده الولايات المتحدة الأمريكية، حيث خول هذا الاقتراح السكرتير العام للأمم المتحدة بالقيام بمناقشات مع ممثلي سورية وتركيا، والسعي

لإيجاد حل للأزمة بينهما بهذه الطريقة، غير أن الاقتراحين قد جري سحبهما قبل أن يعرضا للتصويت، وبعد مناقشات طويلة، وبناء علي اقتراح أندونيسيا، وافق الطرفان علي عدم فرض مشروع قرار، والدخول في مباحثات مباشرة، والعيش معا في وئام، بغية خدمة السلام في الشرق الأوسط والسلام العالمي.

ويمكن تلخيص أسباب الموقف التركي في ثلاثة دوافع هي(٧١):-

١ - خضوع الحكومة التركية لواشنطن بعد هيمنة مستشاري ما وراء الأطلنطي علي كل مرفق من مرافق الحياة في البلاد.

٢ - أمل الحكومة التركية في الحصول من واشنطن علي قروض مالية.

٣ - تعزيز مركز الحكومة التركية، في داخل تركيا، ضد الأحزاب السياسيةالمعارضة

يتضح من التحليل السابق أن الولايات المتحدة الأمريكية، عن طريق استخدامها تركيا، قد اتبعت كافة السبل لتغيير نظام الحكم وقتئذ في سورية، بنظام حكم أخر يقبل مبدأ إيزنهاور، لكي تصبح منطقة الشرق الأوسط داخل نطاق هذا المبدأ باستثناء مصر، لأن دول المنطقة بصفة عامة قد قبلت هذا المبدأ، سواء عن طريق مباشر أو غير مباشر، إلا أن سورية لم ترضخ أمام كل هذه الأساليب، لإيمانها بارتباط سلامتها بسلامة كل دولة تعمل من أجل استكمال حقوقها وسيادتها.

وبجدر بنا هنا أن نحلل الأسباب التي حالت دون أن تسير تركيا قدما، في إجراءاتها العسكرية ضد سورية(٧٢) :

١ - كانت تركيا هي وريثة الدولة العثمانية التي هيمنت علي البلاد العربية، وكانت من أسباب تخلفها حتي ثار عليها العرب وتخلصوا من حكم الأتراك. إن تركيا هذه لم تتخل عن رؤيتها لنفسها علي اعتبار أنها الأحق باليد العليا في المنطقة، ومن ثم فإن الأتراك حاولوا إعادة الكرة مرة أخري، وخاصة فيما بين عامي ١٩٥٥ - ١٩٥٧م، وذلك باندفاعهم نحو السيطرة علي البلاد العربية وخاصة سورية. إلا أن سورية قد قامت بمسئوليتها التاريخية، وهي رفع شعار الكفاح ضد الأتراك، ومن أجل تدعيم القومية العربية مرة أخري،

والإيمان بهذه الأيدلوجية، مما أدي إليأن يتحول الشعب السوري كله إلي قوة مقاتلة، وتحول سورية إلي أرض من نار علي كل تركي يطأ أرضها.

٢- إن مثل هذه المقاومة الضاربة ضد أية قوة تركية غازية لسورية، ستؤدي إلي تحريك مشاعر الصديق والخصم، وتتحول الأمور علي نحو ما حدث لكل من بريطانيا وفرنسا؛ خلال العدوان الثلاثي علي مصر.

٣- لاشك أن تركيا قدرت خطورة إثارة ثائرة الاتحاد السوفيتي؛ إذا ما أقدمت -أي تركيا- علي توجيه ضربة لدولة عربية صديقة له.

٤-لاشك أن تركيا اكتشفت أن الأسلوب العسكري؛ قد يؤدي إلي وضع شديد التعقيد، يصعب التعامل معه بسهولة.

٥- تراجع الولايات المتحدة الأمريكية عن حث تركيا علي مهاجمة الأراضي السورية، وإعلان "دالاس" وزير الخارجية الأمريكيأن الولايات المتحدة الأمريكية لا تري ضرورة لتطبيق مبدأ إيزنهاور، فيما يتعلق بتطورات الأوضاع في سورية، وأنها ستلجأ إلي الوسائل التفاوضية.

علي أية حال فإن التطورات السياسية، فيتلك الفتر ة، كانت كفيلة بأن تخلق الجو الملائم للتقارب الحقيقي بين القطرين الشقيقين - سورية ومصر-، وفعلا تم إعلان قيام الوحدة بينهما، في الأول من فبراير عام ١٩٥٨م. وبهذا الحدث انتهي مبدأ إيزنهاور، ومحاولات الولايات المتحدة الأمريكية استخدام تركيا لإجبار سورية علي أن تكون ضمن نطاق هذا المبدأ، ولكنه لم ينه التوتر التركي -السوري، بسبب قيام تلك الوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨م، وتخوف تركيا من هذه الوحدة. ولقد ساعدت علي ذلك عوامل عدة أدت إلي قيام تلك الوحدة، منها:-(٧٣)

١-الضغط العسكري علي سورية من جانب قوات حلف شمال الأطلسي من الأراضي التركية، والذي ترتب عليه أن أسرعت مصر إلي إرسال جزء من قواتها إلي

الأراضي السورية،وا علانها التصميم علي الوقوف إلي جانب سورية في حالة وقوع الهجوم عليها.

٢- نشاط الأحزاب اليسارية في سورية ذاتها، وارتباطها العضوي بأكثر من جهة خارجية.

٣- المنازعات الداخلية بين قادة سورية، سواء بين العسكريين أنفسهم، أو بينهم وبين الزعماء السياسيين وعدم مقدرة شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية علي صد هذه التيارات.



الهوامش

[١] تكتب سورية بالتاء المربوطة، وثمة تعميم فيهذا الشأن من رئاسة الوزراء السوري، وبموافقة مجمع اللغة العربية بدمشق، وذلك في بداية الخمسينيات من القرن العشرين.

[٢] خليل إبراهيم الناصري: التطورات المعاصرة في العلاقات العربية - التركية مطبعة الراية، بغداد، سنة ١٩٩٠م. ص ٩٨.

[٣] Ismail Social: Turkish Arab Diplomatic relations after the Second World War. Studies on Turkish Arab Relations, Ankara 1986, p.223.

[٤] ولد حسني الزعيم في مدينة حلب سنة ١٨٨٩م، من عائلة تعود في أصولها إلي الأكراد، ويعد حسني الزعيم من جيل الضباط العرب الذين خدموا في الجيش التركي، وعقب الحرب العالمية الأولي، تطوع في الجيش العربي تحت قيادة الملك فيصل، وأثناء الانتداب الفرنسي علي سورية التحق عام ١٩٢٠م بالقوات الخاصة التي شكلتها فرنسا آنذاك وتلقي علومه العسكرية في الكليات العسكرية الفرنسية. وفي عام ١٩٤١م كان قد أصبح برتبة مقدم، وأثناء أحداث الحرب العالمية الثانية، اشترك في تلك الحرب إلي جانب قوات الفرنسيين الأحرار التي غزت سورية، التي كانت آنذاك تحت حكومة فيشي التي أسسها الألمان النازيون في فرنسا.وعقب استسلام قوات فيشي، رفض تسليم نفسه وقبض عليه بعد ذلك وقدم للمحاكمة، وحكم عليه بالسجن لمدة عشرة سنوات، ثم أفرج عنه في نهاية هذه الحرب، بشرط أن يقيم في لبنان، وعندما سمح له بالعودة إلي سورية سنة ١٩٤٦م، تقدم بطلب للسلطات السورية للالتحاق بالجيش السوري، إلا إن طلبه قوبل بالرفض، فلم يجد أمامه إلا أن يرفع قضية أمام مجلس الدولة، الذي أصدر حكما لصالحه، وعلي هذا الأساس دخل الجيش علي غير رغبة الحكومة القائمة. وفي سنة ١٩٤٨م تقلد منصب المدير العام للشرطة والأمن العام. وبعد فترة قصيرة أصبح رئيسا لأركان الجيش السوري. وفي أثناء معركة فلسطين توليالقيادة العامة للجيش السوري، وبقي في هذا المنصب حتيقيامه بأول انقلاب عسكري فيسورية ضد الرئيس شكري القوتلي في ٣٠ مارس سنة ١٩٤٩م. ودبر حسني الزعيم ذلك الانقلاب بالاتفاق مع ضباط الجيش، ولذلك تم دون إراقة دماء. وفور نجاح انقلابه قام الزعيم بحل البرلمان وجميع الأحزاب القائمة حينئذ وأسس أول ديكتاتورية في سورية. وكان حسني الزعيم شديد الاعتداد بنفسه، وكان يصرح بأنه زعيم مضروب في ثلاثة زعيم بكنيته وزعيم برتبته وزعيم للسوريين، ولكنه كان مترددا وكان يحمل من صفات رجال النظام أكثر مما يحمل من صفات رجال السياسة، وقام بعدة إصلاحات منها إعطاء النساء حق الانتخاب، وأطيح به انقلاب قاده ساميالحناوي في الرابع عشر من أغسطس في نفس العام وحكم عليه بالإعدام ونفذ فيه الحكم علي الفور. صلاح العقاد: المشرق العربي المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية سنة١٩٨٣ م، ص٦٩،جلال يحيي: العالم العربي الحديث منذ الحرب العالمية الثانية، دار المعارف، سنة ١٩٨٥م، ص ٦٤٨ - ٦٤٩، خالد محمد عابد الضمور: العسكريون والحكم في سورية من سنة ١٩٤٩-١٩٥٨م رسالة ماجستير غير منشورة، نوقشت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، سنة ١٩٨١م، ص ٧٤، بشير العوف :الانقلاب السوري مكتبة حسين النوري، دمشق، سنة ١٩٤٩م، ص ١-٢ كذلك: مايلزكوبلاند : حياة مايلز كوبلاند الضابط في المخابرات المركزية ودوره فيمصر وسورية ولبنان وا يران، ترجمة صادق عبده علي الركابي، مكتبة مدبولي، سنة ٢٠٠٧م ، طبعة أولي، ص١٤٣.

(٥) شكري القوتلي: ولد في دمشق عام ١٨٩١م، تعلم في مدارس أستنبول، ثم التحق بالمكتب الملكي، ودرس العلوم السياسية والإدارية. التقي بالملك فيصل في دمشق عام ١٩١٥م، وتوطدت بينهما أواصر الصداقة. انتسب إلي الجمعية العربية الفتاة وسعي مع أعضائها إلي العمل للحصول علي الاستقلال. أعتقل مرتين، وفي المرة الثانية حاول الانتحار بقطع شريانه بنفسه، وظل في السجن حتي أفرج عنه بعد نجاح الثورة العربية. وقف ضد الاحتلال الفرنسي وشارك فيالثورة السورية الكبري عام ١٩٢٥م. وفي عام ١٩٢٦م انتخب نائبا عن دمشق للمرة الأولي، وظل عليإصر اره في مناهضة الفرنسيين فصدر الحكم عليه بالإعدام، فالتجأ إلي مصر، وبقي فيها حتي عام ١٩٣١م حيث صدر العفو عنه وعاد إلي دمشق. اشترك في الحياة السياسية مع الكتلة الوطنية وانتخب نائبا عن دمشق للمرة الثانية عام ١٩٣٦م، وظل ينادي باستقلال ووحدة الأراضي السورية، وهي نفس الأهداف التي رفعتها الحركة الوطنية السورية. وبعد وفاة الرئيس تاج الدين الحسني جرت انتخابات عامة للمجلس النيابي ففازت قائمته بالإجماع، وانتخب رئيسا للجمهورية، في السابع والعشرين من أغسطس عام ١٩٤٣م. وفي عهد رئاسته حصلت سورية علي استقلالها بتاريخ السابع عشر من إبريل عام ١٩٤٦م، وتم جلاء الفرنسيين عن البلاد، وتم في عهده تعديل الدستور، لتجدد رئاسته بتاريخ السابع عشر من أغسطس عام ١٩٤٨م وفي عام ١٩٤٩م أنقلب عليه حسني الزعيم وأجبره علي الاستقالة، ثم اعتقله ثم أفرج عنه، وبعدها سافر إلي مصر وبقي بها حتي عام ١٩٥٥م، وسعي خلال وجوده في القاهرة، إلي توطيد العلاقة مع جمال عبد الناصر. وبعد انتخابات عام ١٩٥٥م انتخبه المجلس النيابي رئيسا للجمهورية في السادس من سبتمبر سنة ١٩٥٥م. لقب بعد تنازله طوعا عن الرئاسة في عهد الوحدة المصرية - السورية(بالمواطن العربي الأول) توفي في بيروت عام ١٩٦٨م، ودفن في دمشق مسقط رأسه. أنظر: سليمان عبد النبي: السياسة السورية العربية من عام ١٩٥٨-١٩٧٠م دراسة تحليلية للسياسة العربية السورية رسالة ماجستير، غير منشورة، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة دمشق سنة ٢٠٠٦م، ص١٣-١٤.

(٦) عدنان مندريس: ولد في مدينة إيدن التركية في عام ١٨٩٩م، من أسرة ثرية، وكانت من كبار ملاك الأراضي، نال شهادة الحقوق من مدرسة الحقوق في أنقرة، كما درس في إحدي الجامعات الأمريكية، شارك في المعارضة السياسية، ومارس العمل السياسي وهو في الحادية والثلاثين من العمر، انضم إلي حزب الشعب الجمهوري، انتخب نائبا عن مقاطعة إيدن، وبقي فيصفوف حزب الشعب الجمهوري حتي عام ١٩٤٥م، حيث طرد منه، ليؤسس الحزب الديمقراطي في العام التالي " عام ١٩٤٦م"، وقد كان مندريس يتمتع بشخصية قوية، وقد فهم فلسفة الشعب التركي ولاسيما الفلاح التركي، وكان يمتلك خصائص قيادية، استعان به جلال بايار - الذي أصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية التركية - لمساعدته في مجال المعارضة فأصبح مندريس رئيسا للوزراء بعد فوز الحزب الديمقراطي بالأغلبية في انتخابات عام ١٩٥٠م وذلك في ظل رئاسة جلال بايار لرئاسة البلاد. حكم عليه بالإعدام بعد انقلاب ٢٧ مايو سنة ١٩٦٠م. نفذ فيه الحكم عام ١٩٦١م. لمزيد من التفاصيل أنظر :

Bernard Lewis: The Emergence of modern turkey oxford univpress (London 1966l)p.139.

[٧]) مصطفي بلاوني: التحولات السياسية في سورية بين تحقيق الاستقلال الوطني ١٩٤٦م وقيام الوحدة ١٩٥٨م رسالة دكتوراه غير منشورة، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، سنة ١٩٩٤م، ص ١٧١.

[٨]) لمزيد ممن التفاصيل عن الحلف التركي – العراقي وأهم نصوصه أنظر : عبد الحميد عبد الجليل أحمد شلبي : العلاقات السياسية بين مصر والعراق، ١٩٥١ – ١٩٦٣م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، سنة ٢٠٠٠م، ص ٢١٩ وما بعدها.

[٩]) انضمت بريطانيا إلي الحلف التركي – العراقي في إبريل سنة ١٩٥٥م وباكستان في يونيو سنة ١٩٥٥م وإيران في نوفمبر سنة ١٩٥٥م، ليكون ما عرف باسم حلف بغداد.

[١٠]) خليلإبراهيم الناصري: المرجع السابق.ص٩٨

[١١]) Foreign Relations Of the United States1955-1957 Volume x111 Near East (Syria) United states Government Printing Office Washington 1988 p. 573

كذلك : هاشم عثمان: تاريخ سورية الحديث، رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولي، يناير سنة ٢٠١٢م. ص ٢٧٩-٢٨٠. مذكرات خالد العظم، ثلاثة أجزاء، الطبعة الثانية، الدار المتحدة للنشر، بيروت، سنة ١٩٨٣م، الجزء الثاني، ص ٢٨٢. ومما يجدر ذكره أن الولايات المتحدة الأمريكية علي الرغم من أنها كانت من أكثر الداعين إلي تكوين حلف بغداد، إلا أنها لم تنضم بصورة رسمية وعلنية لهذا لحلف، ويري البعض أن من ضمن أسباب ذلك هو معارضة مصر والسعودية لحلف بغداد، حيث لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية ترغب في إثارة عداء مصر أو السعودية، فلقد صادف توقيت إنشاء هذا الحلف، أقتراب موعد تجديد اتفاقية الظهران، التي منحت المملكة العربية السعودية بمقتضاها الولايات المتحدة الأمريكية، حق استغلال قاعدة الظهران، ذات الأهمية الإستراتيجية، ولذلك فلقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية، تخشي أن يؤدي انضمامها إلي حلف بغداد بصورة معلنة إلي استياء السعوديين. واكتفت الولايات المتحدة الأمريكية بالانضمام إلي بعض لجان الحلف عام ١٩٥٧م أي بعد عامين من قيام ذلك الحلف، وهي اللجنة العسكرية واللجنة الاقتصادية ولجنة مكافحة التخريب والنشاطات الهدامة. وعلي الرغم من أنها كانت بذلك تشارك عملا في نشاط ذلك الحلف، إلا أنه لم يكن عليها التزام قانوني بتقديم المساعدة العسكرية لبقية دول الحلف. ممدوح محمود مصطفي منصور: الصراع الأمريكي – السوفيتي في الشرق الأوسط، تصدير د. محمد طه بدوي، مكتبة مدبولي، سنة ١٩٩٥م ، ص ١٢٢-١٢٣.

[١٢]) مما يجدر ذكره أن عقد الخمسينيات من القرن العشرين قد شهد مسارا جديدا في العلاقات التركية – الأمريكية، أساسه الدخول في مرحلة التحالف الاستراتيجي، الذي تجلت بوادره في سعي تركيا للانضمام إلي حلف شمال الأطلنطي، وبالرغم من رفض هذا المسعى في بداية هذا الأمر من بعض دول الحلف؛ إلا إن الولايات المتحدة الأمريكية أخذت علي عاتقها مهمة تحقيقه ،عندما نشطت الدبلوماسية الأمريكية آنذاك في تأييد مسعي تركيا للانضمام لهذا الحلف في محاولة إقناع أعضائه الآخرين بأهمية تركيا في تأمين الجناح الجنوبي الشرقي للحلف، فوافقت رئاسة الأركان الأمريكية في مارس عام ١٩٥١م علي العضوية الكاملة لتركيا في الحلف خدمة للإستراتيجية الأمريكية. وفي ١٥ مايو سنة ١٩٥١م اقترحت الولايات المتحدة الأمريكية علي بريطانيا وفرنسا عضوية تركيا. وتم قبول عضوية تركيا في

مؤتمر أوتاوا بناء علي توصية مجلس الحلف في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٥١م واعتبارها عضوا كاملا. وتلا ذلك تنفيذ البروتوكول الخاص بانضمامها إلي الحلف في ١٨ فبراير سنة ١٩٥٢م لتمتد بذلك دفاعات الغرب حتي حدود إيران، ولتسد الفراغ في الجناح الشرقي لحوض البحر المتوسط ، الأمر الذي ساهم في تقوية المعسكر الغربي بشكل عام وسياسة الولايات المتحدة الأمريكية الرامية لاحتواء النفوذ الشيوعي بشكل خاص. للمزيد انظر: مثني فائق مرعي العبيدي: العلاقات الأمريكية - التركية بعد أحداث ١١ أيلول سنة ٢٠٠١م وأثرها علي القضايا العربية، رسالة دكتوراه غير منشورة، نوقشت بمعهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، سنة ٢٠١٢م، ص ١٠٥- ١٠٦.

[١٣] ج. ب. ديروزيل: التاريخ الدبلوماسي في القرن العشرين، الجزء الثاني(١٩٤٥-١٩٧٨) ترجمة خضر خضر، الطبعة الأولي، لبنان، طرابلس، دار المنصور، سنة ١٩٨٥م، ص ٤٤.

[١٤] باتريك سيل: الصراع علي سورية، دراسة للسياسة العربية، بعد الحرب ١٩٤٥- ١٩٥٨م ترجمة سمير عبده، ومحمود فلاحة، دار طلاس للنشر، بدون تاريخ. ص٥٢٣، ٥٤٩.

[١٥] محمود حسن صالح المنسي: الشرق العربي المعاصر، القسم الأول، الهلال الخصيب، سنة ١٩٩٥م، ص ٢٤٣، باتريك سيل: المرجع السابق، ص ٥٢٦.

[١٦] هاشم عثمان :المرجع السابق، ص ٢٨٠، مذكرات خالد العظم: الجزء الثاني، المرجع سابق، ص ٣٨٩.

[١٧] باتريك سيل: المرجع السابق ص ٥٤٩.

[١٨] هاشم عثمان: المرجع السابق، ص٢٨١، مذكرات خالد العظم: الجزء الثاني، المرجع السابق، ص ٢٨٩.

[١٩] جريدة الشاطئ: العدد:٤٥٦ بتاريخ ٢٦ مارس سنة ١٩٥٥. باتريك سيل، المرجع السابق ص٥٤٩، إيهاب مجيد صالح: السياسة التركية تجاه مصر١٩٤٥- ١٩٦٣م، رسالة ماجستير غير منشورة، نوقشت بمعهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة، سنة ٢٠١٠م ص ٧٠.

[٢٠] باتريك سيل: المرجع السابق، ص٥٤٩-٥٥٠.

[٢١] مايلز كوبلاند : لعبة الأمم، ترجمة إبراهيم جزيني، بيروت، مايو سنة ١٩٧٠م.ص ١٣٤.

[٢٢] إسماعيل صبري مقلد: الصراعات العربية-العربية ١٩٤٥-١٩٨١م دراسة استطلاعية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت سنة ١٩٨٨م، ص٢٢-٢٤.

[٢٣] وثائق الخارجية المصرية : محفظة(٦٩٨) ملف ٢٠٣/٧/ ١ ج٨(التقارير السياسية للسفارة المصرية بواشنطن) تقرير "١٠٠" من السفير المصري بواشنطن(أحمد حسين) إلي وكيل وزارة الخارجية، بشأن حديث السيد علي كامل فهمي مستشار السفارة مع السفير السوفيتي والوزير المفوض بالسفارة الإيرانية(سري) بتاريخ ١٩/٤/١٩٥٥م.

[٢٤] وثائق وزارة الخارجية المصرية: محفظة ١١٩٥، ملف ٧٥٨/٨١/٢/سري، من السفارة المصرية في واشنطن إلي الخارجية المصرية، بشأن الحلف الثلاثي ومقدمة الاتحاد المصري -السوري.

[٢٥] الفراغ من وجهة النظر الأمريكية، يعني بقاء منطقة الشرق الأوسط بدون سيطرة غربية، بعد جلاء القوات البريطانية والفرنسية عن معظم دوله، أي أن حصول أي دولة من دول الشرق الأوسط

علي استقلالها ينشئ فراغا في نظام الاستعمار الغربي، ولا يمكن ملؤه إلا بالقوات والمصالح الأمريكية؛ لأن الولايات المتحدة الأمريكية أرادت أن تبقي شعوب هذه المنطقة محكومة بقوي أجنبية موالية لها.
أنظر: فكرت نامق عبد الفتاح: سياسة العراق الخارجية في المنطقة العربية ١٩٥٣- ١٩٥٨م، الدار الوطنية للتوزيع والإعلان، بغداد ١٩٧٨م، ص٣٩١، جهاد مجيد محيي الدين: حلف بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة، نوقشت بكلية الآداب، جامعة عين شمس، سنة ١٩٧٠م، ص ٣٨.

[٢٦]) جاء في رسالة إيزنهاور إلي الكونجرس الأمريكي إن الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر المحافظة علي استقلال أمم الشرق الأوسط ووحدتها أمرا حيويا للمصلحة القومية والسلام العالمي، لهذه الغاية فالولايات المتحدة الأمريكية مصممة علي تقديم العون أو استخدام القوة المسلحة لمساعدة أية أمة أو مجموعة من الأمم، عندما تطلب العون ضد العدوان المسلح من جانب أي قطر خاضع للشيوعية الدولية.
أنظر: بيتر مانفولد: تدخل الدول العظمي في الشرق الأوسط ترجمة أديب شيش(دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر) طبعة أولي، دمشق سنة ١٩٨٥م ص٨٧، باتريك سيل: المرجع السابق، ص٦٧٨، مثنى فائق مرعي العبيدي: المرجع السابق، ص١٠٩، مايلز كوبلاند: لعبة الأمم، مرجع سابق، ص١٢٩.

[٢٧](John Marlowe : Arab Nationalism British Imperialism. Study in power Politics Frederick Praeger Publishers, N.Y. 1961, p.151.

[٢٨]) وثائق الخارجية المصرية: محفظة ١٥١٩، ملف ٣٠/١٢٣/١٣٩ سري " اجتماع برمودا بين إيزنهاور وماكميلان "، تقرير ١٩ سري من السفير المصري بدمشق إلي وكيل الخارجية سري جدا بتاريخ ٢٤/٤/١٩٥٧م.

[٢٩]) محمود حسن صالح المنسي: المرجع السابق، ص٢٤٥، باتريك سيل: ص٦٧٩.

[٣٠]) Foreign Relations of the United States1955-1957 Volume x111 op.Cit. p. 579.
كذلك : باتريك سيل: المرجع السابق، ص ٦٨٥.

[٣١]) عبد الحميد عبد الجليل أحمد شلبي : المرجع السابق، ص ٢٦٥.

[٣٢]) مما يجدر ذكره في هذا الشأن أن كل من المملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية قد أعلنتا بعد ذلك قبولهما لمبدأ إيزنهاور، إثر خلافاتهما مع جمال عبد الناصر وتخوفهما من اتساع نفوذه في المنطقة العربية.

[٣٣]) إسماعيل صبري مقلد : المرجع السابق، ص ١٤٨.

[٣٤]) أنظر النص الكامل للبيان الختامي الصادر عن ذلك المؤتمر، في الأهرام: العدد: ٢٥٧٠٤ في ٢٠ أبريل سنة ١٩٥٧م.

[٣٥]) صحيفة ظافر التركية، أنقرة في ٤ يناير سنة ١٩٥٧م.

[٣٦]) الأهرام: العدد: ٢٥٦٧٧في ٢٤مارس سنة ١٩٥٧م، ص ٤.

[٣٧]) أحمد نوري محمد النعيمي: السياسة الخارجية التركية بعد الحرب العالمية الثانية، رسالة ماجستير غير منشورة، نوقشت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، سنة ١٩٧٣م، ص٢٧٥.

[٣٨](Dawisha Karen: Soviet Foreign Policy towards Egypt(The Macmillan press Ltd., London, 1979) p.16-17.

(٣٩)أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق ص ٢٧٦، باتريك سيل: المرجع السابق، ص٦٩٠، روبنس فيليب: تركيا والشرق الأوسط، دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٣م، نقله إلى العربية ميخائيل نجم خوري، ص ٣٥-٣٦، وليد رضوان: العلاقات العربية - التركية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٩م، ص ١٢١.

(٤٠) الأهرام : العدد: ٢٥٨٣٤ في ٢ سبتمبر، سنة ١٩٥٧م ص ٤.

(٤١) Emil Lengyel: the changing Middle East , The John Day Go., N.Y.,1960,P.143.

(٤٢) F.O.371/128242-NO. 3298-from Ankara to F.O. of 17November.1957.

كذلك-:

Douglas Little: Cold War and Covert Action, the United States and Syria 1945-1958 in Middle East, 1990. P.71.

أيضا : بيتر مانفولد : المرجع السابق، ص ٢٦٧-٢٦٨.

(٤٣) Dawisha Karen: Op.Cit.P. 17.

(٤٤) ممدوح محمود مصطفي منصور: المرجع السابق،ص ٢٣٣، باتريك سيل: المرجع السابق، ص ٦٤٠.

(٤٥) رأفت غنيمي الشيخ : أمريكا والعالم، في التاريخ الحديث والمعاصر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٦م، ص ١٥٠.

(٤٦) كان يطلق عليها اسم الشعبة الثانية.

(٤٧) Dawisha Karen: Op.Cit.P.17.

(٤٨) أحمد عبد الكريم: أضواء على تجربة الوحدة - مطبعة الإنشاء - دمشق، سنة١٩٦٢م، ص٧٦.

(٤٩) ممدوح محمود مصطفي منصور: المرجع السابق، ص ٢٣٣، باتريك سيل: المرجع السابق ص ٦٩٠. كذلك: Cremeans,Charles :The Arab and The World ,Nasers,s Arab Nationalist policy Frederick Praeger publishers ,New York ,1936 , p.160.

(٥٠) الأهرام : العدد: ٢٥٨٣٦ في ٤ سبتمبرسنة ١٩٥٧ص ٢.

(٥١) Foreign Relations of the United States1955-1957 Volume x111 Op.Cit.P.582.

(٥٢) الأهرام : العدد : ٢٥٨٣٧ في ٥ سبتمبر سنة ١٩٥٧م ص ٤.

(٥٣) الأهرام : العدد : ٢٥٨٣٨ في ٦ سبتمبر سنة ١٩٥٧م ص ١.

(٥٤)أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق ص ٢٧٨.

(٥٥) باتريك سيل : المرجع السابق، ص ٧١٢ كذلك :

Fleming, D, The cold War and its origins 1917 -1960-(Garden City, New York, 1961) p. 889.

(٥٦) صحيفة النجم الأحمر :(موسكو) في ١٠ سبتمبر سنة ١٩٥٧م نقلا عن باتريك سيل: المرجع السابق، ص٧١٤-٧١٥، كذلك: وليد رضوان: المرجع السابق، ص١٢٥.

(٥٧) Dawisha Karen: Op.Cit.P.17

٥٨) صحيفة نيويورك تايمز: واشنطن، ١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٧م.
٥٩) باتريك سيل: المرجع السابق، ص٧١١، مثنى مني فائق مرعي العبيدي: المرجع السابق،
٦٠) محمود حسن صالح المنسي: المرجع السابق، ص٢٤٦. أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق، ص٢٧٩.
٦١) أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق، ص ٢٧٩.
٦٢) لم تكن القوة العسكرية بين سورية وتركيا متكافئة علي الإطلاق، إذ بينما كان الجيش السوري يتألف من خمسين ألف رجل، معظمهم لم يكتسب خبرة كافية، وكان وجودهم علي الحدود مع إسرائيل ضروريا، وفي يدهم معدات عسكرية حديثة لم يتم تدريبهم عليها بعد، ويساندهم شعب مكون من أربعة ملايين نسمة، كان الجيش التركي مكون من نصف مليون رجل مدربين تدريبا جيدا بأيدي ضباط أمريكيين لمدة عشر سنوات، ومسلحين بأحدث الأسلحة، ويشكلون القوة الميدانية الكبري في حلف شمال الأطلنطي، ويساندهم شعب مكون من حوالي ثلاثة وعشرين مليون نسمة. رأفت غنيمي الشيخ: المرجع السابق، ص ١٥٠.
٦٣) ممدوح محمود مصطفي منصور: المرجع السابق ص٢٣٧.
٦٤) مضابط مجلس النواب السوري: جلسة ١٩٥٧/١١/١٤ ص٢، مصطفي بلاوني: المرجع السابق، ص١٦٧. وتجدر الإشارة إلي أنه عقب وصول القوات المصرية لسورية، أعلن أكرم الحوراني رئيس مجلس النواب السوري، في اليوم التالي لوصول تلك القوات إلي سورية "١٤ أغسطس سنة ١٩٥٧م"، أمام المجلس عن ترحيبه بقدوم الجيش المصري إلي سورية. ثم قام وفد من مجلس الأمة المصري برئاسة أنور السادات بزيارة سورية، وعقد المجلس النيابي السوري جلسته في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٥٧م، حضرها الوفد المصري، وتقرر فيها إعلان رغبة الشعبين في سورية ومصر بإقامة اتحاد فيدرالي بينهما، ودعا حكومتي سورية ومصر للدخول فورا في مباحثات مشتركة بغية استكمال تنفيذ هذا الاتحاد. مصطفي بلاوني: المرجع السابق، ص١٦٧.
٦٥) أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق ص٢٨١.
٦٦) باتريك سيل: المرجع السابق، ص٧٢٥.
٦٧)أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق، ص٢٨١.
٦٨) أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق، ص٢٨٢.
٦٩) باتريك سيل: المرجع السابق، ص ٧٢٥.
٧٠) الدول السبع هي كندا -الدنمارك -اليابان -النرويج -باراغواي- بيرو- أسبانيا. باتريك سيل : المرجع السابق، ص٧٢٥.
٧١)أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق، ص٢٨٣.

٧٢) العلاقات العربية التركية من منظور عربي الجزء الأول، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، سنة ١٩٩١م إشراف محمد صفي الدين أبو العز، تنسيق جمال زكريا قاسم ويونان لبيب رزق، ص٢٧٥، ممدوح محمود مصطفي منصور: المرجع السابق، ص٢٣٧.
٧٣)أحمد نوري محمد النعيمي: المرجع السابق، ص٢٨٤.

المصـــادر والمراجـــع

أولا: وثائق غير منشورة : -

أ- وثائق عربية غير منشورة :-

- وثائق الخارجية المصرية :-

-محافظ الأرشيف السري " غير مصنفة " : -

١- وثائق الخارجية المصرية: محفظة(٦٩٨) ملف ٢٠٣/٧/ ١" ج٨(التقارير السياسية للسفارة المصرية بواشنطن) تقرير "١٠٠من السفير المصري بواشنطن(أحمد حسين) إلي وكيل وزارة الخارجية بشأن حديث السيد علي كامل فهمي مستشار السفارة مع السفير السوفيتي والوزير المفوض بالسفارة الإيرانية(سري) بتاريخ ١٩/٤/١٩٥٥م.

٢- وثائق وزارة الخارجية المصرية: محفظة١١٩٥، ملف ٢/٨١/٧٥٨/سري، من السفارة المصرية في واشنطن إلي الخارجية المصرية، بشأن الحلف الثلاثي ومقدمة الإتحاد المصري -السوري.

٣- وثائق الخارجية المصرية: محفظة "١٥٩١"، ملف "٣٠/١٢٣/١٣٩"سري" اجتماع برمودا بين إيزنهاور وماكميلان، "تقرير٩ اسري من السفير المصري بدمشق إلي وكيل الخارجية"سري جدا بتاريخ ٢٤/٤/١٩٥٧م.

٤- وثائق الخارجية المصرية: محفظة "٣٤١" ملف "١٣/٨١/٧٣٢" مقابلات السيد السفير في واشنطن، تقرير "١٠٣من السفير المصري بواشنطن(أحمد حسين) إليوكيل وزارة الخارجية، سري جدا، بتاريخ ١٣/٣/١٩٥٨م.

ب- وثائق أجنبية غير منشورة :

-وثائق وزارة الخارجية البريطانية Foreign Office وهي مطبوعات مودعة بدار الوثائق العامة Public Record Office وقد استعنا بمجموعة F.O.371 وهي كالتالي :-

1-F.O.371/128242-No. 3298-from Ankara to F.O. of 17November.1957.

- وثائق أمريكية:

1) Foreign Relations of the United States1955-1957 Volume x111 near East(Syria) United States Government Printing Office Washington 1988.

ثانيا: - وثائق عربية منشورة :

١ -مضابط مجلس النواب السوري : جلسة ١٤/١١/١٩٥٧.

ثالثا: - مذكرات شخصية :

١- مذكرات خالد العظم ، ثلاثة أجزاء، الطبعة الثانية، الدار المتحدة للنشر، بيروت، الجزء الثاني، سنة ١٩٨٣م.

رابعا: -المراجع العربية :

١- أحمد عبد الكريم: أضواء علي تجربة الوحدة - مطبعة الإنشاء - دمشق، سنة ١٩٦٢م.

٢- اسماعيل صبري مقلد: الصراعات العربية - العربية ١٩٤٥-١٩٨١م دراسة استطلاعية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، سنة١٩٨٨م.

٣- العلاقات العربية -التركية من منظور عربي، الجزء الأول، إشراف محمد صفي الدين أبو العز، تنسيق جمال زكريا قاسم ويونان لبيب رزق، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، سنة ١٩٩١م
٤- بشير العوف:الانقلاب السوري مكتبة حسين النوري، دمشق، سنة ١٩٤٩م.
٥- جلال يحيي: العالم العربي الحديث منذ الحرب العالمية الثانية، دار المعارف سنة ١٩٨٥م.
٦-خليل إبراهيم الناصري :التطورات المعاصرة في العلاقات العربية - التركية مطبعة الراية، بغداد، سنة ١٩٩٠م.
٧- رأفت غنيمي الشيخ: أمريكا والعالم، في التاريخ الحديث والمعاصر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٦م.
٨ - صلاح العقاد: المشرق العربي المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية سنة١٩٨٣م.
٩ - عبد الحميد عبد الجليل أحمد شلبي: العلاقات السياسية بين مصر والعراق، ١٩٥١- ١٩٦٣م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، سنة ٢٠٠٠م.
١٠- فكرت نامق عبد الفتاح: سياسة العراق الخارجية في المنطقة العربية١٩٥٣- ١٩٥٨م، الدار الوطنية للتوزيع والإعلان، بغداد ١٩٧٨م.
١١- محمود حسن صالح المنسي: الشرق العربي المعاصر، القسم الأول، الهلال الخصيب، سنة ١٩٩٥م.
١٢- ممدوح محمود مصطفي منصور: الصراع الأمريكي - السوفيتي في الشرق الأوسط تصدير د. محمد طه بدوي، مكتبة مدبولي، سنة ١٩٩٥م.
١٣- هاشم عثمان: تاريخ سورية الحديث، رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولي، يناير سنة ٢٠١٢م.
١٤- وليد رضوان: العلاقات العربية - التركية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الأولي، سنة ٢٠٠٩م.

خامسا: الرسائل الجامعية

١-أحمد نوري محمد النعيمي: السياسة الخارجية التركية بعد الحرب العالمية الثانية، رسالة ماجستير، غير منشورة، نوقشت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، سنة ١٩٧٣م.
٢ - إيهاب مجيد صالح: السياسة التركية تجاه مصر ١٩٤٥-١٩٦٣م، رسالة ماجستير غير منشورة، نوقشت بمعهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية، جامعة الدول العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة، سنة ٢٠١٠م.
٣- جهاد مجيد محيي الدين: حلف بغداد، رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية الآداب، جامعة عين شمس، سنة ١٩٧٠م.
٤- خالد محمد عابد الضمور: العسكريون والحكم في سورية من سنة ١٩٤٩-١٩٥٨م رسالة ماجستير غير منشورة نوقشت بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة، سنة ١٩٨١م.
٥ - سليمان عبد النبي: السياسة السورية العربية من عام ١٩٥٨-١٩٧٠م دراسة تحليلية للسياسة العربية السورية، رسالة ماجستير، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة دمشق، سنة ٢٠٠٦م.

٦- مثني فائق مرعي العبيدي: العلاقات الأمريكية- التركية بعد أحداث ١١ أيلول سنة ٢٠٠١م وأثرها علي القضايا العربية، رسالة دكتوراة، نوقشت بمعهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية، جامعة الدول العربية،المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة، سنة ٢٠١٢م.
٧- مصطفي بلاوني: التحولات السياسية في سورية بين تحقيق الاستقلال الوطني ١٩٤٦م وقيام الوحدة ١٩٥٨م رسالة دكتوراه، غير منشورة، نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، سنة ١٩٩٤م.

سادسا : المراجع الأجنبية المترجمة :

١- باتريك سيل : الصراع علي سورية دراسة للسياسة العربية، بعد الحرب ١٩٤٥- ١٩٥٨م ترجمة سمير عبده،ومحمود فلاحة، دار طلاس للنشر، طبعة أولي، دمشق، سنة ١٩٨٥م.
٢- بيتر مانفولد: تدخل الدول العظمي في الشرق الأوسط، ترجمة أديب شيش(دار طلاس للدر اسات والترجمة والنشر) طبعة أولي، دمشق، سنة١٩٨٥م.
٣- ج. ب. ديروزيل: التاريخ الدبلوماسي في القرن العشرين، الجزء الثاني(١٩٤٥-١٩٧٨) ترجمة خضر خضر، لبنان، طرابلس، دار المنصور، الطبعة الأولي، سنة ١٩٨٥م.
٤- مايلز كوبلاند: لعبة الأمم، ترجمة إبراهيم جزيني، بيروت، مايو، سنة ١٩٧٠م.
٥- مايلزكوبلاند: حياة مايلز كوبلاند الضابط في المخابرات المركزية ودوره في مصر وسورية ولبنان وإيران، ترجمة صادق عبده علي الركابي، الطبعة الأولي، مكتبة مدبولي، سنة ٢٠٠٧م.

سابعا :- المراجع الأجنبية غير المترجمة

1) Bernard Lewis: The Emergence of modern turkey oxford univpress(London 1966l).
2) Cremeans,Charles :The Arab and The World ,Nasers,s Arab Nationalist policy Frederick P raeger publishers ,new York ,1936.
3(Dawisha Karen: Soviet Foreign Policy towards Egypt(The Macmillan press Ltd., London, 1979).
4) Douglas Little: Cold War and Covert Action, the United States and Syria 1945-1958 in Middle East, 1990.
5) Emil Lengyel: the changing Middle East, The John Day Go., N.Y., 1960.
6) Fleming, D.: The cold War and its origins 1917 -1960-(Garden City, New York, 1961).
7) Ismail Social: Turkish Arab Diplomatic relations after the Second World War: Studies on Turkish Arab Relations, Ankara, 1986.
8(John Marlowe : Arab Nationalism British Imperialism. Study in power Politics Frederick Praeger Publishers, N.Y. 1961.

ثامنا: - الصحف :

١- جريدة الشاطئ: العدد ٤٥٦ بتاريخ ٢٦ مارس سنة ١٩٥٥م.
٢- صحيفة ظافر التركية، أنقرة في ٤ يناير سنة ١٩٥٧م.
٣- الأهرام: العدد: ٢٥٦٧٧ في ٢٤مارس سنة ١٩٥٧م.
٤- الأهرام: العدد: ٢٥٧٠٤ في ٢٠ أبريل سنة ١٩٥٧م.
٥- الأهرام: العدد: ٢٥٨٣٤ في ٢ سبتمبر، سنة ١٩٥٧م .
٦- الأهرام: العدد: ٢٥٨٣٦ في ٤ سبتمبر سنة ١٩٥٧م.
٧- الأهرام: العدد: ٢٥٨٣٧في ٥ سبتمبر سنة ١٩٥٧م.
٨- الأهرام: العدد: ٢٥٨٣٨ في ٦ سبتمبر سنة ١٩٥٧م.
٩- الأهرام: العدد: ٢٥٨٣٩ في ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٧م.
١٠- صحيفة النجم الأحمر:(موسكو) في ١٠ سبتمبر سنة ١٩٥٧م.
١١- صحيفة نيويورك تايمز: واشنطن، في ١٥سبتمبر، سنة ١٩٥٧م.

